

د. أحمد السيد الصاوي

مجاعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج

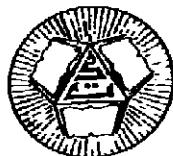
دار النضام
الطباعة والنشر والتوزيع
١٩٨٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٨

دار النضامن
لطبعاً ونشر وتأريخ
من ١٢٨٤ / ٣٧
مسيروت - لندن



تقديم

الأستاذ الدكتور حسن البasha

رئيس قسم الآثار الإسلامية
ووكليل كلية الآثار - جامعة القاهرة (سابقاً)

إن مصر قد جبها الله بخير عظيم يتمثل في نيلٍ سيعاليه يردد بها والمناخ المعتدل ، وموقع بعيد عن كوارث الطبيعة ويتوسط القارات الثلاث أفريقيا وأسيا وأوروبا ، مما أضفى على قاطنيها روحًا متحفزاً للعمل والتقدم والإبداع وعقلًا متحضرًا وجسمًا سليماً .

ومع ذلك فقد تعرضت في تاريخها لمجاعات صحبتها أوبئة ونوبات في جميع الأحوال تقريباً إلى النيل الذي قلل ماؤه أحياناً أو فاض أحياناً أخرى فقضى في الحالتين على الزرع وأهلك الصبر .

ولقد تناول الأستاذ أحمد السيد الصاوي دراسة المجتمعات التي اجتاحت مصر في خلال عصر كانت فيه حاضرة خلافة مزدهرة امتد سلطانها إلى الشام والحجاج وشمال أفريقيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، هو عصر الخلافة الفاطمية ، وقد تعمق الباحث في دراسة العوامل التي أدت إلى هذه المجتمعات والأوبئة والأضرار التي صحبتها . وناقش الآراء التي قيلت بتصددها ثم تطرق إلى ما كان لها من أثر على التواهي المالية والحضارية زمن الفاطميين معتمداً في ذلك بصفة أساسية على الآثار المادية التي تختلفت في زمن المجتمعات باعتبارها دليلاً قائماً لا يتطرق الشك إلى شهادته بأي حال من الأحوال .

وأشهد أن الباحث قد تناول موضوعه باقتدار يدل على النظرة الفاحصة والحكم الصائب ، وتحري الأسباب الحقيقة سواء أكانت مباشرة أو غير مباشرة ، والتوصيل إلى النتائج القريبة والبعيدة .

وعلى الرغم مما يحمله العنوان من مضمون مبسط أو إحساس بالتشاؤم فإن مثل هذه الموضوعات إذا درست بهذا الأسلوب العلمي المتأني البعيد عن العبرالية والتجريح فإنها تفيد الحاضر والمستقبل ، لا سيما إذا اتضحت أن عوامل المجتمعات كانت ترجع إلى جهل الفكر وسوء التدبير أكثر منها إلى كوارث الطبيعة أو نقص ماء النيل .

ومن الملاحظ أن بعض المجتمعات نتجت عن إشاعات مغرضة لا أساس لها من الصحة وبعضاها كان بسبب جشع البعض وجهالة البعض الآخر.

وكان في الإمكان تفادى بعض أخطار هذه المجتمعات عن طريق الإدارة الحازمة والتوعية المنظمة والإجراءات الصارمة . في حين أن البعض الآخر استفحلا خطره نتيجة التقصير الفوضى والخيانة والجشع .

ومما يسترعي الانتباه في هذا البحث الشيق أن بعض الإجراءات الحازمة التي اتخذتها بعض السلطات السواعية في العصر الفاطمي والتي كان من نتائجها تفادى هذه المجتمعات أو حصر أضرارها في أضيق الحدود لا تزال تتحذ في الدول المتحضره في العصر الحاضر .

من ذلك مثلاً أن بعض الحكماء لجأوا إلى تسعير المواد الأساسية كالقمح والشعير واللحم ومنع ذبح السليم من البهائم ومنع الاحتكار والوسطاء بين الفلاح والمخابز ومنع التخزين حتى في البيوت والشدة على موظفي الدواوين ومنع ظاهر الترف عامه وخاصة . وقد وصلت بعض هذه الإجراءات إلىأخذ المخالفين بعقوبات وصلت إلى حد الإعدام ومصادرة الأموال وقطع الأيدي والألسنة والتشهير .

وقد اتضح من البحث أن العجز عن تفادي المجتمعات قد أدى إلى إضعاف سلطة الخلافة الفاطمية عامه ومهد الطريق لظهور مغامرين من الوزراء تحكموا في السلطة وسيطروا على مقاليد الأمور .

كما أن المجتمعات قد عاصرها بصفة عامه انكماش حدود الخلافة الفاطمية وضياع هيبتها . ومن الغريب أن الحكم بأمر الله قد راعاه ما كان يعرض للنيل من انخفاض في فترة طويلة من العام وعلى العكس ما كان يلقى به في البحر ويغمر به الأرض في فترة أخرى هي فترة الفيضان فرغبة أن يخزن بعض ماء الفيضان خلف سد عند أسوان لاستغلاله زمن «التحاريق» واستدعاى فعلاً عالماً في شؤون الرياضيات والهندسة هو ابن الهيثم وذهب هذا العالم إلى أسوان غير أن همه فترت به عن هذا العمل .

ونظراً إلى تخصص الباحث في الآثار الإسلامية فقد أضاف على البحث روحًا جديدة بالاستشهاد بالآثار المادية الفاطمية زمان المجتمعات وعقبها مقارناً بينها وبين تلك التي أنتجت في عصور الرخاء وقد تناول في ذلك شتى أنواع الآثار والفنون من عمارة وخزف ونسيج .

واستدل بما وصلنا من عمليات نقدية من ذهب وفضة ترجع إلى ذلك العصر واستطاع أن يتبع في ضوئها وبما ورد عن التجارة والاقتصاد في المصادر والمراجع كيف

أخذت الفضة تنافس الذهب الذي اكتنر أثناء المجاعات حتى استأثرت وحدها دونه باعتبارها المعدن الرئيسي في العصر الفاطمي .

والحق أن هذا الكتاب بما اشتمل عليه من آراء قيمة وتحليلات سليمة واستنتاجات طيبة يسد فراغاً في حقل الدراسات التاريخية والاجتماعية والأثرية ليس فقط في المكتبة العربية ولكن أيضاً في المكتبة العالمية وأرجو للأستاذ أحمد الصاوي كل التوفيق .

والله المستعان

أ. د. حسن الباشا

تمهيد

ارتبط تاريخ مصر منذ فجر التاريخ بنهر النيل الذي لعب دوراً رئيسياً في تحديد قسمات أول حكومة مركبة في العالم ، ولم يتوقف النيل عن ممارسة دوره الفاعل خلال العصر الإسلامي ، ذلك أن مصر كانت بلداً زراعياً ، تتوقف فيه كل مظاهر الحياة على طبيعة النهر الفيضية الموسمية . وكان التغير في مستوى الفيضان سواء بالنقص أو الإرتفاع الجامع يعيد إلى ذاكرة المسلمين قصة السبع سنوات العجاف التي وردت في سورة يوسف .

ونظراً لأهمية هذا النهر ، فإن كتابات المؤرخين والجغرافيين التي أشارت إلى مصر من قرب أو بعيد لم تخل من ذكر النيل وفيضانه ومنابعه ، وقد جمع د . محمد حمدي المناوي كتابات العصر الإسلامي عن النيل في كتابه «نهر النيل في المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٦» ، أما كتابات المحدثين فأهمها كتاب «نهر النيل» للمحمد عوض الذي نشر بالقاهرة عام ١٩٥٦ ومؤلفات د . جمال حمدان التي أجملها في مؤلفه الضخم «شخصية مصر» الذي صدر في جزئين ١٩٨٠ - ١٩٨١ .

وقد حظيت المجتمعات والأوبيثة التي حدثت في العصر الإسلامي باهتمام المؤرخين المسلمين حتى أن المقرizi أفرد «رسالة» لهذه المجتمعات أسماءها «إغاثة الأمة بكشف الغمة» ، لفت فيها الأنظار إلى وفاة النيل في بعض هذه المجتمعات .

وكان نصيب العصر الفاطمي هو الأولي من هذه المجتمعات ، التي أفرد لها الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد فصلاً خاصاً في كتابه «ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر» (الإسكندرية ١٩٦٨) وقد درجت المؤلفات التي تعرضت بالبحث لتاريخ الدولة الفاطمية في مصر على التمييز بين فترتين مختلفتين في تاريخ هذه الدولة تفصل بينهما أحداث المجاعة التي استمرت سبع سنوات في عهد الخليفة المستنصر بالله من عام ٤٥٧ هـ - ٤٦٤ هـ ، عرفت أولهما بعصر الخلفاء الأقرياء . والثانية بعصر الوزراء العظام الذي تناوله بتفصيل كبير كتاب د . محمد حمدي المناوي «الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي» القاهرة ١٩٧٠ م . ولفت النظر إلى تغير وظائف الوزراء وألقابهم بعد

هذه المجموعة ، ما أورده الأستاذ الدكتور / حسن الباشا في مؤلفه «الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والأثار» القاهرة ١٩٧٨ ، «والقانون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية» ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .

ولما كانت الآثار ، وهي علم من علوم التاريخ ، هي السجل المادي الباقى لحوادث التاريخ فقد رأيت أن أدرس أثر هذه المجموعات التي تكررت في العصر الفاطمي بشكل خاص ، على الإنتاج الفنى لهذا العصر من خلال علاقة هذا الإنتاج بالتغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نجمت عن المجموعات .

وقد استرعى إنتباهي ما نشره هربرت ليتي عن إمكانات استخدام الإحصاء في إعطاء تعبير كمى عن حوادث التاريخ (التاريخ والإحصاء الاقتصادي - مجلة فكر وفن العدد ٢٠ ص ٢٠) فسعيت إلى استغلال الأرقام الواردة في مصادر هذا البحث ومراجعتها وتسخيرها في سبيل ذلك .

ولم يخل الطريق إلى ذلك البحث من مصاعب ومخاطر ، جاءت من قلة المصادر التاريخية الأصلية المعاصرة لحوادث هذه المجموعات ، وميل عدد من المؤرخين إلى إيراز الخلافة الفاطمية في صورة مشوهه شديدة السواد . إضافة إلى المبالغات التي ملأت هذه المصادر بشأن أسعار السلع وحوادث أكل الميتات ولحوم البشر .

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وملحق وكتالوج . تناولت في المقدمة أهمية نهر النيل وأشارت بإيجاز إلى تاريخ المجموعات في العصر الإسلامي قبل العصر الفاطمي .

وافتصرت في الفصل الأول على دراسة تطور منسوب الفيضان وعلاقته بالمجموعات والأسباب التي وقفت خلف المجموعات العدبلة التي وقعت في العصر الفاطمي ، وفي طليعتها العوامل السياسية والإحتكار التجاري .

وحوى الفصل الثاني دراسة تفصيلية للنتائج السياسية والاجتماعية التي ترتب على أحداث هذه المجموعات . والتي من أهمها تزايد نفوذ الوزراء والعسكريين على حساب سلطات الخلفاء ، وإنهايار سيطرة الخلافة على أملاكها خارج مصر ، وأضمحلال مركز الزراعة بالنسبة لمجمل الاقتصاد المصري وتغير شكل الملكية الزراعية التي تركزت في أيدي العسكريين وأثر هذه المجموعات على التركيب الاجتماعي وحركة العمran في المجتمع المصري .

وشمل الفصل الثالث دراسة لأثر المجموعات على انخفاض إيرادات الدولة التي كانت تأتي من خراج الأرض ، والتي اضطررت بسيبها الدولة إلى زيادة الضرائب التجارية (المكوس) ، كما وأشارت إلى أثر العوامل السياسية على نفقات الدولة الفاطمية ، واختتمت هذا الفصل بدراسة أسعار السلع الغذائية وعلاقة هذه الأسعار بالرواتب والأجور ومستوى المعيشة في فترات المجموعات وأثر

المجاعات على المسكوكات الفاطمية وتحول مصر من التعامل على قاعدة المعدن الواحد (الذهب) إلى قاعدة المعدنين (الذهب والفضة) .

أما الفصل الرابع ، فقد خصصته لدراسة أثر نتائج المجاعات على حركة التشييد والبناء في العصر الفاطمي ، التي حمل لواءها الوزراء بعد الشدة العظمى وأثر ذلك على أحجام المباني ووظائفها ونطقوصها الأساسية . واختتمت هذا الفصل بدراسة أثر تغيير التركيب الاجتماعي وتطور القوة الشرائية للسكان وظهور الاتجاهات الترفية بعد الشدة المستنصرية على منتجات الفنانين التطبيقية ، وخاصة منتجات الخزف والقىخار والنسيج ، وبالتحديد نسيج الطراز الذي كان مرآة صادقة في كتاباته لتطور نفوذ الوزراء . وكذلك تعرضت بالدراسة لأثر المجاعات على منتجات البلاور الصخري والصناعات المعدنية والحلوي .

وأجملت في الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة .

أما الملحق ، فأولها ملحق عن تطور منسوب الفيضان كما أورده أمين سامي في كتاب تقويم النيل وأضفت إليه ما عثرت عليه بين ثنيا سطور المصادر التاريخية الأخرى ، والملحق الثاني ، يحتوي قوائم تفصيلية لأسعار السلع التي وردت في المصادر التاريخية وما يقابل أوزانها بالنظام المترى وهي التي اعتمدت عليها في الرسوم البيانية المتعلقة بهذه الأسعار أثناء المجاعات .

وضم الكتالوج وصفاً لقطع المسكوكات التي أصدرها الفاطميون في أوقات المجاعات أو بعدها مباشرة ، والمحفوظة بدار الكتب المصرية ، إضافة إلى ٢٥ صورة للوحات من الفنون التطبيقية التي ترجع إلى العصر الفاطمي .

المقدمة

لم يتعد المؤرخ الإغريقي هيرودوت الحقيرة كثيراً عندما أطلق مقولته الشهيرة «مصر هي النيل»، إذ لو لا هذا النهر الذي يشق البلاد طولياً لما عرف العالم الحضارة المصرية ، التي هي بالأصل وليدة البيئة الفيوضية للنيل .

بيد أن ذلك لا يعني أن نشأة الحضارة المصرية يقف خلفها النيل (الجغرافيا) إذ أنه من الواضح كما يقول أرنولد تويني - Arnold Toynbee إن بدء الحضارات لم يكن نتيجة البيئة الجغرافية أو حتى العوامل البيولوجية ، كي تعمل بمفردها ، ولا ريب أنه نتيجة نوع ما من التفاعل بينها جميعاً، وبعبارة أخرى: «ليس عامل نشأة الحضارة الذي نسعى للتعرف عليه شيئاً مفرداً ، لكنه متعدد وهو ليس وحدة ولكنه علاقة»^(١) فقد تفاعل العامل البشري بكل ما يمثله من جهد وتنظيم مع جغرافية النهر لتخرج هذه الحضارة إلى الوجود .

والواقع أن نهر النيل يسبق نشأة الحضارة المصرية بأمد طويل فقصته تبدأ في عصر «الميوسين» بتهير مصرى بحث ، أو توبي على الأكثر لم يكن له إتصال بالبحيرة إلا العطبرة في مرحلة متاخرة ، ونجح هذا النهر في أن يأسر الأنظمة النهرية الواقعة في جنوبه ليمتد إلى هضبة البحيرات منذ بداية عصر «البلاستوسين» ويأخذ تقريراً شكله الحالى^(٢) . وصادف اكتمال نظام النهر الإنتهاء التدريجي لعصر «البلاستوسين» والذي كانت مصر خلاله غزيرة الأمطار نسبياً^(٣) فزاد الجفاف المراعي المشرفة على وادي النيل ، وأصبح على سكان هذه العراضي ، الذين كانوا يعيشون على الصيد والتقطاط الثمار ، أن يختاروا أحد أمور ثلاثة ، وهي التحرك نحو الشمال أو الجنوب مع صيدهم متبعين المنطقة المناخية التي أقوها أو البقاء في موقعهم والحياة حياة تعسفة

(١) أرنولد تويني : محضر دراسة التاريخ - ترجمة فؤاد محمد شل - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٦٦ - ج ١ ص ١٠١ .

(٢) د. حمال حمдан شخصية مصر - حالم الكتب - القاهرة ١٩٨٠ ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) محمد عوض محمد . نهر النيل - مطبعة لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ط ٤ - ١٩٥٦ - ج ٢١ - ٢٢ .

مكتفين بما يصدونه من الحيوانات التي قد تقاوم الجفاف ، أو يستطيعون من غير أن يهجروا مواطنهم تحرير أنفسهم من سطوة البيئة باستئناس الحيوانات وفلاحة الأرض^(١) وهكذا اندفع سكان الصحراء الشرقية والغربية - الذين اختاروا ثالث الخيارات - نحو الوادي بوحي الجرأة أو اليأس منذ أواخر الدهر القديم الأعلى^(٢) ، واستطاعوا بجهد جماعي خارق ومنظم أن يحيلوا مستنقعات الغاب في الوادي والدلتا إلى أرض زراعية ، احتضنت أقدم حضارة في العالم .

إلا أن إرتباط النيل بالحياة في مصر لم يتوقف عند لحظة النشأة التاريخية للحضارة ، إذ أثار النيل مجموعة من المشاكل والتحديات كونت إستجابات السكان نحوها نمطاً خاصاً للحضارة المصرية ، لا زال لصيقاً بها لآخر ، وتعني به «المركزية الشديدة» فالنهر يجري من منابعه الإستوائية في هضبة الحبشه جنوباً ، متوجهاً نحو الشمال حتى يلقي بمائه في البحر المتوسط ، ويلتزم في جريانه هذا الإتجاه الشمالي باستمرار واطراد لا نظير لهما في أي نهر آخر في العالم^(٣) . ولذا أصبح في مكتبة القاطنين في جنوب الوادي حجب المياه عن سكان الشمال مما دفع الإنسان إلى تسليم مقاليد حياته إلى هيئه أو سلطة مركزية تشرف على توزيع مياه النهر بما يكفل زراعة الأراضي ، وضمان الحياة حتى مصب النهر ، بالإضافة إلى قيامها بتنظيم حفر الترع والقنوات وتطهيرها ، ومشروعات الصرف التي تحتاج لقوة عماله كبيرة جيدة التنظيم ، وبناء السدود التي تدرء أحطر الفيضانات العالية ، هذا فضلاً عن وظيفتها في حماية الموضع الجغرافي^(٤) من اعتداءات البدو ، الذين تجذبهم ثروة الوادي إلى الإغارة عليه من آن لآخر ، أي أن الطبيعة الفيوضية لنهر النيل هي التي فرضت وجود الدولة المركزية ، حيث أزكى إحساس المصريين المتصل بضرورة الإنصياع لحكم مركزي مستقر ، يشرف على الجهد وينسقه وينظم الإنفاق به ، طالما كان انخفاض فيضان النيل يؤدي إلى القحط الشديد ، وكذلك إرتفاع الفيضان يؤدي إلى إغراق القرى بالماء^(٥) أو على تعبر أحد الكتاب «فإن القنطرة التي تفصل بين الحياة الرغالة وبين الموت النربع لم تكن إلا قنطرة ضيقة...» ولم يكن في استطاعة أحد أن يظل ساهراً لحماية البلاد كلها ، اللهم إلا حكومة منظمة وهذا بدوره أحد الواجبات التي فرضتها هدية هذا النهر على المصريين^(٦) .

ومنذ نشأة الدولة المركزية في مصر القديمة ، أصبحت الحياة في وادي النيل إلى حد بعيد تفاعلاً خالقاً بين «الإدارة» (الإنسان) «والنهر» (الجغرافيا) ، فحينما تصاب الإدارة المركزية

(١) أربولد تويني . مختصر دراسة التاريخ ج ١ ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) د عبد العزير صالح . الشرق الأدنى القديم - الإنحلو المصرية . القاهرة ط ٢ - ١٩٧٣ ج ١ ص ٢٢ - ٢١ .

(٣) محمد عوض محمد : نهر النيل - ص ٢٤ .

(٤) يعني بالموضع الجغرافي site قيمة الموارد الداخلية للدولة من حيث الأرض والناس كما وكتبنا . انظر :

د. جمال حمدان : دراسات في العالم العربي - مكتبة الهيئة المصرية القاهرة ١٩٥٨ - ص ٦٧ .

(٥) د. سليمان أحمد حزين وآخرون . المحمل في التاريخ المصري . القاهرة ١٩٥١ ص ١٣ - ١٤ .

(٦) جون ويلسون . الحضارة المصرية - ترجمة د. أحمد فتحي القاهرة ١٩٥٥ - ص ٣٩ .

بالاضطراب تضعف سيطرة الإنسان على النهر ، وتقل المقدرة على تلافي أحطار الفيضانات المنخفضة والعالية ، وكذلك كانت حالة النهر الفيوضية تؤثر في السلطة المركزية دورها ، مما يعرض البلاد لغيرات عميقة على كافة المستويات الحياتية ، فالنهر والدولة المركزية إذن هما ضمان الحياة للمصريين .

ويتقادم الزمن وتطور قدرات الإنسان وتعقد الوظائف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للدولة ، أصبح بالإمكان تلافي العديد من تحديات البيئة الفيوضية وأخطارها سواء لتطور بناء الجسور ، وهندسة الري - إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير - أو لتقدم عمليات حزن الغلال ، واحتلت الدولة المركزية بذلك - وإن لم يكن دائماً - مكان الصدارة من حيث التأثير في تطور تاريخ مصر ، فالانتصارات الفنية والمعمارية الضخمة في الدولة القديمة مثلاً لم تكن لتتم لو لا وجود «إدارة قرية منظمة تنظيمياً دقيقاً» ^(١) .

وإذا كان سبب المجاعات في غالب الأحوال هو نقصان النيل فإن الدولة المركزية بتوالي العصور أصبحت تلعب دوراً بارزاً في الحد من أضرار المجاعة وتحجيمها أو على العكس تكون سبباً مباشراً في تفاقم الوضع وتجاوز تأثيره الطبيعية المعتادة إلى حد الكارثة كما سنلاحظ خلال هذا البحث، وفيضان نهر النيل الموسعي خلال فصل الصيف هو ولا شك أهم ملامح النهر المميزة ، وهو الذي أوجد لنا على الأقل جزءاً كبيراً من هذا الوطن ، فالغررين الذي يحمله في فيضاناته كان سلاحه القوي في صراعه الأبدى مع البحر والذي مكنته من أن يكسب لمصر رقعة كبيرة من الأرض هي الدلتا ، ومن الثابت أن ٨٢٪ من رصيد مياه النهر يأتي وقت الفيضان و١٨٪ فقط لوقت الت旱ائق ، وذلك يعني عملياً أن النيل ليس إلا الفيضان أو يكاد ، وينهض د. جمال حمدان إلى حد القول بأن مصر هي هبة الفيضان ، وأنه لو لا الفيضان لكانت مصر مجرد بلدة به نهر فضلي هزيل يولد ويموت كل سنة دون أن يضمن حتى الوصول إلى البحر دائماً ، إلى حد يعني أن النيل هو الآخر هبة الفيضان ^(٢) ، هذا كان عن الجغرافيا .

أما تاريخياً ، فإن أشهر حوادث انخفاض الفيضان ما جاء ذكره في القرآن الكريم من تفسير يوسف عليه السلام للحلم الذي رأه فرعون مصر حينما رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبعين سنبلاً خضر وأخر يابسات «قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فلتروه في سنبلة إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» ^(٣) . وتشير نصوص التوراة إلى أن سنتين فقط هذه أدت إلى جعل كل الأراضي ملكاً لفرعون مصر بناء على ما اتخذه يوسف عليه السلام من تدابير

(١) آلن حردنر . مصر الفراعنة - ترجمة د. سعيد ميخائيل إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٣ - ص ١٢١

(٢) د. جمال حمدان : شخصية مصر - ج ١ ص ١٦٥ .

(٣) سورة يوسف آيات ٤٧ - ٤٩ .

لمواجهة السنين العجاف «فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع إشتد عليهم فصارت الأرض لفرعون (سفر التكويرن - الإصلاح ٤٧ - عدد ٢٠) إلا أن د. أحمد عزت عبد الكرييم يرى أن ملكية الفرعون لاراضي مصر سابقة على عهد يوسف^(١).

وأقدم النصوص التاريخية التي تشير إلى قصة السنين السبع العجاف يرجع إلى عصر الأسرة الثالثة (القرن ٢٨ ق.م) وفيه يتحدث الملك زoser عن أن النيل قد تخلف في عصره سبع سنوات تباعاً فشحت الغلة وبخت الفاكهة وقل الطعام^(٢).

وقد نتج عن إنهيار الدولة المركزية في أعقاب نهاية حكم الأسرة السادسة وتفرق جهات الحكم خلال عصر الانتقال الأول الذي استمر حتى نهاية الأسرة العاشرة في أواسط القرن الحادي والعشرين ق.م ، أن انهارت مشاريع الري الكبيرة ، وانتشرت المجاعات . ويلاحظ على النصوص التي تعود إلى هذه الفترة كثرة تفاصير حكام الأقاليم - إن صدقأً أو ادعاء - بالعمل على علاج المشكلات المتعلقة بأهل الريف ، مثل توفر الأمن وسوار الأرض التي ينبغي أن تستصلح وبعد توزيعها وتطهير التربة المهملة ومقاومة المجاعات التي كانت تعاودهم من حين لآخر^(٣)، فيذكر أحد حكام الأقاليم في القرن ٢١ ق.م ، أن إقليمه تعرض لسنوات قحط شديد قام خلالها بصرف معونات من الغلال من الشون الرسمية وتجاوز عن متاخرات الضرائب في سجلات أبيه ، ونفس الشيء تقريباً يرد على لسان حاكم آخر في بداية القرن ٢٠ ق. م عندما تعاقبت سنوات قحط على بلده ، إذ أشرف بنفسه على كفالة كرامة الحياة لأهله ، وعندما عادت الفيضانات العالية وتوقفت المحاصيل تجاوز عن تحصيل متاخرات ضرائب الزراع^(٤).

ويبدو أن هذه المجاعات كانت من الكثرة وخطورة النتائج إلى حد أن المصري القديم صور على جدران المقابر بعض مناظر الجوع ، حيث نرى في أحد هذه النقوش رسمياً لإنسان قد بزرت عظامه وخارت قواه من شدة الجوع^(٥).

ولم تقطع ظاهرة نقص فيضان النيل خلال العصر البطلمي ، فسجل مجمع الكهنة المصريين في البيان المعروف ببيان كانوب (القرن ٣ ق.م) أنه قد «تخلف النيل عن أن يرتفع بالقدر الكافي وشل اليأس الجميع بسبب ما حدث ، وتذكروا الكوارث التي وقعت في عصور بعض الملوك السابقين حينما قاسي الأهالي بسبب عجز الفيضان»^(٦).

(١) د. أحمد عزت عبد الكرييم . الأرض والفلاح في مصر - مقال ضمن كتاب الأرض والعلاج في مصر على مر العصور - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧٤ - ص ٧.

(٢) د. مصطفى العبادي . الأرض والفلاح في مصر الرومانية - مقال ضمن كتاب الأرض والفلاح في مصر - ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) د. عبد العزيز صالح . الأرض والعلاج في مصر الفرعونية - مقال ضمن كتاب الأرض والعلاج في مصر - ص ٣٣ .

(٤) د. عبد العزيز صالح . الأرض والفلاح في مصر - ص ٥٩ - ٦٠ .

(٥) جود ويلسون : الحضارة المصرية - شكل ٢ (ب) .

(٦) د. مصطفى العبادي : المرجع السابق - ص ١١٤ .

أما في العصر الروماني فلاحظ أن إخفاض النيل وتواتي المجاعات قد أثر على الملكيات الصغيرة والمتوسطة أيضاً ، لأن الحكومة كانت تصر على تحصيل الضريبة كاملة رغم إنخفاض الفيضان ، وارتفاع الأسعار وقلة المحصول ، مما أصاب أصحاب الدخول المحدودة والصغرى مباشرة فاضطروا إلى الإستدانة سواء نقداً بفائدة ١٢٪ أو عيناً بفائدة ٥٪ فقد اضطر صغار المزارعين كما تشير إلى ذلك إحدى البرديات إلى رهن الأرض نظير الدين ثم بيعها في النهاية^(١) .

ومنذ الفتح العربي لمصر والخلفاء والولاة المسلمين يهتمون بأمر فيضان النيل ، الذي أصنف عليه بعض الكتابات شيئاً من القدسية^(٢) .

وتفيد المصادر التاريخية أن أول محاولة تمت في مصر الإسلامية لتفادي مخاطر الفيضان كانت على خلافة عمر بن الخطاب ، الذي أهمل ما علمه من معاناة أهل مصر من الغلاء عند وقوف النيل عن حله في مقاييس لهم ، فضلاً عن تناصره ، وإن مجرد شعورهم بذلك يدفع إلى الإحتكار ورفع الأسعار بدون قحط ، فأرسل إلى عمرو بن العاص والي مصر وقتها لسؤاله عن جدية الأمر^(٣) .

وكان مفاد ما أجاب به عمرو بن العاص ، أنه وجد ما تروى مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً ، والحد الذي يرى منه سائرها حتى يفضل حاجتهم ويقى عندهم قوت ستة أخرى ستة عشر ذراعاً ، وإن النهائين المخوفتين وهو الظلم والاستباحار اثنا عشر ذراعاً وثمانية عشر ذراعاً^(٤) فما كان من الخليفة العادل عمر بن الخطاب إلا أن أمر بناء مقاييس جديد على أن ينقص ذراعين من اثنين عشر ذراعاً وأن يقر ما بعدها على الأصل وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً اربعين ، فبني عمرو بن العاص مقاييساً بحلوان بهذه المواصفات^(٥) .

ويدل ذلك ولا ريب على وعي الخليفة بخطورة الدور الذي يلعبه الإحتكار التجاري في حدوث الأزمات الاقتصادية ، إذ أن المقصود بهذا التعديل أنه عند بلوغ النيل النزاع السادسة عشر حسب المقاييس الجديد ، يظن العامة أن النيل قد وفي تماماً وأن الأرض ستزرع جميعها فلا ترتفع

(١) د. مصطفى العابد المراجع السادس - ص ١٢٩ - ١٢٨ .

(٢) نظراً لأهمية النيل الحيوية ، نجد أن بعض الكتاب أحد يصنفي طابعاً من القدسية على الهر ، فيذكر أن نهر النيل هو المعنى في قوله تعالى « من البحرين يلتقيان » (راجح الآية الكريمة في سورة الرحمن - آية ١٩) أي النيل والبحر المتوسط ، وأن الله أنزل في الأرض خمسة أنهار من عين في سدنة المتهي أحدهما نهر النيل - انظر .

محمد بن رين العابدين البكري الصدقي : شفاء العليل فيما ورد من أحجار النيل . محاطط . نسخة كت في رجب ١١٠٣ هـ بخط أحمد بن الحاج عبد الرزاق . النسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة (٣٣ جغرافيا) عن النسخة الموجودة بمكتبة سوهاج (٣٠ جغرافيا) ورقة ١٣٢ سم - ورقة ٢٢٨ سم - ورقة ١٤ ، ٤ ب .

(٣) تقي الدين أحمد بن علي المقريري : المواعظ والأعتبرات ذكر الخطوط والأثار طبعة مصورة بالألومنيوم عن طبعة مولاق - مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة بدون تاريخ ج ١ ص ٥٨ .

(٤) جمال الدين ، أبو المحسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي . التحوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٣ - ج ٢ ص ٣١٣ .

(٥) المقريري : الخطط : ج ١ ص ٥٨ - ٥٩ ، أبو المحسن . النجوم الراحلة - ج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٣ .

الأسعار ، وحقيقة الأمر أن النيل لم يبلغ سوى الأربعة عشر ذراعاً ، وهكذا حتى نهاية المقاييس ، ولا شك أن فعالية هذا التعديل تستند أساساً إلى سرية إجراء هذا التعديل ، الأمر الذي يشك معه في أن يكون هذا التغيير قد أتى ثماره ، لصعوبة المحافظة على سرية هذا العمل الذي يستوجب معرفة أشخاص عديدين سيقومون به .

والمقاييس على النيل سابقة على الفتح العربي ، فقد عرفها قدماء المصريين منذ أقدم العصور ، حتى إن بعض المصادر العربية ترجع أول مقياس إلى يوسف عليه السلام وتذكر موقعه بمدينة منف^(١) .

كذلك بني الرومان مقاييساً عند حصن بابليون بقيسارية الأكسيه ، وقد ظل العرب يستعملون هذه المقاييس حتى أواخر القرن ٢ هـ / ٨٠ م^(٢) .

أما أقدم مقياس عمل في الإسلام ، فهو الذي أقامه عمرو بن العاص بحلوان حسب رواية تعديل المقاييس ، إلا أن الشك يحيط ببناء هذا المقياس ، ويرجح أن ما تم كان إصلاحاً للمقاييس القديمة فقط ، وأن أول مقياس إسلامي لا شك فيه هو الذي أنشأه عبد العزيز بن مروان . بحلوان عندما كان والياً على مصر (٦٥ - ٦٨٥ - ٧٠٥ هـ) وتلى ذلك إنشاء مقياس أسامة بن زيد التتوخي عامل الخراج بجزيرة الروضة ، والذي يُنادي مرتين ، أولاهما عام ٩٢ هـ / ٧١١ م ، والثانية عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م^(٣) وينبئ بعد ذلك مقياس الخليفة العباسي المتوكل على الله بجزيرة الروضة سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م وهو أشهر المقاييس الإسلامية على الإطلاق ويعرف بالهاشمي ، ويدرك المقريزى أن النراع المستخدمة في قياسه هي النراع السوداء التي وضعها هارون الرشيد وذلك نسبة إلى عبد أسود كان يملكه وضع المقياس على أساس طول ذراعه^(٤) .

ويجلد التنورى إلى أن حدود الوفاء والظلمأ كانت تتغير بتقادم الزمن بسبب ترسب الطمي أو إهمال حفر الترع وتعديها ، ففي ولادة الأمير محفوظ بن سليمان أيام الخليفة العباسى المتوكل على

(١) أبو الحسن علي بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر - المطبعة البهية - القاهرة ١٣٤٤ هـ - ح ١ ص ٢١٣ ، أبو سعيد عبد الرحمن بن أبو نصر البيوطى . حن المعاشرة في أخبار مصر والقاهرة المطبعة الشرقية - القاهرة ١٣٢٧ هـ - ح ٢ ص ١٩٧ . ويدرك القلقشندي أن أول من وضع مقاييساً على النيل هو خصليم السابع من ملوك مصر بعد المقضان ، انظر : القلقشندي ، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى في صياغة الإنثا : المطبعة الأميرية - القاهرة ١٩١٤ - ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) د. محمد حمدى المنawayi : نهر النيل في المكتبة العربية - الدار القومية للطاعة ١٩٦٦ - ص ١٤٧ .

(٣) د. محمد حمدى المنawayi . نهر النيل ص ١٤٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٢٩٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٥٩ .

تولى أمر المقياس عند إنشائه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد الذي انتقل من البصرة إلى مصر ، وظل عليه حتى توفي فتولى أمره أسرته هذه الوظيفة إلى عهد قريب . انظر :

أحمد تيمور . المهندسون في العصر الإسلامي : نهضة مصر - القاهرة ١٩٧٩ - ص ٢٠ - ٢١ .

الله كان تمام خراج مصر إذا بلغ النيل الذراع السادسة عشر وإن زاد الماء بعد ذلك ذراعاً واحداً
نقص الخراج مائة ألف دينار ^(١).

وبعد نحو قرن تغير حد الوفاء وأصبح خصب البلاد ورخائها في الذراع السابعة عشر ^(٢).

ولأهمية زيادة النيل فقد حاول كثير من الكتاب والجغرافيين العرب أن يعرضوا لأسباب زيادة
الفيضان ومحاولة التنبؤ بها بواسطة الظواهر الفلكية المختلفة ^(٣).

تلك كانت إشارة لا بد منها لتطور مستوى فيضان النيل وحدود القحط والاستسحار فيها حتى
يتسمى لنا التعرف على الأسباب التي وقفت خلف المجاعات سواء أكان الفيضان أحدها أو غيره.

أما المجاعات التي وقعت في مصر الإسلامية فتبدأ بالغلاء الذي وقع عام ٨٧ هـ / ٧٠٦ م ،
ووالي مصر وقتها هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان فتشاءم به الناس لأن ذلك كان أول غلاء وشدة
رأها المسلمون بمصر ^(٤) وزادها سوءاً أن الوالي الأموي كان قد زاد الخراج على المصريين ، حتى
لم يجد الأقباط مخرجاً لهم سوى هجرة الأرض فتشددت الحكومة في مقاومة حركة الهجرة ، وأمر
الوالى بوشم الغرباء على أيديهم وجباهم وإرسالهم إلى أماكن مختلفة ^(٥).

كما حدث قحط وانخفاض في فيضان النيل عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م في ولاية حفص بن
الوليد الثانية ، فصلى صلاة الاستسقاء حتى يغيث الله الناس ^(٦).

وكانت آخر أزمات العصر الأموي ما وقع من الغلاء لتقصى الفيضان الشديد (١٢ ذراعاً و١٦
أصبعاً) في ولاية يزيد بن حاتم المهلي سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٥ م فماجت الفسطاط بأهلها ^(٧).

أما في العصر العباسي فقد وقعت مجاعة عام ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م في ولاية ابن
الخصيب ، فثار الناس لارتفاع الأسعار وتجمعوا بالمسجد الجامع بالفسطاط ، وتصادف وقتها زيارة
الشاعر العباسي أبي نواس لمصر فصعد إلى منبر الجامع وأنشد الثنرين :

من تحكم يا أهل مصر نصحيتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولا ثبوا وتب السفاه فتركبوا على حد حامي الظهر غير ركوب
فإن يك باق افك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

(١) محمد بن أحمد (ابن آيلس) : بداع الزهور في وقائع الدعور - القاهرة ١٣١١ هـ - ج ١ ص ٣٦

(٢) المسعودي : مروج الذهب - ج ١ ص ٢١٢ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - توفي المسعودي سنة ٣٤٦ هـ.

(٣) د. محمد حمدي المناوي : نهر النيل - ص ١٤٢ - ١٤٣ ، يذكر الكري في شفاء العليل ورقة ، ٦ أن النيل يتأثر في
ريادته بضوء القمر وظلته .

(٤) المقريزي : إغاثة الأمة تكشف الغمة - دار ابن الوليد - حمص - سوريا ١٩٥٩ - ص ١٠ .

(٥) د. سيدة الكاتيف : الأرض والنفاذ في مصر الإسلامية - مقال ضمن كتاب الأرض والنفاذ - ص ١٩٦

١٩١ .

(٦) أبو المحاسن : الحروم الزاهرة - ج ١ ص ١٩١ .

(٧) ابن آيلس : بداع الزهور - ج ١ ص ٣١ .

رماسكم أمير المؤمنين بمحبة أكسل لحيات البلاد شروب^(١)

ونقص الفيضان على عهد خمارويه بن أحمد بن طولون فارتفعت الأسعار بمصر وفراها^(٢).

إلا أنه منذ تولى الإخشيديون حكم مصر ، لم تعد المجتمعات ظاهرة متابعة الحدوث ، مثلما كانت منذ الفتح الإسلامي وذلك بسبب اضطراب الأداء الإدارية فتسارعت خطى الأزمات الاقتصادية وزاد عددها ، فعمّ البلاد عام ٣٢٩ هـ - ٩٤٠ م غلاء عظيم وانخفضت السلع الغذائية من الأسواق ، وعزز وجود الجبوب وخاصة القمح وتبع ذلك رباء شديد^(٣).

ثم وقع الغلاء أيضاً عام ٣٣٨ هـ - ٩٤٩ م ، وأمير مصر يومها أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد ، قثارت الناس ، ومنعوه من صلاة العتمة في جامع عمرو بن العاص^(٤).

ولأول مرة منذ الفتح العربي ، تورد المصادر التاريخية قصة مكررة للسنوات السبع العجاف ، وإن زادت هذه المرة إلى تسع سنوات ، بدأت في عام ٣٤١ هـ - ٩٥٢ م ، وكان سببها كثرة الفثran ، التي أكلت المحاصيل وأتلفت الكروم ، وتواكب ذلك مع إنخفاض الفيضان فارتفعت الأسعار منذ شهر رمضان^(٥).

وطلت زيادة النيل طيلة هذه السنوات توقف عند النزاع الخامسة عشر ، وأربعة عشر أصبعاً وحتى عام ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م ، واستمر بالتالي ارتفاع الأسعار^(٦)

ويبلغت هذه الأزمة أوجها في سنة ٣٤٣ هـ - ٩٥٤ م ، حتى إن القمح بلغ سعره كلّ ويبيتين ونصف (٤٢، ٣٠ كلغ) بدینار ، ثم انخفض القمح من الأسواق قثارت الناس وكسروا منبر جامع الفسطاط^(٧).

ولم تمض ثلاث سنوات على انتهاء هذه الأزمة حتى تجددت الأزمة السابقة ولنفس العلة منذ عام ٣٥٢ هـ - ٩٦٣ م ، وسقطت الدولة الإخشيدية خلال هذه المجاعة وكان انخفاض فيضان النيل وراء بداية هذه الأزمة حيث لم يتعد خمسة عشر دراعاً وأربع أصبعاً ، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار إلى ثلاثة أضعاف ، وانخفض الخبز وبلغ سعر القمح دیناراً للويبيتين ومع تفاقم الأوضاع السيئة اقتحم

(١) د. محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر - مكتبة التهذية المصرية - القاهرة ١٩٥٩ - ص ١٣٣ .

(٢) أبو المحاسن : النهرم الراهن - ج ٣ من ٧٧ - ٧٨ .

(٣) د. سيدة كاشف : مصر في عصر الإخشيدين - دار التهذية العربية القاهرة ط ٢ - ١٩٧٠ - ص ٣٦٢ .

(٤) المقرizi . إغاثة الأمة - ص ١٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ١١ .

(٦) ابن لياس : بدائع الهرد - ج ١ ص ٤٣ .

(٧) المقريري . إغاثة الأمة - ص ١١ .

الناس في العام التالي الجامع العتيق بالفسطاط في يوم الجمعة وازدحموا عند المحراب حتى مات رجل وأمرأة من شدة الزحام ولم تصل الجمعة يومئذ^(١).

وازدادت حدة الغلاء عام ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م، بسبب النقص الشديد للفيضان الذي لم يتجاوز ١٢ ذراعاً و ١٩ أصبعاً^(٢).

ولم يكن فيضان النيل هو العامل الأوحد الذي أدى إلى هذه المخاعة ، إذ ساعد على ذلك اضطراب أمور البلاد بسبب تهديدات الفاطميين والمغاربة بغزو مصر ، ثم قدمون القرمطي^(٣) إلى الشام عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، وعجز المصريين عن دفعه عنها ، تم غزو ملك التوبية الأسواق ووصوله إلى أخميم بالصعيد ، وإعماله السلب والنهب والإحراق فعظام اضطراب البلاد^(٤).

وزاد الطين بلة موت كافور الإخشيدى ، فاختطف الجندي والأمراء من بعده ، وحدثت من جراء ذلك فتن داخلية قتل فيها الكثير من الناس ونهت الأسواق وارتفعت الأسعار حتى يبعث وبة القمع بدينار وبات الناس على تخوف وترقب لدخول الفاطميين إلى مصر^(٥) . ونتيجة لاضطراب الأحوال لم يحج أحد من مصر عام ٣٥٧ هـ سوى الإمام وإثنين معه^(٦) . ودفعت حالة الاضطراب هذه بعض القواد إلى مراسلة المعز في المغرب يستدعيه للقدوم إلى مصر^(٧).

ولقد عجلت هذه السلسلة المتتابعة من المجاعات بسقوط الدولة الإخشيدية^(٨) . كما تركت آثارها على حركة العمران ، ويكفي للدلالة على ذلك أن عدد القرى أصبح في عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، إبان ولاية أنوجور بن الإخشيد ٢٣٩٥ قرية بعد أن كان عددها في العصر الأموي أكثر من عشرة آلاف قرية^(٩) .

(١) المصدر نفسه

(٢) ابن إياس - دائق الزعور - ج ١ ص ٤٤ .

(٣) هو الحسن بن أحمد بن أبي سعيد القرمطي المعروف بالاعصم ، وهو من اتباع المنصب الفاطمي بالبحرين الذين عرفوا بالقرامطة ، وكان قد ظهر المحن للفاطميين بمساعدة الإخشيديين والحمدانيين وهاجم مصر انظر :

د. ماجد . ظهور حلاوة الفاطميين - ص ١١٥ .

(٤) أبو المحاسن . التحوم الراهن - ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٥) المقريزي . إغاثة الأمة - ص ١٢ - ١٣ .

(٦) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوري . المختوم في تاريخ الملوك والأمم - حيدر آباد الديكن ١٣٥٨ هـ - ح ٧ ص ٤٣ .

(٧) مجھول . شرح اللّغة من أخبار المعز لدين الله وتسيير عساكره إلى مصر نسخة . مصورة بالفوتوسات من محظوظ بمكتبة الإسكندرية - تاريخ سلحة ٩٢٠ هـ - مكتبة جامعة القاهرة رقم ٤٠٢٢ - ورقة ٢ (ب) .

(٨) د. سيدة الكاشف الأرض والفلاح في مصر الإسلامية - ص ١٧٣ ، مصر في عصر الإختيديين - ص ٣٦٢ .

(٩) د. محمد حمدي المناوي : نهر اليل - ص ١٧١ .

الفصل الأول

المجاعات في العصر الفاطمي وأسبابها

لما كان من المتعارف عليه لدى المؤرخين أن حالة فيضان النيل نقصاً أو زيادة ، تؤثر على حياة المصريين إن رخاءً أو قحطاناً ، فإنه من البديهي أن نحاول أولاً التعرف على حدود الفيضان النافعة والضاربة إبان فترة الدراسة ، وقبل التعرض لأحداث المجاعات وتحليل أسبابها .

ورغم وجود المقاييس على النيل ، والمناداة اليومية على مقدار زيادة النيل ، مما يتبع لعامة الناس معرفة حد الوفاء ، إلا أن الباحث يدهش أمام حجم التناقض الملحوظ في كتابات المؤرخين بهذا الشأن .

فإذا كان من المتفق عليه بين معظم المؤرخين أن حد الوفاء عند الفتح الإسلامي كان ستة عشر ذراعاً ، والتي كانت تكفي لزراعة أرض مصر ، وفيما يلي من الغلات ما يكفي لستين كما يذكر المقريزى نقلأ عن القضايعي^(١) (ت ٤٥٤ هـ) ، فإنه ومنذ منتصف القرن الرابع الهجرى تقريباً ، نجد اختلافاً واضحاً فيما ذكر عن حدود الوفاء ، وما يتطرق إليه الحديث عند سرد أحداث المجاعات ومستوى الفيضان وقتها

فعلى حين يذكر المسعودي أن ١٦ ذراعاً تكفي لزراعة ثلاثة أرباع أرض مصر ، وإن ١٧ ذراعاً فيها كامل النفع ، وأن ١٨ ذراعاً تؤدي إلى الإستهثار وتلف مراعي الماشية^(٢) ، نجد أن المقريزى عند تعرضه للمجاعة التي حدثت عام ٩٣٥ هـ / ٩٦٥ م بسبب نقص الفيضان ، يشير إلى أن مبلغ الزيادة كان ستة عشر ذراعاً وأصباب^(٣) . وفي هذا الصدد فإن د. المناوى رجح ما ذكره المسعودي بحكم قربه من هذا التاريخ إذ انتهى من وضع كتابه حوالي عام ٩٤٣-٩٣٢ هـ^(٤) . غير أن

(١) المقريزى . الحوطط - ج ١ ص ٥٩ . الفلكشنى . صبح الأعشى - ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب - ج ١ ص ٢١١-٢١٢ .

(٣) المقريزى . إغاثة الأمة ص ١٢ .

(٤) د. محمد حمدى المناوى : المرجع السابق ص ١٦٨ هامش (٤) .

الأمر في حاجة إلى أكثر من ترجيح رأي على آخر استناداً إلى عامل الزمن فقط ، ونود أن نلتفت النظر هنا إلى أمور مهمة :

١ - أن حد الوفاء كان يتغير بتقادم الزمن بسبب ترببات الطمي الذي يجلبه الفيضان ، مما يؤدي إلى ارتفاع منسوب التربة ، وإن كان هنا التغير الطبيعي يتسم بالبطء ، نظراً لوجود ترببات طينية أيضاً في مجرى النهر ، الأمر الذي يعني ارتفاع منسوب النهر وبالتالي .

٢ - أن هذا الحد كان شديداً التأثير بحالة الجسور والترع ، ومدى إهتمام الحكومات بمشروعات الري ، فإذا ما وضعنا في الحسبان حالة الاضطراب التي سادت مصر منذ سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ - ٩٠٥ م ودوم نزاعات الجندي، وتواли الأزمات الاقتصادية ، في مدة حكم الأخشيديين ، لأمكننا القول بأن تدهوراً قد طرأ على حد الوفاء نتيجة لإهمال مشروعات الري ، إلا أن هذا التدهور لم يكن يعني أن ١٦ ذراعاً هو حد المجاعة خاصة وأن النيل كان يصل إلى هذا الحد في سنوات لاحقة ولم تحدث مجاعات .

٣ - أن ثمة ملاحظة جديرة بالإلتفات ، أبدتها المقريزي في معرض حديثه عن المجاعة التي روعت البلاد عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ - ١٣٩٣ م إذ ذكر أن عادة بلاد مصر منذ الزمن القديم ، إذا تأخر جري النيل بها أن يعتد الغلاء ستين^(١) . وفسر ذلك بأن السنة الأولى تقل الغلال فيها ، ويزداد الطلب عليها ، فإذا ما وفي النيل في العام التالي ، كانت الحاجة ماسة إلى الحبوب لذرها ، فيزداد ارتفاع أسعارها . وعلى ضوء ذلك يمكن فهم سبب هذه المجاعة التي وقعت عام ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م - رغم بلوغ النيل ١٦ ذراعاً حسب المقريزي و ١٦ ذراعاً و ١٥ أصبعاً حسب «أبو المحاسن» - على أنها استمرار للمجاعة التي شملت البلاد منذ ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، حيث بلقت الزيادة في سنة ٣٥٣ هـ خمسة عشر ذراعاً وأربع أصابع^(٢) . أما إذا صبح ما ذكره ابن أبيك الدواداري عن ارتفاع الفيضان (١٦ ذراعاً و ١٥ أصبعاً عام ٣٥٣ هـ و ١٤ ذراعاً و ١٩ أصبعاً عام ٣٥٤ هـ) فإن مجاعة عام ٣٥٤ هـ يكون سببها هو نقص الفيضان ، بينما ينطبق التفسير الذي أورده المقريزي على مجاعة سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م .

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبح واضحاً أن ١٦ ذراعاً لم تعد كافية لزراعة جميع أراضي مصر ، حسبما ذكر المسعودي وحسبما تؤكد الروايات التاريخية ، وذلك قبيل العصر الفاطمي وإن كانت لا تعني القحط .

أما في العصر الفاطمي فإن التوصل إلى معرفة يقينية لحد الوفاء يعد أمراً مشوباً بالمخاطر ، فعلى حين يؤكد المقريزي أن زيادة النيل النافعة هي ١٦ ذراعاً إلى ما بعد سنة ٥٠٠ هـ ، وأن زيادة

(١) المقريزي : إعاثة الأمة - ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١١ .

١٧ ذراعاً تزيد خراج مصر ١٠٠,٠٠٠ دينار لما يروى من الأرضي العالية^(١) ، يشير هو نفسه إلى استمرار الغلاء أعوام ٣٥٨ هـ - ٣٦٠ هـ ، والتي بلغ النيل خلالها ١٦ ذراعاً و ٢٠ إصبعاً ، ١٧ ذراعاً ٢١ إصبعاً ، ١٧ ذراعاً ، ٢١ إصبعاً ، على التوالي ، وأن الأسعار إنخفضت وأخصبت الأرض وحصل الرخاء عام ٩٧٢-٩٧١ هـ / ٣٦١ م ، على الرغم من أن النيل بلغ ١٧ ذراعاً وأربعة أصابع^(٢) . وإذا أمكن القول بأن سبب هذه المجاعات يعود إلى اضطراب البلاد عند الفتح الفاطمي ، فإن المقريري يقرر صراحة أن المجاعة التي وقعت عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م سببها نقص الفيضان الذي بلغ ١٦ ذراعاً وأصابع^(٣) (٦، ٧ حسب الجدول المرفق) . تم بزيادة ناصر حسرو ، الذي زار مصر خلال أعوام ٤٣٩ - ٤٤٢ هـ ، الأمر تعريفاً ، فيذكر أن الزيادة المعهودة هي ١٨ ذراعاً وأنه كلما قلت الزيادة عن ذلك قيل إن النيل ناقص^(٤) وعلى التقىض من ذلك تماماً ، وقعت المجاعة عام ٥٣٢ هـ - ١١٣٧ - ١١٣٨ م بسبب توقف النيل^(٥) الذي بلغ في هذه السنة ١٨ ذراعاً و ١٢ إصبعاً^(٦) ، أو ١٧ ذراعاً و ٣ أصابع طبقاً لابن أبيك . أما أنه «حصل غرق نجم عنه تلف» عام ٥٥٩ هـ^(٧) ، وزيادة النيل ١٨ ذراعاً و ١٠ أصابع (أو ٨ أصابع) ومتلحوظ خلال هذا البحث أن بعض المجتمعات ، وقعت والزيادة تخطت الذراع السادسة عشر بأصابع بل والذراع السابعة عشر ، في حين أن زيادة النيل قلت عن ذلك في سنوات كثيرة ولم تحدث المجاعة (انظر ملحق فيضان النيل) . ومن استقراء بيانات الفيضانات الواردة بالملحق يمكن الجزم بأن حد الفحط خلال العصر الفاطمي كان ما دون الذراع الخامسة عشر ، وكان هذا الحد عند الفتح العربي ١٢ ذراعاً . فزيادة النيل لم تصل إلى ما دون ١٥ ذراعاً إلا ثلث مرات إبان حكم الفاطميين لمصر ، في سنوات ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م - ١٠٠٧ هـ / ٩٣٩٨ م ، و١٤١٠ هـ / ١٠٢٣ م ، وبجميعها كانت سنوات مجاعة . وفيما عدا ذلك فإن زيادة ما بعد ١٥ ذراعاً ولو بأصبع واحد كافية لعدم قحط البلاد (٨) ، كما أنه من الوارد حدوث المجاعات حتى ولو وصلت الزيادة إلى قريب من ١٨ ذراعاً . ومغزى ذلك أنه بعد ١٥ ذراعاً لم يكن هناك حد قاطع ومحدد لفيضان النيل تحدث معه المجاعة ، وأن هذا الحد كان متذبذباً ، متاثراً في ذلك بحالة الدولة المركزية ، التي كان يامكانها - إن استطاعت - أن تعيّر بالبلاد الأزمة رغم الإنخفاض النسيي للفيضان ، أو تعجز عن مع الأمور من الانحدار مع شمول الري لمعظم الأرضي .

(١) المقريري : الخطط - ج ١ ص ٦١ - ٦٣ .

(٢) المقريري : إغاثة الأمة ص ١٣ .

(٣) المصدر نفسه

(٤) ناصر حسرو - سفر نامه - ترجمة وتعليق د. يحيى الحشاد - لجنة التأليف والترجمة - القاهرة - ١٩٤٥ - ص ٤٢

(٥) المقريري - اتعاظ الحتفا بأحر الآئمة الفاطميين الخلفا - تحقيق د. محمد حلبي محمد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٣ - ح ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٦) أبو المحاسن - الحوم الرامرة - ح ٥ ص ٢٦٣ .

(٧) د. راشد الروي - حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين - النهضة المصرية - القاهرة ١٩٤٨ - ص ٣٧ .

إلا أن ذلك لا يعفي من محاولة الوصول إلى حد موضوعي لوفاء النيل يمكن معه الفصل فيما إذا كان سبب المجاعة هو النيل أم عامل آخر . ويندو أن الحد الذي اعتبرته الحكومة كافياً لتحصيل الخراج هو ١٦ ذراعاً ، حيث كان يتم الإحتفال بوفاء النيل عنده حسبما نقل المقرizi^(١) عن ابن الطوير .

إلا أنه من الملحوظ أن الإحتفال بوفاء النيل ظل يتم عند بلوغ الذراع السادسة عشر حتى العصر المملوكي ، رغم أن ذلك الحد لم يعد كافياً لزراعة الأرض وقتها ، وكان يحتفل بالوفاء ، فقط لكون ذلك «قانون الري في القديم»^(٢) ولذا فليس بالإمكان الإعتقاد بهذا الحد ، طالما أصبح الإحتفال بوفاء النيل عنده مسألة تراثية لا علاقة لها بالواقع .

وهي خصوة ملحق فيضان النيل ، وروایات المؤرخين يمكن ترتيب حدود الوفاء على النحو التالي :

١ - الستة عشر ذراعاً كانت تكفي لزراعة بعض الأراضي ودرء خطر المجاعة عن البلاد ، وليس هناك خطر محقق إذا بلغت الزراعة ١٥ ذراعاً .

٢ - السبعة عشر ذارعاً ، أصبحت كافية فقط لزراعة معظم الأراضي وليس كلها .

٣ - أن حد الوفاء الذي يكفي لزراعة جميع الأراضي ويمكن معه الوفاء بالخارج دون عنـت كان ١٨ ذراعاً ، وذلك منذ منتصف القرن ٥ هـ / ١١٧٠ م على الأقل .

ومعنى ذلك أن حدود النيل عند الفتح العربي زادت بمقدار ثمانين تقريباً خلال العصر الفاطمي . وقبل الدخول في سرد أحداث المجتمعات التي مرت بمصر الفاطمية نشير إلى أنه يرغم مرور البلاد بفترات من الفوضى والاضطراب وخاصة في خلافة المستنصر بالله . فإن مصر شهدت إهتماماً لا يأس به بمشروعات الري والزراعة ، فتدل وثائق الجنيز اليهودية Geniza على وجود إدارة خاصة تشرف على أمور الزراعة بالبلاد^(٣) . كما وأن الكتابات التاريخية تفيد بأن ثلث خراج البلاد كان يرصد لعمارة جسور أراضي مصر^(٤) . والجسور المعنية هنا هي الجسور السلطانية التي توجد في شرق وغرب الدلتا ، أما الجسور البلدية وهي التي تتتفق بها جهات محلية دون أخرى ، فكان يتولى صيانتها المالك والمقبولون على أن تخصم تكاليف ذلك من الخارج الذي يعودونه للدولة^(٥) . وشهدت عهود إستقرار الحكم المرتكي إهتماماً بمشروعات الري ، مثل تطهير خليج الإسكندرية

(١) المقريري . الخطط - ج ١ ص ٤٧٦ . وقد أورد القلقشندي سجلأ من إنشاء ابن الصيرفي يؤكد فيه أن ١٦ ذراعاً هي حد الوفاء . القلقشندي : صبح الأعشى - ج ٨ ص ٣٣٠ - ٣٢٩ .

(٢) المقريري : الخطط - ج ١ ص ٥٥ .

(٣) د راشد البراوي . حالة مصر الاقتصادية - ص ١٠٥ .

(٤) المقريري . الخطط - ج ١ ص ٦١ .

(٥) د. راشد البراوي : المرجع السابق ص ٦٥ .

بعد أن طمّ تقريراً وخاصة في قسمه الأول عند خروجه من فرع رشيد وبلغت تكاليف ذلك في سنة ٤٠٤ هـ / ١٤١٣ م ، ١٥ ألف دينار ، واستعادت منه القرى الواقعة في غرب الدلتا فضلاً عن تسهيل الملاحة^(٤) . وجفر في عهد الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م الخليج المعروف بخليج أبي العنجل لضمان ري أراضي البلاد الشرقية في كل الأحوال^(٥) .

مجاعات العصر الفاطمي :

قام الفاطميون منذ استقرارهم في إفريقيا وتأسيس دولتهم بتوجيه خمس حملات للاستيلاء على مصر ، حققت أربع منها نجاحات محلودة في فرض سيطرتهم على بعض النواحي الواقعة في غرب مصر مثل الإسكندرية والفيوم والجيزة^(٦) . ولم يكتب النجاح إلا للحملة الخامسة التي أرسلت عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م بقيادة جوهر الصقلي^(٧) ، وكانت مصر وقتها تعاني من قحط ووباء بدأ عام ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م مما أدى إلى وفاة الكثيرين حتى عجز الناس عن تكفين الموتى فاللقو بجثثهم في النيل وترتب على ذلك اشتداد الغلاء وندرة القمح وانتشار أعمال السلب والنهب^(٨) ، ولم يصبح في البلاد قوة مادية أو معنية من جانب شعبها الذي أنهكه الجوع والمرض^(٩) ، وكان وصول أخبار هذه الأحداث المؤسفة - التي زادها سوءاً موت كافور الإخشیدي وتفرق جنده - كافياً لشحذ همة المعز لدين الله ليتehler هذه الفرصة ويستولي على مصر^(١٠) ، خاصة بعد أن كاتبه أعيان مصر يدعونه لدخولها بسبب طمع الجندي في أهل القرى^(١١) . ويبدو أن المصريين وحدوا في الفاطميين متقدthem من الحالة التي تردد إليها البلاد فدخل الجيش الفاطمي الذي بلغ مائة ألف مقاتل مصر «في يوم

(١) المرجع نفسه ص ١٠٣.

(٢) المقريزي : الخطط - ١ ص ٧١ - ٧٢ ، د. راشد البراوي : المرجع السابق - ص ١٠٤ وهاشم(٤) ويدوأن هذا الخليج كان قد يُسمى طمّ ثم أعيد حفره إذ يرجع القلقندي لهذا الخليج إلى أحد ملوك مصر بعد الطوفان. القلقندي صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٥.

(٣) د عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر - دار المعارف الإسكندرية ١٩٦٨ - ص ٩٦ - ١٠١.

(٤) أبو العلاح عبد الحفيظ بن العماد الحنفي : شذرات النسب في أحصار من دهب - مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٠ هـ - ج ٣ ص ٢٦.

(٥) د. حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية المطبعة الأميرية - القاهرة ١٩٣٢ م - ص ٩٥ - ٩٧ ، وكان في بغداد علاء ذريع حتى بيع الكر من الدقيق تسعين ديناراً انظر :

ابن الحوري . المستظم - ج ٧ ص ٤٧.

(٦) د. أحمد مختار العادي : في التاريخ العاسي والفاتمي - مطبعة شباب الجامعة - الإسكندرية ١٩٨٢ - ص ٢٤٨.

(٧) أبو الفدا ، إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية - مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٨ - ج ١١ ص ٢٢٦ ، ابن الأثير علي بن أبي الكرم محمد بن محمد : الكامل في التاريخ - تعلق عبد الوهاب النجاشي دار الطباعة المصرية - مصر ١٣٥٣ هـ - ج ٧ ص ٣١ ، ابن سعيد الأندلسى . المغرب في حللي المغرب - تحقيق د. زكي حسن (وآخرون) .

مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٣٥ - ج ١ ص ٢٠١.

(٨) عبد الله الشرقاوي . تحفة الناظرين في ملوك الولاة والسلطان ، مصر ١٩٢٢ - ص ٣٣.

الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، فهرب أصحاب كافور وأخذ جوهر مصر بلا ضربة ولا طعنة ولا ممانعة^(١) .

ومن الواضح الجلي أن إنخفاض النيل لم يكن مبرراً لحالة القحط التي سادت البلاد في عام الفتح الفاطمي ، فالفيضان كان قد وصل في أقل التقديرات إلى ١٦ ذراعاً و٢٠ إصبعاً ، وهو حد لا يعني القحط كما أسلفنا ، ولذا فإنه على وجه الترجيح ، يمكن إرجاع المجاعة والغلاء إلى اضطراب الأحوال ، ومنازعات فرق الجندي ، مما أفضى إلى ارتفاع الأسعار حتى بلغ سعر القمح تسعة أقداح بدینار^(٢) . بل إن ضعف الإدارة المركزية ، أدى إلى سوء عيار السكة الإخشيدية وانتشار الغش فيها كما يتضح من خطاب الأمان الذي أعطاه جوهر الصقلي للمصريين عند دخوله مصر^(٣) والذي وعد فيه بيارخص الأسعار ، وإقرار الأمن وتجميد عيار السكة . ولكن إقرار النظام ، وضمان زراعة الأرض ، وإكمال إستعادة الإدارة المركزية لكافحة صلاحياتها ، لم يكن ليتم بين ليلة وضحاها ، إذ استغرق ذلك ثلاث سنوات تقريباً حاول خلالها جوهر الضرب بشدة على أيدي التجار والطحانين الذين استغلوا حالة الفوضى في محاولة الإثراء من ورائهم . ففي ذي القعدة عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م قام سليمان بن عزه المغربي ، الذي تولى الحسبة^(٤) عوضاً عن أبي جعفر الذي توفي في ربيع الآخر ، باتخاذ بعض الإجراءات لمواجهة ارتفاع الأسعار ، فضبط ساحل بولاق حيث ترد الغلة في العراكب ، وجمع تجار القمح وسماسرة الغلال في موضع واحد ، وسد الطرق إلا طريقاً واحداً يتم منه خروج القمح تحت إشرافه وبحضوره^(٥) ، ثم قام بضرب أحد عشر طحاناً وشهرهم^(٦) ، وبيدو أنهما حاولوا تخزين بعض الدقيق لبيعه بثمن مرتفع ، ويمكن أن نضيف إلى جانب عامل الاحتكار الذي يتسبب في ارتفاع الأسعار ، اختلال الأمن وانتشار السلب والنهب الذي

(١) السبوطي . حسن المحاصرة - ح ١١ ، شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام وطبقات المستشرقين والإعلام - محظوظ مصور مدار الكتب المصرية برقم ٤٢ ، تاريخ ، مجلد ١٦ ص ٩٩ حوات ٣٥٨ هـ .

(٢) المقريزي : انتطاع الحمايا بأصحاب الأئمة الفاطميين الحلفاء - تحقيق د . حمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ - ح ١ ص ١٦٨ .

(٣) د . حسن إبراهيم حسن الفاطميون في مصر - ص ١٠٨ .

(٤) يقصد بالحسبة والإحسان - شرعاً - الأمر المعروف إذا ظهر تركه والهي عن السكر إذا ظهر فعله ، أي محاولة جعل الحياة السائنة موافقة لأحكام الشريعة ، وهي مصطلح التاريخ يقصد بالمعيبة الوبية التي ترافق تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فعلاً في المجتمع الإسلامي على اختلاف طفاته . انظر .

د . السيد البار العربي . الحسنة والمحتسون في مصر - مقال بالمجلة التاريخية المصرية . القاهرة ١٩٥٣ - مجلد ٣ العدد ٢ ص ١٥٧ والحسنة عند الشيعة تدخل في عموم واجبات الإمام سبب كوبها خدمة دينية وكان الإمام يستخلف فيها من يراه أهلاً لها . انظر . د . عبد الصعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر الإنجليو المصرية - القاهرة ١٩٧٣ - ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢ . وقد كان للمحتس سرلة رفيعة في مصر الفاطمي مكان يقوم بتعيين بوابه بالقاهرة وجميع الأعمال ولا يحال به وبين مصلحة أرادها وكانت تصاف الحسنة بمصر والقاهرة إلى صاحب الشرطة بهما أحياناً . انظر : القلقشندي صبح الأعشى - ح ٣ ص ٤٨٦ .

(٥) د . أحمد سختار العادي في التاريخ العاسي والفاتمي - ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٦) المقريزي : انتطاع الحمايا - ح ١ ص ٧٢ - ١٧٩ .

كان متفشياً في بداية خلافة المعز بمصر^(١).

وبلغت الصائفة الاقتصادية ذروتها عام ٣٦٠ هـ / ١٩٧١ م^(٢) ويرجع ذلك إلى استمرار تفشي الأمراض والأوبئة ، التي اشتلت بالقاهرة من المحرم ، مما دفع جوهرًا إلى منع بيع التوابع مسمومًا ، وأمر بأن يسلخ من جلده كإجراء وقائي^(٣) . ويلاحظ إرتباط المجاعات بانتشار الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الذي يودي بحياة الكثيرين ، فيلحق ذلك الضرر بالأيدي العاملة في الزراعة ، إما لموت البعض ، أو لهجرة آخرين لموطن الداء ، فتصبح الأرض ولا تجد من يزرعها^(٤) . ومن العوامل التي تساعد على تفشي الأوبئة ازدحام البيوت بالسكان ، وخاصة في الفسطاط ، التي تتكون بعض الدور فيها من سبع طبقات ، «وربما يسكن في الدار المائتان من الناس»^(٥) فإذا أضيف إلى ذلك العادات غير الصحية التي كان يتبعها السكان من أن يرموا بما يموت من القطط والكلاب في الشوارع والنيل ومصادر مياه الشرب فيشرون هذه العفونة ، المختلطة بالماء ، فضلاً عن تعدد دفن الموتى في حالة تفشي الأوبئة والمجاعات مما يؤدي إلى انتشار الميكروب ويقاده لفتره طويلة بالبلاد لتأخر وسائل الطب الوقائي^(٦) ، لعرفنا مدى فداحة الخسائر التي كانت تقع بين صفوف السكان ، حتى إن المقريزي يذكر أنه لما سقطت الدولة الإلخشيدية واحتل حال مصر بتولي الغلاء وتواتر الأوبئة والفناء «حدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز» بسبب تدهور حالة الفسطاط وموت معظم سكانها^(٧) .

وَلَا يُمْكِن إغْفَال دور التهديد بالغزو الْخَارِجي في ارتفاع الأسعار إذ قام القرامطة بغزو الشام ونجحوا في هزيمة الجيش الفاطمي بدمشق عام ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ، بل وحاصروا القاهرة وأنهزموا عنها عام ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م ^(٨) .

ومهما يكن من أمر فقد وضعت هذه المجموعة أوزارها عام ٣٦١ هـ ، التي انخفضت فيها الأسعار وانحصبت الأرض وحصل الرخاء^(٩) . وذلك كنتيجة طبيعية لاستقرار أمور الحكومة الجديدة ، ونجاحها في القضاء على الانخطار الخارجية ، ونشر الأمن في ربوع البلاد ، مما ضمن زراعة معظم الأراضي ، ولا يعتقد أن هناك ثمة علاقة بين هذا الرخاء وحالة الفيضان ، الذي كان

٨٤ - ص ١٨٩٥ - المطبعة المدرسية بأكشورد - كنائس وأديرة مصر : أبو صالح الأرمي

٢) المقربى : إعاثة الأمة - ص ١٣.

^{١٧٩} المقدمة : اعتقاد الحنفية - ج ١ ص ٢٣٦

(٤) د. راشد الداوى: حالة مصر الاقتصادية - ص ٨٠-٨٢.

(٨) المقذفي، الخطط - ج ١ ص ٣٤١.

^{٨٠} المرجع السابق - ص ٤٠ - ٣٣٩ - ٣٤٠، د، راشد البراوي : المختار العقدي .

(X) المقترن بالمعابر السائبة (ج) ٣٥٩

^{١١٥} دعا العزباء والعزباء خلاة الفاطميات - ص ٣٧٦

(٨) الأمة : أغذية الأمة

في هذا العام ١٧ ذراعاً و٤ أصابع ، أي أقل من فيضان العام السابق بأصابع .

وبانتهاء هذه المجاعة كان الخليفة المعز لدين الله قد وعى ويشكل عمله ، الدرس الذي عرفه من قبل عمرو بن العاص وال الخليفة عمر بن الخطاب ، ألا وهو الإرتباط بين الإحتكار التجاري واستشعار الناس انخفاض زيادة النيل ، من خلال المناداة اليومية على مقدار الزيارة إبان موسم الفيضان ، فأمر الخليفة في شوال سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م بمنع المناداة على زيادة النيل ، ويأن لا يكتب بذلك إلا إليه ، وإلى القائد جوهر ، وأن يباح النداء عند بلوغ النيل حد الوفاء الرسمي - وهو الستة عشر ذراعاً^(١) .

بيد أن ذلك الإجراء فيما يظهر ، لم يستمر طويلاً ، إذ يشير ناصر خسرو إلى استمرار نظام المناداة اليومية على زيادة النيل خلال زيارته لمصر^(٢) .

شهدت خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م) سلسلة من المجاعات ، استغرقت نحو نصف مني حكمه التي قاربت الأربع قرن . ولا شك أن هذه الكوارث قد وضعته في موقف لا يحسد عليه إذ أصبح لزاماً عليه أن يحارب في أكثر من جهة ، فقد اعتلى الحاكم كرسي الخلافة وهو في الحادية عشر ، و٥ أشهر وستة أيام^(٣) ، طفل تسعى أكثر من قوة للسيطرة عليه وعلى مقاليد الأمور بالبلاد ، فشبّت المنازعات بين البربر والأتراك^(٤) . وقد نجح الحاكم بعد أربع سنوات من وصاية برجوان عليه أن يمتلك زمام الأمور في البلاد ك الخليفة قوي^(٥) . وبعد ذلك كان عليه أن يواجه غزواً خارجياً جاءه من الغرب بقيادة الشائر أبي ركوة^(٦) ، وخطر الأوثلة الفتاكه والمجاعات ، وقبل ذلك وبعده المنازعات التي دارت داخل البيت الخليفي للحد من نفوذه المطلق ، تلك المنازعات والمؤامرات التي أودت في النهاية بحياته بتدمير أخته ست الملك^(٧) . فضلاً عن بعض المشاكل المتعلقة بالدعوة الفاطمية ، ومحاولات البعض إلصاق الألوهية به^(٨) . ورغم أن التاريخ حاول بشخصيات كثيرة أهضمتها المؤرخون حقها وأساءوا فهمها - عمداً في معظم

(١) المقريري : انتظر الحقـ ج ١ ص ١٩١ ، الخططـ ج ١ ص ٦١ ، ويدرك القلقندي أنه كان يؤخذ المقاييس وتنكتب له رقعة للخليفة وللورير ثم يتزل بديوان الرسائل في مسير معدله في الديوان ويستمر الحال على ذلك في كل يوم ترفع رقعة إلى ديوان الإنشاء بالريادة لا يطلع عليها غير الخليفة وللورير وأمره مكتوم إلى أن يبقى من دراع الوفاء (١٦ ذراعاً) أصبح أو أصعبـ . الأعشـ ج ٣ ص ٥٦ .

(٢) ناصر خسرو - سفر نامه - ص ٤٢

(٣) wustenfeld (F). Geschichte Fātimiden chöfzen . Aus dem 26 und 27 Bande der Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften Zu Göttingen — Göttingen 881 — p 165

(٤) د. عبد المنعم ماحد ظهور حالة الفاطميين - ص ٣٧١ - ٣٧٢

(٥) ستانلي ليبول : سيرة القاهرة - ترجمة د. حسن إبراهيم ، د. علي إبراهيم حسن - الهيئة المصرية - القاهرة ١٩٥٠ - ص ١٣٤ .

(٦) الذهي . تاريخ الإسلام - مجلد ١٣٢ ص ١٣٣ - ١٣٤

(٧) أبو العدا : البداية والهداية - ج ١٢ ص ١٠

(٨) د. عبد المنعم ماحد : الحاكم ثغر الله الخليفة المفترى عليه - مكتبة الإصلاح المصري - القاهرة ١٩٥٩ - ص ١١٥

الأحوال - إلا أن شخصية الحاكم فاقت كل هذه الشخصيات في مقدار الظلم العادج الذي وفع بحقها .

فكتابات بعض المؤرخين غير واقعية لأنها رمته بالشذوذ والجنون إلى حد وصفه بأنه كان شر خليفة ، لم يل مصر فرعون شر منه^(١) ، ولم يسلم الحاكم من كتابات كثيرة معاصرة . حتى من قبل الكتاب الأجانب الذين دخلوا حلبة إدانته اعتماداً على المصادر التاريخية دون تمحيق أو نقد^(٢) .

ولما لم يكن مجالنا هنا نبرأة ساحة الحاكم^(٣) ، فإننا مستقتص على سرد ما يخص موضوع المجاعات في عهده ، حيث أثبتت بتصرفاته وإجراءاته مع كل ما واجه من صعب ، أنه كان أنسجوعياً ، وأكثر عرقية من غيره من الخلفاء ، الدين لم يتمهوا بالجنون .

فعدنما توقف النيل عن الزيادة في عهده ، وقيل له إن هذا من فعل الأحباط الذين غيروا مجرى النيل ، أمر بطرد النصارى أن يتوجه إلى الجبعة ، فذهب وعرض على التجاشي ما وقع بالبلاد من ضرر ، فأمر ملك العجيبة بفتح سد عندهم يجري منه إلى مصر ماء النيل لأجل أن البطرد قدم عليه ، فزاد النيل في تلك السنة زيادة قوية حتى أوفى^(٤) .

لم يقنع الحاكم بهذا الحل ، الذي يضعه تحت رحمة ملك العجيبة المسيحي ، وأظنه لم يصدق ما ذكر عن وجود سد عندهم يحجب الماء عن مصر ، ولا يستبعد أن تكون هذه الرواية التي يكثر تكرارها في سنوات مختلفة ، محاولة لتدعيم مركز القبط في مصر ، خاصة مع ما عرف عن الحاكم من تشدد مع أهل الذمة ، وظللت ظاهرة انخفاض الفيضان تستحوذ على إهتمام الحاكم حتى سمع عن أبي علي بن الحسين بن الهيثم^(٥) ، الذي نبغ في الهندسة ، وأنه قال: لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فأرسل في طلبه من العراق ، وأكرم وقادته وسير معه جماعة من الصناع في طول الإقليم المصري حتى وصل إلى أسوان ، لكنه اعتذر عن عجزه القيام بشيء بسبب طبيعة أرض أسوان الغرانiticية ، فأبقياه الحاكم معززاً مكرماً^(٦) .

(١) السيوطي . حسن المحاصرة - ج ٢ ص ١٣ ، ابن العري . مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ - ص ٣١٣

(٢) لينول . سيرة القاهرة - ص ١٣٤ - ١٣٥ .

Brockmann (Carl) : History of the Islamic peoples . London and Henley 1980 - p 160

(٣) انظر : د. عبد المعiem ماحد . الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه

(٤) أيمن فؤاد سيد . مصوص صائحة من أخبار مصر للمبجي - مستخرج من حوليات إسلامية - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٨١ - مجلد ١٧ - ص ٣٢ .

(٥) ابن أبي أصيبيعة . عيون الأناء في طبقات الأطباء - شرح وتحقيق د رضا برار رضا - مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٢ - ترجمة ابن الهيثم ص ٥٥٠ - ٥٦٠ ، وانظر أيضاً : أحمد تمور . المهابسون في العصر الإسلامي القاهرة ١٩٧٩ - ص ٢٨ - ٣٠ .

(٦) د. مایید . الحاکم بامر الله ، ص ٦٤ - ٦٥ ، امراة مصرية تتزعم مظاهرة في عهد الخليفة المستنصر بالله . المجلة التاريخية المصرية - القاهرة ١٩٧٧ - المجلد ٢٤ - ص ٣٤ - ٣٥ .

وفي هذا الصدد ، يذكر ابن أبي أصيبيعة أن همته انكسرت لما رأى آثار قدماء المصريين وعظمتها ، مع أنهم لم يفعلوا شيئاً للليل ، فـأيقن عجزه ، وأنه خشي على نفسه من الحكم فادعى الجنون حتى توفي الخليفة ، فعاد للحياة الطبيعية ، كناسخ لبعض الكتب الطبية ليقتات منها^(١) . وربما لو كان النجاح قد صادف ابن الهيثم والحاكم ، لتغيرت كثيراً معاالم وجهة تاريخ مصر الإسلامية ، بل العالم الإسلامي بأسره .

لم يفت في عهد الحكم فشل ابن الهيثم في معالجة أمر الفيضان ، فلجأ إلى الإجراءات الوقائية إعتماداً على قوة السلطة المركزية وهيئته كرأس لهذه السلطة .

ولما كان إحتكار التجار للغلال ، وتلاعبهم بالأسعار سبباً رئيسياً وراء الموجات ، فقد عمد إلى إقامة سعر لكل شيء ، لا سيما العجوب والمبيعات ، واستخدام وسائله الخاصة في منع تخزين الأقواف ، «فضرب جماعة بالسوط ، وشهرهم ، وأمر لا يباع القمح إلا للطحانين» للقضاء على الوسطاء ، كما كان يفاجيء مخازن الغلال والبيوت للبحث عن القمح ويفرقه على الطحانين بالسعر الرسمي^(٢) .

ولأهمية الحسبة ومراقبة الأسواق ، كان الحكم يقوم بنفسه بمهام المحسوب ، فيدور في الأسواق ممتطياً حماره ، وتذكر المصادر السابقة نفسها أن من وجده قد غش في معيشة ، أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى^(٣) . ويرجع إهتمام الخليفة بالحسبة إلى أنه اعتبرها في عموم واجبات الإمام ، بناء على ما نقل عن علي بن أبي طالب من قول النبي ﷺ له «يا علي مرت بالمعروف ، وأنه عن المنكر»^(٤) . ولذا نجده عندما ولّ حسبة القاهرة ومصر والجيزة لقائد القواد ومتولي الشرطتين (القاهرة ومصر) المعروف بغبن^(٥) عام ٤٠٢ هـ / ١٢١٠ م يشتد في سجل التعين على ضرورة مراعاة واجبات وظيفته^(٦) . ويدو أن الحكم اعتبر غبناً مسؤولاً عن إرتفاع الأسعار وتكالب الناس على الخبز عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م^(٧) ، طالما كان ذلك يدخل ضمن واجبات

(١) ابن أبي أصيبيعة . عيون الأنباء - ص ٥٥١ ، ابن العربي . مختصر تاريخ الدول - ص ٣١٦-٣١٨.

(٢) د. ماجد : الحكم بأمر الله - ص ١٤ . وعقوبة التغذير عقوبة إسلامية تشمل حقوق الله على الناس ودائرة حقوق الشر بعضهم على بعض . شاخت ويزورت . تراث الإسلام - ترجمة د. حسين مؤمن وإحسان صدقى أحمد - عالم المعرفة الكويت ديسنير ١٩٧٨ القسم الثالث - ص ٢٢ .

(٣) السيوطي . حسن المحاضرة - ح ٢ ص ٢١٣ . أبو الفدا . البداية والنهاية - ح ١٢ ص ٩ .

(٤) د. ماجد : الحكم بأمر الله - ص ٩٠-٨٩ .

(٥) عرف غبن أيضاً بلقب استاذ الأستاذين انظر : د. حسن الباشا . الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية - القاهرة ١٩٦٥ - ج ١ ص ٦٣ .

(٦) د. حسن الباشا (وأخرون) : القاهرة : تاريخها - آثارها - مؤسسة الأهرام - القاهرة ١٩٧٠ - ص ٥٢١ .

(٧) المقربي : اهباط الحبأ بأيدي الأئمة العاطفين الحلفاء - تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٧٠ - ج ٢ ص ٩٣ ، الخطط - ح ٢ ص ٨٧ .

المحتسب فعزله من منصبه في نفس العام وأمر بقطع إحدى يديه ، وأعقبها بالأخرى تم ب Lansane حتى توفي . وعُدل ذلك بأن غبن كان متورطاً في خصومة الحاكم مع أخيه سرت الملك ، أو بأنه أخْصى عن الحاكم بعض الشكاوى الموجهة بحق غبن^(١) . ويدو الإحتمال الثاني أكثر ترجيحاً ، حيث تم عزل غبن وعقابه أثناء ارتفاع الأسعار ، ويتحمل أن تكون الشكاوى قد مسست واجباته كمحاسب .

ولم يدخل سجل الحاكم بأمر الله من جهود حشية لتفادي أخطار الأوئلة ، التي كانت عادة ما تصحب المجتمعات ، فلأجل الحفاظ على الثروة الحيوانية ، التي كانت تجناحها الأوئلة أيضاً ، أمر بمنع ذبح الأبقار السليمة من العامة إلا في أيام الأعياد حتى لا تتعرض وهو إجراء لجأ إليه ابنه الطاهر فيما بعد^(٢) . كما كان يصدر أوامره بمنع أكل أو بيع بعض المأكولات ، التي ربما يترب على أكلها مضار صحية وأمراض في عصره ، مثل الملوختيا والجرجير والقرع والمتوكلية ، وهي نبات للحساء ، والدلينس ، وهو نوع من الصدف يؤكل نيناً ومملحاً ، والترمس العفن ، وأمر كذلك بقتل الخنافير ومنع عجين الدقيق بالأقدام وكان يغرم المخالفين لذلك^(٣) .

أما مجاعات عهد الحاكم ، فقد بدأت بمجاعة في العام التالي لتوليه الخلافة عام ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م وكانتا على موعد مع الأقدار ، وكان الذي يتولى تدبير الدولة في هذه السنة (٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) ، أمين الدولة أبي محمد الحسن بن عمار . وسبب هذه المجاعة قصور النيل ، حسب رأي المقرizi ، الذي بلغت زيادة ١٦ ذراعاً وأصابع ، فارتفعت الأسعار ، واحتقى القمح ، واضطرب حبل الأمن ، وخطفت النساء من الطرق ، ووصل سعر الخبز إلى أربعة أرطال بدرهم ، ثم انخفضت الأسعار بعد ذلك^(٤) .

وإذا ما وضعنا في الإعتبار حدود وفاء النيل في العصر الفاطمي فإننا نلحظ أن هذا الحد من الزيادة (١٦ ذراعاً و٧ أصابع) لم يكن يعني التقطع ، وربما تكون زيادة النيل قد تأخرت بعض الوقت ، فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار وإحتكار الغلال ، خاصة وأن حالة من القوضى والاضطراب كانت تعم البلاد لتصارع المشارقة والمغاربة على السلطة في بداية خلافة الحاكم .

وفي عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ، انتشر الوباء في البلاد ، وحتى بين العاشية التي أمر الحاكم بمنع ذبح السليم منها إلا في عيد الأضحى كما حث على قتل جميع الكلاب حتى خلت

(١) د. حسن الباشا . المرجع السابق ص ٥٢٢

(٢) د. ماحد الحاكم بأمر الله - ص ٦٤

(٣) المرجع نفسه ص ٩١

(٤) المقريري إغاثة الأمة - ص ١٣ - ويدرك أن إيمان (ج ١ ص ٥٥) أن الناس احتمعوا تحت قصر الزمرد واستعملوا بالحاكم فقال إنه متوجه إلى جامع رائد وهي طريق عودته يريد أن تملأ الغلال الأرض ولا يضر عرق من يجد منها شيئاً عنه .. إلخ . وهذه الحوادث يذكرها المقريري في عام ٣٩٩ هـ ، وهذا أقرب للصحة حيث إن الحاكم في عام ٣٨٧ هـ كان في التاسعة عشر من العمر ، ولم يكن له شأن في تسيير أمور الدولة

منها الطرق^(١) ، ويبدو أنها كانت تنقل العدوى ، وفي إطار مقاومة الوباء منع أكل الدلينس ومنع السماكين من صيده وهدد من يخالف ذلك بالقتل^(٢) .

ويظهر أن الحكم تخوف من حدوث مجاعة في ظل إنتشار الوباء ، خاصة وأن النيل وصل في زيادته في هذا العام إلى ١٦ ذراعاً و٣ أصابع مما يعني عدم زراعة بعض الأراضي ، فأشاع جوا من الرهبة بين الناس ، وخاصة بين الكتاب ، وأصحاب الدواوين ، عندما عمل شونة ملئت بالبصص والسنط والحلفاء ، حتى قويت الشائعات بأن الحكم أعد لها لكتاب وأصحاب الدواوين ، فاجتمعوا متغرين فأعطائهم أماناً ، وتلى ذلك أمانات لطوائف الجنود والعبيد ، ثم التمس أهل الأسواق على طبقاتهم كتب أمان فكتبت لهم^(٣) . ورغم ذلك فإن الحكم قتل جماعة من الأعيان^(٤) .

وينبغي أن يضاف إلى الحسبان ، أن ثورة أبي رکوة التي بدأت في برقة ، بالاستيلاء على بعض أملاكها في جمادي الآخر سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م^(٥) ، أي في نفس الوقت الذي أعطيت فيه هذه الأمانات تقريباً ، فكان لا بد من إتخاذ هذه الإجراءات حتى لا تسول لأحد نفسه أن يستغل هذه الملابسات مجتمعة ، ومع ذلك فقد ارتفعت الأسعار عندما تحرك أبو رکوة نحو مصر ، وهدد الإسكندرية ثم أعمل السلب والنهب في ريف مصر ، متعاوناً في ذلك مع الأعراب الذين دأبوا على الإغارة على سكان الدلتا ، متربدين بذلك على السلطة المركزية التي أبوا أن يتضروا تحت لوائها بشكل مطلق^(٦) .

ويغض النظر عن بعض الإنتصارات الجزئية التي حققها أبو رکوة فقد نجح الحكم في نهاية الجولة في أن يقضي على أبي رکوة وبأسره وبشهره في القاهرة ، وإن كان قد اضطر خلال الإعداد للحرب إلى التخلص عن تشدده في أعمال الحسبة ، فأقبل المصريون على الإنضمام لجيشه ، خاصة بعد أن عاينوا التخريب الذي أحدهته جيوش أبي رکوة ، ووضعوا أموالهم كلها تحت تصرف الخليفة بل وتوقفت الأسعار عن الزيادة كدليل على صدق معاونة المصريين للحاكم^(٧) .

بيد أن تصارييف القدر شاعت أن ينخفض النيل في العام التالي ٣٩٧-١٠٠٦ م ،

(١) د. حسن إبراهيم حسن : القاطميون في مصر - ص ٢٢٨ . ويبدو أنه كانت هناك حالة من الجفاف تعم منطقة حوض المترسط فقد شهدت البريقا في نفس هذه السنة غلاء شديداً ووباء أودى بحياة الكثرين . أبو الفدا : البداية والهدا - ج ١١ ص ٣٣٥ ، ابن الأثير : الكامل - ج ٧ ص ٢٢٧ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن : القاطميون في مصر - ص ٢٢١ .

(٣) أيمن فؤاد سيد : نصوص صائمة من أخبار مصر - ص ٢٠ - ٢١ .

(٤) أبو المحاسن : التحريم الزاهري - ج ٤ ص ٢١٢ ، النهي تاريخ الإسلام - مجلد ٦ - ص ١٣ .

(٥) د. ماحد : ظهور خلافة القاطميين - ص ٢٤٧ . ويدرك ابن الجوزي أن ثورة أبي رکوة كانت في عام ٣٩٧ هـ - المستطر - ج ٧ ص ٢٢٣ . وكذلك ابن العماد الحنفي - شذرات الذهب - ج ٣ ص ١٤٨ .

(٦) د. راشد الرواوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٨٣ .

(٧) د. ماجد : الحكم بأمر الله - ص ١٦ .

لتشهد البلاد مجاعة خطيرة ، وطويلة نسبياً . وإذا كانت المصادر التاريخية ترجع سبب هذه المجاعة إلى انخفاض الفيضان ، فإن الأضطراب يسود تحديد مقدار هذا الإنخفاض .

البداية كانت بتوقف زيادة النيل فصلى الناس صلاة الاستسقاء مرتين ، ويبدو أن ذلك كان والنيل عند الذراع الثالثة عشر وأصبعاً^(١) ، ثم كسر الخليج بعد ذلك والنيل عند الذراع الخامسة عشر^(٢) وبعدها زاد النيل حتى وصل إلى ستة عشر إصبعاً من ١٧ ذراعاً ثم نقص بعد ذلك^(٣) . ليصل إلى ١٤ ذراعاً و ١٦ إصبعاً طبقاً لأبي المحاسن وابن أبيك ، وهو حد في زيادة النيل يعني المجاعة ، كما سبق التنويه آنفاً ، وقد صاحب هذه المجاعة وباء أودى بحياة الكثير من السكان^(٤) .

وكان من الطبيعي أن ترتفع الأسعار ، فأصدرت الأوامر لمسعود الصقلي متولى الستر بالنظر في أمر الأسعار ، فجمع خزنة الغلال والطحاني والخبازين ، وقبض على ما بالساحل من غلال وأمر أن لا تباع إلا للطحاني لمنع الوسطاء والسماسرة . وتم تسعير القمح ، كل تلمس بدينار إلا قيراطاً والشعير عشر وبيات بدينار ، وللحظب عشر حملات بدينار ، وسعر سائر الحبوب والمبيعات ، وهاجم عدة مخازن وفرق مابها على الطحاني وضرب جماعة بالسوط وشهرهم ، فتوافر الخبز في الأسواق وهدأت الناس^(٥) .

إلا أن استمرار إنخفاض النيل أدى إلى ارتفاع الأسعار مرة أخرى فبلغ القمح كل تلمس أربعة دنانير ، والأرز كل وبية بدينار ، ولحم البقر رطل ونصف بدرهم ولحم الضأن رطل بدرهم ، والبصل عشرة أرطال بدرهم ، والجبن ثمانى أوaci بدرهم ، وزيت الأكل ثمانى أوaci بدرهم ، وزيت الوقود رطل بدرهم ويبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم^(٦) . فأعيد على أثر ذلك تسعير الكثير من السلع ، فسعر الخبز كل اثنى عشر رطلاً بدرهم ، وللحم رطلين بدرهم ، وتمت معاقبة من يخالف ذلك بالجلد ، فسكنت الأحوال^(٧) . حيث إن العقاب لم يكن ينزل فقط بمن يخالف الأسعار ، فقد ضرب عدة من الطحاني والخبازين وشهروا لأجل ازدحام الناس على الخبز ، مما يشير إلى شبهة التباطوء في أداء العمل ، فأصبح الخبز لا يباع إلا ميلولاً

(١) المقريري . إغاثة الأمة - ص ١٥ .

(٢) المصدر نفسه - ص ١٦ .

(٣) المقريري . الححطط - ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٤) ابن الأثير . الكامل - ج ٧ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٥) المقريري . إغاثة الأمة - ص ١٥ - ١٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٦ .

(٧) المقريري . اتعاظ الحثنا - ج ٢ ص ٦٩ .

وزاد في الطنبور نغمة، استمرار توقف الزراعة في فيضان النيل عام ١٤٩٨هـ / ١٠٠٧م، حتى إن الناس استسقوا مرتين ، وفتح الخليج والماء على خمسة عشر ذراعاً فاشتد الغلاء^(١) . ثم بدأ نقص النيل بعد فتح الخليج أيام ، فاشتدت المسغبة ، وبيع الخبز مبلولاً ، وضرب جماعة من الخازين وشهرروا لتغدر وجود الخبز بالعشايا ، ويبلغ الغلاء ذروته في ربيع الآخر^(٢) . وعندما توقفت زيادة النيل عند ١٤ ذراعاً وأصابع اشتدت الأزمة ولحق الناس كل الضرر^(٣) . وكشفت الكارثة عن ساق بانتشار الأوبئة ، فاتحتفت الأدوية ، وضمن إجراءات الوقاية الطبية ، «شهر جماعة من الناس وجد عندهم فقاع وملونيه ولينس وضربيوا»^(٤) . ولأجل مواجهة السيل المنهمر من إرتفاع الأسعار ، وزيادة الإحتكار ، أمر الحاكم بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته ، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية ، وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل^(٥) .

ولاعتقاد الحاكم ، وكذلك بقية المسلمين ، أن سبب توقف النيل هو ما يقوم به العباد من إظهار المنكرات التي نهى الله عنها مثل السكر واللهو ، فقد منع الحاكم الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب النيل للتفرج ، ومنع بيع المسكرات ، وفرض ما يشبه حظر التجول من بعد العشاء وحتى الفجر^(٦) .

وحل موعد إحتفال الأقباط بعيد الشعانين^(٧) ، والغلاء على أشدّه ، فمنع النصارى من تزيين كنائسهم ، كما جرت عادتهم ، وبقى على جماعة منهم في شهر رجب ييدو أنهم حاولوا مخالفته نواهيه ، وأمر باحضار ما هو معلق على الكنائس وإثباته في ديوان الخليفة ، وكتب بذلك إلى كل الولاية ، وأحرقت صلبان كثيرة على باب الجامع في الشرطة^(٨) . (على شرطة الفسطاط).

وقد أتت الإجراءات السابقة ثمارها فخفت حالة إرتفاع الأسعار بعض الشيء في شهر رجب^(٩) . ويدو أن عدد الوفيات كان كبيراً خلال الأعوام ١٤٩٥هـ - ١٤٩٨هـ ، سواء من مات منهم

(١) المقرizi . الخطط - ج ٢ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٢) المقرizi : انتظام الحفنا - ج ٢ ص ٧١ .

(٣) المقرizi : إعابة الأمة - ص ١٦ .

(٤) المقرizi : الخطط ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٥) د. محمد حمال الدين مررور . الدولة الفاطمية في مصر - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٠ - ص ٩٣ .

(٦) المقرizi . الخطط - ج ٢ ص ٨٧ ، د. حسن إبراهيم . الفاطميون في مصر - ص ٢٢٨ ، الذهبي (شمس الدين) . تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام - محظوظ بدار الكتب المصرية برقم ٤٢ ، تاريخ ، مجلد ١٦ - ص ١٤٧ .

(٧) وهو عبد الريوتة ويعرف بعد الشعاني ومعناه التسيح ، ويكون في سابع أحد من صوم المسيحيين ، وجرت العادة بأن يخرجو سعف النخل من الكنيسة يومها ويرون أنه يوم ركوب المسيح الحمار في القدس ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف ويهيئ عن المنكر - المقريري : الخطط - ج ١ ص ٢٦٤ .

(٨) المقرizi انتظام الحفنا - ج ٢ ص ٧١ .

(٩) المقرizi : الخطط - ج ٢ ص ٢٨٧ .

بالوباء . أو قتل لمخالفة أوامر الحاكم ، الأمر الذي دفعه إلى إستحداث ديوان جديد يقال له الديوان المفرد ، ومهمته «الإسحواز على من يقضى ماله من المقتولين وغيرهم من المصادرين»^(١) .

وعندما كسر الخليج في العام التالي وكان مقدار الماء فيه ، ١٥ ذراعاً^(٢) ، تخوف الناس من استمرار الحالة التي يكابدوها منذ عامين ، فتظاهرروا في شارع بين القصرين ، واستغاثوا بالحاكم إلا يهمل أمرهم

وكان الخليفة عند حسن ظن رعايه به ، فركب حماره وخرج من باب البحر ووقف وقال : «أنا ماض إلى جامع راشدة . فأقسم بالله إن عدت فوجدت في الطريق موضعياً بطة حماري ، مكسوفاً من الغلة لأضربي رقبة كل من يقال لي إن عنده شيئاً منها وأحرقني داره وأهبني ماله » وتوجه إلى الجهة التي حددهما ، وتأخر حتى آخر النهار ، ليعطي فرصة كافية يحمل الناس خلالها غلالهم إلى الطريق . ولشلة حركة التقل بلغت أجرة الحمار في حمل النقلة الواحدة ديناراً . فلما امتلأت الطرقات بالغالل ، امتلأت عيون الناس . وساعد ذلك الحاكم على أن يصدر أوامره بتقدير ما يحتاج إليه في كل يوم وفرضه على تجار الغلال بالنسبيه وخيرهم بين أن يبيعوا بالسعر الذي يقرره ، بما في ذلك من قائمة محتملة ، وبين أن يتمتعوا فيخت على غلالتهم ، ولا يمكنهم من بيع شيء منها إلى دخول الغلة الجديدة ، فاستجابوا له وانخفضت الأسعار^(٣) .

من هذه الرواية يستفاد أنه رغم نقص النيل في العام السابق ، إلا أن بعض الأراضي كانت قد زرعت وأنه لو لا الإحتكار التجاري والتخوف من استمرار المجاعة ، وكانت الغلال تكفي حاجات السكان ، وتدل عبارة «الغلة الجديدة» على أن زيادة النيل قد سمحت بري بعض الأرضي ، وإنما كان هناك مجال للحديث عن «الغلة الجديدة» .

وقد وضعت هذه المجاعة أوزارها في شهر شعبان ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م حينما «تراحت الأسعار» على حد تعبير المقريزى^(٤) .

وشهدت خلافة الحاكم بعد ذلك أحاداثاً شبيهة بما حدث وإن كانت أقل شأناً وخطورة ، ففي سنة ٤٠٣ هـ - ١١ / ١٠١٢ م لرتفعت الأسعار ، مما اضطر الحاكم في رجب من هذه السنة إلى «قطع الرسم الجاري من الخبز والحلوى الذي كان يقام في شهور رجب وشعبان ورمضان ، لمن

(١) المقريزى : الخطط - ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) ذكر المقريزى أنه اتباع بلوع النيل الدراع السادسة عشر وحل على ابن الرداد ثم نقص من ١٩ توت (اتعاظ - ج ٢ ص ٧٦) .

(٣) المقريزى . إعاثة الأمة - ص ١٦ - ١٧ .

(٤) المقريزى : اتعاظ السمعان - ج ٢ ص ٧٨ .

بيت بجامع القاهرة من ليلة النصف من رجب»^(١) ، ولعل سبب ذلك عدم زراعة بعض الأراضي حيث بلغ النيل ١٦ ذراعاً و ١٠ أصابع (الملحق ١) وقد عاود الحاكم في هذه السنة إتخاذ بعض الإجراءات التي تحول دون مخالفة تعاليم الدين الإسلامي فنهى عن بيع الزبيب وأحرقه ومنع وصوله إلى مصر وأراق ما كان في المخازن من جرار العسل وأمر النصارى واليهود بليس الخيار والتمييز عن المسلمين وأفرد لهم أياماً خاصة في الحمامات^(٢) .

وفي عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م ، ارتفعت الأسعار وازدحم الناس على الخزف ففرق الحاكم مالاً على الفقراء^(٣) . وربما كان ذلك من جراء إنخفاض النيل في العام السابق لأنه بلغ في هذا العام ١٧ ذراعاً و ١٢ إصبعاً .

ويذكر المقريزى أن مجاعة قد وقعت عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م ، وإن كانت قد جاءت بعكس سابقاتها إذ ارتفع الفيضان في هذه السنة إلى ثلاثة أصابع من إحدى وعشرين ذراعاً ، «فترق المقياس وامتلاً كل مكان من المدينة ويبلغ الماء إلى نصف التخل مما يلي بركة الحبس ، ولم يبق طريق يسلك إلى القاهرة إلا من الشارع والصحراء ، وأدى ذلك إلى غرق الضياع والبساتين»^(٤) .

إلا أن قوائم النيل تخلو من ذكر لهنه الزيادة التي اتفقت المصادر التاريخية على أنها كانت ١٦ ذراعاً وأصابع فإن كان هناك ثمة مجاعة في هذه السنة فيكون سببها القصور النسبي لماء الفيضان .

أما اختام هذه السلسلة من مجامعتين عهد الحاكم بأمر الله فكان ، في سنة ٤١٠ هـ / ١٠٢٠ م ، حيث اشتد ارتفاع الأسعار حتى وصل سعر رطل الدقيق درهماً ، وبيع اللحم أربع أواق بدرهم ومات الكثير من الناس بالجوع ويبلغ عدد من مات في شهر رمضان وشوال وذى القعدة «مائة ألف وسبعين ألفاً سوى الغرباء وهم أكثر من ذلك»^(٥) .

ومن خلال استقراء قوائم الفيضان يمكن القول بأن سبب هذه المجاعة الأخيرة ، هو ارتفاع فيضان النيل إلى حد إغراق الأراضي الزراعية (١٩ ذراعاً و ٨ أصابع) ، ويكون ما أورده المقريزى بشأن المجاعة التي حدثت عام ٤٠٦ هـ منطبقاً على هذه السنة ، ويرجح أن يكون المقريزى قد خلط بين أحداث السنتين ، ويؤكد ترجيحنا لهذا الاحتمال أن سنة ٤٠٦ هـ بلغ النيل فيها حسب أبي المحاسن ١٦ ذراعاً وأصابعين وحسب ابن أبيك ١٦ ذراعاً و ٩ إصبعاً ، وهو حد يعني عدم زراعة بعض الأراضي ، وذلك في ضوء أن المقريزى الذي انفرد بذكر مجاعة ٤١٠ هـ ، لم يوضح سببها .

(١) أيمن فؤاد سيد : بتصوّص صائعة - ص ٣.

(٢) ابن خلقات : وقيات الأعيان - ج ٤ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ ، الدعوي : تاريخ الإسلام - مجلد ٦ - ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) المقريزى : انتهاز - ج ٢ ص ٩٣ ، الخطط - ج ٤ ص ٢٨٧ .

(٤) المقريزى : انتهاز - ج ٢ ص ١١٢ .

(٥) المقريزى . انتهاز - ج ٢ ص ١١٥ .

أما الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم ، فعلى الرغم من قصر مدة خلافته (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م) فإن البلاد شهدت في عهده مجاعة مخيفة إمتدت عامين (٤١٤ - ٤٢٣ هـ / ١٠٢٥ - ١٠٢٦ م)^(١) .

وجملة الأحداث والملابسات التي وقعت خلال هذين العامين تثبت بشكل قاطع أهمية الدور الذي تلعبه الإدارة المركزية ، في الحد من مخاطر نقص الفيضان ، خاصة إذا ما قورنت بما وقع أيام الحاكم بأمر الله .

فلقد كان الظاهر ، خلافاً لأبيه ، ضعيف الشخصية ، مسلوب الإرادة مع رجال الدولة الذين تركزت في أيديهم سلطات إدارة البلاد حتى أصبح لا يدخل عليه سوى ثلاثة منهم (الشيخ بجيت الدولة الجرجراطي ، والشيخ العميد محسن بن بدوس ، والقائد معضاد) ويخرجون ليسروا أمور الدولة بينما انهمك الظاهر في ذاته^(٢) . فقد اشتهر بشغفه باللهو وحب الغناء ، وتسراء المماليك ، كما اتخد خزانة للبنود يعمل بها ثلاثة آلاف صانع ، واستكثر من شراء المجوهرات ، وأصبح الترف سمة لعصره ، إذ حاكاه رجال الدولة وميسير القوم ، الذين تألفوا واتخذوا المغنيات والراقصات^(٣) .

ويبدو الأمر كما لو كان الظاهر قد أتى ليجني فقط ثمار جهاد أسلافه في إقامة أول خلافة شيعية ، غير مدفوع بهذه الروح الدينية التي أشيع بها الخلفاء الأول ، والتي دفعتهم إلى الحدب والسهر على راحة رعاياهم .

وبناءً على ذلك يمكن إجمال أسباب هذه الماجاعة في :

١ - ضعف سلطة الخليفة ، رأس الدولة المركزية ، وبناءً على ظهور رجال الدولة الأقوية كأنداد للخليفة ، يشاركونه سلطاته الزمنية .

كما أن الظاهر أهمل واجباته ، كممثل للسلطة المركزية ، فلم يهتم بتوفير الغذاء للناس ، بل وفي أوج الأزمة قام بالاستيلاء على ما ورد إلى ساحل مصر من مراكب مملوقة قمحاً ، ورسم بتسليمها لقصر الخلافة وأدى ذلك إلى إرتفاع الأسعار^(٤) . ومن المفارقات التاريخية أن الظاهر نزل إلى القاهرة في نصف ذي القعدة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م ، والغلاء على أشدّه «وشق البلد بدللين وخلفه الخدم المقددون والمصطمعة وبين يديه الرقادصون»^(٥) ، وفي حين أن الحاكم أبطل مظاهر الله والاحتفالات بواعز ديني كما أسلفنا . ولم يترك أفراد الشعب المصري هذه

Lewis (B) and others , The Cambridge History of Islam . London 1970 — Vol 1 P . 1880.

(١)

(٢) المقريري : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤ .

(٣) المصدر نفسه - ج ١ ص ٣٥٥ .

(٤) المسبحي ، الأمير المختار عن الملك محمد بن عبد الله بن أحمد . أخبار مصر - تحقيق أimen فؤاد السيد ، وتياري بيانكي - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٧٧ - ج ٤ ص ٣٩ .

(٥) المصدر نفسه - ص ٧٣ .

المناسبة دون أن ينددوا بسلوك الخليفة ، مذكرين إياه بما فعله أبوه ، فاعتراضوا مسيرة الخليفة في تظاهرة ضخمة وهم يهتفون «الجوع يا أمير المؤمنين . الجوع ، لم يصنع بنا هكذا أبوك ولا جدك فالله الله في أمرنا»^(١) .

٢ - أدى ضعف الخليفة إلى تضخم دور رجال الدولة الذين مارسو تجارة الغلال بغية الربح ، ثم تمادوا في ذلك إلى حد إحتكار الغلال والتحكم في أسعار البيع . ويدل على ذلك نصان ، وردا لدى المسيحي ، أولئما في حوادث رجب ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ويتعلق «بفتح مخازن لجماعة من رجال الدولة» لتفرق غلاتها على الناس بسعر منخفض^(٢) . والثاني في حوادث ذي الفعدة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م ويشير إلى فتح مخزن لرجل يدعى مسعود ، غلام الشيخ نجيب الدولة أبي القاسم الجرجراطي ، وبيع القمح الذي فيه ثلاثة دنانير التلisis فتزاحم الناس عليه^(٣) . رغم أن هذا السعر لا يبعد كثيراً عن سعر البيع في ذي الحجة (أربعة دنانير وثلث للتلisis) وهو سعر أصحاب الناس بمسقبة على حد تعبير المسيحي نفسه^(٤) . ولقد لعب الإحتكار دوراً بارزاً في اشتداد هذه الماجاعة وخاصة في عام ٤١٥ هـ بعد أن بلغ النيل حداً يمكن معه زراعة بعض الأراضي ودرء خطر الجوع ، ولم تقتصر الممارسات الإحتكارية والتلاعب بالأسعار ، على رجال الدولة وعلمائهم ، فقد كان هناك أيضاً مخالفات من جانب الخبازين والطحانين وتجار الغلال الذين عثروا من قبل المحاسب .

٣ - خطر الغزو الخارجي ، الذي لاح على حدود مصر الشرقية من قبل حسان بن مفرج بن جراح الطائي عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ - ٢٤ / ١٠٢٥ م ، مما أدى إلى زيادة الأسعار بعد انخفاضها .

٤ - نقص زيادة النيل عام ٤١٤ هـ إلى ١٤ ذراعاً و ٤ إصبعاً ، وهو حد يعني الماجاعة ، وإن كان النيل في العام التالي قد وصل إلى ١٦ ذراعاً و ٨ أصابع .

وتبدأ أحداث هذه الماجاعة في الثلاثة أيام الأخيرة من جمادي الآخر عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م بنقصان ماء النيل بعد أن أوفى ، فلم ترو لذلك الضياع ، وكثير من الأراضي ، «فكثرة ضجيج الناس واستغاثتهم إلى الله ، وخرج أكثر السكان من الرجال والأطفال ومعهم المصايف المنشورة إلى جبل المقطم يستغيثون بالله تعالى فلم يغاثوا»^(٥) .

وكان أول رد فعل - عملي - هو إحجام التجار عن بيع الغلال فوصل سعر تلisis القمح إلى

(١) المقريزي : الخطط ١ ص ٣٥٤ .

(٢) المسيحي . أخبار مصر ٤٠ ص ١٥ ، المقريзи : إنعام الحفاف ٢ ص ١٣٥ .

(٣) المسيحي : أخبار مصر ٤٠ ص ٧٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٨٦ .

(٥) المسيحي : أخبار مصر ، ج ٤٠ ص ١٢ ، المقريзи : إنعام الحفاف ٢ ص ١٣٤ - ١٣٥ .

دينار ثم احتفى القمح كلية وأصبح بيع سراً بدينارين للتلبس ، ووصل سعر حملة الدقيق إلى دينارين وربع ، والخبز أربعة أرطال بدرهم وثمان مع ندرة وجوده في الأسواق ، وبيع التبن بعشرين درهماً الحمل^(١) .

وفي محاولة للقضاء على ارتفاع الأسعار عزل ابن عزة متولي الحسبة ، وعرضت الحسبة في رجب ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م على العميدى الذى كان قد عزل من تولى الترتيب ، فأبى أن يصبر محتسباً بعد أن كان جليس أمير المؤمنين وصاحب خريطة ، فتم تعين دواس بن يعقوب الكتامي ، محتسباً على الأسواق والسواحل ، وخلع عليه بشوب مثلث وعمامة ، ونزل إلى القاهرة في موكب عظيم ، حتى أنهى إلى مجلس الحسبة ، فأحضر هناك الخبراء وتجار الدقيق وضرب بعضهم وشهرهم فارتدع الناس ، وانخفضت الأسعار وظهرت الغلال في الأسواق^(٢) . ولأن هذه الإجراءات لم تمس إحتكارات وغلال رجال الدولة ، الذين مارسوا رفع الأسعار ولا شك ، فإن الأمور ما لبثت أن عادت إلى سيرتها الأولى ، وبعد أيام قليلة أفقد الخبر ، وكثير الإزدحام على دكاكين الخبر ، وكان غاية ما فعله المحتسب أن أمر بيل الخبر في الماء في القصارى على أن يباع بسعر ثلاثة أرطال بدرهم . وبصرف النظر عن أن هذه أول مرة يرد فيها هذا الإجراء ، فإن ذلك كان يعني عملياً إقرار سعر أكثر إرتفاعاً من الذي كان يباع به الخبر جافاً (أربعة أرطال بدرهم وثمان) طالما كان بيل الخبر يعني زيادة وزنه ، أي أنه نوع من الغش التجارى المستر والمقنن .

وهو أيضاً تحبيز للتجار على بيع الخبر نظراً لارتفاع أرباحهم وبحمامة المحتسب - فظهرت الأخبار في الأسواق بعد ذلك .

ولضمان إستمرار وجود الخبر ، فتحت مخازن لجامعة من رجال الدولة ، وأطلق للناس من السواحل غلة كبيرة ، وقام المحتسب بضرب جماعة من الخبراء وشهرهم بسبب رفعهم الأسعار ، وضيق على الطحانين ، الذين كانوا فيما يبدو ، يقومون ببيع الدقيق للناس بسعر مرتفع بدلاً من بيعه للمخابز التي تشتري الدقيق وتبيع الخبر بأسعار محددة ، حتى إنه الزمهم بترك عملهم في طحن الغلال وختم على مخازنهم وفُلست طواحينهم وجعلهم حجازين^(٣) .

(١) المسيحي . المصدر السابق ص ١٢ - ١٣ . ذكر المقريزي في اتعاظ الحجاج (ج ٢ - ص ١٣) الأسعار منها عدا أنه ذكر أن «تمن الحمل الدقيق بعشرين درهماً»، وهو ما أثار استغراب المحقق (هامن) (١) نفس الصفحة، حيث إنه بذلك ، يكون تلبس القمح وهو ما يوازي بصف حملة الدقيق وزنة بليارين وربع بينما تكون حملة الدقيق بدينارين وربع دينار حيث إن الرطل المصري يساوي مائة وأربعة وأربعين درهماً والتلبس مائة وخمسون رطلاً وخمسمون رطلاً مصررياً حسب ابن معaticي . والواضح أن النسخة المحققة كان بها خطأ من النسخ أو يكون المقريزي - وهو أمر مستبعد - قد أخطأ عند نقله عن المسيحي - الذي ورد فيه أن الحمل الذي بعشرين درهماً كان من التبن، وكلمة تمن هي تعي درهم في «الخبز أربعة أرطال بدرهم وثمان»، ولا تعني التبن، أي السعر .

(٢) المسيحي . المصدر السابق ص ١٣ - ١٤ ، المقريزي : اتعاظ الحجاج ٢ ص ١٣٥ .

(٣) المسيحي . المصدر السابق ص ١٥ - ١٦ ، المقريزي - اتعاظ الحجاج ٢ ص ١٣٥ .

أهلت سنة ٤١٥ هـ والأزمة لا زالت قائمة ، وتضارب الأقوال بشأن زيادة النيل في هذه السنة . فالمرجع يذكر أن زيادة النيل جاءت ناقصة ، «ولم ير النيل فيما تقدم من السنين أقل نقصاناً منه في هذه السنة»^(١) . ثم يعود فيذكر أن ماء النيل بلغ ١٦ ذراعاً و ٨ أصاعيق^(٢) . ويورد ابن أبيك وأبو المحاسن أن الزيادة كانت ١٦ ذراعاً . وهذه الحدود كما أسلفنا لا تعني المجاعة ، إلا أنها مع وجود مجاعة في العام السابق والعوامل السابقة الإشارة إليها ، من الممكن أن تزداد الأمور سوءاً ، وهذا ما كان . فبدأ ارتفاع الأسعار من شهر ربیع الآخر ، وخاصة سعر القمح الذي بلغ التلیس منه ثلاثة دنانير ، «والشعير بیع أربع وبیات بدینار ، وبیع الخبز رطلين ونصف بدرهم ، ويبلغ سعر حمل تین الدواب دیناراً إن وجد ، وارتقت أسعار كل ما يؤكل»^(٣) .

وفي الشهر التالي ، واصلت الأسعار إرتفاعها ، لاستيلاء الدولة على ما ورد إلى المقس من غلال لصالح مخازن القصر الفاطمي^(٤) .

ويظهر أن الأحوال بلغت حدًا لا يصح السكوت عليه ، تشکك معه الخليفة في كفاءة ، وربما أمانة ، المحاسب ، دواس بن يعقوب ، فتم عزله في ٤ ربیع ٤١٥ هـ ، ليحل بقى الخادم الأسود غلام بدر الدولة نافذ مكانه ، إضافة إلى توليه الشرطين (القاهرة والفسطاط) .

وحاول المحاسب من أول يوم أن يضع حدًا لتدحر الأحوال فنزل إلى الفسطاط ، ونظر في الحسبة وأمر أن بیاع الخبز الخشكار خمسة أرطال بدرهم والحواري أربعة أرطال بدرهم^(٥) .

على أن أصحاب الطواحين وحوانيت الخبز ، الذين استساغوا تساهلاً ابن يعقوب ، لم يرتسدوا هذه الأسعار ، وامتنعوا عن فتح الطواحين والحوانيت طوال اليوم التالي (٥ ربیع) فلم يجد الناس خبزاً ولا دقیقاً . ومن ثم اضطر الخليفة إلى عزل بقى من الحسبة يوم ٦ ربیع وإعادة دواس إليها . فأمر المحاسب العائد بأن بیاع الخبز الذي بیاع في الأفران خمسة أرطال بدرهم ، ولعله يقصد بذلك الخبز الخشكار وهو نفس السعر الذي قرره المحاسب المعزول ، على أن تباع بقية الأنواع الأخرى من الخبز بدون تسعیر ، وهو كما نرى «حل وسط» يضمن توفر ما يسد به رمق الناس من الخبز الرديء ، وفي نفس الوقت يضمن زيادة مکاسب التجار فيما سواه من الأنواع الجيدة ، وبالفعل

(١) المقريري : اتعاظ الحتفاج ٢ ص ١٤٢ ، الخططج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) المقريري : اتعاظ الحتفاج ٢ ص ١٧٢ ، ويفترى المسمحي أن الميل قد ألوى في هذه السنة وهو الأصح . اسظر المسمحي - المصدر السابق ج ٤٠ ص ٤٧ .

(٣) المسمحي : أخبار مصر ج ٤٠ ص ٣٢ ، المقريري : اتعاظ الحتفاج ٢ ص ١٤٢ .

(٤) المسمحي : المصدر السابق ص ٣٩ ، المقريري : نفس المصدر ج ٢ ص ١٤٤ .

(٥) المسمحي : المصدر السابق ج ٤٠ ص ٤٧ - ٤٨ . والخشكار هو الدقيق الذي لم يستحسن طحنه ، ولا تخله والخبز الخشكار هو المصور بدقیق القمح والردة ، والحواري هو الدقيق الأبيض والخبز الحواري هو المصنوع من الدقيق الأبيض - (اسظر - المسمحي هاشم ٤، ٣ ص ٨٤) .

ظهر الخبز في الأسواق وبيع الخبز السعيد رطلين ونصف مدرهم ، وما دون هذا النوع ثلاثة أرطال بدرهم ^(١) .

وإذا ما أردنا ترتيب حوادث هذه الأيام الثلاثة من شهر رجب ، على سحو فيه بعض من الرواية التأmerية للتاريخ ، فإنه يمكن القول بأن دواس بن يعقوب كان متوفهاً - إن لم يكن متواطناً - ل موقف محتكري وتجار الغلال من رجال الدولة ، الذين تعاونوا مع بقية تجار الغلال والطحانين والجبارين على إحباط إجراءات المحاسب الذي عينه الخليفة (يقى الأسود) وإظهاره بموقف العازز ، ليعود دواس بإيعاز من كبار رجال الدولة المسيطرین على الخليفة ، وكان لهم ما أرادوا ، ولا شك أن إجراءات هذا المحاسب والأسعار التي كان يقررها ، كانت كلها في صالح التجار والمحتكرين قبل أي فئة أخرى .

ولذلك ، فقد كان من الطبيعي أن لا يدوم وجود الخبز في الأسواق إلا أيامًا معدودات ، إذ عادت الأسعار إلى الإرتفاع وخاصة ثمن القمح والدقيق والخبز ، وأضطررت الأحوال لذلك في نفس هذا الشهر ^(٢) . وساعد على ذلك أنه سرت في البلاد شائعة مؤداها أن حسان بن جراح الذي خرج على الخلافة في الشام بعث بخمسةمائة فارس إلى العريش ، لم يعرف مقصدتهم ، فخاف الناس أن يدخلوا عن طريق القرافة فانتقل سكانها إلى الفسطاط وكذلك فعل أهالي بليس ، وازاء إرتفاع الأسعار وأضطراب الأحوال اضطررت السلطات إلى إعادة القرافة إليها حتى تسكن الحالة ^(٣) .

استمر إرتفاع الأسعار حتى شهر شوال فبلغ سعر تلیس القمح دينارين ثم ثلاثة دنانير غير ثمن التلیس (العبوة) ، وتلیس الشعير ديناراً واحداً ثم السنت وسبعين ديناراً ، والخبز رطلين بدرهم ، والدقيق رطلين بدرهم واللحم الرطل بثلاثة دراهم مع تعذر وجود اللحوم سواء من الدواجن أو الحيوانات ^(٤) . ويتظاهر أن وباء قد أصاب الحيوانات والدواجن مما أدى إلى إرتفاع أسعارها حتى وصل ثمن رأس البقر إلى خمسين ديناراً ^(٥) ، الأمر الذي أضطر الظاهر إلى إصدار أوامره بعدم ذبح شيء من الأبقار السليمة وهدد من يفعل ذلك بالقتل وذلك بفرض الحفاظ على الحيوانات التي تساعده في أعمال الزراعة من حرث وري ونحو ذلك ^(٦) .

وقد أثر تناقص أعداد الحيوانات على أسعار مياه الشرب التي كانت تقوم بتقليلها ، فبلغت راوية

(١) المسيحي : أحصار مصرج ٤٠ ص ٤٨ - ويدرك المحققان (هاش ٥) أن السيد هو الحواري وربما يكون السيد نوع أصل من الحواري .

(٢) المسيحي . المصدر السابق ص ٥٢ .

(٣) المقريزى : انتظام الحففاج ٢ ص ١٥٤ .

(٤) المسيحي . أحصار مصرج ٤٠ ص ٦٧-٦٩ ، المقريزى انتظام الحففاج ٢ ص ١٦١-١٦٢ .

(٥) المقريزى : المخطoj ١ ص ٣٥٤ .

(٦) المقريزى . انتظام الحففاج ٢ ص ١٤٩ .

الماء البغل درهمين والراوية الجمل ثلاثة دراهم^(١).

ولم يكن الوباء متفشياً فقط بين الحيوانات، بل انتشر بين الناس وازدادت حدة في شهر شوال فيها ييدو، وذلك ما يفسر ارتفاع أسعار ما يحتاج إليه المرضى، حيث بلغ سعر الرمانة الواحدة ثلاثة دراهم، والبطيخة البرلس ثلاثة درهماً، والأوقية الشراب درهماً^(٢).

وكان إنتشار الأوبئة من الكثافة، حتى إن الناس تشغلوا بها عن شراء ما كانوا اعتادوا عليه من الفواكه والحلوى في ليلة ميلاد المسيح، التي حلّت يوم الخامس والعشرين من شوال، «حتى إنه لم يخل منزل أحد من المرضى وأوجاع الدم والحلوى»^(٣).

وفيما عدا المأكولات والمشروبات على اختلاف أنواعها، فقد انخفضت قيمة ما يملكه الناس من متعة، فطرحت الثياب والأمتعة في الأسواق، ولم تجد من يشتريها بدرهم^(٤). بل وانخفضت القوة الشرائية للعملة «فيكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزاً فلا يجد له»^(٥).

ووسط هذا الخضم من المأسى لم يجد الظاهر لإعزاز دين الله أى عضاضة في أن يحتفل مع الناس بعيد الغطاس في رابع ذي القعدة وكان متنه إهتمامه أن أمر بعدم إحتلال النصارى بالمسلمين^(٦).

وخلال شهر ذي القعدة، ازداد تعقد الموقف، بعد أن نما إلى علم الناس إرسال حسان بن جراح ألف فارس إلى الفرما، فقر الناس منها إلى تيس بالمراكب، وأخذ الناس بمصر في التحفظ على أموالهم «فقد القمح والدقيق والخبز»^(٧). وقام المحاسب بمعاقبة جماعة من الخبازين لأنهم وجد موازينهم للأرطال ناقصة، وصنجهم التي يزنون بها الدراما زائدة^(٨).

واشتد الغلاء يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة فيبيع الخبز السميد رطلين بدرهم وربع والخبز الخشكار رطلين بدرهم، والحملة الدقيق بأربعة دنانير ونصف وقيراطين، والتليس القمح بثلاثة دنانير، ويبيع اللحم أربع أوaci بدرهم^(٩).

(١) المسحي . المصدر السابق ص ٦٩-٧٣ المقريزي : الخطط ح ١ ص ٣٥٤.

(٢) المسحي . نسخة ص ٦٩ - المقريزي : اقطاع الحفاج ح ٢ ص ١٦٢.

(٣) المسحي المصدر السابق ص ٦٩.

(٤) المسحي المصدر السابق ص ٦٩، المقريزي اقطاع الحفاج ح ٢ ص ١٦٢.

(٥) المقريزي المصدر السابق ص ١٧١-١٧٢.

(٦) المقريزي الخطط ح ١ ص ٢٦٦.

(٧) المصدر نفسه ح ١ ص ٣٥٤، اقطاع الحفاج ح ١ ص ١٦٦

(٨) المسحي المصدر السابق ح ٤٠ ص ٧٢

(٩) المسحي المصدر السابق ح ٤٠ ص ٧٢

فازدادت مسعة الناس الذين كثروا الموت بينهم لتفشي الوباء وخاصة بين الفقراء والمساكين ، وبلغ الأمر بالناس أن جزاراً طرح عظمة ل الكلب فرأه رجل شاب مستور متغافف فطرد الكلب وأخذ العظم منه ولم ينزل يمتصه نياً إلى أن نال من مصبه بلغه فرماه من يده وذهب . ولم يجد الفقراء ما يأكلونه ، فأطعموا أولادهم قضبان القنبيط (وهو أغلى أنواع الكرنب) التي كان البقالون يتزعنها من رؤوس الكرنب ويرمونها ، فيجمعها الفقراء ليقتاتوا بها وباليسير من كسب اللوز والسمسم ، وارتفعت أيضاً أسعار البقول^(١) .

وأخيراً ، شمر المحاسب دواس عن ساعد الجد ، فأحضر حمالي القمح وضربهم حتى أثروا بمخازن التجار وسماسرة الغلال ، التي يحملون إليها الغلال ، وكتبوا له ١٥٠ مخزنًا للقمح ، «فوضع الطوابع عليها وهدد بقطيع يد من تسول له نفسه أخذ حبة قمح منها»^(٢) .

وتقتضي مجريات الأمور أن يقوم المحاسب بالبيع من هذه المخازن في اليوم التالي - السبت ١٤ ذي القعدة - إلا أن ذلك لم يحدث لسبب لم تذكره المصادر التاريخية . ولعله أن المحاسب أراد أن يعطي الفرصة كاملة لكتار رجال الدولة الذين يتجررون في الغلال ، كي يبيعوا مخزونهم بأعلى سعر ممكن . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد قام مسعود غلام الشيخ نجيب الدولة أبي القاسم الجرجائي ، بفتح مخزن قمح له وبائع منه بسعر ثلاثة دنانير التليس ، فتزاحم الناس عليه^(٣) .

المهم أن الخير والدقيق لم يظهرها بالأسواق منذ يوم الجمعة وحتى يوم الاثنين ١٦ ذي القعدة ، ووصل سعر الدقيق ، إن وجد ، رطلاً ونصف بدرهم والخبز الأسود وطلين بدرهم وربع^(٤) . فثارت الرعية وخرجوا إلى الشوارع في مظاهرات ضخمة واعتتصموا ركب الخليفة الذي تقدمه الرقاصون والخدم في النصف من ذي القعدة وهم يصيحون «الجوع - الجوع» ومطالبين الخليفة أن يهتم بأمرهم^(٥) . بل وقام أحد المغاربة وهو أبو عبد الله محمد بن جيش بن الصمصاصي الكتامي ويقال إنه كان مجنوناً ، بالوقوف تحت القصر ، وأنفذ يسب الخليفة على أقيع وجه وبالغ في ذلك فضربه الرقاصون حتى سقط وجروه برجله وسحبوه إلى السجن ، حيث ضربه متولي الشرطة ثلاثين درة واعتقله^(٦) .

ولم تقطع مظاهرات الناس في الشوارع ، وظل هتافهم «الجوع» يشق الهواء ولا وجود لخبز أو دقيق في الأسواق ، فتم استدعاء المحاسب دواس بن يعقوب إلى القصر في السادس عشر ذي

(١) المصدر نفسه ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٤ - المقريري : انتظام الحفاج ٢ ص ١٦٥ .

(٣) المسيحي : المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٤) نفسه ، المقريري . انتظام الحفاج ٢ ص ١٦٥ .

(٥) المسيحي . المصدر نفسه ص ٧٣ ، المقريري . الححطح ١ ص ٣٥٤ .

(٦) المقريري انتظام الحفاج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

القعلة ، وعنت وهدد ، واتهم بأنه فتن البلاد على الخليفة ، وتم تذكيره بأنه كتب بخطه تعهداً بتوفير القمح والخبز حتى إدراك الغلة الجديدة (وهذا دليل جديد على وفاء النيل) فتعهد المحاسب محدداً ، بتدارك الأمر وقام من فوره بتوزيع القمح على الطحانين وسعره عليهم بدينارين ونصف التلisis ، وأمرهم بأن يباع الدقيق بأربعة دنانير الحملة ، والخبز رطلاً ونصف بدرهم ، فسكن الناس لذلك قليلاً^(١) . وهذه الأسعار ليست بعيدة عن الإرتفاع .

إلا أن المحاسب كان له رأي آخر ، فقبل انتهاء هذا اليوم نزل من القاهرة ومعه سجل بالغام جميع المكوس المقررة على الغلات الواردة إلى السواحل ، وهذا يعني تخفيض أسعارها ، ثم أضاف أمراً غاية في الغرابة حيث ألغى التسعير الذي قرره قبل ساعات . ظهر الخبز والدقيق في الأسواق ويأسعار قريبة من تلك التي ضج الناس بالشكوى منها ، إذ وصل سعر تلisis القمح إلى ثلاثة دنانير إلا ربعاً (وكان ثلاثة دنانير) والخبز السميد رطلين بدرهم وربع ، والخبز الحواري رطلين بدرهم^(٢) .

ويعد هذه الحوادث يصبح إحتفال تواطؤ المحاسب مع تجار الغلال من كبار رجال الدولة ، أمراً أبعد من مجرد التشكيك ، إذ أنه كرس إرتفاع الأسعار ، رغم إلغاء مkos الغلة .

وأطمعت سياسة المحاسب غير العادلة ، الجشعين من التجار والباعة ، الذين لم يقتعوا بأزارياحهم العالية ، فلتجأوا إلى رفع الأسعار والغش ، ففي ٢٤ من ذي القعده ، ضرب المحاسب بعض بائعي الدقيق وشهرهم على الجمال في شوارع مصر و كانوا إثنين وعشرين رجلاً وفيهم مقدمهم ويعرف باسم البوري ، وذلك لمحاالتهم في الأسعار وسود الأخبار وفساد الدقيق وخلطه بالمسحوق ، وأعادهم إلى السجن بعد ذلك^(٣) .

ولم يكن الغش فقط في الدقيق والخبز ، بل امتد إلى المازين . ففي ٧ ذي الحجة ضرب المحاسب بالفسطاط رجلاً حلاوة يسكن على باب زقاق القناديل وشهره على جمل لأنه وجد أرطاله التي يبيع بها ينقص كل رطل منها أوقتين وكل صنجة يزن بها الدرهم تزيد ثمن درهم^(٤) .

ويعد هذا الحدث تأكيداً جديداً على دور الإحتكار التجاري وممارسات التجار الأنانية ، وما وصل إليه الحال من إستخفاف بالسلطة المركبة من قبل التجار .

وكان من المنطقى ألا تقلع محاولات الردع التي قام بها المحاسب ، فعاودت الأسعار إرتفاعها من جديد خلال شهر ذي الحجة ، قيبح القمح بأربعة دنانير وثلث للتلisis ، والحملة الدقيق

^(١) المسحي المصدر السابق ص ٧٤ - ٧٥ ، المقريري : انتهاج ٢ ص ١٦٥ ويلاحظ أن سعر التلisis القمح يوم ختم على المحارب (١٣ ذي القعده) كان ثلاثة دنانير أي أن المارق هو نصف دينار فقط .

^(٢) المسحي المصدر نفسه ص ٧٥ ، المقريري انتهاج الحقائق ٢ ص ١٦٦

^(٣) المسحي المصدر السابق ص ٧٦ ، المقريري : انتهاج الحقائق ٢ ص ١٦٦

^(٤) المسحي - من المصدر ص ٧٨

بستة دنانير ، والخبز رطل بدرهم ، «فأصاب الناس لذلك مسحة شديدة»^(١) .

ولم يكن ذلك بأخر تصاريف القدر ، إذ سرعان ما قام العبيد بمهاجمة سواحل الغلة ونهبوا وأحرقوا ، فاختفت الأخبار والدقيق ، رغم إرتفاع أسعارها حتى وصل الخبز إلى رطل واحد بدرهم^(٢) .

وأنفرد المقرizi بيبراد مجاعة حديث في عام ٤١٧هـ - ١٠٢٧م وارجع سببها إلى إرتفاع الفيضان فوق العادة حتى غرفت القرى ، واضطربت الأحوال^(٣) . مع أن النيل حسب الدواداري وأبي المحاسن كانت زيادته ١٦ ذراعاً و٧ أصابع فقط .

وفي عام ٤٤٢هـ / ١٠٣١م ، كادت مأساة ٤١٤ - ٤١٥هـ أن تكرر نفسها ، حينما تأخرت زيادة النيل عن أوانها أربعة أشهر ، لولا أن اتخذت الدولة تدابيرها باستيراد الغلال من الشام ، ثم جاءت زيادة النيل فاستقامت الأحوال^(٤) .

وفي سنة ٤٢٦هـ / ٣٤ - ٣٥٠م حدثت بالبلاد مجاعة بسبب تكاثر الفئران حتى أكلت الزرع وانتشر الوباء بين السكان تبعاً لذلك^(٥) :

تعدّ فترة خلافة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) حداً فاصلاً بين عهد الخلفاء الأقوية وعصر الوزراء العظام وكأي فترة تحول تاريخي ، حفلت خلافته بأحداث جسام ، يحار الدارس أمام تشابك أحداثها ، وتناقض معلوماتها ، ناهيك عن صعوبة الفصل بين الأسباب والتائج ، حيث توالي الأحداث عملها تأثيراً وتاثراً .

ويديهي أن ما وقع من أحداث في خلافة المستنصر بالله ، تكمن بنوره في فترات سابقة ، طالما كان كل جديد نابتاً من القديم ويحمل بعضًا من صفاتيه ، وجاءت ولادة عصر المستنصر من رحم خلافة أبيه الظاهر لإعزاز دين الله ، والذي يعد فترة إنقال بين عهدين ، عهد سيطرة الخلفاء وعهد سيادة الوزراء .

وقبل الدخول إلى سرد وقائع المجاعات التي عاشها الناس في عهد المستنصر بالله يحسن أن أعرض للأسباب العامة التي كانت وراء هذه الأحداث .

(١) المسيحي المصدر السابق ص ٨٦

(٢) المصدر نفسه ص ٨٨ ، المقريري . انتطاح المحتاج ٢ ص ١٧٠

(٣) المقرizi : انتطاح المحتاج ٢ ص ١٧٥ ، الحلطخ ١ ص ٣٥٥

(٤) انتطاح المحتاج ٢ ص ١٨٠ ، الحلطخ ١ ص ٣٥٥ . يذكر أبو العدا أنه حدثت رلازل بمصر والشام وهدمت شيئاً كثيراً ومات

تحت الأنقاض الكثير من الناس سنة ٤٢٥هـ البداية ج ١٢ ص ٣٦ .

(٥) المقريري انتطاح ٢ ص ١٨٠

١ - ضعف السلطة المركزية :

يرجع سبب هذه المجاولات قبل أي شيء إلى ضعف شخصية المستنصر بالله ، الذي ولد الخلافة وعمره سبع سنوات^(١) وإذا كان أبوه قد حافظ بعض الشيء على سلطاته الزمانية ، رغم تفرد رجال دولته بإدارة معظم شؤون البلاد ، فإن المستنصر لم يستطع بعد أن شب عن الطوطق أن يستخلص صلاحياته من براثن الوزارة ورجال الإدارة والجند ، مثلما فعل جده الحاكم بأمر الله . إن ظاهرة ضعف سلطة الخليفة التي أطلت برأسها على استحياء في عهد الظاهر ، ظهرت هنا مكتملة الأبعاد ، وبوردها المقرizi على رأس العوامل التي أفضت إلى الشدة المستنصرية^(٢) .

وحال ضعف الخليفة دون سيطرته على طموح القواد ورجال البلاط والخصيان الذين أخذوا يحيكون الدسائس ، وساعد على ذلك إنساق المستنصر لما يسمعه من شكايات ، فأكثر من تغيير الوزراء حتى إن الوزارة وليها خلال تسعة سنواتأربعون وزيرًا بعضهم قضى في منصبه يوماً واحداً^(٣) .

ويبدأ ذلك الانضطراب في تغيير الوزراء فيما يدو عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ م^(٤) ، واشتدت سرعة تغيير الوزراء وكذلك القضاة في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م^(٥) .

ولا شك أن سرعة إجراء التغييرات الوزارية والقضائية ، أضعف من قوة الوزراء وأعجزهم عن تدبیر الأمور ، وأوقع الاختلاف بين فئات الجندي ، نتيجة لاختلاف سياسات الوزراء الذين حاول كل واحد منهم أن يتبع سياسة ترضي الطرف الذي في مكتبه الإيعاز بعزله من منصبه^(٦) .

وإضافة إلى ذلك فإن المستنصر كان لا يشارك وزراءه المسؤولة كما كان يفعل الخلفاء من قبله ، وترك هذه المهمة إلى أمه التي كانت تحكم في تغيير الوزراء ، وتتلقب بالسيدة الملكة ، ويخاطبها الرجال في حصرة ابنها يمولاً لهم ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع^(٧) .

٢ - تزايد نفوذ العسكريين :

نشأ عن ضعف الخليفة ، وتدهور نفوذ وزرائه فراغ سياسي لم يملأه سوى العسكر ، فقد

(١) ابن حلكان : ويلات الأعيان - طبعة النهضة المصرية ١٩٤٨ - ج ٤ ص ٣١٧ ويدرك لين بول أن عمره كان ٨ أشهر فقط - انظر سيرة القاهرة ص ١٣٨ .

(٢) المقرizi - إغاثة الأمة ص ٢٣

(٣) د راشد الراوي - حالة مصر الاقتصادية ص ٨٨

(٤) المقرizi - انحطاط الحمام ٢ ص ٣٠٥ .

(٥) المقرizi : الخطط ١ ص ٣٥٦ .

(٦) المقرizi - إغاثة الأمة ص ٢١ ، انحطاط المجتمع ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٧) د عبد المعجم ماحد . طهور علاة الفاطميين - ص ٣٧٥ .

كانوا بحكم تنظيمهم العسكري ، هم القوة الوحيدة في البلاد التي يمكن أن يكون لها صلبي في تقرير أمور البلاد ، سواء لاعتبارات تملك السلاح والقوة ، أو سهولة التحرك بأوامر قادتهم . وووجد العسكريون - على اختلاف طوائفهم - في ضعف وتردد إدارة البلاد فرصة لهم المواتية لتوسيع رقعة نفوذهم وزيادة نصيبهم من ثروات البلاد، فطالبوا بزيادة رواتبهم ، وألحوا في ذلك حتى خلت خزائن الدولة ، فأقضوا مضاجع الخليفة والوزراء ، وأجاؤوا الخليفة إلى بيع محتويات خزائنه لهم لأجل تسليم رواتبهم ، فأخذوها بأبخس الأثمان ، ثم تمادي بهم الحال فاقتسموا ربع الأرضي المزروعة .

وقد بدأ صعود العسكريين السياسيين منذ عام ٤٥٠ هـ^(١) ، وهو نفس العام الذي كثُر فيه تغيير الوزراء .

٣ - الفتن والمنازعات :

تميز الجيش الفاطمي منذ فتح مصر بتباين العناصر العرقية المكونة له ، فكان يضم إلى جانب المغاربة الذين شكلوا العمود الفقري لجيش الفتح ، عناصر موجودة في الشرق من الديلم والأتراك ، وعناصر سوداء من الزنوج ومن العبيد الذين يشترون من تجار الرقيق ، وضم أيضاً البدو والمصريين^(٢) .

ورأينا كيف أن النزاعات التي ثارت بين بعض هذه الطوائف في عصرى الحاكم والظاهر ، قد زادت من اضطراب البلاد وزيادة الأسعار ، إلا أنها كانت نزاعات محلوبة يمكن لسلطة الدولة تطويقها ، فلما ضفت السلطة المركزية ، برزت نزاعات الجند لتصبح ملحةً رئيسياً من ملامح الحياة في عصر المستنصر ، الذي ترك الأمر إلى وزرائه فحاولوا السيطرة على أمور البلاد عن طريق الإستعانة ببعض طوائف الجيش .

ففي محاولة من الوزير الفلاحي للفرد بشؤون الحكم دون الملكة أم المستنصر ، سعى إلى تأليب الأتراك على السودان ، وهم من نفس جنس الملكة ، التي اعتمدت عليهم ، ولجا أثناء ذلك إلى زيادة رواتب السودان والمغاربة ، وإنقاذه عطاء الأتراك ، مدعياً أن ذلك من فعل الملكة الأم ، ورئيس ديوانها الخاص التستري ، فثار الأتراك وقتلوا التستري وما لبثت الملكة أن نجحت في قتل الفلاحي ، وأحلت في منصبه الوزير أبي البركات الذي اختلف مع سياسة الملكة في إضعاف الأتراك ، فعزلته وولت رئيس ديوانها الخاص الجديد المعروف بالبازوري ، الذي نجح بقوه شخصيته في وقف النزاع بين طوائف الجند إلى حد ما^(٣) .

(١) المقريزي : إغاثة الآلة ص ٢٢ - ٢٣ ، اعتماد الحفاج ٢ ص ٢٦٢ - ٢٦٣

(٢) د. ماجد المرجع السابق ص ٣٦٩ - ٣٧٤ .

(٣) ابن ميسور ، محمد بن علي بن يوسف بن جلب أخبار مصر - تصحيح هرري ماسيه - المعهد العلمي العربي القاهرة

ومع ذلك ، فقد ظلت أم المستنصر محافظة على سياستها في تقويب بني جنسها من السودان وبدا واضحاً للأتراء أن الجيش الذي تم تكوينه من ٥٠ ألف جندي سوداني يشكلون حرس الخليفة وأمه ، ليس إلا مقدمة للقضاء عليهم ، لهذا أصبحت البلاد وكأنها مخزن بارود ، تكفي شرارة صغيرة لإحداث إنفجاره الهائل^(١) .

ويمثل اليازوري قويت إحتفالات تفجر الصراع ، إذ تولى الوزارة البابلي ، الذي عمل بمشورة أم المستنصر فأغرى العبيد بالأتراء ، فتغيرت نياتهم «وصار في قلب كل طائفة من الأخرى أحن»^(٢) .

وجاءت شرارة الانفجار في جمادي الآخر عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، عندما خرج المستنصر كعادته في كل سنة إلى جب عميره وهو موضع نزهة بهيئة أنه خارج للحج ومعه الخمر في الروايا ليسقيه للناس عوضاً عن الماء ، فجرد أثناء ذلك أحد الأتراء سيفاً على بعض عبيد الشراء ، فقتله العبيد^(٣) .

إحتاج الأتراء على هذا الحادث لدى المستنصر ، الذي استنكره ونفى رضاه عن ذلك ، فحمل بعض الأتراء على جماعة من العبيد عند كوم شريك فانهزم العبيد وقتل منهم عدد كبير . بعد هذه الهزيمة سارعت أم المستنصر إلى إمداد العبيد بالمال والسلاح ، فلما ضبط الأتراء بعضاً مما كانت ترسله ، دخلوا على الخليفة ثائرين وأغلظوا له في القول فأنكر أي صلة له بتأييد العبيد ، وثار التزاع المسلح ثانية ، حتى تمكّن أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي الوزير من الإصلاح بين العبيد والأتراء ، وخرج العبيد على أثر ذلك إلى شبرا دمنهور^(٤) .

لم تستمر الهدنة بين الأتراء والعبيد طويلاً ، وتجددت الإشتباكات المسلحة بينهما عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، واستطاع الأتراء بقيادة ناصر التولة بن حمدان أن يهزموا العبيد بالإسكندرية في موضع يعرف بالكرم ، وقتل نحو ألف من العبيد وهرب من بقي حياً ، ثم تم الصلح بينهما بعد ذلك^(٥) .

١٩١٩- ح ٢ ص ١٤ ، د. ماحد : طهور خلاقة العاطميين : من ٣٧٥ - ٣٧٦ . والستري هو أبو سعد بن سهل الستري ، يهودي كان يقوم هو وأخوه أبو نصر مارون بالإتجار في عهد الحكم ، وتقرب أبو سعد إلى الظاهر وباع له حاربة سوداء أولدها المستنصر باقه ، فرعت لأبي سعد ذلك ، فعيته في ديوانها ، وقد عمل أبو سعد على عزل ابن الأتباري من الوزارة وتولية الفلاحي . انظر ابن ميسير . أخبار مصر ج ٢ ص ١٣ - ١٤ ، المقرizi الحسطج ١ ص ٤٢٤ .

(١) د. راشد الراوي : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٢) ابن ميسير . المصدر السابق ص ١٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣ ، أبو المحاسن : التجميم الزاهري ج ٥ ص ١٧ - ١٨ ، د. راشد الراوي : المرجع السابق ص ٨٩ - ٩٠ .

(٤) ابن ميسير . أخبار مصر ج ٢ ص ١٣ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ١٨ - ١٩ ، د. ماحد . طهور خلاقة العاطميين ص ٣٧٦ .

(٥) أبو المحاسن . التجميم الزاهري ج ٥ ص ٧٤ .

وهذه أول مرة يرد فيها اسم ابن حمدان مقترباً بقيادة الأتراك ، وهو الحسن بن الحسين بن حمدان أبو محمد التغلبي الأمير ناصر الدولة ذو المجلدين^(١) . وهو من أسرة الحمدانيين التي قضى الفاطميون على حكمها في حلب ، ومع ذلك فقد ولّي بعض الحمدانيين مناصب في ولايات الشام ، وعين ابن حمدان هذا في ولاية دمشق سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م ، إلا أنه عاد إلى مصر سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، وتولى في وزارة اليازوري حكم الريف الشرقيه وغريمه فكان يحيى الجوالى^(٢) . ويبدو أنه أعيد مرة أخرى إلى ولاية دمشق في رجب سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ومنها خرج في ٦ ربيع الأول سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م ، بناء على أوامر الخليفة ، على رأس جيش كثيف جاءه من مصر ، لأجل إعادة خطبة المستنصر إلى حلب ، التي سيطر عليها معز الدولة من موداس ، ولكنه انهزم عنها في مستهل شعبان وأصيب بضرر شلل منها يده وبقيت المدينة تحت سيطرة المرداسيين^(٣) . ويعود ابن حمدان إلى مصر ، وكأنه على موعد مع القدر ، ليقود الأتراك في فترة حاسمة من تاريخ دولة الفاطميين ، وكانت أسرته تتولى زمام الأتراك وأمراءهم منذ عهد الحاكم بأمر الله^(٤) .

ويعود عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م ، نقطة تحول هامة على طريق تزايد نفوذ الترك ، الذين تقدروا بهزيمتهم للعبيد مرتين ، فقد استغلوا عدم مقدرة الدولة على سداد رواتبهم بسبب نقص النيل عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م . وهو بدء ما عرف بالشدة المستنصرية ، وطالبوها بزيادة واجباتهم ، ومنعوا العبيد من أرزاقهم ، فتفاقم الوضع مع تزايد أعداد السودان الذين بلغوا ٥٠ ألف رجل ما بين فارس وراجل^(٥) .

عندئذ لم يكن السودان بحاجة إلى أوامر أم المستنصر التي بعثت لتغييرهم بالأتراك ، فاجتمعوا وحضروا من شبرا دمنهور إلى الجيزه ، وخرج إليهم الأتراك بقيادة ابن حمدان ، وبلغت نفقة تعديتهم من القاهرة إلى الجيزه مليون دينار ، وانتهت الحرب التي دارت بين الطائفتين بهزيمة السودان وفرارهم إلى الصعيد^(٦) .

كان فرار السودان إلى الصعيد ، إسحاجاً تكتيكياً ، لإعادة ترتيب الصنوف ، وتأهلاً لجولة أخرى من الصراع ، وبالفعل تجمع العبيد هناك ويبلغ عددهم نحو ١٥ ألفاً ما بين فارس وراجل . فقلق من ذلك الأتراك ودخلوا بشكون إلى المستنصر بالله فاغتنمت أم الخليفة الفرصة وأمرت بعض

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٠ .

(٢) د. ماجد: ظهور حلقة الفاطميين ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٣) ابن ميسير . المصدر السابق ص ١٠ - ١٢ . وينظر د. ماجد أن ابن حمدان توجه إلى حلب عام ٤٥٠ هـ ، وعاد منهراً مأهلاً عام ٤٥٢ هـ . انظر : ظهور حلقة الفاطميين ص ٣٨٤ .

(٤) د. ماجد: المرجع السابق - ص ٣٨٥ .

(٥) المقريزي : اقطاع الحما - ج ٢ ص ٢٧٣ ، د. ماجد: المرجع السابق - ص ٣٧٧ .

(٦) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ١٧ ، المقريزي : اقطاع الحما - ج ٢ ص ٢٧٣ .

عيدها فهاجموا الأتراك وقتلوا منهم . على أثر ذلك فرَّ بن حمدان إلى خارج القاهرة وتلاحق به الأتراك وبدأ حملة تصفية جسدية للعبيد الذين بقوا في القاهرة والقسطاط ، ولم يبق إلا العبيد الذين فروا إلى الصعيد ، وفريق آخر كان في الإسكندرية ، التي حاصرها ابن حمدان فطلب عيدها الأمان ، ورتب ابن حمدان عليها من يتق به^(١) .

أعطت إنتصارات الأتراك الجديدة ، زخماً لابن حمدان الطامح إلى السلطة ، فاستهان بال الخليفة الذي أضحي بلا حماية بعد هزيمة السودان ، وبدأ استعداءه للخليفة في عام ٤٦٠ هـ - ١٠٦٨ م ، عندما طلب زيادة رواتب الأتراك من ٢٨٠٠٠ دينار شهرياً إلى ٤٠٠،٠٠٠ دينار ، مع علمه بخواص خزينة الدولة بسبب اضطراب الأحوال وعدم زراعة الأرض^(٢) . وألح الأتراك في طلب رواتبهم ، وحاصروا المستنصر وأخذوا جميع الأموال ثم اقتسموا الأعمال ، وساروا بعد ذلك إلى دار الوزير أبي كدينة مطالبين بالأموال فاعتذر بخروج البلاد عن سلطة الخليفة ، وإنفاس الخزينة ، فأمروه بإعلام الخليفة بطلباتهم ، فخرجت الرقة بخط المستنصر مكتوب بها:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي إلا إلهي وله الفضل
جدي نبيٌ وأمامي أبي وقولي التوحيد والعدل
المال مال الله - والعبد عبد الله . والإعطاء خير من المنع . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
ينقلبون .

واعتذر الخليفة بأنه لم يبق عنده شيء ، فاضطربه الأتراك إلى إخراج ذخائر الخليفة وبيعها ، فأخذ يخرجها تدريجياً وهم يأخذون التحف والذخائر «لأنفسهم بأيديهم ويشترونها بأقل القيم ، وأبخس الأثمان»^(٣) .

لم يقف العبيد خلال هذه الفترة مكتوفي الأيدي ، فتغلبوا على الصعيد وأكثروا السلب والنهب والقتل حتى صبح الناس بالشكوى منهم ، عندئذ سار الأتراك إليهم في شهر رمضان سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وبلغت ثقتهم مليون دينار أيضاً ، إلا أنهم هذه المرة هزموا أمام العبيد ، فعادوا إلى الجيزة^(٤) .

إتهم الأتراك المستنصر بمساندة العبيد بالأموال ، وجهروا له بالسوء من القول ، فنفي تقاديمه

(١) ابن ميسير . المصدر السابق - ح ٢ ص ١٧ ، المقريري . اتعاط الحما - ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٠ .

(٢) ابن ميسير : نفس المصدر - ص ١٧ ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ - ح ٨ ص ١١٦ .

(٣) المقريري : اتعاط الحما - ح ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٤) ابن ميسير . المصدر السابق - ص ١٧ .

بد العون للعبيد ، ثم أجبروا الخليفة على أن ينفق فيهم مليون دينار أخرى عوضاً عما ضاع من أموالهم .

وبذلك تمكنا من إعادة تنظيم صفوفهم ، وعادوا إلى محاربة العبيد ، ونجحوا في استصال شأفهم نهائياً ، وفرد الأتراك ابن حمدان بالأمور وتحكموا في الدولة حتى عام ٤٦١ هـ - ٦٨٠ م .^(١)

ولم تفلح محاولات التخلص من ابن حمدان ، فقد هاجمه صيرفي ولم يتمكن إلا من جرمه ، فقبض عليه وشنق^(٢) ، وكان ذلك بتدبير المستنصر وأمه .

ولعل ذلك كان بسبب سعي ابن حمدان لِإسقاط الخلافة نهائياً ، لأنه اتفق مع رجل من الأشراف هو أبو طاهر حيدرة بن الحسن الحسيني الذي نفاه والي دمشق بدر الجمالى ، وكان هذا الرجل محبياً للناس وتلقبه العامة بأمير المؤمنين ، على أن يوليه الخليفة لنسبة الصحيح ، وتحالف لأجل ذلك مع بعض العرب واستقل ابن حمدان بقسم من الجيش وخاصة طائفة الأكراد التي ربما كان تاج الملوك شادي زعيمها^(٣) .

ويصورة واضحة فقد تحول ابن حمدان منذ عام ٤٦١ هـ من متمرد تحت دعوى حماية حقوق الأتراك ، إلى متمرد على الخليفة الفاطمي وحتى الأتراك . فقد أعمته أطماعه الخاصة عن الحفاظ على قوة الأتراك عناصره الفاعلة في إرباك أمور الخلافة ، واستثأر لنفسه واتباعه المقربين بما كان يخرج من أموال وذخائر المستنصر ، وبدأ يتصرف في الأمور بمفرده كسيد مطلق السلطان ، وخاصة أنه قام بتقسيم دور المكون والجبايات على قواده «حتى لم يبق للدولة دخل يعول عليه ولا مال في القياصر يرجع إليه»^(٤) .

رأى الأتراك أنه لوزالت دولة الفاطميين ، أنهم سيفقدون نفوذهم فتحرکوا باتجاه تدعيم الخليفة ، بهدف التخلص من ابن حمدان ، ورفعوا الأمر إلى الوزير وقالوا إن كل ما يخرج من الخليفة يقصره ابن حمدان على أبياته ولا يعلمهم منه شيء ، فطلب الوزير منهم التخلص عن مساندته والعمل على إخراجه من مصر فوافقه على ذلك ، وشرع المستنصر في تنفيذ الاتفاق ، فطلب من ابن حمدان الخروج من القاهرة ، وامتثل ابن حمدان للأمر لـما أيقن إنحياز الأتراك للخلافة ، وخرج إلى الجيزة فانتهت دوره ودور أصحابه وحاشيته^(٥) .

(١) ابن ميسر : المصدر السابق - ج ٢ ص ١٨ . المقريري : اتعاظ الحنف - ج ٢ ص ٢٧٦ ، د . رائد الرواى : حالة مصر - ص ٩١ .

(٢) أبو المحاسن : النحو الراهنة - ج ٢ ص ٨٣ .

(٣) أبو المحاسن - السحوم الراهنة - ج ٥ ص ١٣ ، د . ماحد . ظهور حلقة - ص ٣٨٦ .

(٤) المقريري : اتعاظ الحنف - ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٥) ابن ميسر المصدر السابق - ص ١٨ ، د . الرواى المرجع السابق - ص ٩١ .

ولكن ابن حمدان لم تعه العigel ، فتحالف مع القائد تاج الملوك شادي على قتل الوزير خطير الملك ، والذكى الذى قاد الأتراك ضد ناصر الدولة ، حتى تناهى لها فرصة التفرد بالسلطة واتفقا على أن يقوم شادي ورجاله بقتل الوزير والذكى عند مرورهما بشارع بين القصرين في الطريق لقصر الخليفة ، ونما إلى علم الذكى تفاصيل الإتفاق فالتلجأ إلى القصور واستجبار بالمستنصر في الليل . بينما أقدم الوزير في موكبه صباحاً فبادره تاج الملوك وجندوه فقتلوه ، وأرسل إلى ناصر الدولة فحضر إلى القاهرة^(١) . آنذاك لم يكن هناك من الحرب بدّ ، فلبس المستنصر عدّة الحرب عملاً بمثورة الذكى وقاد الجنود وعامة الشعب أيضاً ، واستطاع أن يهزم ابن حمدان ويقتل الكثير من أتباعه ، ففر ابن حمدان إلى البحيرة واستجبار يبني سبيس من قبائل العرب وتزوج منهم^(٢) ، فتقوى بهم وقبائل قيس ولواثة ، وانضم إليه بعض المشاركين ، وبدأ يستعد لجولة جديدة من الصراع^(٣) .

ووُجد ناصر الدولة نفسه بعد انقضاض الأتراك من حوله في طور جديد من النزاع مع الخليفة يصعب خلاله الإستيلاء على الحكم بمجرد التحالف مع بعض القبائل العربية فلجأ إلى الاستعانة بقوة كبيرة يسعدها إسقاط خلافة الفاطميين ، وهي السلالقة ، فيبعث الفقيه أبي جعفر محمد بن أحمد بن النجاري رسولاً منه إلى السلطان ألب أرسلان بالعراق في عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، طالباً منه مددًا عسكرياً ليقيم الدعوة للخلافة العباسية بمصر^(٤) .

هنا شمر المستنصر بالله عن ساعد الجد ، إنفاذًا لخلافته من السقوط ، فجهز جيشاً كبيراً من الأتراك وقسمه إلى ثلاثة فرق ، لكل منها مقدم ، والأرجح أن هذا التقسيم كان تقسيماً بحكم الأمر الواقع ، إذ أنه راعى فيما يبذله وجود ثلاثة قواد رئيسيين بين الأتراك ، فجعل كلّاً منهم على رأس فرقة .

ويفسر ذلك أن كل مقدم عمل بمفرده على هزيمة ابن حمدان طمعاً في أن يعود إليه الفضل في هذا العمل مما يدعم موقعه في السيطرة على الدولة . ولم يدخل الجيش الحرب مدججاً بروح «المركزية» ، فهزمت أول فرقة أمام ابن حمدان وأعراب البحيرة وقتل أفرادها واستولى على

(١) ابن مسر : المصدر السابق - ص ١٨ - ١٩ ، المقريزي : انتظار الحتفا - ح ٢ من ٢٧٩ .

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي - شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٢ - ص ١٨٦ - ١٨٧ .

والسابقة بطن كان يقيم بالبحيرة من أعمال مصر ويتسبّب إلى ليد بن سنس بن معاوية بن جرول بن ثعلب بن عمرو بن الغوث طيء بن ملأن من الفحطاية . عمر رضا كحاله : ممحى قائل العرب القديمة والحديثة - المطبعة الهاشمية - دمشق ١٩٤٩ - ج ٢ من ٥٥٦ .

(٣) ابن مسر : المصدر السابق - ص ١٩ - ١٨ ، المقريزي : انتظار الحتفا - ح ٢ من ٢٧٩ ، أبوالمحاسن : التلجم الزاهر - ح ٥ من ١٥ - ١٤ ، د. ماجد : ظهور حلة الفاطميين - ص ٣٨٧ .

(٤) المقريزي : انتظار الحتفا - ح ٢ من ٣٠٢ .

أسلحتها ، وتلى ذلك إنهزام الفرقة الثانية التي لم تكن على علم بما حدث ثم تقدم ابن حمدان فأجهز على بقية الجيش^(١) .

بعد هذه الإنتصارات الباهرة أخذ ناصر الدولة في تدعيم قواته بفضل ما غنمته من الأتراك ، وعاش في البلاد فساداً وأعمل السلب والنهب والقتل ، فأثار الذعر في الوجه البحري ، الذي أصبح تحت سيطرته الكاملة ، وكون لنفسه دولة داخل الدولة ، غير خاضعة لتفوذ الخليفة ، بل وخطب فيها للخليفة العباسي القائم بأمر الله^(٢) .

ولم يكن ذلك آخر ما في سجعية ابن حمدان ، فقد أعقب سيطرته على الوجه البحري بممارسة ضغط اقتصادي شديد على مركز الخلافة ، القاهرة ، بقطع الميرة عنها ، إضافة إلى أن استمرار الحروب أدى إلى عجز الفلاحين عن زراعة الأرض فاشتدت الحالة على الناس^(٣) .

وأدى الحصار الاقتصادي ثماره سريعاً ، إذ ارتفعت الأسعار وثار الشعب ، فخاف المستنصر من ثورته وخشي أن يسلمه إلى ابن حمدان ، وواقف الأتراك على الإذعان لشروط ابن حمدان ، وأصبح هو في قصره كالمحجور عليه^(٤) . وعقد الأتراك المصالحة مع ابن حمدان في عام ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م بسبب نقص الغذاء وعدم زراعة الأرض وانتشار الأوبئة^(٥) .

وتم الاتفاق على أن يظل ابن حمدان بالبحيرة ، وترسل له الأموال التي تقرر له ، وأن يكون تاج الملوك شادي نائبه في القاهرة ، وهو الذي يضمن نفاذ الأموال إليه .

وبفضل هذا الاتفاق دخلت الغلال إلى القاهرة والفسطاط ، فطابت قلوب الناس ، ودام الأمر على ذلك لعدة شهر واحد ، يختلف من بعده الأتراك مع ابن حمدان ، فجاء من البحيرة بعساكره إلى مصر وحاصرها في ذي القعدة ونهب وأحرق وخطف النساء من الطرق ، ثم عاد إلى البحيرة^(٦) بعد أن وعده الأتراك فيما يدو بتطبيق نفس شروط الصلح السابقة .

إلا أن تاج الملوك شادي أخل بالتزاماته المالية تجاه ناصر الدولة ، فزحف الأخير بالعربيان إلى الجيزة ، واستدعي شادياً وبعض المقدمين فخرجوه إليه مطمئنين ، فقبض عليهم وألقى العربيان النار في الفسطاط وبهبا وسلبوا^(٧) . وفي هذه المرة نجح الجيش الذي حزره المستنصر في هزيمة ابن

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا - ج ٢ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، ابن ميسير أشجار مصر - ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) ابن ميسير . المصدر السابق - ص ٢٠ ، المقريзи : المصدر السابق - ص ٣٠٣ ، د. السيد عبد العزيز سالم تاريخ الإسكندرية - ص ١٨٧ .

(٣) المقريزي . اتعاظ الحنفا - ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٤) أبو المحاسن : المعجم الراهن - ج ٥ ص ١٥ .

(٥) د. راشد البراوي . المرجع السابق - ص ٩١ .

(٦) ابن ميسير . أشجار مصر - ج ٢ ص ٢١ ، المقريزي . اتعاظ الحنفا - ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٧) ابن ميسير . أشجار مصر - ج ٢ ص ٢١ .

حمدان ومطاردته هو وأتباعه ، فعاد إلى البحيرة مرة أخرى ^(١).

كان ذلك يعني إنها لا تزال مستنصرة لاتفاق ٤٦٣ هـ ، الذي نص ولاقى على إعادة الخطبة للمستنصر ، فقام ناصر الدولة بقطع خطبة المستنصر من الوجه البحري وخطب مرة أخرى للقائم العباسى وراسله في بغداد ، يطلب منه أن يجهز له الخلع والألوية السوداء (شعار العباسين) ، «فاض محل أمر المستنصر وتلاشى قلره» ^(٢).

ثم حدثت معارك بين المشارقة والمغاربة عند كوم السريش بالقرب من القاهرة عام ٤٦٤ هـ - ١٠٧٢ م وقتل في هذه المعارك ١٢ ألفاً من الفريقين ^(٣).

وساعدت هذه الفتن وضعف شخصية الخليفة ، ابن حمدان على تفكير الجبهة الموالية للخليفة ، فاستمال كثيراً من الأتراك ، وأيقن عندئذ عجز المستنصر عن مقاومته في ظل تدهور الأحوال الاقتصادية وتفشي الأوبئة ، فدخل مصر بعساكره في شعبان ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م ^(٤).

ومن الفسطاط ، أرسل ابن حمدان إلى القاهرة ليطلب الأموال من الخليفة ، فوجد رسوله الخليفة جالساً على حصیر بغیر فرش ولا أبهة ، وليس عنده غير ثلاثة من الخدم ، فلما أدى الرسالة قال له المستنصر ، أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس على هذه الحال؟ فبكى رسول ناصر الدولة ونقل إلى موافقه ما رأى ، فرق له وقرر للخليفة نفقة شهرية مائة دينار ، «ومارس الحكم بنفسه ، وأصبح الخليفة مجرد مسمى بلا معنى» ^(٥).

وكانت أول خطوات ناصر الدولة تصفية حساباته القديمة مع أم المستنصر ففيها وعاقبها غير مرة حتى استصفى أموالها ويقال إنها فرت إلى بغداد مع بعض أهل المستنصر ، ^(٦) وإن كان ذلك أمراً مستبعداً بحكم العداوة التقليدية مع الدولة العباسية .

وتمهيداً لإزالة الخلافة الفاطمية من مصر عمل على إخلاء القاهرة من أعون المستنصر الأقوية والذين يمكن أن يقفوا حجر عثرة في سبيل ذلك ، فكان يوليهم الأعمال ثم يعزلهم منها بمجرد وصولهم إليها ولا يمكنهم من العودة مرة أخرى إلى القاهرة ^(٧).

وأخذ ابن حمدان يعد العدة لإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة وإسقاط اسم المستنصر من الخطبة ، الأمر الذي أثار مخاوف الأتراك من ضياع مكانتهم التي تتمتعوا بها في الدولة الفاطمية ، إذا

(١) المقريزي : انتظام الحق - ج ٢ ص ٣٠٦.

(٢) ابن ميسير - المصدر السابق - ص ٢١ ، المقريзи . المصدر السابق - ص ٣١٦.

(٣) د. ماحد : ظهور خلافة العاطميين - ص ٣٧٧.

(٤) ابن ميسير . المصدر السابق ص ٢١ ، المقريزي : المصدر السابق - ص ٣١٦.

(٥) ابن ميسير : أحجار مصر - ج ٢ ص ٢١.

(٦) المصدر نفسه المكان نفسه .

(٧) ابن الأثير . الكامل - ج ١٠ ص ٢٧ - ٣٠.

ما أقيمت الدعوة لبني العباس وصارت ولية تابعة لخلافة بغداد والسلاجقة الأقوبياء ، فعملوا على قتل ابن حمدان ، وتزعم هذا الإتجاه صهر ناصر الدولة «الذكر» التركي كان متزوجاً من ابنة ناصر الدولة ، وتشاور مع الأمير يلدكوز أو يلدكوسى ، ونجحا في جمع رأي الأتراك على ذلك ^(١).

وتولى الذكر هذه المهمة ، لأن ناصر الدولة يأمن له لكونه صهره فاصطحب معه غلام له «أبو منصور كمشتكين» ويلقب بحسام الدولة بعد أن أطلعه على جهة الأمر ودخل على ناصر الدولة ، في مستهل شهر رمضان سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م.

والفراسون ينفضون البسط ليقعد عليها ، وهو يمسي في صحن الدار ، فمضى الذكر معه ثم تأخر عنه وضريه في خاصته «بيافروت» وهو سكين مغربي ، فاعجله كمشتكين بضرره قطعت رجليه ثم حزت رأسه ^(٢) . وبذلك وضعت نهاية لحياة ناصر الدولة الذي لم يكن قط ناصراً لدولة الفاطميين . ثم قام الأتراك بتبعي أقارب ناصر الدولة ورجاله حتى أبادوهم وقطع ابن حمدان قطعاً وأنفقت كل قطعة إلى بلد ^(٣) .

إلا أن الستار لم يسدل مع مقتل ابن حمدان ، إلا لينفرج عن فصل جديد ، أخذ فيه الأتراك دور ابن حمدان ، فقد أرادوا أن يجنوا ثمار انتصارهم على عدو الخلافة ، فدخلوا على المستنصر ومعهم رؤوس أعدائه وطلبو الأموال ، فرد المستنصر بأن الأموال أخذها ابن حمدان وأن الخلاف كان بينه وبين الأتراك ، وأنهم هم الذين نقضوا العهد معه ، ولكن الأمر استقر على ما جرت عليه العادة ، إذ أخرج المستنصر من خزانته قطعاً من المرجان وعروضاً أخرى حُمل ثمنها إلى الذكر ورفقته ^(٤) .

ومارس الأتراك منذ بداية عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م ، الضغط على الخليفة ، وكان على رأسهم سلطان الجيوش يلدكوز التركي والأمير الذكر ومعهم الوزير أبي كدينة . وخاب ظن المستنصر في أن يكون في مقتل ابن حمدان راحة له ^(٥) . وبلغت سيطرة الذكر حداً مكّنه من فرض حظر الدخول إلى القاهرة أو الخروج منها ، ولعله سعى إلى الملك ^(٦) .

أيقن المستنصر أن مصير خلافته أصبح في مهب الريح ، فقد تحالف عليه الأتراك بعد فناء معظم السودان والمغاربة ، واستبد به اليأس فلم يجد مخرجاً إلا باستدعاء بدر الجمالي من عكا

(١) المقريزي : اتعاط الحفنا - ج ٢ ص ٣٠٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة - ج ٥ ص ٢١ .

(٣) المصدر نفسه - ج ٥ ص ٢١ - ٢٢ ، ابن ميسير . المصدر السابق - ص ٢٢ ، المقريзи : المصدر السابق - ص ٣١٠ - ٣٠٩ .

(٤) أبو المحاسن : السجوم الراهن - ج ٥ ص ٢٢ .

(٥) المقريزي . اتعاط الحفنا - ج ٢ ص ٣١١ .

(٦) د. ماجد طهور خلافة العاطميين - ص ٣٩٢ .

بفلسطين عَلِمَ يستطيع إنقاذه من سلط الدكز والأتراك^(١).

قبل بدر المهمه بشريطة أن يقدم بعسكر معه وأن لا يبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائها ، فأجابه المستنصر إلى ذلك^(٢).

سار بدر إلى مصر عام ٤٦٦ هـ (ديسمبر ١٠٧٣ م) في مائة مركب ومعه جنوده وعبد الله بن المستنصر الذي فر إليه أثناء الأحداث وذلك رغم تحذيره من حالة البحر في الشتاء ، ولكن الظروف الجوية واته ودامت كذلك أربعين يوماً وصل بعدها إلى دمياط^(٣) . وأقام مدة بدمياط ، افترض خلالها مالاً من تجار تنيس ويقال افترضه عليهم ، ثم قدم عليه سليمان اللواتي^(٤) وهو يومئذ كبير أهل البحيرة وأوسعهم حالاً ، حاملاً معه الغلال ، وأمن له الطريق حتى وصل إلى قليوب على مقربة من القاهرة .

ومن هناك يطلب منه القبض على يلدكوز حتى يتمكن من دخول القاهرة ، فبادر المستنصر إلى القبض عليه^(٥) .

بعدها دخل بدر القاهرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادي الأولى ، وأرسل كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة ليلاً ، وأمره أن يأتيه برأسه ، فاصبح وقد أحضر من رؤوس أمراء الدولة شيء كثير فقبض على بقية الأتراك وتتبع المفسدين حتى قضى عليهم وفر ابن يلدكوز إلى الشام^(٦) .

لم يشأ المقرizi إلا أن يحيط قضاء بدر الجمالى على الأتراك بعقب المؤامرات والمذايحة ، فيروي أنه عند دخول بدر القاهرة ، تلقاه أهل الدولة وأنزلوه وبالغوا في إكرامه ، أظهر أنه ما جاء إلا

(١) أبو المحاسن : الترجمة الراحلة - ج ٥ ص ٢٢ ، د. راشد الروابي . المرجع السابق - ص ٦٩ . وبدر الجمالى هو بدر بن عبد الله ، وكان مملوكاً لحملة الدولة من عمار أحد ولاة طرابلس الشام ، فعرف بالجمالى نسبة إليه وبدر من أصل أرمي مسلم تمكّن بجهده وحزمته من التقلّ في المناصب حتى ولي دمشق وصود عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وحارب ناصر الخلافة المعتزليين في حلب ودمشق ثم توّلى ولاية عكا في سنة ٤٦٢ هـ / ٦٩٠ - ١٠٧٠ م وتقى بها حتى طلب المستنصر بجده . د. ماجد : المرجع السابق - ص ٣٩٣ .

(٢) ابن ميسير . المصدر السابق - ص ٢٢ .

(٣) المقرizi : اعتظاح الحق - ج ٢ ص ٣١١ ، أبو المحاسن : الترجمة الراحلة - ج ٥ ص ٢٠ .

(٤) اللواتيون من أعراب مصر وفروعهم بوهانى ويسوسليمان وبو مكىت . انظر : عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب - ج ٣ ص ١٠١٧ .

(٥) ابن ميسير : المصدر السابق - ص ٢٣ ، المقرizi . المصدر السابق - ج ٢ ص ٣١٢ ، ويدرك د. ماجد أن لواله قاومت بدرًا عند نزوله إلى دمياط وأنه قتل منهم الآلوف وعلى رأسهم سليمان اللواتي (ظهرت خلافة الفاطميين ص ٣٩٣) والواقع أن بدر الجمالى قاتلهم بعد ذلك كما يستفاد من ابن ميسير (ج ٢ ص ٢٤) ومن سياق ما ورد في سجل من المستنصر إلى حاكم اليمن علي بن الصالحي بتاريخ المحرم سنة ٤٦٣ هـ - انظر د. ماجد : السحلات المستنصرية - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٥٤ - ص ١٨٤ . ويمكن إرجاع تعاون لواله مع بدر الجمالى عند نزوله إلى أن اللواتيين كانوا حلفاء ابن حمدان الذي قتل الأتراك .

(٦) ابن ميسير : المصدر السابق - ص ٢٣ .

شوقاً إليهم ، وخدعهم بما أبداه من المحاجة لهم وكثرة التملق وعدم ذكره المستنصر إلا بالسوء ، حتى تمكّن رجاله من الدخول إلى القاهرة فرادى وخفية ووصل عددهم إلى تسعيناتة . ثم أخذ في الأكل والشرب مع الأمراء حتى اشتد تأنسهم به ، واستدعاء كل منهم إلى ضيافته ، ورد على ضيافتهم بأن أقام وليمة للأمراء ورتب أصحابه ليقتل كل واحد منهم أميراً عند ذهابه للخلاء ، على أن يكون له جحيم ما بيد المقتول . وتم تنفيذ ما أراده بدر^(١) .

إن هذه الرواية التاريخية الشبيهة في حبكتها القصصية بالروايات البوليسية ، يحيط بها الشك جملة وتفصيلاً ، إذ ليس من الواقعية في شيء أن يكون الأتراك وقوادهم على هذا القدر من الغفلة ، حتى يفسروا مقدم بدر الجمالى على أنه شوقاً لهم ومحبة ، خاصة وأن بدر الجمالى طلب القبض على يلدكوز التركى قبل دخوله القاهرة ، ويقيناً فإن قرب ابن ميسير الزمني من هذه الأحداث يرجح صدق روایته ويدحضن رواية المقرنزي المثيرة^(٢) .

وبعد القضاء على الأتراك بات واضحًا أن خطة بدر تقضي أولاً باسترداد السلطة المركزية لحيتها في العاصمة ، القاهرة ، وتخليصها من إسار السيطرة التركية ثم التوجه بعد ذلك إلى أقاليم الدولة ، للسيطرة عليها . فقتل جماعة من أمثل المصريين وحكامهم وزرائهم واتجه إلى الدلتا فحارب في شرقها وغربها اللواتين والعرب والملحين حتى قضى على كل من سولت له نفسه الانقضاض من سيطرة الحكومة الكاملة^(٣) .

٤ - نقص فيضان النيل :

لم يصل النيل خلال المجاعات التي وقعت في عصر المستنصر ، إلى حد الفحط ، كما وأنه لم يقل عن ١٦ ذراعاً إلا في مرتين (٤٤٦ ، ٤٦٠ هـ) وتعدى خلالها ١٥ ذراعاً ، ولذا فليس بإمكاننا أن نحمل الفيضان وزر هذه المجاعات ، وتعد مسؤوليته عنها مسؤولية محدودة وجزئية ، ولعل ذلك هو الذي حدا بالمقريزي أن يورده في آخر قائمة أسباب الشدة المستنصرية ، بل إنه يزيد الأمر تفصيلاً فيقول إن من أسبابها «عدم من يزرع ما شمله الري»^(٤) أي موت الكثير من الفلاحين .

(١) المقرizi : اتعاط الحفا - ج ٢ ص ٣١٢

(٢) يذكر أبو المحاسن أن الذكر التركي تحالف مع ندر الجمالى لمدة بسيرة ثم قبض عليه ندر وأمهاته وعليه وطالبه بالمال فلم يظهر سوى ١٢ ألف دينار مع اتساع ثرائه . فقتله ندر الجمالى ويقتل إنه لم يقتل وهرب إلى الشام (النجوم الزاهرة - ج ٥ ص ٢٢) .

(٢) ان سـ : المصـدـقـ السـائـقـ - جـ ٢ صـ ٢٤ ، المـقـرـيـزـ : اـعـاظـ الحـنـفـيـ - جـ ٢ صـ ٣١٤ - ٣١٦ .

(٤) المعتبري : إعاعة الامة - ص ٢٣ . ويدرك Brockmann أن سبب الشدة المستنصرية هو الإحتفاظ في نि�صاد النيل ، اسظر Brockmann op. cit p. 162

الجرع الخامس من المجرم الراهن انظر . ظهر حلاقة العاطلين ص ٣٦٦
وتفيد رواية الفقشلي أن مسؤولية الفيصلان عن المحاعة كانت محدودة حيث يذكر أن الفيصلان لم يوف خلال العاشرين الأولين
شم وفى البيل فى السنة الثالثة وقام إلى الخامسة ثم برل في وقته فلم يوجد من يزرع لقلة الناس وأنه وفى فى السنة السادسة
وأقام حتى فرغت السابعة . الفقشلي - ج ٣ ص ٢٩٦ .

تببدأ سلسلة مجاعات عصر المستنصر بواحدة وقعت عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ م ، ولا يمكن أن يكون سببها قصور النيل^(١) ، كما يقول المقريزى إذ بلغت زيادة النيل في هذه السنة ١٧ ذراعاً و ٥ أصابع وهو حد لا يمكن القول معه بأن النيل ناقص رغم تسلينا بأن ذلك غير كاف لزراعة جميع الأراضي .

ولذا وجب البحث عن عامل آخر كان له التأثير الأقوى في نشأة هذه المجاعة ، ويشد الإنتباه أن المخازن السلطانية لم يكن فيها شيء من الغلال ، فاشتدت لذلك المسحبة^(٢) . وأن سبب ذلك هو تغيير الوزير اليازوري عندما كان قاضياً لضائعاً المتجر أو المخازن السلطانية .

والمتجر عبارة عما يباع للديوان من بضائع يحتاج إليها وتدر الربح أيضاً^(٣) ، وكانت الدولة تشتري في كل عام بمائة ألف دينار غاللاً ، وكان هذا الاحتياطي يوزع وقت الحاجة على الطحانين والخبازين^(٤) وكان وجود هذا المخزون كفيلاً بمنع التجار من التلاعب بالأسعار^(٥) .

ويعني ذلك أن هذا المتجر لم يكن هدفه الرئيسي الربح بل كان التخفيف عن كاهل الشعب وخاصة وقت الأزمات ، ولكن اليازوري لم يفهم ذلك ، ونظر إليه نظرة التاجر الذي يروم الربح ، لا نظرة رجل الدولة المسؤول ، فذكر الخليفة أن المتجر الذي يقوم بالغلة فيه أقوى مضرة على المسلمين ولربما انحط السعر عن مشترهاها فلا يمكن بيعها فتنتفعن في المخازن . وزين لل الخليفة أن يقيم متجرًا لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ، ولا يخشى عليه من التغير في المخازن لأنحطاط سعره ، فأمضى المستنصر ما رأه اليازوري وأشنى للمتجر الخشب والصابون والحديد والرصاص والعلل وما إلى ذلك^(٦) .

ولقد وجد اليازوري في حادثة عابرة مبرراً لمشورته تلك ، إذ قام أحد باعة الخبز ببيع خبزه بسعر أقل من السعر السائد في السوق وذلك خوفاً من كсадه إذا برد ، فعاقبه عريف الخبازين بمعرفة عونين من الحسبة أغرمه عشرة دراهم . فشكى البائع ذلك إلى القاضي (اليازوري) الذي عزل العريف وكافأ البائع الذي ذهب بعقله المكافأة، فأخذ يرخص في سعر خبزه والباعة يتبعونه خوفاً من الكساد ، فنزل سعر الخبز من أربعة أرطال بدرهم وثمان إلى عشرة أرطال بدرهم ، فخيّل للليازوري أن ذلك قانون سوف يدوم^(٧) .

(١) المقريزى : إغاثة الأمة - ص ٢١٧ ، الخطط - ج ١ ص ٣٥٦ .

(٢) المقريزى . انتظام الحسا - ج ٢ ص ١٢٤ ، الخطط - ج ١ ص ١٠٩ .

(٣) المقريزى . الخطط - ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) د عبد المنعم ماجد . امرأة مصرية تتزعم مظاهرة في عهد الخليفة المستنصر بالله العاطمي - مقال بالمجلة التاريخية المصرية - القاهرة ١٩٧٧ - مجلدة ٢٤ - ص ٣٥ .

(٥) د راشد الراوى : حالة مصر الاقتصادية - ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٦) المقريزى . انتظام - ب ح ٢ ص ٢٢٥ .

(٧) المقريزى إغاثة الأمة - ص ١٧ - ١٩ .

إلا أن الإختبار الحقيقي لهذه السياسة التي انتهجهها البيازوري تجاه المخزن كان في عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٥ مـ، عندما وقعت مجاعة كان سببها انخفاض النيل (١٥ ذراعاً و ١٤ ذراعاً حسب الدواداري) وصاحب هذه المجاعة إنتشار للوباء بين السكان ، ولم يكن في المخازن إلا جرایات من في القصور ومطبخ السلطان وحواشيه فقط .^(١) نتيجة لتخلی الدولة عن دورها في شراء الغلال .

حاول البيازوري أن يوقف الكارثة ، ولم يكن الرجل الذي تنقصه الفطنة والحسافة ، فاتجه إلى مخازن التجار فختم عليها واستولى على ما بها من الغلال ، إذ كان التجار يقومون بشراء الغلال قبل حصادها من عمال النواحي مقابل ضمان التجار لسداد خراج الدولة دون أن يجهد العمال أنفسهم في مطالبة الفلاحين ومحطاتهم بالتعجيل في الدفع ، ثم يحمل التجار الغلال إلى مخازنهم بعد الحصاد .^(٢)

وقامت الدولة بشراء الغلال المصادر ، وأربحت التجار في ثمنها $\frac{1}{8}$ دينار في كل دينار ، ونقلت الغلال بالمراتب إلى مصر وأودعت المخازن السلطانية ، وسرّر القممع كل تليس بثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير ، وحدد البيازوري تمويلاً لمصر والقاهرة مقداره يومياً بعمائة تليس لمصر وثلاثمائة للقاهرة ، فاستقرت الأحوال لمدة عشرين شهراً حتى دخلت الغلة الجديدة فزال الغلاء .^(٣)

وتحسباً لاحتمال إستمرار نقصان النيل ، طلبت الدولة الفاطمية من الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع Nonamochos إمداد مصر بالقممع لمواجهة المجاعة التي استمرت حتى وفاة الامبراطور عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٦ مـ ، فلما خلفته ابنته تيودورا Theodora اشتربت إشتراك مصر في معايدة دفاعية هجومية مع بيزنطة ، فرفض البيازوري ، لأن حاجة مصر للغلال مسألة مؤقتة رهن بفيضان النيل .^(٤)

وحاول المستنصر أن يؤدب تيودورا لمنعها الغلال ، فجهز عسكراً بقيادة مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم وبعثهم بعسكر ثان وثالث ، ونودي في سائر بلاد الشام بالغزو إلى بلاد الروم .^(٥) ونزل ابن ملهم قريباً من فامية فحاصرها وجال في أعمال إنطاكية وسي ونهب ، فأخرج البيزنطيون ثمانين قطعة بحرية حاربت ابن ملهم وهزمته وأسر هو وجماعة كثيرة .^(٦)

(١) المقرizi : اتعاظ - ح ٢٢٦ ، وإن كان المقرizi في الخطط (ج ١ ص ٣٥٦) يذكر ذلك في حوادث ٤٤٧ هـ ، والأصل أن ذلك حدث في سنة ٤٤٦ هـ حسماً ذكر في إغاثة الأمة - ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) المقرizi : إغاثة الأمة - ص ١٩ - ٢٠ ، اتعاظ الخطأ - ح ٢٢٦ .

(٣) المقرizi : اتعاظ الخطأ - ح ٢٢٦ .

(٤) د. راشد البراوي : المرجع السابق - ص ١٠١ .

(٥) ابن ميسير : أخبار مصر - ح ٢ ص ٧ .

(٦) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٣٣٥ .

سعى المستنصر بعد ذلك إلى إصلاح العلاقات مع دولة بيزنطة فبعث في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٦ م ، أبي عبد الله القضاوي برسالة إلى القسطنطينية ، فوجد بها رسول طغرل بك السلاجقى ، وقد أتى من العراق وسمح له بالصلاة في مسجد القسطنطينية والدعاء لل الخليفة العباسي ، فما كان من الخليفة الفاطمي إلا أن قبس على جميع ما بكنيسة القيامة بيت المقدس ، فزادت العلاقات المصرية - البيزنطية سوءاً^(١) .

وصحب هذه المجاعة وباء شديد أودى بحياة الكثيرين وخاصة في عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٦ م حتى إن عطاراً باع في يوم واحد ألف قارورة شراب^(٢) وقدر من مات في مصر في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٧ م بألف إنسان كل يوم^(٣) . ويدرك أن ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور فوجدوا عند الصباح متى أحدهم على باب النوبة والثاني على رأس الدرجة ، والثالث على الشباب التي كورها^(٤) .

وساعد على تفاقم الأزمة عام ٤٤٨ هـ أن الأموال في القصر خلت نتيجة للإنفاق لأجل تجهيز المؤيد في الدين الذي أرسل لدعم ثورة البساميري الذي أقام الدعاوة للفاطميين في بغداد^(٥) .

وقد خلط المقرizi بين هذه المجاعة والشدة المستنصرية ، حيث ذكر أنها امتدت سبع سنوات بدءاً من عام ٤٤٧ هـ^(٦) .

ولم تكن مصر وحدها هي التي تعاني من المجاعة والوباء . فقد حدث بمكة سنة ٤٤٧ هـ بسبب عدم إرسال الطعام إليها من مصر ، وبلغ سعر الخبز عشرة أرطال بدينار ، ثم اختفى الخبز ، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك ، ولم ينقذهم إلا الجراد الذي ملا الأرض فأكلوه ثم خفت وطأة الأزمة برحيل الحجاج عن مكة^(٧) .

وفي عام ٤٤٨ هـ عمّ الوباء والفلاء مكة والحجاج وديار بكر والموصل وخراسان والجبال

(١) المقريري : الخطط - ج ١ ص ٣٣٥ .

(٢) ابن ميسير : المصدر السابق - ص ٧ ، المقريري انتظ الحق - ج ٢ ص ٢٣٠ ، وشمل الوباء والقطط بغداد والشام أيضاً ابن الجوزي - المستظم - حيدر آباد وسيُ عام ٤٤٨ هـ فيها عام الحوع الكبير . انظر الذهبي - تاريخ الإسلام - مجلد ١٦ - ص ٢٠٠ .

(٣) أبو المحاسن - التيجون الزاهرة - ج ٥ ص ٥٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل - ج ٨ ص ٧٩ .

(٥) أبو الفدا : البداية والهداية - ج ١٢ ص ٦٨ .

(٦) ابن ميسير : المصدر السابق - ص ٨ ، عن ثورة أبي الحارث أرسلان بن عبد الله البساميري . انظر . ابن خلكان . وفيات الأستان - ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٧) المقريري : الخطط - ج ١ ص ٣٣٥ .

(٨) ابن الأثير : كامل - ج ٨ ص ٧٣ .

وسائل بلاد الشام وأكل الناس الميتة في العراق^(١).

واستمر الغلاء والوباء في عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م في العراق وبخارى وأذربيجان والأهواز ، وخلت أكثر دور بغداد وسدت على أهلها أبوابها بما فيها وأهلها موتى فيها وأكل الناس الجيف والكلاب بل والأدميين^(٢) . وكان سبب هذا الوباء قلة الأغذية والجوع فنيشت الأموات وأكلتها الناس^(٣) .

وتعرضت مصر عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م لانتشار وباء الطاعون ، فمات في عشرة أشهر كل يوم ألف إنسان^(٤) . ويبدو أن سبب هذا الوباء كان الإرتفاع الكبير لفيضان النيل (١٩ ذراعاً ، و١٢ إصبعاً - انظر الملحق)

إلا أن كل هذه الواقع المريرة ، تتضاءل أمام جسامه أحداث المجاعة التي اجتاحت مصر لمدة سبع سنوات بدأت في عام ٤٥٧ هـ وانتهت هذه المجاعة باسم الشدة المستنصرية التي يقال إنه لم يحدث مثلها منذ زمان يوسف عليه السلام^(٥) .

وبسبب بداية هذه المجاعة هو قصور ماء الفيضان - إلى حد ما - فارتفعت الأسعار وأعقب ذلك الوباء حتى تعطلت الأراضي عن الزراعة^(٦) . وظل النيل بعد هذه السنة يمتد وينزل فلا يوجد من يزرع^(٧) .

ولا شك أن نزاعات الجندي شلت يد الحكومة ، وأخلت بالأمن ، هي التي جعلت من هذه الأحداث كارثة حقيقة طال أمدها إلى سبع سنوات ، وبلغت أقصاها في عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، فعظم الجوع واشتد الوباء وانتشر السلب والنهب^(٨) . ولعل مرجع ذلك الحصار الاقتصادي الذي فرضه ابن حمدان على القاهرة والقسطاط .

وخلال هذه السنوات ، انهارت القوة الشرائية للنقد ، وارتفعت أسعار المواد الغذائية بشدة ، حتى إن حارة بالقسطاط بيعت بطريق خبيز ، كل رغيف فيه بمتر مربع فعرفت لذلك بحارة الطبق^(٩) . ومثل أحد الأغنياء أمام المستنصر ليشكوك من أنه اشتري أردياً من القمح بسبعين ديناراً ، فتهبه منه

(١) المصدر السابق - ص ٧٩ ، أبو القدا : المصدر السابق - ج ١٢ ص ٦٨.

(٢) أبو القدا : المصدر السابق - ج ١٢ ص ٧٠ - ٧١.

(٣) المقريري - انتفاضة المحتلة - ج ٢ ص ٢٣٥.

(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق - ج ٥ ص ٧٤.

(٥) ابن العماد الحسلي . شفرات الذهب - ج ٣ ص ٣٨٢.

(٦) المقريري . إغاثة الأمة - ص ٢٣.

(٧) المقريري : الخطوط - ج ١ ص ٣٣٧.

(٨) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ٢ ، أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٨٤.

(٩) المقريري . انتفاضة المحتلة - ج ٢ ص ٢٩٧.

العامة حتى لم يبق منه سوى سبعين جبة قمح ، أي أن كل حبة بدينار واحد^(١) وهناك قصة أخرى مشابهة مفادها أن امرأة اشتترت ثلبيس دقيق بعقد جواهر قيمته ألف دينار ، وعندما تحركت به من الفسطاط في طريقها إلى القاهرة ، وسط الحراسة المشددة ، هجم الناس عليها فنهبوا فلم يتبق لها سوى حفنة من الدقيق فعجبتها وشوتها فصارت قرصة حملتها وتوصلت إلى أحد أبواب قصر الخليفة ووافت على مكان مرتفع وبيدها القرصه وصاحت : يا أهل القاهرة أدعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصه بـألف دينار^(٢) .

وحركت الحادثة الأخيرة ، مشاعر المستنصر بالله ، وربما يكون قد خشي ثورة العامة عليه مع تزايد تمرد الجندي وعصيان ابن حمدان ، فأحضر الوالي وتهدهد وتوعده إذا لم يظهر الخبز في الأسواق بالقتل والنهب . فخرج الوالي من بين يديه وأحضر من الحبس قوماً من المحكوم عليهم بالإعدام وأليسهم ثياب التجار ، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين ، وعقد مجلساً عظيماً وأحضر أحد المجرمين فقال له «ويلك ما كفناك أنت خنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن خربت الأعمال ومحقت الغلال ، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟ أضرب رقبته» فضررت رقبة الرجل وفعل نفس الشيء مع رجل ثان ، فخاف التجار والطحانون والخبازين ووعدوا الوالي باظهار الغلة وإدارة الطواحين وعمارة الأسواق بالخبز مع تخفيض الأسعار لبيع الخبز رطلاً بدرهم ، فرفض الوالي ذلك السعر ، فقالوا : رطلاً بدرهم ، فأجابهم إلى ذلك ، فوفوا بعهدهم^(٣) .

ويدل ذلك على مدى خطورة الدور الذي لعبه الإحتكار التجاري أثناء المبادرة وأهمية دور الحكومة المركزية في معالجة الأمر .

ونظراً لسوء العلاقات مع بيزنطية منذ عام ٤٤٧ هـ ، فإن أنظار الخلافة إتجهت إلى أماكن أخرى من بلاد الخلافة لاستيراد الطعام ، الذي فقد في مصر سنة ٤٦٤ هـ - ٧١٠ م ، فجاء الطعام بالمراكب من صقلية والمهدية^(٤) .

ولا شداد المسغية وطول أمدها لجأ الناس إلى أكل نحاتة النخل ، بل طبخوا جلود البقر وباعوها رطلاً بدرهمين^(٥) ، ثم أكل الناس الحيوانات الأوليف ، فيبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ،^(٦) والقط بثلاثة دنانير^(٧) . ولم تسلم دواب الخليفة ، حتى لم يبق له سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت

(١) المصادر نفسه - ح ٢٩٩ ص ٢٩٩

(٢) المقريزي : إغاثة الأمة - ص ٢٥ ، أطراف د ملجد : امرأة مصرية ترعم مظاهرة (مراجع سابق)

(٣) المقريزي . إغاثة الأمة - ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤) المقريزي . اتعاظ الحما - ح ٢٣٧ ص ٣٠٧ .

(٥) المقريزي : اتعاظ الحما - ح ٢٩٧ - ٣١٧ ص ٢٩٧ .

(٦) المقريزي : اتعاظ الحما - ح ٢٩٧ ص ٢٩٧ ، المقريзи : إغاثة الأمة - ص ٢٣ - ٢٤ ، الخطط - ح ١ ص ٣٣٧ .

(٧) أبو المحاسن : المصادر السابق - ح ٥ ص ١٦ .

عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة ، وحدث أن وزير المستنصر ترك على ناب القصر بغلته وليس معها إلا غلام واحد ، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه ، فلم يقدر على دفعهم لضعفه من الجوع ، وذبحوها وأكلوها ، فأخذوا وصلبوا فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم ، إذ أكل الناس في تلك الليلة لحومهم ^(١) .

وتعذر الأمر إلى أكل الجيف والميّتات ثم لحوم الأدعيين . فقد اعتادت طوائف من أهل الفساد أن تسكن بيوتاً قصيرة السقوف ، قريبة من المارة ، تمكّنها من خطف المارة بواسطة خطاطيف وحبال أعدوها لذلك ، ليقوموا بعد خطف الضحية بضربه بالأخشاب حتى يتمكّنوا من تشریح لحمه وأكله ^(٢) .

ويبدو أن قصص أكل لحوم البشر ليست من نسج خيال الكتاب ، إذ أورد لنا ابن دقماق اسمين لزقاقين بالفسطاط لهما صلة بهذه القصص ، أولهما زقاق البوافق الذي يعرف أيضاً بزقاق التدايق حيث كان جماعة يقفون أيام الشلدة المستنصرية «تحت القبو هناك فمن مربهم ندفعه وتزعوا ما عليه ورموه في بئر هناك» ، والآخر هو زقاق العكامين حيث كان «أناس يعمكون الناس بأكرا في أفواههم ثم يحملونهم إلى زقاق القتل لقتلنهم فيه فسمى بذلك» ^(٣) . وصارت لحوم الأدعيين سلعة رائجة يقوم الطباخون ببيعها مطبونة بعد أن يذبحوا ضحاياهم من الصبيان والنساء ^(٤) .

ومن حوادث أكل لحوم البشر ما ذكر عن امرأة خطفها إنسان ، وكانت بدينة فادخلها بيتأ فيه سكاكين وأثار الدماء وزفرة القتل ، وأوثقها وأخذيشرّ من أفحاذها ويشوي حتى شبع وسكر ، فقررت منه واستغاثت بالوالى الذى كبس الدار وضرب عنق الرجل ^(٥) .

وقد أضاف بعض الكتاب تفاصيلًا مبالغ فيها ، فمتهם من جعل أكلي لحوم البشر من السودان ^(٦) . ومنهم من قال إن الوالى أخرج من الدار التي كبسها ألوفاً من القتل ^(٧) .

وربما كان أكل الجيف والميّتات ولحوم البشر ، هو الذى ساعد على انتشار الوباء الذى كثرت

(١) أبو المحاسن : ج ٥ ص ١٥ - ١٦ ، المقرizi : إغاثة الأمة - ص ٢٤.

(٢) ابن ميسير . أنيجار مصر - ج ٢ ص ١٩ - ٢٠ ، المقريري : اتحاط الحقا - ح ٢ ص ٢٩٦ . وظاهرة أكل لحوم البشر لم تكن قاصرة على مصر مثلاً رأينا في الوباء والمجاعة التي اجتاحت بنداد عام ٤٤٩ هـ ، وكان الحصار الاقتصادي والعسكري يدفع بالسكان إلى أكل الميّت ، مثلاً حدث لطروس التي حاصرها البيزنطيون حتى سقطت في أيديهم عام ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م . انظر : آدم متز . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد أيوريدة - القاهرة ١٩٤٠ ج ١ ص ٨ ، ابن الجوزي : المتطم - ج ٨ ص ١٧٩ .

(٣) ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلاني : الانتصار لواسطة عقد الأمصار - مطبعة بولاق ١٣٠٩ هـ - ج ٤ ص ١٦ - ١٨ .

(٤) أبو المحاسن : النحو الزاهرة - ج ٥ ص ١٥

(٥) المقرizi : الخطوط - ج ١ ص ٣٣٧

(٦) أبو المحاسن : النحو الزاهرة - ج ٥ ص ١٧ .

(٧) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ١٥٤

ضحاياه حتى عجز الناس عن تكفين موتاهم فألقوهم في الحفر جماعات وهالوا التراب عليهم ، أو
قفوا بهم في النيل دون أكفان^(١) .

ويقدر البعض أن هذا الوباء أفني ثلثي أهل مصر ، خاصة وأن الجدري إنتشر بين الأطفال
حتى أفني منهم ٢١،٠٠٠ طفل في شهر واحد^(٢) .

وازاء هذه الكوارث ، اضطر الأثرياء إلى الهرب إلى الشام والعراق هرباً من الجوع والفتنة ،
وعلى رأس هؤلاء التجار ، ابتعوا ثياب المستنصر وذئبته وألاته التي باعها الأتراك من خزانة ،
وتركت حركة الهجرة في عامي ٤٦٢ هـ ، ٤٦٣ هـ (١٠٧١ - ١٠٧٢ م)^(٣) .

ويستفاد من المصادر التي ذكرت تاريخ ٤٦٤ هـ / ٧١ / ١٠٧٢ م كنهاية لهذه المجاعة أن
الأزمة الاقتصادية إنفرجت بعض الشيء بمقتل ابن حمدان عام ٤٦٥ هـ ، وإن ظلت حالة البلاد في
اضطراب حتى وضع يدر الجمالى حدأً لذلك بقدومه إلى مصر سنة ٤٦٦ هـ .

وفي آخر عهد المستنصر تأخرت زيادة النيل في سنة ٤٨٢ هـ / ٨٩ - ١٠٩٠ م فأرسل
ال الخليفة بطرك الأقباط ميخائيل بهدية إلى العبيشة ، التي أمر ملكها بفتح سد يجري منه الماء إلى
مصر ، ففتح وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع . وخلع المستنصر على البطريرك عند عودته^(٤) .

في خلافة المستعلي بالله (٤٥٧ - ٤٩٥ هـ / ١٠٩١ - ١٠٩٤ م) عانت البلاد من مجاعتين
خطيرتين ، أولهما كانت في عام ٤٩٠ هـ / ٩٦ - ١٠٩٧ م وانتشر معها الوباء^(٥) . ولم تذكر
المصادر التاريخية سبباً لهذه المجاعة ، ولكن من خلال استقراء ما ورد بجدول مقاييس النيل المرفق
نستطيع أن نرجع هذه المجاعة إلى النقص النسبي في ماء الفيضان الذي بلغت زيادة ١٦ ذراعاً و ٢١
إصبعاً حسب الدواداري ، وهذا أقرب للمنطق من الزيادة التي أوردها أبو المحاسن (١٧ ذراعاً
وإصبعاً واحداً) .

والثانية وقعت في سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ - ١٠٩٩ م ، مع إستداد الوباء الذي أودى بحياة كثير
من السكان^(٦) . والسبب أيضاً هو نقص زيادة النيل (١٥ ذراعاً و ١٥ إصبعاً حسب الدواداري وهذا
أكثر قبولاً من ١٨ ذراعاً و ١٥ إصبعاً التي أوردها أبو المحاسن) .

وعاشت البلاد مجاعتين أيضاً في عهد الخليفة الأمر ساحكم الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ)

(١) المقريزي : انتظام الحفا - ج ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٧.

(٢) د. راشد البراوي . حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٥.

(٣) المقريزي : انتظام الحفا - ج ٢ ص ٣٠٣ ، الخطط - ج ١ ص ٣٣٧ ، ابن الأثير . الكامل - ج ٨ ص ١٠٨.

(٤) د. راشد البراوي . حالة مصر الاقتصادية - ص ٢٣٧.

(٥) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ٣٧ ، المقريزي . انتظام الحفا - ج ٣ ص ١٩.

(٦) المقريزي . المصدر السابق - ج ٣ ص ٢٥ ، الخطط - ج ١ ص ٣٥٦.

هـ ١١٠١ - ١١٣٠ م) وقعت أولى هذه الموجات في وزارة الأفضل بن بدر الجمالي ، ووصل سعر القمح فيها إلى كل مائة أرجب بمائة وثلاثين ديناراً^(١)

وريما يرجع سبب هذه الموجة إلى نقص فيضان النيل ، حيث بلغ ١٥ ذراعاً وإصبعاً ثم هبط الفيضان بعد ذلك فشرفت البلاد^(٢) . وإن كانت قوائم النيل لا تحوى فيضاناً بهذا الإنخفاض في عهد الأمر بأحكام الله ولا يوجد بالمصادر التاريخية تحديد واضح لسنة هذه الموجة ، التي وقعت في وزارة الأفضل بن بدر الجمالي الذي قتل عام ٥١٥ هـ / ١١٢٢ - ٢١ م^(٣) اللهم إلا إذا كانت تلك السنة التي ذكر عنها السيوطي أن القمح «عز بها ثم هان» ، وهي سنة ٤٩٧ هـ / ٠٣ - ١١٠٤ م^(٤) ، وتكون هي نفس السنة التي قال عنها ابن إياس إن العلاء دام فيها نحو سنة أشهر ، إنخفضت الأسعار بعدها وكثرت الغلال^(٥) (فيضان النيل في هذه السنة كان ١٧ ذراعاً و١٣ إصبعاً) .

ويرجع الفضل في تفادي هذه الأزمة إلى السياسة الحكيمة التي اتباعها القائد أبو عبد الله ابن فاتك ، الذي لقب فيما بعد بالمؤمن البطائحي فقد قام بالحتم على مخازن الغلات ، وخير أصحابها بين البيع منها بسعر ثلاثين ديناراً لكل مائة أرجب ، أو الختم عليها حتى دخول الغلة الجديدة ، فأجابه بعض التجار إلى ما طلب ، ثم قام بعد ذلك بتقدير ما تحتاجه البلاد يومياً من الغلال ليصرف من المخازن بالسعر الذي حدد ، فانخفضت الأسعار^(٦) .

وفي هذه السنة أرسل الظاهر إلى الجبيش بسبب نقص الفيضان إلا أن توجهه لم يقدر شيئاً^(٧) .

في عام ٥١٠ هـ / ١٦ - ١١١٧ م هبت على مصر رياح متربة دامت ثلاثة أيام ، فأهلكت كثيراً من الناس والحيوانات^(٨) .

وفي آخر عهد الأمر ، وبعد القبض على المؤمن البطائحي ومصادرته عام ٥١٩ هـ / ٢٢ - ١١٢٣ م ثم قتله عام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م^(٩) ، إرتفعت الأسعار حتى وصل سعر أرجب

(١) المقريزي : إغاثة الأمة - ص ٢٦ - وينظر ابن إياس أن ثمن الأرجب كان ٣٠ ديناراً (ج ١ ص ٦٣).

(٢) ابن إياس : بذائع الرهور - ج ١ ص ٦٣.

(٣) أبو المحاسن : التحوم الراحلة - ج ٥ ص ٢٢٢.

(٤) السيوطي : حسن المحاصرة - ج ٢ ص ١٥٤.

(٥) ابن إياس : بذائع الرهور - ج ١ ص ٦٣.

(٦) المقريزي : إغاثة الأمة - ص ٢٦ - ٢٧ ، انتطاح الحثما - ح ٤ (هامش) ص ٦٦ - ٦٧ . جاء في بذائع الرهور أن الوزير وقت هذه الموجة كان المؤمن البطائحي ، إلا أن المقريزي ذكر أن الوزير كان الأفضل ، وقال إن القائد أبي عبد الله بن فاتك ، عرف بعد ذلك بالمؤمن البطائحي عندما صار وزيراً . انظر . ابن إياس المصدر السابق - ج ١ ص ٦٣ .

(٧) ابن إياس : المصدر السابق - ج ١ ص ٦٣.

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ح ٨ ص ٣١٥.

(٩) أبو المحاسن : المصدر السابق - ج ٥ ص ١٧٠ .

القمح إلى دينار واحد^(١).

ومثل المجاعة السابقة ، لا يوجد تاريخ محدد لها ، سوى أنها حدثت في آخر أيام الأمر بأحكام الله^(٢).

ويرجح أن هذه المجاعة حدثت عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، حيث سجلت زيادة النيل أدنى مستوى لها بعد عام ٥١٩ هـ ، وهو ١٦ ذراعاً و ١٥ إصبعاً طبقاً لابن أبيك الدواداري.

أما أول مجاعات خلافة الحافظ لدين الله (٥٤٤ - ٥٣٢ هـ / ١١٤٩ - ١١٣٠ م) فقد كانت في سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ - ٣٧ م ، في وزارة الأفضل رضوان بن ولخسي^(٣) . ويحيط الشك بما ذكر عن سبب نقص الفيضان^(٤) في هذه المجاعة إذ أن النيل بلغت زيادته ١٧ ذراعاً و ٣ أصابع (ابن أبيك) أو ١٨ ذراعاً و ١٢ إصبعاً (أبو المحاسن) وربما كان السبب هو تأخر الزيادة فقط أو عدم زراعة بعض الأراضي .

ولا يستبعد أن يكون وراءها الوزير ابن ولخسي ، الذي كان يحاول النيل من مركز الخليفة وتلقيب الرعية عليه ، فحينما أمر الخليفة الحافظ لدين الله بفتح الأهراء ، والبيع منها للناس بسعر منخفض ، لم يمتثل الوزير لهذا الأمر مما جعل الحافظ يسعى لقتله فيما بعد^(٥) .

وإن كان الوزير قد حاول علاج هذه المجاعة عن طريق تأديب محتكري الغلال ، الذين يرفعون الأسعار وأمرهم بتوريد ما يحتاج إليه كل يوم من الغلال ، وأشرف على تنفيذ ذلك بنفسه حتى إنخفضت الأسعار^(٦) . ويبدو أن ذلك الإجراء كان في العام التالي ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ - ٣٨ م ، حينما تزايد ارتفاع الأسعار حتى بلغ أربض القمح ثلاثة دنانير ، واضطر الوزير كذلك إلى إخراج الغلال التي سبق أن رفض إخراجها بأمر الخليفة وإن كان ذلك بعد أن فسلت وأرادوا رميها في النيل ، فكانت تقطيع بالفؤوس وتتباع بأربعين ديناراً كل مائة أربض ، وكذلك الأرض الذي يبيع بعشرة دنانير المائة أربض ، فوجد الناس بذلك الطعام الفاسد ما يسد رمقهم^(٧) .

وآخر المجاعات التي وقعت في عهد الحافظ ، كانت طويلة نسبياً ، إذ استمرت ثلاث سنوات من ٥٣٦ إلى ٥٣٨ هـ ، وصاحب المجاعة وباء في العامين الأولين وإن بلغ مداه في

(١) المقريزي : انتظام الحفنا - ج ٣ ص ١٣٣ ، ويستند ذلك من عبارة المقريзи « وكان السادس قد الفروا الرخاء أيام الأفضل واليامون » .

(٢) المقريزي : الخطط - ح ٢ ص ٢٩١ .

(٣) المقريزي : إغاثة الأمة - ص ٢٧ .

(٤) المقريري : انتظام الحفنا - ح ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥) المقريري : انتظام الحفنا - ج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٦) المقريزي : إغاثة الأمة - ص ٢٧ .

(٧) المقريزي : انتظام الحفنا - ج ٣ ص ١٦٨ .

عام ٥٣٧ هـ / ٤٢٠ م - ١١٤٣ هـ .

وكان ابتداء ذلك في شهر شعبان سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٢ م ، فبلغ سعر القمح تسعين درهماً للأربض ، والدقيق مائة وخمسين درهماً الحملة ، والحبز ثلاثة أرطال بدرهم ، والشعير سبعة دراهم الوربة ، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم ، والجبن كل رطل بدرهمين ، والبيض كل مائة بعشرة دراهم ، والزيت الحار الرطل بدرهم ، والقلقاس كل رطل بدرهم ، ولم يقدر أحد على شراء الدجاج لارتفاع ثمنه^(١) .

ويبدو أن سبب هذه المجاعة هو الإنخفاض النسبي لماء الفيضان (١٦ ذراعاً و ١١ إصبعاً) وهو حد وإن كان لا يعني القحط ، إلا أنه يمكن أن يكون كذلك مع حكومة مركبة منها ، وهو ما كان وافعاً بالفعل ، وبعد الأزمة التي أثارها رضوان بن ولخيبي وانتهت بقتله ، لم يستوزر الحافظ أحداً حتى عام ٥٣٦ هـ حينما بدأت المجاعة المصحوبة بالوباء^(٢) واستمرت لعامين حسبما ذكرنا سابقاً .

أما سبب إرتفاع الأسعار في العام الثالث ٥٣٨ هـ / ٤٣ - ١١٤٤ م فيرجع إلى خروج محمد بن رافع اللواتي بالبحيرة على سلطة الخلافة ، وإن كان قد قتل بعد علة موقع على يد والي البحيرة طلائع بن رزيك ، وأدى هذا الاضطراب ولا شك إلى إرتفاع الأسعار^(٣) .

ووقع الغلاء في خلافة الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ - ١١٥٥ م) ووزارة الصالح طلائع بن رزيك عام ٥٥١ هـ / ٥٦ - ١٠٥٧ م ، ولا يمكن القول بأن سبب هذه المجاعة إنخفاض فيضان النيل^(٤) ، الذي وصلت زیادته إلى ١٧ ذراعاً و ٨ أصاعباً . ولعل مرد ذلك إلى إحتكار الغلال ، فارتفعت أسعارها^(٥) ،

ولجأت الحكومة إلى إخراج الغلال من الأهراء بكميات كبيرة ، وفرقتها على الطحانين مع تخفيض الأسعار ، ومنعت الإحتكار ، كما تصدق الصالح طلائع نفسه وغيره من الأمراء ، بما نفس عن الناس ، ولم يستمر الحال على ذلك سوى مدة يسيرة ، حتى «فُرِجَ اللَّهُ وَهُجِمَ الرَّخَاءُ»^(٦) وكان من أثر إتجاه الصالح طلائع إلى ممارسة الإحتكار والاتجار في الغلال أن وقع الغلاء وارتفعت الأسعار في عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م في خلافة العاضد لدين الله^(٧) .

(١) ابن مسر . المصدر السابق - ج ٢ ص ٨٥ ، المقريري . انتطاح الحما - ح ٣ ص ١٧٦ .

(٢) المقريري . الخطوط - ح ١ ص ٣٥٧ .

(٣) ابن مسر . أحجار مصر - ح ٢ ص ٨٦ ، المقريري . انتطاح الحفا - ج ٣ ص ١٧٨ .

(٤) المقريري . إغاثة الأمة - ص ٢٧ ، انتطاح - ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٥) أبو المحاسن . السحوم الزاهدة - ح ٥ ص ٣٣٩ .

(٦) المقريري . إغاثة الأمة - ص ٢٧ - ٢٨ .

(٧) المقريري . انتطاح الحما - ح ٣ - ٢٤٤ والعرب أن ابن توري بردي يذكر أنه لما توفي الصالح طلائع مقتولاً سنة ٥٥٦ هـ حزن الناس عليه لحسن سيرته - السحوم الراهدة - ح ٥ ص ٣٤٥ .

الفصل الثاني

**النتائج السياسية
والاجتماعية للمجاعات**

كان طبيعياً أن تؤثر هذه المجتمعات المتعاقبة على مجريات الحياة في المجتمع المصري بل وعلى الحياة داخل حدود الخلافة الفاطمية المترامية الأطراف بين إفريقيا وأسيا وأوروبا ، طالما كان المجتمع يتداول التأثير والتأثير بين كل أجزائه ، فما أن يصيب أحد جوانب الحياة متغير حتى تتأثر الجوانب الأخرى بهذا المتغير .

وإذا كان تأثير المجتمعات قد امتد ليشمل جوانب الحياة المختلفة ، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ، فإن درجات التغيير التي أصابت هذه الجوانب تراوحت عميقاً من جانب لأخر ومن مجاعة إلى أخرى .

وفي مجال الدراسات التاريخية ، فإنه من الصعوبة بمكان رصد هذه المتغيرات باعتبارها ردود فعل آلية ، تحدث فجأة وبلا مقدمات ، إذ هي أقرب إلى التفاعل الكيماوي بين مجموعة من المواد المختلفة (الحوادث التاريخية) ، التي تخرج لنا بمادة جديدة رغم أنها بالأصل مزيج من مواد قديمة ، ويعنى آخر فإن توالي أحداث المجتمعات من الممكن أن يحدث تغيرات كمية ضئيلة في كل مرة وتراكم هذه التغيرات الكمية حتى تصل إلى مرحلة تاريخية معينة ، تتحول فيها إلى تغير كيفي ملموس هذا بالإضافة إلى ما كانت فيه المجتمعات كعامل دفع ساعد على تطور أوضاع بعضها إلى منهاها .

ويحسن بنا أن نبدأ ببيان المتغيرات السياسية التي كان لها عظيم الأثر في التأثير على الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

أولاً : النتائج السياسية للمجتمعات

١ - ضعف السلطة المركزية :

أسلف القول بأن السلطة المركزية هي مقاييس حالة البلاد ، وخاصة وقت المجتمع ، التي تلعب السلطة القوية دوراً أساسياً في تحجيم الأضرار الناجمة عنها .

ولا شك أن ضعف السلطة المركزية كان يفضي إلى تزايد أخطار المجاعة ، كما أن المجتمعات بدورها كانت تؤثر على تماسك هذه السلطة وتحدد من سطوطها في كثير من الحالات .
وإذا كان الخليفة الفاطمي هو رأس هذه السلطة ورمزها الديني والدنيوي ، مثلما كان الملك - الفرعون في مصر القديمة ، فإن أجنهحة الممارسة السياسية تتمركز بشكل رئيسي في البيروقراطية المدنية والعسكريين ، ويمثل هؤلاء الثلاثة في عصر الدولة الفاطمية على وجه الخصوص جوهر السلطة المركزية .

ويقيناً فقد تحطمـت السلطة المدنية البيروقراطية وانهـار الاقتصاد وأصابـت الدولة الفاطمية في مجملـها الضعف نتيجة للمجاعـات المتـالية^(١) ، وأضـحـى هذا الضعف متـغيرـاً ملـمـوسـاً مـنـذـ الشـدةـ المستـنصرـيةـ التيـ تـعـتـيرـ حـدـأـ فـاصـلـاـ فيـ تـارـيخـ الدـولـةـ الفـاطـمـيـةـ^(٢) . حتىـ إـنـهـ يـمـكـنـ إـعـتـارـ الخـلـافـةـ منـ عـهـدـ بـدـرـ الجـمـالـيـ مجردـ خـاتـمـةـ طـوـيـلةـ لـحـيـاتـهـ .

يـدـ أنـ ضـعـفـ الدـوـلـةـ الـذـيـ أـصـبـعـ مـعـلـمـاـ بـارـزـاـ بـدـءـاـ مـنـ النـصـفـ الثـانـيـ لـخـلـافـةـ الـمـسـتـنصرـ بـالـهـ ،ـ لمـ يـكـنـ إـلـاـ تـوـيـجـاـ لـسـلـسـةـ مـنـ الضـرـبـاتـ الـتـيـ أـصـبـتـ مـرـكـزـ الدـوـلـةـ ،ـ وـحـطـتـ مـنـ هـيـبـتـهـ ،ـ بـلـ وـيمـكـنـ القـوـلـ بـأـنـ هـذـاـ الـانـحدـارـ فـاعـلـيـةـ السـلـطـةـ الـمـرـكـزـيـةـ تـمـثـلـ أـوـلـاـ وـقـبـلـ أـيـ شـيءـ فـيـ التـغـيـرـ النـسـيـ لـتـقلـ كلـ طـرـفـ مـنـ أـطـرـافـ ثـالـوـثـ السـلـطـةـ ،ـ وـأـنـ هـذـاـ التـغـيـرـ كـانـ يـحـدـثـ عـادـةـ فـيـ أـعـقـابـ الـمـجـاعـاتـ .

وـقـدـ مـرـ تـغـيـرـ هـذـاـ التـقلـلـ النـسـيـ فـيـ ثـلـاثـ أـطـوارـ ،ـ سـلـطـةـ الـخـلـيفـةـ الـمـطـلـقـةـ ،ـ وـتـزاـيدـ نـفوـذـ الـبـيـرـوـقـراـطـيـةـ الـمـدـنـيـةـ مـتـمـثـلـةـ فـيـ الـوزـراءـ وـكـاتـبـ الـدـوـاـوـيـنـ ثـمـ سـيـطـرـةـ الـعـسـكـرـيـينـ عـلـىـ أـدـاءـ الـحـكـمـ .

وـلـاـ يـفـرـضـ هـذـاـ التـقـسـيمـ فـصـلـاـ تعـسـفـاـ بـيـنـ حـوـادـثـ التـارـيخـ ،ـ وـإـنـماـ يـعـنـيـ بـالـأـسـاسـ تـحـدـيدـ إـتـجـاهـاتـ جـهـازـ الـحـكـمـ فـيـ مـراـحـلـهـ الـمـخـتـلـفـةـ .

أـ.ـ تـدـهـورـ سـلـطـاتـ الـخـلـيفـةـ :

درـجـتـ الـكـتـابـاتـ التـارـيـخـيـةـ عـلـىـ التـمـيـزـ بـيـنـ فـرـتـيـنـ فـيـ عـمـرـ الـخـلـافـةـ الـفـاطـمـيـةـ ،ـ تـنتـهيـ أـولـهـماـ بـمـقـدـمـ بـدـرـ الجـمـالـيـ إـلـىـ مـصـرـ عـامـ ٤٦٧ـ هـ /ـ ١٠٧٤ـ مـ وـهـيـ الـتـيـ تـعـرـفـ بـعـصـرـ الـخـلـعـاءـ الـأـقـوـيـاءـ ،ـ وـالـثـانـيـةـ تـبـدـأـ مـنـ هـذـاـ التـارـيخـ حـتـىـ سـقـوـتـ الدـوـلـةـ الـفـاطـمـيـةـ وـتـسـمـيـ بـعـصـرـ الـوزـراءـ الـعـظـامـ^(٣) .ـ وـرـغـمـ أـنـهـ مـنـ الـمـسـلـمـ بـهـ أـنـ وـزـارـةـ بـدـرـ الجـمـالـيـ قـدـ دـشـنـتـ عـصـرـاـ كـامـلـاـ إـتـسـمـ بـسـيـطـرـةـ الـوزـراءـ وـاستـبـادـهـمـ بـالـأـمـرـ دونـ الـخـلـيفـةـ إـلـاـ أـنـ ذـلـكـ لـاـ يـعـنـيـ أـنـ إـنـهـيـارـ سـلـطـةـ الـخـلـيفـةـ بـدـأـ فـقـطـ مـنـ هـذـاـ التـارـيخـ .

(١) Lewis (B) : The Camb Vol. I, p.188

(٢) دـ.ـ سـعـيدـ عـبـدـ الـفـتاحـ عـاـشـورـ :ـ شـخـصـيـةـ الدـوـلـةـ الـفـاطـمـيـةـ فـيـ الـحـرـكـةـ الـصـلـيـيـةـ مـقـاـلـةـ بـالـمـجـلـةـ التـارـيـخـيـةـ الـمـصـرـيـةـ .ـ الـمـجـلـدـ الـسـادـسـ عـشـرـ .ـ الـقـاهـرـةـ ١٩٦٩ـ .ـ صـ ١٦ـ ١٧ـ .

(٣) دـ.ـ مـحـمـدـ حـمـدـيـ الـمـاوـيـ :ـ الـوـزـراءـ وـالـوـزـراءـ فـيـ الـعـصـرـ الـفـاطـمـيـ .ـ دـارـ الـعـاـرـفـ .ـ الـقـاهـرـةـ ١٩٧٠ـ .ـ صـ ٣٣ـ .ـ وـانتـظـرـ دـ.ـ حـسـنـ إـبرـاهـيمـ حـسـنـ :ـ الـفـاطـمـيـوـنـ فـيـ مـصـرـ .

وليس من المستغرب أن تكون تواريخ المجاعات محدّدات لتخلص سلطة الخليفة المطلقة ، كما سترى ، ونستطيع بداية أن نميز ، داخل ما اصطلاح على تسميتها بعصر الخلفاء الأقرياء بين ثلاثة مستويات من سلطة الخليفة .

١ - الخليفة المطلق التغوز : (٣٥٨ - ٣٨٦ هـ / ٩٦٦ - ٩٩٦ م) .

كان الخليفة الفاطمي خلال هذه الفترة (خلافة المعز والعزيز) إماماً للمسلمين ، لا ينزعه أحد سلطته الدينية هذه ، كما كان مطلقاً التغوز في تسيير الأمور بالبلاد وإليه يرجع أمر تعين الولاية والقضاء ^(١) . وتأكيداً لهذا التفرد بالحكم لم يستعمل الخلفاء تسمية الوزير «إلا لفترات قليلة وربما مع يعقوب بن كلس فقط الذي أمر العزيز بالله في رمضان عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٩ م بأن يخاطب ويكتب «بالوزير الأجل» ^(٢) وكان ذلك هو مبدأ ظهور هذا اللقب في الدولة الفاطمية ^(٣) . وعدا ذلك فقد كانت هذه الوظيفة التي يقوم بها الرجل الثاني في الدولة بعد الإمام مباشرة تسمى برتبة الوساطة ، وكان من يتولاها يسمى وسيطاً ، أو كانت تسمى بالسفارة لتدل على رتبة من يقوم بتنفيذ رغبات الخليفة ، ولعل إستعمال هذين اللفظين يرجع إلى رغبة الخليفة في الإبقاء على سلطته والاستئثار بكل سيطرته فيعتمد في تسيير أمور الدولة على وسيط وليس على وزير ، بل كان الخلفاء يوكلون أمور الدولة أحياناً إلى كتاب عاديين يلقبونهم بألقاب مثل موقع أو مدير ويصرفون الأمور بعد الرجوع لل الخليفة ^(٤) .

فجبر بن القاسم الذي ولّي الأمور بعد اعتقال يعقوب بن كلس عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٤ م لم تكن له ألقاب ^(٥) . وكذلك كان حال أبي الحسن علي بن عمر العداد وأبي جعفر بن الفرات ، الذي ولّي تدبير الأموال في سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م خلفاً للأول الذي ولّيها لمدة عامين ^(٦) .

وكان للخلفاء سيطرة قوية وحازمة على الجيش الفاطمي ، فعلى الرغم من تباين العناصر التي تألف منها الجيش من يربّر تشكّلوا العمود الفقري لجيش الفتح ، ومماليك يونانيين وصقالبة وإيطاليين ، وما أقدم عليه العزيز بالله من الإستعنة بعدد من المماليك الآتراك وفرق من الديالمة

(١) يصف العmad الحسلي المعز لدين الله والعزيز بأنه أنهما انسما بالحزم وقوة الشخصية مما مكّن لهما من الاستحواد على الأمور - شذرات الذهب - ج ٣ ص ٥٤ - ٥٢ ، ص ١٢١

(٢) أول القاسم علي بن منجب من ملیمان الشهير بابن الصیرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة - تحقيق عبد الله مخلص - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٢٤ م - ص ٢١ ، ابن العmad : شذرات الذهب - ج ٣ ص ٩٧ ، ولمزيد من المعلومات عن ابن كلس انظر :

Mann (Jacob) : The Jews in Egypt and Palestine under The fatimid Caliphs. Oxford 1920. Vol. 1, p 17 - 18,
Lewis (B) Islam . New York 1974. Vol 1. P. 16

(٣) د. حسن الباشا . الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والأثار - دار الهصة العربية - القاهرة - ١٩٧٨ - ص ٦٧

(٤) د عبد المعتمد ماجد نظم الفاطميين - ج ١ ص ٧٨ - ٨٠

(٥) ابن منجب الصیرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة - ص ٢٤ - ٢٣ .

(٦) ابن منجب الصیرفي - الإشارة إلى من نال الوزارة - ص ٢٤ - ٢٥ .

حتى أصبح الجيش ينقسم إلى مشارقة وغاربة^(١) . إلا أنه لم تحدث منازعات بين هذه الطوائف المختلفة من الجند حتى وفاة العزيز بالله .

٢ - الخليفة القيمي يواجه البير وقراطية والجند : (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ م)

وتنتعرق هذه المرحلة خلافة الحاكم بأمر الله ، الذي ولد الخليفة الصغير ، كان في مقدمتها طائفة المغاربة التي أصابها الضعف في عهد الخليفة العزيز بسبب الإستعانة بطوائف من المشارقة فتولى أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار بن أبي الحسين الوساطة سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م وكان مقدماً للمغاربة^(٢) ، وسعى إلى توطيد نفوذهم مما أدى إلى إثارة المشارقة بقيادة برجوان^(٣) .

وانتهى الأمر بعزل ابن عمار بعد التزاع المسلح الذي نشب بين المشارقة والمغاربة سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م^(٤) . ويمكن اعتبار ذلك أول محاولة تقوم بها قوة من ثالوث السلطة المركزية لأجل السيطرة على الأمور دون الخليفة ، على أن النجاح الذي أحرزه برجوان بفرض وصايته على الحاكم لم يستمر طويلاً إذ نجح الخليفة في قتلها عام ١٠٠٠ هـ / ١٣٩٠ م ، كما قتل ابن عمار أيضاً وأضعف نفوذ المغاربة وأفني شيوخهم حتى اضطروا إلى طلب العفو منه^(٥) .

ويبدو أن برجوان كون نفسه ثروة واسعة لم تكن مألفة في وقته مع سيطرة الخلفاء وتعاظم ثرواتهم ، ولعل ذلك هو الذي أحقن الحاكم عليه فضلاً عن استبداده بال الخليفة ، فقد وجد بعد قتله مما ترك ثياباً فاخرة وأواني من الذهب والفضة لا حصر لها عدا الخيول والسروج المذهبة والكتب^(٦) .

ويمكن القول بأن فترة خلافة الحاكم قد شهدت تقلص سلطة الخليفة أمام نفوذ طوائف الجند في الأمور السياسية كما بدأت سلطة الخليفة الدينية والشخصية التي بلغت أوجها في عهد أسلافه في التقلص جزئياً^(٧) ، وإن ظل الخليفة حريضاً على عدم التفريط في نفوذه ، ولعله استعراض عن ذلك

Lewis (B), Op. Cit. Vol. I. P. 187.

(١)

(٢) عن لقب أمين الدولة . انظر د. حسن الباشا : الفسون الإسلامية - ج ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٣) د. ماجد . ظهور خلافة الفاطميين - ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٤) ابن منتب الصيرفي : المصدر السابق - ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥) د. ماجد : المرجع السابق ص ٣٧٢ - انظر ترجمة برجوان في أحمد بن محمد بن أبي مكر بن خلakan - وفيات الأعيان - تحقيق محمد محبي الدين - القاهرة ١٩٤٨ - ح ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ . ويدرك ابن القلاطي أنه قتل برجوان لأنه كان يضيق عليه ويريد أن يحجر عليه - ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ - ص ٥٥ .

(٦) القاعسي الرشيد بن الزبير : كتاب الذاхار والتحف - دائرة المطبوعات والنشر - الكويت ١٩٥٩ - ص ٢٣٢ ، مجهول المؤلف : كتاب إنسان العيون في مشاهير سادس القرون - ومخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩١٩ - تاريخ تعمير ص ٤٩ . مجهول المؤلف . شرح اللمعة - ورقة ٥ - ب .

Lewis (B); The Camb. Vol. I. P. 187.

(٧)

بالتتوسيع في إضفاء الألقاب وغيرها من التشريفات على وسطائه .^(١)

في بينما تتمتع المغاربة بنفوذ واسع في بداية خلافة الحاكم ، نجد أن المشاركة استغلوا إنتخافهم الفيضان عام ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م واضطراب حبل الأمن بالبلاد وأطاحوا بابن عمار^(٢) ومارسوا نفوذهم على الخليفة بواسطة برجوان ثم ازداد نفوذهم بالجيش بعد تصفيته الحاكم لنفوذ المغاربة عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م^(٣) أثناء ثورة أبي ركوة التي احتاج خلالها إلى جيش لصد هجماته الآتية من إفريقيا فضلاً عن اضطرار الحاكم لزيادة مهام الجيش وسلطات قواه لأجل ضبط الأمان بالبلاد أثناء المجاعات المتصلة التي استغرقت معظم خلافته .

وعلى جانب آخر خاض الحاكم صراعاً متداولاً مع البيروقراطيين من كتاب الدواوين الدين وما أغراهم صغر سن الخليفة باستغلال نفوذهم لتحقيق الثروات حتى اضطررهم لطلب الأمان منه^(٤) .
وربما كان سفك الدماء الذي يوصم به الحاكم مظهراً من مظاهر نضاله ضد محاولة الإنقاص من سلطاته المطلقة^(٥) .

ورغم صراعات الحاكم مع العسكريين وجهاز الإدارة المدنية ، إلا أن نهاية الحاكم جاءت على يد أخيه ست الملك وأفراد بيت الخليفة ، الذين قصوا على محاولته لإستعادة نفوذه المطلق بقتل غيلا ، وبالاتفاق مع كبار رجال الدولة^(٦) . وفي مقدمتهم ابن دواس الذي أصبح محتسباً في خلافة الظاهر^(٧) .

٣ - الخليفة المستسلم للبيروقراطية : (٤١١ - ٤٥٧ / ١٠٢٠ - ١٠٦٤ م) .

ظهر مقتل الحاكم بأمر الله كما لو كان إنتصاراً لنيار رجال الإدارة المدنية والعسكريين ، الذي أستهدف الحد من السلطان المطلق الذي تتمتع به الخليفة في السنوات السابقة ، وساعدهم على ذلك ضعف شخصية الظاهر لإعزاز دين الله ، الذي ترك تسخير أمور البلاد بأيدي ثلاثة من كبار رجال الدولة ، يتمي اثنان منهم لمعسكر البيروقراطية وهما الشيخ نجيب الدولة الجرجراطي والشيخ العميد محسن بن بدوس وثالثهم من العسكريين وهو القائد معضاد^(٨) .

(١) د. حس الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٦٩ .

(٢) كان ابن عمار يلقب نأيم الدولة وهو أول لقب يستعمله العاطميون في مصر مصادفاً إلى الدولة وسيق استخدامه مع بلبكين في المغرب فقد لفته المعر للنبي الله سيف الدولة . انظر . د. حس الباشا : المرجع نفسه - ص ٦٩

(٣) د. عبد المنعم ماحد . ظهور حلقة القاطمين - ص ٣٧٢ .

(٤) انظر : الفصل السادس

(٥) د. حس الباشا . المرجع السابق - ص ٦٨ .

(٦) ابن الحوري : المستظم - ج ٧ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٧) ابن العماد . شذرات الذهب - ج ٣ ص ١٩٣ ، مجهول . شرح اللمعة ورقه (٨) .

(٨) المتريري . الخطوط - ج ١ ص ٣٥٤ ، والجرحراطي هذا قطع الحاكم بيده عام ٤٠ هـ . ولولاه الع مقات عام ٤٠ هـ .

انظر ابن محب الإشارة - ص ٣٥ - ٣٦ .

وقد أفلح هذا الثلاثي خلال المجاعة التي اجتاحت البلاد عام ٤١٤ - ٤١٥ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٢٤ م في توسيع سلطاته على حساب الخليفة الذي عجز عن أن يستجيب لصرخات رعاياه لإنقاذهم من تحكم رجال الدولة الذين مارسوا الاتجار بأقوات الشعب واحتكروها ، وجنوا الأرباح الوفيرة بالتعاون مع المحتسب كما سبق الإشارة في الفصل الأول .

كما أن العبيد الذين استعانت الدولة بهم في الجيش ، انتهزوا فرصة المجاعة فهباوا الغلال وأحرقوا البيوت ونهبواها ، وكان ذلك أول تمرد لطائفة العبيد على سلطة الدولة^(١) . ولا شك أن فترة حكم الظاهر قد سجلت تصاعداً ملحوظاً في نفوذ الأقباط في الإدارات العليا الأمر الذي انعكس على التسامح معهم سواء في إقامة أعيادهم حتى في أوقات المجاعة وعدم مطالبتهم أيضاً باعتناق الإسلام^(٢) .

٤ - الخليفة بلا سلطات :

تعد الفترة الأولى من حكم المستنصر بالله فيما قبل الشدة العظمى ، امتداداً لفترة خلافة أبيه الظاهر ، حيث تفرد الوزراء وكبار رجال الدولة بالأمور ، وكان لسعى كل منهم للاستحواذ على مقاليد الحكم أثره في سرعة تغيير الوزراء ، مما أفضى إلى اضطراب الإدارة المدنية وانهيارها .

وفي ظل هذا الاضطراب الذي تزايد مع بداية الشدة المستنصرية ، وجد العسكريون ضالتهم المنشودة في السيطرة على البلاد ، خاصة وأن طبيعة تنظيمهم العسكري ، جعلت منهم الفريق الوحيد المؤهل للإستيلاء على السلطة ، خاصة بعد أن تضخم الجهاز العسكري نتيجة لاهتمام الخلفاء بقوة مصر الحربية^(٣) وفي إطار سعي كل فرق من فرق الجندي لنيل هذا المرام نجح المشارقة بقيادة ابن حمدان في تصفية العبيد السودان ، ثم تخلصوا من ابن حمدان نفسه بعد ذلك .

ويمكن اعتبار الفترة التي امتدت من ٤٥٧ - ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٨٤ م هي بداية لتحكم العسكريين في الخلافة الفاطمية بشكل كامل ، سواء أكان ذلك في صورة تمرد على الخليفة نفسه كما فعل ابن حمدان ، أو تحت لوائه كما فعل قادة الأئراك بعد مقتله^(٤) .

وقبل هذه المجاعة تمتخ الخلفاء بثروات خيالية ، فيذكر ناصر خسرو الذي زار مصر في خلافة المستنصر قبيل الشدة ، أن بالقاهرة ما لا يقل عن ٢٠،٠٠٠ دكان ، ملك للخلافة ، معظمها يؤجر بعشرة دنانير في الشهر وأقلها يؤجر بدينارين ، وثمانية آلاف بيت بالقاهرة ومصر يذهب إيجارها

(١) المبحي المصدر السابق - ج ٤ ص ٨٨ ، المقريزي : اتعاط الحما - ج ٢ ص ١٧٠ .

(٢)

Lewis (B). Islam . Vol 11. P.228

(٣) د. أحمد محتر العيادي - في التاريخ العباسى والفارطى - ص ٢٧٦ .

(٤) انظر الفصل الأول .

للمخليفة ، غير الأربطة والحمامات والأبنية الأخرى التي يصعب حصرها^(١) . كما كان المستنصر يمتلك مساحات شاسعة من الأراضي ، يقع جزء منها على ساحل الخليج ويشمل ١٦٠ قرية ، ومراتب لنقل البضائع ، بلغ ما يملكه منها في ت尼斯 وحدها نحو ألف مركب^(٢)

وكانت الأموال المخصصة للبلاد الفاطمي والإتفاق على مظاهر البذخ من الكثرة حتى كان يشرف عليها ما يسمى بديوان المجلس ويسمى متوليه بصاحب الدفتر^(٣) .

كما تمنع أفراد البيت الفاطمي بثروات هائلة ومن بينهم الأميرات اللاتي حُزن ثروات عظيمة^(٤) .

وخلال الشدة المستنصرية تم تجريد الخليفة من كل سلطاته وأمواله ، واسقطت هيبيه أمام الرعية ، وأجبره ابن حمدان والأتراء على أن يبيع ما في خزائنه للإتفاق فيهم وكانوا يطلبون ذلك شيئاً فشيئاً «حتى أمست خزائنه من المال بقلعه»^(٥) .

وكانت خزائن الخليفة تحتوي على ما يهدى إلى الخلفاء من ولاتهم سواء في أفريقيا واليمن أو من حكام المسلمين في الأندلس أو ما كان يهدى من ملوك الروم للمخلفاء^(٦) . وذلك فضلاً عما كان يشتري لهذه الخزائن وقد بلغت مشتريات خزائن البنود وحدها منذ فتح مصر على يد الفاطميين عام ٣٥٨ هـ ، في كل عام من ٧٠ ألف دينار إلى من ٨٠ ألف دينار حتى استيلاء الأتراء عليها وأن «جميعه باقٍ على الأيام لم يتغير»^(٧) .

وقد فقد الخليفة إبان هذه المجاعة كل ثرواته من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة ، التي أسهبت مصادر تاريخية كثيرة في ذكر تفاصيلها وأثمانها الحقيقة والأثمان التي يبعث بها ابن حمدان والأتراء^(٨) .

(١) ناصر خسرو : مفرنامة - ص ٤٨ .

(٢) د. ماجد : نظام الفاطميين - ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٣) المرجع نفسه - ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) إنصاف رياضن : الحالة الاقتصادية والمطابر الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي الثاني - رسالة ماجستير محظوظة بإشراف د. ربيبة محمد عطا - كلية الآداب جامعة المنيا ١٩٨٠ - ص ١٦ .

(٥) د. ماجد : السجلات المستنصرية - ص ١٨٣ (سجل من المستنصر بالله لعبد المستنصر بن الصالحي بتاريخ محرم ٤٦٧ هـ) .

(٦) الرشيد بن الزبير : الدحائز والتحف - ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٥ . كانت هدايا ميخائيل متعلق الروم للمستنصر سنة ٤٤٤ هـ من الذهب كما أنه أهداه المستنصر أيضاً . نفسه ص ٧٦ - ٨١ .

(٧) المصدر نفسه - ص ٢٥٢ .

(٨) يذكر المقريري : أنه أخرج من خزائن المستنصر نعمان وعشرين صينية مينا مجردة بالذهب بيعت كل منها بثلاثة آلاف دينار وأربعينات قهصن كبار من آلات مصوقة سحرة بالذهب تم سبكها وتغريتها على المخالفين وأن آلات الفضة وزنة ثلاثة ألف ونيف وأربعون ألف درهم تساوي ستة دراهم بديمار - الخطط - ج ١ ص ٤١٥ . وانظر : الدحائز والتحف - ص ٢٤٩ ، ٢٦٣ . حيث ورد ذكر ما أخرج من الخزائن بتفصيل أكبر .

بل إن الحاجة الجات المستنصر إلى بيع ملابس العباسيين التي أخذت أثناء ثورة البساسيري في بغداد وأضطر إلىأخذ قناديل الفضة والستور من مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام^(١) ، ويقع رخام قبور آجداده^(٢) الخلفاء .

ويبلغ الأمر يابن حمدان أنه أخذ يراسل الدول الأخرى باعتباره صاحب مصر ، فأهداى في سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م إلى متملك الروم هدية جليلة تساوي نحوًا من أربعين ألف دينار تشمل أوانى البلور والأ نوع الفاخرة من الشياطين^(٣) ، ويبدو أن ذلك كان مما نهبه من خزائن القصر .

وفقد الخليفة كل مراسيم التعظيم والأبهة ، وبعد المواقف الحافلة التي كان يركب فيها الخليفة ، أصبح يركب وحده ، وخواصه ليس لهم دواب يركبونها ، وإذا مشوا سقطوا من الجوع ، وأال الأمر إلى أن استعار المستنصر بغلة يركبها من صاحب ديوان الإنشاء^(٤) .

وصار المستنصر بالله - يجلس على نخ أو حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره ، حتى إن أحد الوعاظ لم يجد أحداً عند دخوله القصر ليستاذن في الدخول على الخليفة ، كما لم ير أحداً في دهاليز القصر فأنشد يقول :

يا منزلاً لم تبل أطلاله
لم أبك أطلالك لكنثي
بكينت عيش قبل إذ ولئي
والعيش أول ما بكاه الفتى
لابد لمحزون أن يسلى
فلما سمع المستنصر ذلك بكى طويلاً^(٥) .

ومع ما كان عليه المستنصر من التراء ، فإن الأمر بلغ به أنه كان لا يجد طعاماً ليأكله ، فكانت سيدة من الأشراف تبعث إليه في كل يوم بقعيٍ من فيت من جملة ما كانت تصدق به أثناء الشدة ولم يكن للمستنصر من قوت سوى ما كانت تبعث إليه مرة واحدة في اليوم والليلة^(٦) .

ويبدو أن حالة الخليفة بلغت حداً من السوء رقًّ معها قلب ابن حمدان ، فأطلق له مائة دينار نفقة في الشهر ، بعد أن قصّ عليه الرسول الذي بعث به ليطالب الخليفة بالأموال ، ما فيه المستنصر من بوئس حتى صار يجلس على الحصير وليس عنده غير ثلاثة من الخدم^(٧) .

(١) أبو المحاسن : التلجم الزاهرة - ج ٥ ص ١٦ - ١٧.

(٢) الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف - ص ٨٦ - ٨٥.

(٣) الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف - ص ٨٥ - ٨٦.

(٤) أبي المحاسن : التلجم الزاهرة - ج ٥ ص ٢ ، يذكر ابن خلكان أن المستنصر كان يستعين من ابن هبة الله صاحب ديوان الإنشاء بغلة ليركبها صاحب مظلته . ابن خلكان وفيات الأعيان - ج ٤ ص ٣١٨.

(٥) المقرizi : انتظام المختف - ج ٢ ص ٢٩٩ - ٢٩٩.

(٦) المقرizi : إغاثة الأمة - ص ٢٤.

(٧) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٢١.

وقد منَّ القدر أيضًا أهل الخليفة ، فعاقب ابن حمدان أم المستنصر بعقوبات متعددة واستخلص منها أمواً جمة^(١) ، وأدى هذا الإضطهاد إلى تفرق أهل المستنصر عنه هرباً من الجوع والإذلال ، فمِنْهم من سار إلى الشام والمغرب وال العراق^(٢) . وزرحت أمه وبناته إلى بغداد خوفاً أن يمتن جوعاً^(٣) . ويقال إن بعض نساء القصر خرجن ناشرات شعورهن يصحن : الجوع . الجوع . وهن يردن المسير إلى العراق فتساقطن عند المصلى بظاهر باب النصر من القاهرة ومنْ جوعاً^(٤) .

كما بعث المستنصر بأولاده إلى خارج مصر لعدم الطعام فسیر الأمير عبد الله إلى عكا فنزل عند أمير الجيوش بدر ، وأرسل الأمير أبا علي معه ، ويعتَبِرُ الأمير أبا القاسم والد الخليفة الحافظ إلى عسقلان ولم يترك عنده سوى أبي القاسم أحمد^(٥) .

تلك كانت حالة الخليفة إبان الشدة العظمى ، فلما جاء بدر الجمالى سلب الخليفة كلَّ صلاحياته الدينية كما سترى ، ولم يبق للمستنصر أمر ولا نهي إلا الركوب في العيدن ، ولم يزل كذلك حتى مات بدر الجمالى وقام بعده ولده الأفضل^(٦) .

وظلَّ الخلفاء من بعد ذلك على نفس الطريق ، فلم يعد لهم من الخلافة سوى الإسم فقط لاستيلاء وزرائهم على الأمور وحجرهم عليهم وتقبفهم بالقاب الملوك ، فكانوا معهم كخلفاء العصر المملوكي مع السلاطين وكخلفاء بعدهم مع بنى بويه^(٧) .

ب - أثر المجاعات على الوزارة والقضاء :

يكاد يكون: تطور نظام الوزارة في مصر الفاطمية هو الوجه الآخر «لعملة» تطور سلطة الخليفة الفاطمي ، فموقع الوزارة من السلطة المركزية ، كان يتعدد ضعفاً أو قوة، بمدى قوة شخصية الخليفة واسع سلطاته .

وخلال فترة الخلفاء الأقوباء (٣٥٨ - ٤١١ هـ / ٩٦٩ - ١٠٢٠ م) لم يعرف الرجل الثاني في الدولة ، دائمًا ، بلقب «وزير» وإنما كان يسمى أحياناً بالواسطة أو السفير ، وربما أدار الخليفة

(١) المقريزي : انتهاج الحتفا - ج ٢ ص ٣٠٧.

(٢) المقريزي : الخطأ - ج ١ ص ٣٣٧.

(٣) أبو المحاسن : التلجم الزاهرا - ج ٥ ص ٢ ، كان ذلك عام ٤٦٢ هـ . كما يذكر ابن خلkan وهي السنة التي بلشت المجاعة فيها أشدتها . ابن خلkan - وفيات الأعيان - ج ٤ ص ٣١٨ .

(٤) المقريزي : انتهاج الحتفا - ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٥) المصادر نفسه . وقد ولد الخليفة الحافظ للدين ابنه بعسقلان التي كانت مقراً والده أثناء الشدة العظمى - انظر : المقريзи : الخطأ - ج ١ ص ٣٥٧ .

(٦) أبو المحاسن : التلجم - ج ٥ ص ٤ . لورد ابن خلkan ترجمة الأفضل بن بدر الجمالى وذكر مقدار الثروة التي خلملها بعد مقتله في خلافة المستعلي باقه - وفيات الأعيان - ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦٢ .

(٧) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ١٧ .

شُؤون الدولة من خلال الكتاب والموظفين العاديين ، ولم يثبت لقب وزير إلا بداعٍ من خلاقة الظاهر لإعزاز دين الله^(١) .

ويصفه عامة فإننا نفرق خلال العصر الفاطمي بين وزارة التنفيذ ووزارة التفويض . والوزير في الحال الأولى مجرد منفذ لرغبات الخليفة ، وفي حالة وزارة التفويض ، يفوض الخليفة إلى وزيره جميع أمور الدولة ولم يعد له أي سلطة على هذه الأمور ، بل تطاول الوزير على سلطة الخليفة الدينية^(٢) .

ويمكن تصنيف فترة ما قبل الشلة المستنصرية تحت وزارة التنفيذ ، إلا أنه باستجاد المستنصر بقائده بدر الجمالي والي عكا في عام ٤٦٦ هـ تطورت إلى وزارة تفويض^(٣) .

وإذا كان من المسلم به اعتبار الشلة المستنصرية سبباً مباشرأً في هذا التحول الخطير من وزارة التنفيذ إلى وزارة التفويض ، فإنه لا ينبغي الغض من شأن التغيرات الكمية التي حدثت في إطار وزارة التنفيذ . وببداية ، فإنه يجدر التنوية إلى أن بعض وزراء التنفيذ ، قبل الشلة ، مارسوا مهام وزراء التفويض وخاصة الوزراء الأقوباء كيعقوب بن كلس والجرجائي^(٤) . ولعل ذلك يدفعنا إلى إطلاق «وزارة المدنيين» أو أصحاب الأقلام على وزارة التنفيذ «ووزارة العسكريين» أو وزارة أصحاب السيف على وزارة التفويض التي كان جل وزرائها من قواد العسكرية وحكام الأقاليم .

تعد وزارات التنفيذ - عدا استثناءات قليلة - تعبيراً عن الثقل السياسي لرجال الإدارة المدنية (البيروقراطيين) ، ولذا لم يكن من المستغرب أن يكون العديد من الوزراء من أهل الذمة أو المسالمة^(٥) . ويمكن تلمس تزايد نفوذ هذه الفئات من حوادث اضطهاد الأقباط الذين علا كعبهم

(١) د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ٧٨ - ٨٠ .

(٢) د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - القاهرة ١٩٥٨ - ج ١ ص ٢٧ .

(٤) د. محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء - ص ٤٣ - ٤٥ .

(٥) ترأى الوزارة خلال الخلاقة الفاطمية أربعة من أهل الذمة أسلموا ، وستة لم يسلموا وبقوا على دينتهم . كان الأربع المسالمة أي الذين غيروا دينهم للإسلام وزراء تنفيذ قبل الشلة وهم : يعقوب بن كلس وصلبة بن يوسف الفلاحي وإبراهيم بن سعد الستري ومنصور بن مكروة . أما أهل الذمة فمهم خمسة من وزراء التنفيذ وهم : عيسى بن نسطوروس وفهد بن إبراهيم ومنصور بن عبدون وزرعة بن نسطوروس وصاعد بن عيسى ، أما السادس وكان بعد الشلة العظمى فهو أبو المظفر مهران الأرمني وكان من قواد الأ Armenians - وهو من وزراء التفويض - راجع : د. المناوي : الوزارة والوزراء - ملحق (٢) ص ٢٩٧ - ٢٩٤ .

وإن كان Mann يذكر أن يعقوب بن كلس مات يهودياً وأنه شمل برعايته طائفة اليهود - انظر :

Mann (J) Jews in Egypt and in Palestine Vol. I. P. 17.

ومن الملحوظ أن بعض من هؤلاء قد تلقب بنعموت فخرية خاصة مثل فهد بن إبراهيم الذي لقب بالرئيس ومنصور بن عبدون الذي لقب بالكافي وزرعة بن نسطوروس بالشافي وأخوه صاعد بالأمين الظاهر شرف الملك تاج المعالي ذي الجدين . انظر : د. حسن البasha : الألقاب الإسلامية - ص ١٩ - ١٨ .

في أيام العزيز بالله ، الذي تزوج من مسيحية ، ويبلغ من تحكمهم أن سيدة مسلمة وقفت بطريق العزيز وأعطيته قصة تهمه فيها بأنه أذل المسلمين كما أعز الأقباط بيعسى بن نسطورس ومتشا اليهودي متولي أمور الشام ^(١) .

وشهد عهد الحاكم يأمر الله أوسع محاولات التصدي لنفوذ الأقباط في الإدارات المختلفة ، بعد أن اشتد بأسهم ، ولعل ذلك هو سبب عودة الحاكم إلى تطبيق الشروط العمرية الخاصة بأهل الذمة ^(٢) .

ويبدو أن تقلد النميين منصباً من مناصب الإدارة العليا ، وخاصة منصب الوزير ، كان يؤدي إلى ازدياد نفوذ أهل الذمة واستحوازهم على كثير من مناصب الدولة ^(٣) . وهذا هو الذي سوّغ للحاكم قتل فهد بن إبراهيم الذي عرف عنه أنه يقرى نفوس النصارى ويفرض أمر الأموال والدواوين إليهم وأنه «عنة للنصارى وأفة على المسلمين» ^(٤) غير أن الحاكم اضطر في الشطر الثاني من خلافه إلى التخفيف من حدة تفزيذ الشروط العمرية لاضطراب الأمور داخل البلاد بسبب المجاعة والضنك ^(٥) ، وذلك حتى لا تصاب الأدلة الإدارية بالاضطراب .

بيد أن تغير نظام الوزارة من وزارة تنفيذ إلى تنفيذ ، لم يقض نهائياً على سطوة الكبار الأقباط وإن حد ذلك من نفوذهم ، ففي خلافة الحافظ للدين الله وقعت حادثة حاقدة فيها الظلم بأحد المسلمين بفعل أحد الكتاب الأقباط ، الأمر الذي جعل الخليفة يأمر بعدم استخدامهم في الدولة ، إلا أنهم تحايلوا حتى عادوا للخدمة وازداد تحكمهم بال المسلمين ^(٦) .

(١) مجهول : إنسان العيون (مخطوط) ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ، ومتشا المقصود هنا اسمه كما تشير وثائق الجنيزة هو مشا بن إبراهيم القزار ، وكان أحد كبار تجار الرملة بفلسطين ويبدو أنه كان يؤدي خدمات جليلة لبني جلدته حتى إن في وثائق الجنيزة علة قضائد تعداده مكتوبة بالعبرية . انظر : Mann (J) Jews in Egypt Vol. I. p.20.

وقد قبض العزيز بعد ذلك على عيسى بن نسطورس وأخذ منه نحو ٣٠٠ ألف دينار وأخذ أكثر من ذلك من اليهودي . انظر : Lewis (B) Islam . Vol. II . P. 226.

صلاح الدين خودايخش : حضارة الإسلام بيروت ١٩٧١ - ص ١٠٨ .

(٢) د. عبد المنعم ماجد : الحاكم يأمر الله - ص ٩٥ - ٩٦ .

(٣) د. حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر - ص ٢١ .

(٤) المقرizi : الخطط - ج ٢ ص ٣١ . كان فهد بن إبراهيم كاتباً لبرجوان وتولى الوساطة مع قائد الفرّاد الحسين بن جوهر حتى قتل معه في عام ٣٩٣ هـ .

ابن منجك الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة - ص ٢٨ .

ومن المؤكد أن اليهود استفادوا من المناصب المهمة التي تولوها فزادوا من نفوذهم وعملوا لصالح إخواتهم في العقيدة فأقاموا إلى المصريين والمسلمين . انظر : د. قاسم عبد الله قاسم : اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو الشمالي - المؤسسة العربية - بيروت ١٩٨٠ - ص ١١ - ١٢ .

(٥) د. حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر - ص ٢٠٣ .

(٦) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٤٠٦ .

ومهما يكن من أمر ، فإن الوزراء المدنيين (التنفيذ) الذين تولى منهم خمسة في عهد العزيز بالله ، وكثير صرفهم وقتلهم في عهد الحاكم بأمر الله حتى بلغت عدتهم ثلاثة عشر وزيراً^(١) ، نجح بعضهم منذ عهد الظاهر في أن يتقدم أكثر من خطوة متقدعاً عن أن يكون مجرد منفذ لرغبات الخليفة ، وجاء ترافق قدر رجال الدولة متوفقاً مع حالة الصراع التي سادت لأجل الاستحواذ على السلطة من الخليفة الماجن^(٢) .

ويأتي في مقدمة هؤلاء الوزراء نجيب الدولة أبي القاسم علي بن أحمد الجرجائي الذي ولّى الوزارة للظاهر في سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م^(٣) ، وكان أحد ثلاثة يسيطرون على الأمور في بداية خلافة الظاهر وقت حدوث مجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ الخطيره . وقد واجه تفرده بالوزارة وتقرير الأمور مع أخت الحاكم مت الملك بتحدد العصيان الحربي وضعف الإداره الحكومية البيروقراطية^(٤) .

ويظهر من سجل تعين الجرجائي ، أنه كان أبعد من أن يكون وزير تنفيذ ، حيث يذكر الخليفة أنه قد فوض إليه أمر وزارته وجعله الوسيط بينه وبين أوليائه وناظره به أزمة الحل والعقد والإبرام^(٥) .

والأرجح أن الذي دفع الظاهر لزيادة سلطات الجرجائي ، ما آل إليه حال الإداره المدنيه من ضعف وفساد منذ مجاعة ٤١٤ هـ ، فقد قام رجالها بالاتجار في الغلال واحتقارها ، كما انتشرت الرشوة بين الكتاب وموظفي الدولة ، كما يستدل من دعوة الخليفة للجرجائي في سجل التعيين لدراسة أحوال المستخلصين الناظرين في الأموال ومعرفة السبب الذي «يدعو المتصرف إلى أن يحمل نفسه على الخطة النكراء في الإتجار والارتقاء»^(٦) .

وقد استمر الجرجائي - خلافاً لمن سبقوه - في الوزارة حتى بعد وفاة الظاهر ووزر للمستنصر بالله حتى سنة ٤٣٦ هـ / ٤٤٤ م أي أنه وزر نحو ثمانية عشر عاماً^(٧) . وقد تعتبر إعادة لقب الوزير الأجل إيذاناً بتدهور سلطة الخليفة ، ذلك التدهور الذي سيؤدي في نحو نصف قرن من الزمان إلى ظهور طبقة أمراء الجيوش واستبدادهم بالحكم دون الخلفاء^(٨) .

(١) ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ٤٨ - قتل الحاكم تسع وزراء منهم . انظر : ابن منجب : الإشارة - ص ٢٦ - ٣٣ .

(٢) ابن القلاطي ، أبويعلي حمزة : ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ - ص ٧٣ .

(٣) ابن منجب الصيرفي : المصدر السابق - ص ٣٥ - ٣٦ ، أعيد لقب الوزير الأجل إلى الجرجائي عام ٤١٨ هـ ولم يتحقق من قبل إلا لابن كلس .

(٤) د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٦٩ .

Lewis (B) , The Camb . Vol . I . P . 188.

(٥) ابن القلاطي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٨٠ - ٨٢ .

(٦) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق - مجلداً - ص ١٣٧ .

(٧) ابن منجب : الإشارة إلى من تأل الوزارة - ص ٣٦ - ٣٥ ، د. المتأول : الوزارة - ص ٣٠٧ .

(٨) د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٧٠ - ٧١ .

أما ثاني هؤلاء الوزراء فهو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن البازوري الذي وُزِّر للمستنصر من عام ٤٤٣ - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ - ١٠٥٠ مـ ، ولعل ألقابه تدل على ما تتمتع به من نفوذ في دولة المستنصر الذي لقبه بالوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء قاضي القضاة وداعي الدعاء علم المجد خالصية أمير المؤمنين الناصر للدين غياث المسلمين ،^(١) وهو بذلك لم يكن فقط رأساً للإدارة المدنية ، بل رئيساً للهيئة القضائية ومسفراً على الدعوة الشيعية . ولا شك أن الإكثار من ألقاب البازوري كان صدى لاتساع نفوذه وارتفاع مكانته عند الخليفة .^(٢)

ومن المحتمل أن يكون اليازوري قد شارك المستنصر في حق من حقوق الخلافة وهو السكة ، إذ يذكر السيوطي أنه سأله المستنصر أن يكتب اسمه على السكة فكان ينشئ عليها :

ضرب في دولة آل الهادي من آل طه والياسين
مستنصر بالله جل اسمه وعبدة الناصر للدين

مع ذكر تاريخ الضرب ، وطبعت الدنانير على ذلك نحو شهر ثم أمر المستنصر أن لا تسطر في السير وعزل اليازوري بعد ذلك من الوزارة والقضاء في المحرم سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م^(٣) .

وقد كان لكل من الجرججاري واليازوري نفوذ واسع في الجيش ، حيث كان باستطاعتهما ، أو على الأقل بمشورتهما إرسال الحملات التأديبية للجهات الثائرة^(٤) .

وبانتهاء وزارة اليازوري تفجرت الصراعات بين طوائف الجندي من السودان والأترالك بهدف السيطرة على أمور الخلافة ، ودخلت البلاد في مرحلة مخاض تاريخي احتضرت واضمحلت خلالها وزارة المدنيين (التنفيذ) التي لم تكن السلاح الذي بآيدي طوائف الجندي .

فمنذ عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م وحتى ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م عند مقدم بدر الجمالى ولـى الوزارة
تسعة عشر وزيراً على النحو التالى :

١- أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي : ولَيَ الوزارة ثلاثة مرات أولها في محرم سنة ٤٥٠ هـ وصرف بعد شهرين ، والثانية في رمضان سنة ٤٥٢ هـ وصرف بعد أربعة أشهر ، والأخيرة في ربيع الأول عام ٤٥٤ هـ وصرف بعد خمسة أشهر ^(٥) .

(١) ابن منجح الصيغة : المصدر السابق - ص ٤٠ - ٤٢ ، ويدرك خطأ أنه قضى في عهده على تمرد أبي ركرة عام ٤٤٦ هـ.

(٢) د. حسن الباشا : **الألقاب الإسلامية** - ص ٧٠-٧١.

(٢) السطـر : حـسـنـ المـحـاضـرـةـ - جـ ٢ صـ ١١٦

^{٤٥} د. محمد جملي المناوى : الوزارة والوزراء - ص ٤٤ - ٤٥ .

(٥) ابن منتب الصيّبي : الاشارة الى من نال الوزارة من ٤٦.

- ٢ - أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي : تولى من شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٠ هـ وصرف في شهر رمضان من نفس العام ^(١) .
- ٣ - عبد الله بن يحيى بن المديبر : ولّي الوزارة مرتين، إحداهما في صفر ٤٥٣ هـ وصرف بعد شهور، والأخرى في شهر ربيع الأول ٤٥٥ هـ وتوفي في وزارته في جمادي الأولى منها ^(٢) .
- ٤ - عبد الكريم بن عبد الحاكم : قررت له الوزارة في رمضان سنة ٤٥٣ هـ وتوفي في محرم ٤٥٤ هـ وكان قاضياً للقضاء و Tollied منصب داعي الدعاة ^(٣) .
- ٥ - أبو علي أحمد بن عبد الحاكم : تولى الوزارة سنة ٤٥٤ هـ وصرف بعد سبعة عشر يوماً وكان قاضياً للقضاء وداعياً للدعاة ^(٤) .
- ٦ - أبو عبد الله الحسين بن سليمان الدولة : الذي ولّي الوزارة في ربيع الأول ٤٥٤ هـ وصرف في ثاني شعبان بسبب نزاع العبيد والأتراك ^(٥) .
- ٧ - أبو أحمد أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم : ولّي الوزارة دفترين ، في سنة ٤٥٥ هـ وصرف بعد شهرين ، والأخرى في ذي الحجة من نفس السنة وصرف بعد خمسة وأربعين يوماً وعقب وتنوفي بالشام ^(٦) .
- ٨ - أبو غالب عبد الظاهر بن فضل المعروف بابن العجمي ، وكان جده من دعاة الدولة ، وتولى الوزارة غير مرة ، أولها في جمادي الأولى سنة ٤٥٥ هـ لمدة ثلاثة شهور ، والثانية في ربيع الآخر سنة ٤٥٦ هـ ولمدة ثلاثة وأربعين يوماً، ثم ولّي الوزارة أثناء الشدة المستنصرية ، فقتله تاج الملوك شادي عند الشرطة بالقاهرة سنة ٤٦٥ هـ وهو في طريقه للقصر ^(٧) .
- ٩ - الحسن بن القاضي ثقة الدولة وستانوها المعروف بابن كذبة وكان قاضياً للقضاء وداعياً للدعاة ، تردد بين الوزارة والقضاء ، ولّي الوزارة خمس دفعات ، أولها في شعبان ٤٥٥ هـ ، وكان وزيراً عند قدوم بدر الجمالى إلى مصر ، فقتله بدر بد Kamiyat هو وولده ^(٨) .

(١) د. محمد حملي المناوي : الوزارة والوزراء - ص ٣٠٧.

(٢) ابن منجy الصيرفي : المصدر السابق - ص ٤٨.

(٣) المصدر نفسه - ص ٤٩ - ٤٨.

(٤) ابن منجy الصيرفي : الإشارة - ص ٤٩ ، يلاحظ أنه تولى منصب قاضي القضاة وداعي الدعاة ، وكذلك آخوه ، وكان أبوهما قاضي طرابلس وانتقل إلى مصر - ابن منجy - ص ٤٨.

(٥) المصدر نفسه - ص ٤٩ - ٥٠.

(٦) المصدر نفسه - ص ٥٠ ، وكان قاضياً للقضاء وداعياً للدعاة أيضاً.

(٧) المصدر نفسه - ص ٥٠.

(٨) ابن منجy الصيرفي : الإشارة - ص ٥١ ، وابن كذبة هذا كان من الموالين لابن حمدان حتى إنه كان يخس أنسان دخائر المستنصر لصالحه . انظر : الرشيد بن الزبير : التخاثر والتخفف - ص ٢٥٣.

- ١٠ - أبو المكارم المشرف بن أسعد وليهامرين، إحداهما في صفر سنة ٤٥٦ هـ وصرف في شهر ربيع الآخر ^(١).
- ١١ - أبو علي الحسن بن إبراهيم بن سهل التستري ، كان يهودياً وأسلم ، وهو الذي باع أم المستنصر السودانية إلى الظاهر ، وأقام في الوزارة عشرة أيام ثم استغنى ^(٢).
- ١٢ - أبو القاسم هبة الله الرعياني ، ولـي الوزارة دفعتين كل منها عشرة أيام وصرف ^(٣).
- ١٣ - أبو الحسن علي بن الأنباري: أقام أياماً وانصرف ^(٤).
- ١٤ - أبو علي الحسن بن سليم الدولة ، تولى الوزارة أيام الشدة وقد استحكم فساد الأمر وقتل الهيئة فأسقط الكاتبون حشمتها فيما كانوا يعرضون له به فأقام أياماً وانصرف ^(٥).
- ١٥ - أبو شجاع محمد بن الأشرف تقررت له الوزارة فأقام أياماً وانصرف وتوجه إلى الشام بحراً فلقيه بدر الجمالي عند توجهه إلى مصر فقتله ^(٦).
- ١٦ - أبو الحسن طاهر بن وزير ، أقام أياماً وانصرف ^(٧).
- ١٧ - أبو عبد الله محمد بن أبي حامد ، وكان من أهل تنيس ، ويبدو أنه كان من أغنيائهم ، دخل مصر زمان الفتنة وأضطراب الأمن واستقرت له الوزارة فأقام فيها يوماً واحداً وصرف وقتل ^(٨).
- ١٨ - أبو سعد منصور المعروف بابن زبيور : كان نصراوياً وأسلم لما ولـي الوزارة ، فأقام بها أياماً قلائل قطالبه الجنـد بأرزاقهم فوعدهم وطمـنـهم وهـربـ معـ الـلوـاـتـيـنـ ^(٩).
- ١٩ - أبو العلاء عبد الغني بن نصر بن سعيد الضيف ، وكان واسطة إلى أن دخل أمير الجيوش إلى مصر ، فنفي إلى قيسارية وبعدها إلى تنيس وقتل بها ^(١٠) ويبدو أن الوساطة كانت رتبة أقل من الوزارة حيث إن ابن أبي كـلـيـنـةـ كان وزيراً عند دخـولـ بـدرـ إـلـىـ مصرـ.

(١) د. محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء - ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) ابن منجـبـ الصـيرـفـيـ : الإـشـارـةـ إـلـىـ مـنـ تـالـ الـوزـارـةـ - ص ٥٢.

(٣) المصـدرـ نفسهـ - ص ٥٢.

(٤) د. محمد حمدي المـناـويـ : الـوزـارـةـ والـوزـارـاءـ - ص ٣٠٩.

(٥) ابن منجـبـ الصـيرـفـيـ : المصـدرـ السـابـقـ - ص ٥٣.

(٦) المصـدرـ نفسهـ - ص ٥٣.

(٧) د. محمد حمدي المـناـويـ : المرـجـعـ السـابـقـ - ص ٣١٠.

(٨) ابن منجـبـ الصـيرـفـيـ : الإـشـارـةـ إـلـىـ مـنـ تـالـ الـوزـارـةـ - ص ٥٤.

(٩) المصـدرـ نفسهـ - ص ٥٢.

(١٠) المصـدرـ نفسهـ - ص ٥٤، ويـلـغـ عـلـدـ مـرـاتـ تـغـيـرـ الـوزـارـاءـ الـذـيـنـ تـولـواـ الـوزـارـةـ مـدـةـ الشـلـةـ ٣٦ـ مـرـةـ . انـظـرـ : دـ.ـ المـناـويـ : مـلـحقـ رقمـ ٣ـ - صـ ٣١١ـ-٣٠٩ـ.

وهكذا كانت الشلة المستنصرية وما صاحبها من أحداث سبباً في الإسراع بانهيار نظام وزارة التنفيذ ، ولعل السبب في كثرة صرف الوزراء وسقوط هبيتهم حتى أمام الكتاب ، هو سيطرة رجال الجيش من الأتراك على مقاليد الأمور في الدولة .

وإذا كان قواد الأتراك لم يجرؤوا على أن ينصبوا واحداً منهم في موقع الوزير الذي يستبد بالأمور دون الخليفة ، فإن بدر الجمالي الأرمني قد فعلها وأحدث الانقلاب الوزاري الذي تولى بمقتضاه العسكريون ورجال السيف منصب الوزارة^(١) .

ورغم أن المستنصر بالله هو الذي قرر بنفسه استدعاء بدر الجمالي ، فإن ذلك كان ربما آخر ما اتخذه من قرارات أو مارسه من سلطات ، إذ بدأ بعد ذلك عصر الوزراء العظام الذين أصبحوا أعلى سلطة من الخليفة^(٢) . فقد ألزم بدر المستنصر بالقصر ولم يبق له شيء ولا أمر إلا الركوب في العيددين^(٣) .

ودام الأمر على ذلك حتى بعد وفاة بدر وتولى ولده الأفضل شاهنشاه^(٤) .

وقد سيطر بدر الجمالي على الأمور في مصر بواسطة لقبه الثلاثي الذي خلعه عليه الخليفة فهو قائد الجيش (أمير الجيوش) ومدير الدعوة (داعي الدعاة) ثم هو الوزير ، مما يعني سيطرته على قيادة الجيش والمؤسسة البيروقراطية ، وإن كان بدر يعرف عادة بأول هذه الألقاب ، وأصبحت مصر تحكم بحكم فردي عسكري باسم أمير الجيوش^(٥) .

وإذا كنا نجد في القرن الأول من الخلافة الفاطمية في مصر ، وزراء من الكتاب والقواد والقضاة والولاة والحجاج^(٦) ، فإنه منذ وزارة بدر الجمالي إلى نهاية الدولة أصبح الوزير من رجال السيف عادة^(٧) .

كما أصبح معظم الوزراء من حكام الولايات ، ولعل ذلك راجع إلى ازدياد تفوذهם بسبب ضعف السلطة المركزية ، فبدر الجمالي كان والياً على دمشق ، ورضوان بن ولخسي والياً على الغربية ، وكان ابن السlar والياً على الإسكندرية والبحيرة ، وطلائع والياً على قوص ، وشاور والياً على قوص

(١) د. عطيه مشرقة : نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين - القاهرة ١٩٤٨ - ص ١٢٢ .

(٢) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٧ .

(٣) ابن القلansي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٨٤ .

(٤) أبو المحاسن : الج游 الزاهرة - ج ٥ ص ٢٣ .

Lewis (B) The Camb . Vol . I , P . 189 .

(٥) كان أمير الجيوش قبل ذلك لقاً عاماً لصاحب ولاية دمشق ، فقد كان أمير الجيوش انوشكين والياً لدمشق عام ٤٢٩ هـ - انظر : د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٧١ .

(٦) د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ٩٣ .

(٧) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق - ص ٢٨ .

والصعيد الأعلى ويدو أن ولاية قوص في ذلك الوقت أصبحت ذات مركز خاص في الدولة ، فكانت أكبر منصب بعد الوزارة^(١) .

وريما كان مبرر ذلك ضعف السلطة المركزية في مجملها ، حتى عاد الصعيد إلى وضع قريب مما كان عليه قبل توحيد الشمال والجنوب في فجر التاريخ ، وساعد على ذلك البعد الجغرافي للصعيد عن مركز الخلافة بالقاهرة .

سيطرة الوزراء على الخلفاء :

بتولي بدر الجمالي شؤون البلاد بدأ عصر الوزراء العظام ، وزراء السيف والتغريض وأصبح السلطان الفعلي منذ ذلك الوقت في أيديهم وتوارى الخلفاء في الظل^(٢) . ويشهد ذلك ما كان حادثاً في النظام الميروفنجي Merovingian الذي شعاره major domo^(٣) وبمقدم بدر احتفى لقب الوزير الأجل واستعيض عنه بلقب السيد الأجل أمير الجيوش ، وانتهت بذلك الوزارة نفسها كوظيفة ذات خطر حتى بعد إرجاعها في عصر المماليك^(٤) .

وقد سيطر الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي على أمور الخلافة منذ مرض والده في ربيع الأول ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وظل وزيراً بقية خلافة المستنصر وطيلة خلافة المستعلي بالله وأخذ البيعة للأمر بأحكام الله^(٥) . وبذلك دامت وزارته ثمانية وعشرين عاماً ونصف^(٦) . ومن مظاهر طغيان هذا الوزير إستثنائه من التعون الأمر الذي آلم الخليفة وارتضاه على مضض واستحدث على عهده إتخاذ التعون الشخصية على مثال تعون الخلفاء وسرى استعمالها بعد ذلك ، فقد لقب نفسه بالأفضل وكان ذلك لقباً عاماً بعد ذلك رغم أنه في منشئه كان نعتاً شخصياً لشاهنشاه^(٧) .

وحجر الأفضل على المستعلي بالله فحاول قتله ولم يفلح^(٨) ، إلا أن الأمر بأحكام الله الذي ضيق عليه الأفضل ومنعه مما تميل إليه نفسه نجح في تدبير مقتل الأفضل^(٩) المستبد ، ليحل مكانه طاغية آخر استبد بالخلافة ، وهو المأمون البطائحي الذي ظل وزيراً مئة أربع سنوات حتى اعتقله الأمر

(١) مجهول : إنسان العيون - مخطوط - ص ٤٣٧ .

(٢) د. محمد حمدي المناوي : الوزارة - ص ٣٣ - ٣٤ ، وتأكيداً لهذا المعنى أطلق المصادر التاريخية على أمير الجوش «أمير مصر» ابن الجوزي - المتظم - ج ٩ من ١٦ .

(٣) ستانلي لين بول : سيرة القاهرة - ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٤) د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٧١ .

(٥) ابن منجذ الصيرفي : الإشارة - ص ٥٧ .

(٦) د. محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء - ص ٣١٢ .

(٧) د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٧٢ .

(٨) ابن خلkan : وفيات الأعيان - ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦٢ .

(٩) ابن القلاطي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٢٠٣ .

بعدها هو وأخاه المؤمن واستولى على أموالهما^(١) ، ويقي الخليفة بدون وزير حتى وفاته عام ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م^(٢) .

وعندما تولى الوزارة أبو علي الأفضل المعروف بكتيفات ، وتلقب بأمير الجيوش عام ٥٢٤ هـ استحوذ على الأمور دون الخليفة الجديد الحافظ للدين الذي كان كفيلاً لحمل عنده إحدى زوجات الأمر وحصره في «موقع لا يدخل عليه إلا من يريده» ، ونقل الأموال من القصر إلى داره ، ولم يبق للحافظ سوى الاسم فقط^(٣) .

بل وأمر الخطباء بأن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهي «السيد الأفضل» ، «الأجل سيد ممالك أرباب الدول» ، والمحامي عن حوزة الدين ، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحق في حالي غيته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده ، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، ومرشد دعوة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتي السيف والقلم ، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش»^(٤) .

ويستفاد من ذلك أن كتيفات تجاوز ما جرت عليه سنة الوزراء من الاستقلال بالأمور دون الخليفة ، فقد كان إمامي المذهب وليس إسماعيلي ، وسجن الخليفة ساعياً لإقامة مذهب الإمامية في مصر ، ونفي المذهب الإسماعيلي ، فعن أربعة قضاة (شافعي - مالكي - إسماعيلي - إمامي) كل منهم يحكم حسب مذهبة ، وأسقط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الإمامية وكذا اسم الخليفة ، وألغى الآذان بحجة على خير العمل ، وجعل الخطبة له على المتأي بالألقاب السابق ذكرها ، وتوج ذلك بضرر دراهم ودنانير جديدة باسم الإمام المنتظر ، وبعد ذلك انقلاباً كاملاً على الخلافة الفاطمية^(٥) .

إلا أن الخطبة للمهدي المنتظر أسقطت بعد قتل أبي علي أحمد في العشرين من المحرم سنة ٥٢٥ هـ / ٢٥ ديسمبر ١١٣٠ ، على يد مملوك إفرنجي للحافظ وأمره^(٦) . وأصبح اليوم الذي

(١) د. محمد حمدي العتاوى : الوزارة والوزراء - ص ٢٧٤ ، وذكر ابن الحبلي أن الأمر قتله في هذه السنة لما أحسن ثأمره لقتله : شذرات الذهب - ج ٤ ص ٦٠ ، وقد استعمل في عهد العاونون ألقاب الكتابة المكانية فنعت بالمقام الأعظم - والمقام الكريم وبالمجلس . انظر : د. حسن الباشا : الألقاب - ص ٧٣ .

(٢) ابن القلاتسي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٢١١ ، الذي أورد أن اعتقالهما تم في شعبان وليس في رمضان .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ١١٧ ، مجهول : إنسان العيون - ص ٤٣٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج ٨ ص ٣٣٥ .

(٥) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - مجلد ١ - ص ٩١-٩٢ ، د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٧٣ .

(٦) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ١١٨ .

قتل فيه وأطلق في سراح الحافظ يسمى بعيد النصر^(١).

ولم يحل موت كتيفات دون استمرار سيطرة الوزراء في الدولة ، فتحكم السعيد أبو الفتح يانسي الأرمني في الحافظ الذي دس عليه من سمه في ماء الاستجاء فمات واستوزر الحافظ ابنه الحسن وكان ولـأـعـهـدـهـ ، فأقام ثلاثة أعوام فأساء السيرة فدس عليه السم أيضاً وقتل عام ٥٢٩ هـ ١١٣٥ م^(٢).

ويرجع مقتل الوزير الصالح طلائع بن رزيك في ١٩ رمضان ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م بتدير عمه الخليفة العاكسد لـدـيـنـ اللهـ إلىـ اـسـتـيـلـاهـ عـلـىـ الـأـمـوـرـ بالـدـوـلـةـ وـحـفـظـهـ لـلـأـمـوـالـ مـنـ زـمـنـ الـخـلـيـفـةـ الـفـائـزـ بـنـصـرـ اللهـ^(٣).

بيد أن حال العاكسد مع شاور بن مجير السعدي الذي خلف ابن الصالح طلائع ، لم يكن بأفضل منه مع الصالح فقد حكم على العاكسد وحجه ، وظل الأمر على ذلك مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين^(٤).

زـيـ الـوـزـراءـ :

كان زـيـ الـوـزـراءـ حتـىـ وزـارـةـ بـدرـ الجـمـالـيـ ، يتـكـونـ مـنـ الـمـنـادـيلـ الـطـبـقـيـاتـ بـالـأـخـنـاكـ تـحـتـ حـلـوقـهـمـ وـيـنـفـرـدـونـ بـلـبـسـ ثـيـابـ قـصـارـ يـقـالـ لـهـاـ ذـارـيـعـ - وـاحـدـهـاـ ذـرـاعـهـ - وهـيـ مشـقـوـقـةـ مـنـ الـأـمـامـ بـالـقـرـبـ منـ الـقـلـبـ بـأـزـارـارـ وـعـرـىـ ، وـمـنـهـاـ مـاـ تـكـوـنـ أـزـارـارـهـ مـنـ ذـهـبـ مـشـبـكـ أوـ لـؤـلـؤـ ، وهـدـهـ كـانـتـ عـلـامـةـ الـوـزـارـةـ^(٥).

ومـنـ الشـلـدةـ العـظـمـيـ وـمـاـ نـجـمـ عـنـهـاـ مـنـ ظـهـورـ وـزـراءـ تـفـويـضـ وـمـعـ تـوـلـيـ بـدرـ الـوـزـارـةـ التـيـ أـصـبـحـتـ وـزـارـةـ تـفـويـضـ جـلـ وـزـرـائـهـ مـنـ أـرـبـابـ السـيفـ ، صـارـ يـخلـعـ عـلـىـ الـوـزـراءـ الطـبـلـيـسـانـ المـقـوـرـ وـهـوـ زـيـ الـقـضـاءـ ، كـماـ سـمـحـ لـهـمـ بـتـرـكـ ذـوـبـةـ الـعـمـامـةـ ، وـلـعـلـ ذـلـكـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ الـوـزـيرـ هوـ كـبـيرـ أـرـبـابـ السـيفـ وـالـأـقـلـامـ ، وـكـانـ بـدرـ الجـمـالـيـ وـابـنـ الـأـفـضلـ قدـ تـقـلـداـ بـالـسـيفـ مـعـ الطـبـلـيـسـانـ المـقـوـرـ ، وـلـمـ

(١) دـ. جـمـالـ الدـيـنـ الشـيـالـ : المـرـجـعـ السـابـقـ - صـ٢٤ـ.

(٢) السـيـوطـيـ : حـسـنـ الـمـحـاضـرـ - جـ٢ـ صـ١١٨ـ.

(٣) دـ. محمدـ حـمـدـيـ الـمـنـاـريـ : المـرـجـعـ السـابـقـ - صـ٢٨٠ـ . ذـكـرـ السـيـوطـيـ أـنـ رـضـوانـ بـنـ وـلـخـشـيـ قـتـلـ بـعـدـ عـزـلـهـ - جـ٢ـ صـ١١٨ـ ، وـالـحـقـيـقـةـ أـنـ قـتـلـ عـامـ ٥٤٢ـ هـ حـيـنـاـ هـرـبـ مـنـ الـاعـتـقـالـ وـحاـلـ الـعـودـةـ لـلـوـزـارـةـ بـالـقـلـوةـ . انـظـرـ : مؤـيـدـ الـدـوـلـةـ أـبـيـ المـطـفـرـ أـسـامـهـ بـنـ مـرـشدـ الـكـنـانـيـ الشـيـرـزـيـ الـمـعـرـوفـ بـابـنـ مـنـقـذـ : كـتـابـ الـاعـتـارـ - تـصـحـيـحـ هـ . توـيـقـ درـتـيـغـ مـطـبـعـةـ بـرـيـلـ - لـيدـنـ ١٨٨٤ـ - صـ٢٤ـ .

وـقـدـ حـدـدـ دـ. حـسـنـ الـبـاشـاـ ظـهـورـ لـقـبـ «ـالـمـلـكـ الـأـفـضلـ» بـعـامـ ٥٣٠ـ هـ - انـظـرـ : الـأـلـقـابـ - صـ٧٣ـ.

(٤) شـهـابـ الدـيـنـ ، أـبـوـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ بـنـ إـبرـاهـيمـ الـمـقـدـسـيـ الـمـعـرـوفـ بـابـيـ شـاهـةـ - كـاتـبـ الـرـوـضـتـينـ فـيـ أـخـبـارـ الـدـوـلـتـيـنـ مـطـعـةـ وـابـيـ النـيلـ بـمـصـرـ - القـاهـرـةـ ١٢٨٧ـ هـ - الـجـزـءـ الـأـوـلـ صـ١٢٠ـ ، ١٢٤ـ ، ١٤٣ـ ، ١٩٣ـ .

(٥) المـقـرـيزـيـ : الـخـطـطـ - جـ١ـ صـ٤٤ـ.

يخلع على أحد من الوزراء كذلك حتى ولـي الصالح طلائع بن رزيك ، فجعل في خلعته السيف والطيلسان المقوّر^(١) .

اختصاصات الوزراء :

تعددت اختصاصات وزراء التقويض واتسع نفوذهم حتى أصبحوا هم المستولين على الأمر في مصر^(٢) . إذ «ألفى الخليفة لوزيره مقاليد الأمور وسياسة الجمّهور»^(٣) فبطل بذلك اسم «الوزارة» وأصبح وزير السيف الملقب بـ«أمير الجيوش» هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد ، وإليه الحكم في الكافة والأجناد والقضاة والكتاب وسائل الرعية وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية^(٤) . وتؤكدأً لهذا المعنى ، قام الأفضل بنقل الدوّاين من القصر إلى دار الملك التي بناها بالفسطاط ، إلا أن الدوّاين عادت للقصر بعد مقتله^(٥) .

وقد تحكم الوزراء في حالات كثيرة في تولية الخلفاء وقتلهم أيضاً حتى يتسمى لهم الانفراد بالسلطة . فالأفضل بن بدر الجمالي تعمد أن يولي ابن الأصغر للمستنصر بالخلافة ، ولقبه بالمستعلي بالله^(٦) وأبعد ابن الأكبر نزار الذي نص المستنصر على توليته مما أحدث التزاع المذهبي بين المستعلي والتزاري^(٧) .

وعندما توفي الأمير بأحكام الله من غير ولد وعيّن الأمير عبد الحميد (الحافظ لـ الدين الله فيما بعد) كفياً لـ«حمل مستكن حاول الوزير أبو علي أحمد أن يسقط الدعوة الإسماعيلية بالمرة ويدعو لإمام المتظر»^(٨) .

وكرر أبو الفتوح محمد بن مصال قصة تولي المستعلي بالله ، وكان من المغاربة وأحد كبار

(١) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٤٤٠ ، يذكر د. ماجد أنه كان يخلع على الوزراء منذ عهد بدر الجمالي بالعقد الجوهر عوضاً عن الطرق التي كان يلبس الوزراء من قبل (نظم الفاطميون - ج ١ ص ٨٩ - ٩٠) وحقيقة الأمر أن عقد الجوهر كان يخلع على الوزراء منذ بداية الدولة الفاطمية ، أما الطرق فكان يخلع على أكابر الأمراء فقط كما يفهم مما أورده المقريزي تقلياً عن ابن علي - الخطط - ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل - ج ٨ ص ١٧٢ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق - ص ١٢٧ .

(٣) د. ماجد : السجلات المستنصرية - ص ١٨٥ - سجل تاريخ محرم ٤٦٧ هـ .

(٤) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٤٤٠ .

(٥) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٣٩٧ ، وينقل المقريзи عن ابن عبد الظاهر أن دار الوزارة بناها بدر الجمالي وكانت تعرف قدماً بدار التباب ، وبخلافه المقريзи حيث يرى أن دار الوزارة من بناء الأفضل ، والدار التي عمرها أمير الجيوش بدر هي داره بحارة برجوان التي يقال لها دار المظفر ، وظل الوزراء يسكنون بدار الوزارة حتى نهاية الدولة وذكر وصفها كذلك . انظر : الخطط - ج ١ وص ٤٣٨ - ٤٣٩ .

(٦) النهي : تاريخ الإسلام - مجلد ١٦ - ص ٢٧٢ .

(٧) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٤١١ - ٤١٤ .

(٨) غريغوريوس : أبو الفرج بن أمرون الطيب الملطي المعروف بـ ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ، وقف على طبعه الأب أنطون صالحاني - المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين - بيروت - ١٨٩٠ - ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

رجال الدولة عند وفاة الحافظ إذ ادعى أن الخليفة قد نص على ابنه الصغير إسماعيل دون بقية أولاده، وأنه قد عينه وزيراً له ، وأعلن بذلك خلافة الظافر بأمر الله وكان عمره سبع عشرة سنة^(١) .
وعندما قتل الظافر بأمر الله بيد الوزير ابن عباس وابنه نصر في آخر المحرم عام ٤٩ هـ / ١١٥٤ م^(٢) ، دخل الوزير إلى القصر وعاد بأصغر أولاد المقتول وعمره نحو حسنه سنوات وأعلن تنصيبه ك الخليفة جديداً^(٣) وتأكيداً لسيطرته المطلقة ، قام بقتل أخيه الخليفة الحافظ ، الأمراء جريل ويوسف^(٤) .

وأعاد طلائع بن رزيك القصة عندما ولد الخليفة لابن عم الخليفة الفائز وكان عمرو لا يتحاور
16 عاماً ولقيه بالعاصمة لابن الله⁽²⁾.

وقد شارك الوزراء خلفاء الفاطميين شارات الخلافة ، وهي الخطبة والسكة والطراز^(١) . مكان يخطب للوزراء بألقابهم منذ بدر الجمالي ، ولدينا سجل من المستنصر بالله لحاكمه في اليمن أبي الحسن أحمد بن علي ، يأمره بالدعاء لأمير الجيوش بدر بعد الخليفة ، وأن يشفع ذلك بالدعاء للأفضل بن أمير الجيوش ، وذلك بعد أن عم الدعاء لهما على «فروق المنابر العلوية المستنصرية بالقاهرة المعزية المحررة وسائر البلدان والأعمال قربها وبعيدها في أيام الجمعة والأعياد»^(٢) .

أما الطراز ، فقد شارك فيه الخلفاء الأقوية وزراء مثل ابن كلس في عهد العزيز بالله والجرجراتي أيام الظاهر لإعزاز دين الله واليازوري في خلافة المستنصر ، وكان طبيعياً أن يشارك الوزراء العظام في حق الطراز فنجد اسم بدر على الطراز ، وابنه الأفضل شاهنشاه^(١) ، كما أن المأمون البطائحي أثبت اسمه ونعته على طراز ما يعمل بالدولة من الملابس والفرش والأثاثة^(٢) وذلك بعد أن كان الطراز حفناً فقط للمخليفة دون كافة المستخدمين^(٣) .

(١) د. عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٤١١-٤١٤، ويدرك ابن منقد أن ابن السلاوي الوزارة رعماً عن هذا الخلقة بعد ذلك . ابظر : الاعتبار - ص ٥-٦ .

(٢) أبو شامة . الروضتين في أخبار الドالئين - ج ١ ص ٩٧-٩٨ ، ابن حلكان : وفيات الأعيان - ج ١ ص ٢١٤-٢١٥ .

(٣) ابن العبري : مختصر تاريخ الدول - ص ٣٦٢ ، الجبلي : شذرات الذهب - ج ٤ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٤) ابن منذل : الاعتبار - ص ١٥-١٦.

(٥) د. ماجد: المراجع السابق - ص ٤٣٩ ، این حلکان: ویات الأعیان - ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

وقد اعتماد الوزراء في أوشير الحصر الفاطمي إختبار الأطفال للخلافة وكذا اختيار ألقابهم الشخصية - د. حسني الباشا . الألقاب من ٦٧.

(٦) يذكر مؤلف شرح اللمعة : أن يعقوب بن كلس كتب اسمه على الطراز والكتب - ورقة ١٥ أ.

(٧) د. ماجد : السجلات المستنصرية - ص ٨٥ - سجل بتاريخ ٧ محرم ٤٧٩ هـ.

(٨) د. محمد حمدي المناوى : الوراء والوزراء - ص ٧٤-٧٥، إنصاف رياض : الحياة الاقتصادية - ص ٣٢.

(٩) ابن منجٌ الصيرفي : الإشارة إلى من نال - ج ٢ .

^{٤٩٤} ص ٣ - ج ٢ - الأعشى : صبح القلقشندى .

وأيام وزارة أبي علي أحمد بن الأفضل ، دعي له بمفرده على المنابر ونقش اسمه على السكة أيضاً^(١) .

وقد تدخل بعض الوزراء لإبطال بعض المراسيم والأعياد التي كانت تحفل بها الدولة ، فقد أبطل الأفضل بن أمير الجيوش أمير الموالد الأربعية: النبوى، والفاتحى ، والإمام الحاضر ، والعلوى وما يهتم به^(٢) .

وإذا كان للوزراء -سواء أرباب الأقلام أو السوف - الرأى الأول في اختيار رؤساء الدواوين ، رغم أن سجل التعيين كان يخرج باسم الخليفة ، فإنه منذ وزارة بدر الجمالى ، أصبح ينص في السجل على أن الوزير هو الذي قام بترشيح صاحب السجل لوظيفته ، بل إن وزراء السيف كانوا في بعض الأحيان يصدرون السجلات ، بأسمائهم مباشرة ، ويبدو أن ذلك كان يحدث في الأوقات التي يكون للوزير فيها السيطرة التامة على الدولة^(٣) .

ولم يختلف الأمر كثيراً فيما يتعلق بتعيين الولاة سواء داخل مصر أو خارجها . فقد كان الخليفة هو الذي يعين الولاة من العناصر المعروفة بالولاة للدولة الفاطمية كالمحاربة ، ثم أصبحت سلطة تعيين الولاة لوزراء التفريض^(٤) ، وبالتالي كان ينص في سجل التعيين أن الترشيح كان بمعرفة الوزير ورأيه ، وصدرت بعض السجلات عن الوزراء مباشرة ، وتركزت بذلك سلطة تعيين الولاة وعزلهم بأيدي وزراء السيف^(٥) .

ووصل الأمر بالصالح طلائع بن رزيك أنه كان يبيع ولايات النواحي^(٦) ولأجل زيادة مكاسبه ، جعل مدة الولاية سنة أو ستة أشهر فقط ، الأمر الذي ترتب عليه تضليل الناس من كثرة تردد الولاة عليهم ، وكان طبيعياً أن يتبع هؤلاء الولاة نفس الأسلوب مع مساعديهم ، مما أدى في النهاية إلى انتشار الرشوة والفساد وإرهاق عامة الشعب وال فلاحين بالضرائب^(٧) .

وبعد أن كان منح الإقطاعات ، من سلطة الخليفة وحده ، نجد أنه منذ وزارة أمير الجيوش ، أصبح الوزراء لهم سلطة منح الإقطاعات^(٨) .

أما المظالم ، فقد كان الخليفة قبل الشدة ينظر فيها بنفسه أو ينوب عنه فيها صاحب الباب ،

(١) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الواثق الفاطمية - المجلد الأول - ص ٩٠-٩٢.

(٢) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٣) د. المناوى : الوزارة والوراء - ص ٤٣.

(٤) د. ماجد : نظام الفاطميين - ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٥) د. المناوى : المرجع السابق - ص ٤٣ - ٤٤.

(٦) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ١١١.

(٧) د. أحمد عبد الرزاق : البذل والبرطة زمن سلاطين المماليك - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٩ - ص ١٧.

(٨) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ٣٣.

وبعدها أصبح الوزراء هم الذين يجلسون للمظالم يومان في الأسبوع ، أو يعهدون بذلك لمن يتول عنهم ، وكانت مناشير البت في هذه المظالم تخرج باسم الخليفة مع ذكر الوزير إذا كانت القصة مرفوعة باسم الخليفة ولكن في بعض الأحيان كانت التظلمات ترفع رأساً باسم الوزير وفي هذه الحالة كان المنشور يخرج باسم الوزير^(١) .

وامتدت سلطات وزير التفويض لتقتطع من سلطات الخليفة الدينية أيضاً . فمنذ صار يخلي على الوزراء بالطيسان المقرر وهو زي القضاة ، صار المستخدمون في حكم الوزير والدعاة نواباً عنه وكذلك القضاة^(٢) .

وقيل وزارة بدر الجمالي كان قاضي القضاة وداعي الدعاة ، يعين من قبل الخليفة رأساً بوصفة صاحب السلطة الدينية ، ولم يكن لوزراء التنفيذ سلطة على القضاة عدا ابن كلس^(٣) والوزراء الذين تقلدوا القضاء .

ورغم أن وزراء التفويض كانوا يقلدون بأنفسهم في القضاة من يقوم به ويعتبرون قاضي القضاة نائباً عنهم ويلقبونه فقط بالقاضي ، إلا أن كتاب التولية كان يخرج من ديوان الإشاء باسم الخليفة^(٤) .

وتضمنت ألقاب الوزير «كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين»^(٥) إشارة إلى سيطرته على الدعاة والقضاة ، وكان أول قاضٍ للقضاة يعين في منصبه هذا من قبل الوزير هو أبو علي حمزه بن الحسين بن أحمد الفارقي ، الذي ولد من قبل بدر الجمالي وظل في منصبه إلى أن توفي سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م^(٦) .

وكان القضاة قد شهدوا اضطراباً مواكباً لما حدث لوزارة التنفيذ قبل وأثناء الشدة المستنصرية ، فمنذ عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م تغير القضاة إحدى عشرة مرة حتى عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م وبقي أحد القضاة في منصبه يوماً واحداً^(٧) . وكان من أثر تحكم وزراء السيف في القضاة أن عمد هؤلاء إلى تعيين قضاة سنين لإضعاف مذهب الدولة ، فوجدنا أبا علي أحمد بن الأفضل يعين قضاة لأربعة

(١) د. المناوي : المرجع السابق - ٤٥ - ٤٧ ، وكان الخليفة يكتب على الظلامات والمسامحات بخطه «وزيرنا السيد الأجل .. امتننا الله بيقاه يتقدم بيتجاز ذلك إن شاء الله» د. حسن الباشا . الألقاب - ص ١٢٩ .

(٢) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٢٣ .

(٣) د. المناوي : الوزارة والوزراء - ص ٤٥ .

(٤) د. ماجد : نظام الفاطميين - ج ١ ص ١٤٢ . ويدرك المقريزي أن متولي القضاة من قبل وزير السيف كان ينعت بقاضي القضاة - الخطط - ج ١ ص ٤٠٣ .

(٥) د. ماجد : السلالات المستنصرية - ص ٦٠ - ٦١ .

(٦) المقريزي : اعتاظ الحصا - ج ٢ ص ٣١٣ ، السيطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ٩٢ .

(٧) السيطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ٩٢ .

مذاهب بدلًا من المذهب الإسماعيلي وحده ، وولى صلاح الدين الأيوبي أحد القضاة السنة القضاة والحكم بمصر والقاهرة وهو صدر الدين عبد الملك بن دوياس ^(١) .

وأصبح للوزراء من أرباب السيف السلطة على أرباب السيف والأجناد ، بعد أن كان ذلك من اختصاص الخليفة ، وأخذ الوزراء في تعين قادة الجيوش من قبلهم ، ولهم أمر السلم وال الحرب ، وإن كان بعض وزراء التنفيذ قد مارسوا نفوذًا على الجيش مثل ابن كلس والجرجرائي واليازوري ^(٢) .

وبلغت سلطة وزراء السيف على الجيش أقصاها في أواخر الدولة الفاطمية ، حتى إن أحد الدين شيركوه تلقب بسلطان الجيوش ، وكانت كلمة السلطان من قبل قصراً على الخليفة ^(٣) .

وواقع الأمر أن وزراء التفويض كانوا هم قواد الجيش ، وأدلة العسكر في الحكم ، فمنذ وزارة أمير الجيوش ، أصبحت مصر تحكم بواسطة الأتوغرافية العسكرية الذي يرأسها ^(٤) . وكان الفيصل في تولي الوزير وبقائه في منصبه مؤازرة العسكر له ، فقد استقرت الأمور وخاصة في أواخر العصر الفاطمي ، على أن الوزير يستقر في منصبه عند عجز صاحب المنصب القديم عن دفعه ، فيعطيه بقية العسكر ويمكنا له ^(٥) .

وإذا كانت الشدة المستنصرية قد أدت إلى تزايد نفوذ الأتراك وقادتهم بعد قبضائهم على السودان وسيطراً عليهم على الخليفة ، فإن بدر الجمالى قضى على نفوذهم وجدد صراعات الجنديين انقسموا بين مؤيد ومعارض لابن حمدان ^(٦) ، واستعان بقواته من الأرمن بشكل أساسى لتأكيد سلطته على البلاد ، إلا أنه لم يستطع أن يقضى نهائياً على الدور المتزايد للجند في السياسة والذي بدأ بالصراع بين طوائف الجندي في عهد الحاكم بأمر الله ، ثم تمردتهم في عهد الظاهر لإعزاز دين الله ^(٧) .

(١) أبو شامة : الروضتين في أعياد النولتين ج ١ ص ١٩١ .

(٢) د. المتناوي : الوزارة والوزراء - ص ٤٤ - ٤٥ ، كان قائد الجيش يسمى إسفلار العسكر أي قائد الجيش ، أو فقط إسفلار أي قائد ، كما تسمى وظيفته الإسفلاريات أي قيادة العسكر ، وكان الإسفلار يحتل مرتبة مرموقة في الدولة الفاطمية ، فهو يأتى في ترتيبه مباشرة بعد صاحب الباب الذي يلي الوزير رأساً . د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٤ ، وكان صاحب الباب أيضاً من أعلى الموظفين العسكريين . انظر : د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٧٥ .

(٣) د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٤)

Lewis (B) , The camb . Vol . I , P . 189 .
وبعد استبدال لقب أمير الجيش بلقب الوزير إشارة إلى انتقال السلطان في مصر إلى أيدي رجال الحرب - د. حسن الباشا . الألقاب - ص ٧١ .

(٥) أبو شامة . الروضتين - ج ١ ص ١٣٠ .

(٦) أبو المحاسن : التجوم الزاهرة - ج ٥ ص ١٣ .

(٧)

Lewis (B) , op . cit . vol . I . PP . 187 . 188

فبعد مقتل الأمر سيطر على أمور الدولة هزير الملوك جرامرد ويرغش واعتمدا على الأمير أبي الميمون عبد المجيد ليكون كفياً لحمل مستكن ، ويعني ذلك أن السلطة انتقلت فعلياً إلى اثنين من رجال الجيش اختارا عبد المجيد لتولي السلطة من الناحية الشكلية فقط^(١) . وتضمنت بعض طوائف الجيش للثورة الحرية الخطيرة التي قام بها حسن بن الحافظ لأجل التوصية له بولاية العهد ، وانضم إليه في ثورته أرباش الناس وذمارهم ، ففرق فيهم الزرد وكُوئن منهم طائفة عرفت بصبيان الزرد^(٢) ، إلا أن ذلك لم يفلح أمام ما أراده الجيش .

وقد تميز العصر الفاطمي الأخير باستمرار المنازعات بين طوائف الجندي ، فوق صراع مسلح بينهم أدى إلى مقتل الكثير من الخيالة والرجالـة عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٩ مـ^(٣) . كما وقع نزاع بين طوائف السودان أدى إلى اضطهاد الأمن بالقاهرة سنة ٥٣٩ هـ / ٤٤ - ٤٥ مـ^(٤) . واستعان ابن ولخسي بالعسكر عند محاولته استعادة الوزارة في عام ٥٤٢ هـ / ٤٧ - ٤٨ مـ ، إلا أن بعض طوائف الجيش نجحت في قتلـه^(٥) .

كما تصدى العسكر للمعادل ابن السلاـر الذي انحازـتـ إـلـيـهـ بـعـضـ طـوـافـيـنـ الجـيـشـ فأـصـبـحـتـ الدـمـاءـ «ـبـيـنـهـ مـسـفـوحـةـ وـأـبـوـابـ الشـرـ وـالـعـنـادـ مـفـتوـحةـ»^(٦) .

وقد جمع الوزراء في العصر الفاطمي الأخير ثروات هائلة تتضاعـلـ بـجـوارـهاـ ثـرـوـاتـ الـخـلـفـاءـ ،ـ فيـ عـصـرـهـ ،ـ أوـ وزـرـاءـ التـنـفـيـذـ قـبـلـهـ^(٧) .

فحـازـ بـدـرـ الجـمـالـيـ ثـرـوـةـ طـاهـلـةـ بـرـغـمـ أـنـ الـبـلـادـ لـمـ تـكـنـ قـدـ بـرـئـتـ تـامـاـ مـاـ أـصـابـهـ مـنـ المـحنـ ،ـ وـاضـطـرـارـهـ إـلـىـ إـعـافـهـ الـفـلـاحـينـ مـنـ خـرـاجـ الـأـرـضـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ ،ـ وـقـيـامـهـ بـكـثـيرـ مـنـ الإـنـشـاءـاتـ وـعـملـ سـورـ القـاهـرـةـ^(٨) .ـ وـأـسـهـمـتـ الـمـصـادـرـ الـتـارـيـخـيـةـ فـيـ إـيـرـادـ مـاـ تـرـكـهـ الـأـفـضـلـ،ـ بـنـ بـدـرـ الجـمـالـيـ مـنـ ثـرـوـاتـ ،ـ فـقـدـ خـلـفـ عـنـ وـفـاتـهـ مـسـمـائـةـ مـلـيـونـ دـيـنـارـ ،ـ وـمـنـ الـفـضـيـةـ مـائـيـنـ وـخـمـسـيـنـ أـرـدـبـاـ ،ـ وـسـبـعـيـنـ أـلـفـ ثـوبـ دـيـبـاجـ أـطـلـسـ وـدـوـاـةـ ذـهـبـ فـيـهاـ جـوـهـرـ بـاثـيـ عـشـرـ أـلـفـ دـيـنـارـ ،ـ وـخـمـسـيـةـ صـنـدـوقـ لـمـلـابـسـهـ ،ـ وـصـنـادـيقـ فـيـهاـ إـبـرـ ذـهـبـ بـرـسـمـ النـسـاءـ^(٩) .ـ كـمـ تـرـكـ سـبـعـمـائـةـ طـبـقـ مـاـ بـيـنـ ذـهـبـ وـفـضـيـةـ وـمـالـاـ يـحـصـىـ مـنـ الصـحـافـ وـأـكـوابـ

(١) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق - مجلد ١ - ص ٨٧-٨٩ .

(٢) المرجع نفسه - ص ١٠٦ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٢٦٨ .

(٤) ابن منقذ : الاعتبار - ص ٤ .

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق - ص ٢٩٦ .

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٣١٢ .

(٧) عذما توفـيـ يـعقوـبـ بـنـ كـلـسـ وـجـدـ لـهـ جـوـهـرـ بـارـيـةـ آـلـافـ دـيـنـارـ وـخـمـسـيـةـ آـلـافـ دـيـنـارـ تـضـاعـفـ عـنـهـ العـزـيزـ باـشـ اـنـظـرـ :ـ مجـهـولـ :ـ شـرـحـ الـمـعـةـ .ـ وـرـقـةـ أـ.

(٨) د. المتّاوي : الوزارة الـوزـراءـ - ص ٣١٢ .

(٩) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ١١٧ .

الشارب والأباريق والقدور وأواني اللبن وغيرها وكلها من الذهب والفضة^(١) . وينذكر ابن منقذ أنه عند قدومه إلى مصر في جمادى الآخر ٥٣٩ هـ / ٤٤ - ١١٤٥ م أُنْزَل في دار من دور الأفضل «غاية في الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة من النحاس»^(٢) .

وعندما ألقى الأمر بأحكام الله القبض على وزير المأمون البطائحي سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م وجد له سبعون سرجاً من الذهب المرصع . ووجد لأخيه المؤمن أربعون سرجاً محلّى ذهباً^(٣) . وبلغت ثروة الوزير عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بادييس الحميري من الفخامة ، أنه عندما أراد الخروج من مصر يوم ١٤ ربيع الأول ٥٤٩ هـ حمل معه ثروته على أربعين إبل جمل ومائتي بغل ومائتي جنبي ونهب العامة الكثير من الخيل والبغال والجمال التي تخصه^(٤) . وكان الصالح طلاشع ينفق الكثير من المال ، ويعطي العطايا في مجالسه حيث كان يقرض الشعر^(٥) .

ولم تكن هذه الثروات في غالب الأحوال عن طريق شرعي ، فقد كان الوزير يتسلم كل شهر راتباً يبلغ خمسة آلاف دينار وهو أكبر راتب في الدولة^(٦) ، ويدو أن هذه الثروات جاءت عن طريق الرشوة واستغلال النفوذ^(٧) .

وقد أثر استحواذ الوزراء على معظم ثروات البلاد ، على مدى ثراء الخلفاء ، الذي بلغ أقصاه في محتويات خزائن المستنصر التي أخرجت أثناء الشدة المستنصرية .

وإذا كان الظافر قد أهداى لنصر بن عباس الوزير سبعين صينية فضة فيها ٧٠ ألف دينار ، وملابس وثلاثين بغلان رحلاً ، وأربعين جملًا بعدها وغرائزها وحبالها لأجل أن يقتل أبوه عباس^(٨) ، فإن هذه الهدايا قياساً بثروات المخلفاء قبل المستنصر تعد لا شيء ، وقد ذكر أبو شامة أنه عند موت العاصد لدين الله ، لم يوجد من المال الكثير لأن شاور كان قد أفق معظمه وأعطى الفرج منه ، ووجد فقط ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيل وكتب وجواهر ، مثل قضيب زمرد طوله شبر ، وكسر وقطع بلخسي وجواهر نادرة^(٩) .

(١) د. المناوي : المرجع السابق - ص ٩١.

(٢) ابن منقذ : الاعتبار - ص ٤ . ويبلغ حجم ثروة الأفضل حجماً ضخماً حتى أن الأمر ظل أربعين يوماً ينقل أمواله حتى أنه أشيع أنه وجد هذه الأموال في كنز عشر عليه . مجهول : إنسان العيون - ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٣) د. المناوي : المرجع السابق - ص ٩٢.

(٤) أبو شامة : الروضتين - ج ١ ص ٩٨ .

(٥) المصدر نفسه - ج ١ ص ١٢٠ .

(٦) د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ٩٠ .

(٧) د. أحمد عبد الرزاق : البند والبرطة - ص ١٨ .

(٨) ابن منقذ : الاعتبار - ص ١٤ .

(٩) أبو شامة : الروضتين - ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

وقد أدت هذه الأهمية المتزايدة لمنصب الوزارة إلى اشتداد الصراع من أجل الفوز بهذه الغنيمة التي تكفل لصاحبيها السيطرة الكاملة على الخلافة^(١).

وفي أواخر الخلافة الفاطمية، أفضى هذا الصراع إلى تعريض مصر للمخطر الصليبي وانتهى بسقوط الدولة الفاطمية وإقامة الدولة الأيوبية.

فعندما غلب شاور بن مجير على الوزارة وقتل رزيك بن الصالح طلائع خرج عليه ضرغام بن سواد وتمرد عليه بالجنود، ففر شاور إلى الشام مستنجدًا بنور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م الذي بعث معه في سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه مكتئف من العودة للوزارة^(٢)، إلا أن شاور نقض اتفاقاته مع شيركوه واستدعاي الفرنج فحاربوا مع المصريين ضد جيش الأكراد، وانتهى الأمر بجلاء الفرنج والأكراد عن مصر^(٣).

ومهما يكن من أمر فقد نجح أسد الدين شيركوه في دفع الإفرنج عن البلاد وتولى منصب الوزارة للعاشر للدين الله، بعد أن قتل شاور، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين في منصب الوزارة، وأنهى بذلك خلافة الفاطميين بمصر وخطب لل الخليفة العباسي ببغداد^(٤).

تأثير المجاعات على الحاله الأمنية في البلاد :

أدت حالة الفوضى والاضطراب التي كانت تسود البلاد وقت المجاعات، بسبب ضعف السلطة المركزية، إلى تسيب حالة الأمن بالبلاد، وكثيراً ما يكون وراء اضطراب حالة الأمن طوائف الجندي والعربيان، الذين استعنوا بقوتهم المسلحة للحصول على أكبر قدر من المواد الغذائية والمكاسب المادية.

فقد كان اضطراب الأمن، وانتشار السلب والنهب في الطرقات، من المظاهر المصاحبة للمجاعة التي حدثت أثناء السنوات الأولى للفتح الفاطمي (٣٥٨ - ٣٦٠ هـ)^(٥).

ففي أثناء المجاعة الخطيرة التي اجتاحت البلاد في عهد الظاهر لإعزاز دين الله خلال عامي ٤١٤ - ٤١٥ هـ (٢٣ - ٢٥ م)، اضطربت حالة الأمن بشدة، وأفلت الزمام من أيدي

(١) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ٢٥ .

(٢) العماد الحنبلي : شذرات الذهب - ج ٤ ص ١٨٦ .

(٣) ابن الهيثم : مختصر تاريخ الدول - ص ٣٦٨ .

(٤) ابن الجوزي : المتنظم في تاريخ الملوك والأمم - ج ١ ص ٢٣٧ .

(٥) أبو صالح الأرمني : كائن وأذيرة مصر - ص ٨٤ .

الحكومة ، لأن عبيد الدولة كانوا سبباً رئيسياً في هذه الأحداث . ويدو أن العبيد قد أصبحوا يشكلون قوة لها وزنها في عهد الظاهر ، منذ تزوج من جارية سودانية أتّجّبت له المستنصر بالله ، فما أن بدأت هذه المجاعة تأخذ بتلابيب البلاد في عام ٤١٥ هـ حتى سلك عبيد القصر طريق التمرد والعصيان^(١) .

وقد بدأت هذه الأحداث في شهر شعبان سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ، عندما توجهت تجريدة إلى مدينة تيس ، فلما عجزت الدولة عن دفع أرزاقهم ضيقوا على قائدتهم فقر إلى دمياط فنهبوا تيس ، وقطعوا يد عامل السلطان بها خمسة وعشرين قطعة وأخذوا من المودع ألفاً وخمسمائة دينار^(٢) .

وما أن أهل شهر شوال حتى بدأ العبيد غارتهم على قرافل الحجاج المغاربة الذين لم يأبهوا لاضطراب الأمن وقطع الطرقات ، وصمموا على السير ولو بغير أمير للحج ، فعندما جاوز الحجاج بركة الجب (جب عميرة) قطع عليها الطريق وأخذت أموالهم وقتل البعض ورجع من بقي منهم^(٣) .

إلا أن حجاج المغاربة أعادوا الكرة مرة ثانية ، في ذي القعدة ، بعد أن استعدوا بالمؤن والسلاح ونجحوا في صد هجوم العبيد والقيصريّة عليهم ، فعاد العبيد إلى حاراتهم مفلولين مجرّحين^(٤) . ومع ذلك فلم يخرج أحد في هذه السنة للحج من مصر ، سواء من المصريين أو المغاربة^(٥) .

وبعد ذلك بدأ نهب السكان وفي المناطق البعيدة عن العاصمة أولاً ، فنهب الريف وكثُر طمع العبيد ونهبهم فيه^(٦) . ففي ذي الحجة نهب الجوالة من العبيد بلدًا بالأشمونين وشاركتهم العرب في ذلك . وحصل رجل واحد من النهابة على ٩٠٠ رأس من البقر و٣ آلاف رأس من الضأن . وعندما حضر دواس بن يعقوب متولّي ديوان العرائف يشكّو ذلك إلى معضاد الخادم الأسود أجا به الأخير مستنكراً : - فتقتل عبيد مولانا؟ وكان في هذا الجواب ما فيه من «فساد الأحوال واطماع العبيد في النهب»^(٧) ويدو أن الدولة حاولت الحد من حالة الفوضى التي كانت تسود بسبب العبيد الجوالة ، فأنفذت الكتب إلى سائر الأعمال بالأرياف أن يدخل جميع الرجال الجوالة إلى الحضرة

(١) ستاني لين بول : سيرة القاهرة - ص ١٣٧ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحتفا - ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) المسبحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٦٩ ، المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤ .

(٤) المصدر نفسه - ج ٤٥ ص ٧٢ .

(٥) المقريزى : اتعاظ الحتفا - ج ٢ ص ١٦٦ .

(٦) المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٢٥٥ .

(٧) المسبحي : المصدر السابق - ج ٤٠ ص ٨٢ ، المقريزى : اتعاظ الحتفا - ج ٢ ص ١٦٨ .

ليقوموا مع العساكر بحفظ البلاد، ثم تقرر إلغاء ذلك الأمر خوفاً من عجز الدولة عن توفير المؤن التي تحتاجها هذه الطائفة مما يؤدي إلى اضطراب الأمر في العاصمة^(١).

ولم يقم العبيد وحدهم في إنهاك الريف، فقد كانت هناك قبائل العرب. ففي ١١ ذي الحجة ٤١٥ هـ، قام العرب من بني فرة بنهب الدواب بسفط ونهيا فقتلوا قاضي سبط واستولوا على مائة وخسین فرساً لأهل الدولة وساقوا ثلاثة رمكّة (رحلة^(٢)) لمعضاد وأربعة آلاف رأس من الضأن «فلم يخرج أحد لطلبهم ولا أنكر شيء من ذلك»^(٣).

ولعل سبب ضعف الدولة عن طلبهم هو ما بدأ يقول إليه حال القاهرة ومصر، بسبب نهب العبيد لهما. حتى الجرجائي وهو من كبار رجال الدولة وقتها اضطر إلى هجر القاهرة إلى الفسطاط عندما حاول بعض المسلمين نهب داره، فقل جميع رحله في غيش الصبح، وما تبقى من أمتعته نقله على مهل بعد ذلك^(٤).

وبدأت حوادث النهب بالعاصمة في ١٠ ذي الحجة بالقصر الفاطمي، عندما مدد سماط عبد النحر، ولم يحضره الظاهر، فهجم عبيد القصر وصاحوا «الجوع». الجوع نحن أحق بأكل سماط مولانا» فنهبوا السماط من أمام رجال الدولة الذين لم يصدقوا أنهم سينجون بأنفسهم، ولم تفلح محاولات الصقالبة في التصدي للعبيد بالعصبي^(٥).

وعندما حضر أبو الحسن علي بن محمد الطريقي كاتب قاضي القضاة لتفرقة لحم الأضاحي على أرباب الرسوم نهبه العسكرية أيضاً^(٦)، ثم كثر بعد ذلك ضجيج طوائف العساكر من الفقر وال الحاجة ولم يتجاوزوا^(٧).

فلما طال أمد انتظار الجندي للنفقة، واشتد الأمر على الناس من الجوع، تجمع في ٢٣ ذي الحجة ٤١٥ هـ العبيد ومن أنضم إليهم من النهاية وخرجوا إلى أعلى الجبل بالمقطم في نحو ألف رجل وانضمت إليهم من ورد من الجوالة من الضياع للتجريد، وتجهزوا لنهب مصر، فتحرك بدر الدولة نافذ مع بعض العساكر إلى البلد لحفظه من الهجوم المرتقب وأباح للناس بأمر من الخليفة، قتل العبيد إذا ما حاولوا نهباً، فتحفظ الناس واستعدوا في دروبهم، ثم توجه معضاد ونسيم إلى حيث تجمع العبيد ووعدهم بالنفقة في اليوم التالي، بعد أن شكا العبيد من الجوع الذي اشتد بهم حتى

(١) المسبحي . المصدر السابق - ج ٤ ص ٧٧.

(٢) المقريزي : انتظار المحتلة - ج ٢ ص ١٦٩ ، وينقره ملن ملال بن عامر بن صالح من صاحبة من العذابة ومنازلهم فيما بين مصر وأفريقيا - عمر رضا كحاله : معجم قبائل العرب - ج ٣ ص ٩٤ .

(٣) المسبحي : المصدر السابق - ج ٤ ص ٧٦-٧٧.

(٤) المصدر نفسه - ج ٤ ص ٨١-٨٢ ، وينظر المقريزي أن نهب هذا السماط كان بحضور الظاهر . انتظار - ج ٢ ص ١٦٢ .

(٥) المقريزي : انتظار المحتلة - ج ٢ ص ١٦٧ .

(٦) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤ .

أكلوا الكلاب ، وانتهى الأمر بنزل العبيد إلى حاراتهم^(١) ، لينقضوا في اليوم التالي على السواحل حيث ترد الغلال ، فنهبوا دار سرت ياقوت التي بساحل الشعير ، ودار الكاتبة وأحرقوها واستولوا على ما وجدهم من القمح والشعير والحبوب وغير ذلك مما في الدكاكين ودخلوا إلى منازل من أمكنتهم الدخول إليه من أهل الساحل فنهبوا^(٢) .

فخرج إليهم نافذ وقاتلهم فجرح له فرس وقتل فارس من غلمانه فلم يطق صبراً معهم وانصرف عنهم^(٣) . عندئذ اضطرب عامة المصريين إلى التصدى للعبيد بالسلاح ، فوقف الرجال والنساء أعلى المنازل يلقون بالحجارة والطوب والجرار فانهزم العبيد أمامهم ، ولم يستطعوا الإقتراب من شارع أو زقاق لأن الناس حفروا الخنادق دون الdroob^(٤) .

هناك قوي عزم مغضاد وسائر صقالبة القصر ، فطاردوا العبيد إلى المقفن ، ولقوا في طريقهم قوماً معهم كثير من أمممة الناس التي نهبت ، فقبضوا عليهم ، وضرب مغضاد رقاب تسعة أنفس منهم ورمي جثتهم إلى الكلاب ، ثم ضرب رقاب ستة آخرين في القاهرة^(٥) . فلما وجد العبيد تصميم العامة على التصدى لهم ، أخذوا في طلب وجوه الدولة الذين حرسوا أنفسهم وامتنعوا في دورهم^(٦) وعلى رأسهم العجريجاري الذي سارع بالعودة إلى داره بمصر وتحصن بها بعد أن كان في طريقه إلى القاهرة^(٧) .

لم يفت ذلك في عهد العبيد ، فأصبحوا يهاجمون أسواق القاهرة والسوسيقة عند باب زويلة ، وأخذوا في النهب ، فخرج إليهم حظي الصقلبي ومعه سيف من الحضر ، إشارة إلى أن ذلك بأمر الخليفة ، فقبض على طائفة منهم ضرب رقابهم ورمي جثتهم للكلاب في علة أماكن حتى يعتبر غيرهم ، على باب زويلة ، وباب الفتوح وفي سوق السلاح وعند شرطة القاهرة ، وعلدهم اثنا عشر رجلاً ، ثم قتل كتاماً استولى على حمار محمل بالدقيق ، ووعد عرفاء العبيد بالتفقة وشدد عليهم في إحضار الجناء من العبيد^(٨) .

إلا أن العبيد لم يكونوا هم وحدهم الذين ينهبون الناس ، إذ دفعت المجاعة المروعة

(١) المسيحي : المصدر السابق - ج ٤ ص ٨٧ ، في اتعاظ الحنثا يذكر المقريزى خطأ أنه ثالث عشرية وهكذا في بقية الأيام - ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) المسيحي : المصدر السابق - ج ٤ ص ٨٧ ، المقريزى : المصدر السابق - ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنثا - ج ٢ ص ١٧٠ .

(٤) المسيحي - أخبار مصر - ج ٤ ص ٨٧ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق - ج ٢ ص ١٧٠ .

(٦) المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٢٥٥ .

(٧) المسيحي : المصدر السابق - ج ٤ ص ٨٨ .

(٨) المقريزى : اتعاظ الحنثا - ج ٢ ص ١٧١ .

بالجائعين إلى الطرقات يقطعنها^(١) . ففي يوم الأحد ٢٧ ذي الحجة خرج العامة واستغاشوا إلى متولي شرطة الفسطاط بعد أن نهبوهم العامة الذين يسكنون بكوم دينار ، فقبض على طائفة منهم وجلدهم حتى أقرّوا بالمسروقات من الأمتعة والغلال ، فسار معهم إلى مساكنهم وتسلم منهم ما وجده وسلمه إلى أصحابه واعتقل الجناء^(٢) . ومهما يكن من أمر فقد استمر الناس على خوفهم من هجوم العبيد والذعار طيلة هذا العام مع اشتداد الأمراض وشدة الغلاء وعدم الأقوات^(٣) .

وعاشت البلاد حالة من الفوضى الشاملة أثناء الشدة المستنصرية بسبب اضطرابات الجند ومنازعاتهم^(٤) ، ومدت الأجناد إلى النهب فخرج الأمر عن الحد^(٥) . فقد أعمل الجند السلب والنهب ونشط الأشرار وقطع الطرق والبدو وأصبحت السبل وطرق المواصلات البرية والنيلية غير آمنة بسبب تعرض المسافرين لنهب اللصوص واعتداء الجناد^(٦) واشتهد خوف الناس بمصر سنة ٤٦١ هـ / ٦٨٩ - ١٠٦٩ م وكثير الخطاف والقتل في الطرقات ليلاً ونهاراً ، فأصبحت الطرقات غير آمنة إلا بالخفار الكبيرة ، وصار مجرد السير مغامرة غير مأمونة العاقب^(٧) .

وأدّت الحروب بين الأتراك وعبد الشراء التي كانت تستمر ليلاً ونهاراً ، إلى امتناع الناس عن الحركة ، وعدم زراعة الأرض ، حتى إن النيل لما وفى في عام ٤٦٢ هـ / ٦٩٠ - ١٠٧٠ م لم يقدر الناس على الزرع فتفاقم البلاء بالناس واشتهد جوعهم^(٨) .

وقد أفضى اضطراب الأمن إلى تحول طريق الحج من مصر إلى الأراضي الحجازية من الطريق البري إلى الطريق البحري ، بعد أن كان الطريق البري هو الأكثر استعمالاً حتى زيارة ناصر خسرو لمصر^(٩) ، فيقرر المقريزي أنه منذ كانت الشدة العظمى ، انقطع الحج في البر ، وصار الناس لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب ، فيركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ثم يركبون الإبل من قوص ويعبرون الصحراء إلى ميناء عيذاب ومنه بالراكب إلى جدة

(١) ستاني لين بول : سيرة القاهرة - ص ١٣٧ .

(٢) المسيحي : المصدر السابق - ج ٤ ص ٨٩ ، المقريзи : اتعاظ - ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤ .

(٤) د. عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٥) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٣٣٧ .

(٦) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٦٩٥ .

(٧) المقريзи : اتعاظ العنقاء - ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٨) المصدر نفسه - ج ٢ ص ٣٠٣ .

(٩) ناصر خسرو : سفرنامة - ص ٤٥ .

وكان ذلك طريق عودتهم أيضاً^(١). ويرجع ذلك التحول أيضاً إلى خراب الدلتا زمن الشدة العظمى^(٢).

وصاحب تحول طريق الحج تحولاً في طرق التجارة التي تركت في نفس الطريق، سواء تجارة الهند أو اليمن أو الحبشة . وتبع ذلك أزدهار ميناء عيذاب واستمر استعماله بسبب حوادث الحروب الصليبية التي أدت إلى تحول تجارة مصر من موانئ الشمال إلى عيذاب^(٣) ، فضلاً عن اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة في بغداد^(٤).

واستتبع استعمال هذا الطريق ازدهار مدينة قوص فأصبحت أهم أسواق مصر، وكان أهلها تجاراً على قدر واسع من الشراء^(٥) . ولعل ذلك كان مصدره قوة حاكم قوص الذي حاز منصب الوزارة في حالات عديدة في أواخر العصر الفاطمي .

وقد استمر استعمال هذا الطريق منذ أيام الشدة المستنصرية حتى عهد السلطان الظاهر - ركن الدين بيبرس - الذي أمر بخروج قافلة الحج من البر سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م ، فقل استخدام هذا الطريق وتلاشى أمر قوص بعد ذلك^(٦) .

وعندما تولى بدر الأمور في مصر ، بدأ جهوده الحثيثة والناجحة لإقرار الوضع الأمني بالبلاد ، وتوطيد سلطانه ، فبدأ في عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، بقتل جماعة من أمائيل المصريين وحكامهم وزرائهم^(٧) . وأخذ في القبض على الأتراك وتبعهم حتى لم يدع منهم أحداً يشار إليه ، والتقط

(١) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٢٠٢ .

وقد كان هناك طريق يمر من أسوان إلى القاهرة حيث يوجد مرتفع من الأرض مواز للنيل ، وكانت الخزينة العامة تدفع سنويًا مبلغ عشرة آلاف دينار لتغذية الترميمات التي يتطلبها هذا الطريق - ص ١٣ .
جاستون فيت : المواصلات في مصر في العصور الوسطى مترجمة عن :

L'Egypte Contemporain (année 1933 . PP . 24 - 264

ترجمة محمد وهبي .

(٢) د. عطية القوص : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ . رسالة دكتوراه مخطوطة بإشراف د. أحمد دراج كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٣ - ص ١١٨ .

(٣) المرجع نفسه - ص ١٠٨ ، فيت : المواصلات في مصر - ص ٢٠ .

(٤) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ٩٠ .

(٥) د. عطية القوص : المرجع السابق - ص ١١٩ ، ويبدو أن قوص حلت مكان قبط التي كانت قبل ذلك مدينة إقليم الصعيد وبدأ خرابها من بعد عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٠ م ، المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٢٣٢ .

(٦) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٢٨٩ ، علي بن حسين السليمان : العلاقات المحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك - دار حواء - القاهرة ١٩٧٣ - ص ٦١ - ٦٣ . وعن حالة قوص وتطورها حتى القرن التاسع عشر . انظر :

د. سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة وأثارها الباقية في العصر الإسلامي - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة ١٩٦٦ - ص ٢٦ - ٢٧ .

(٧) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ٢٣ .

المفسدين فلم يبق على أحد منهم وتبعهم في القاهرة ومصر حتى أتى على جميعهم القتل^(١). واستمرت حملة أمير الجيوش على جند مصر وغيرهم مما يومى إليه بالفساد خلال العام التالي^(٢).

ويتضح من السجلات المستنصرية ، أن السلطة المركزية قد ضعفت قبضتها على كثير من أجزاء البلاد التي تغلب عليها المتمردون من الحاضرة والبادية ، فقد كانت الإسكندرية والبحيرة والصعيدان الأعلى والأدنى خارجة عن ملكة الدولة^(٣).

وفي أثناء المجاعة التي وقعت عام ٥٣٧ - ١١٤٤ هـ / ٥٣٨ - ١١٤٢ م خرج محمد بن رافع الواتي بالبحيرة في طائفة كبيرة من العربان ، فسار إليهم طلاشع بن رزيك والي البحيرة وكسرهم وقتل أميرهم محمد بن رافع^(٤).

أثر المجاعات على السياسة الخارجية وحدود الخلافة :

لم يقتصر تأثير المجاعات على الأحوال الداخلية للخلافة الفاطمية ، فقد تأثرت سياساتها الخارجية أيضاً بهذه الأحداث وخاصة فيما يتعلق بحدود الخلافة الواسعة . فانهيار الحياة الاقتصادية وأضطراب الأمن وضعف السلطة المركزية كان يعني في المحصلة النهائية ضعف الدولة في الدفاع بجدية عن البلاد المنضوية تحت لوائها ، مما دفع بأعداء الدولة والطامعين في الحكم إلى إعلان الاستقلال عن الخلافة وإسقاط الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية في بلادهم ، بل ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى حد التطلع إلى إزالة الخلافة في عقر دارها بالقاهرة ، وبיקفي بداية الإشارة إلى أن الخلافة الفاطمية في بداية عهدها نجحت في وقف المد البيزنطي في بلاد الشام وأجرت بيزنطية على توقيع معاهدة مع الحاكم بأمر الله عام ٣٩٢ - ١٠٠١ م) ترسخ بمقتضاهما التفوذ الفاطمي في بلاد الشام^(٥) . إلا أنه على أثر معاناة البلاد في خلافة الحاكم من سلسلة مجاعات متلاحقة ، وفي أثناء المجاعة التي حدثت عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م تحرك أبو ركرة من الغرب فاقداً الاستيلاء على مصر وإعلان نفسه خليفة للمسلمين بها مستغلاً ضعف البلاد وارتكابها ، إلا أن الأمر انتهى بهزيمته وفراره إلى النوبة التي سلمه وإليها إلى الحاكم ليقتله بعد أن شهر به^(٦) . وخلال مجاعة ٤٠٢ - ١٠١٣ هـ / ٤٠٣ - ١٠١١ م تمرد العرب في الشام على سلطة الخلافة وخاصة بنو

(١) المقريزي : اتحاذ الحفنا - ج ٢ ص ٣١٢.

(٢) المصدر نفسه - ج ٢ ص ٣١٤.

(٣) د. ماجد : السجلات المستنصرية - ص ١٨٥.

(٤) ابن ميسور : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٦.

(٥) حسن حشبي : الحرب الصالحية الأولى - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٧ - ص ٢٤ - ٢٦.

(٦) ابن القلاني : ذيل تاريخ دمشق - ص ٦٥ - ٦٧ . أعلن أبو ركرة نفسه خليفة للمسلمين وتنوى بالثار بأمر الله . انظر : د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٢٣٣.

الجراح الذين استمرت ثورتهم مدة ستين ونصف من ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م إلى ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م دون أن يرسل الحاكم نحوهم جيشاً^(١) ، ولعل ذلك كان بسبب المجاعة وأضطراب البلاد . إلا أن تمرد بنى الجراح بلغ حداً لا يمكن السكوت عليه ، فقد أغراهم ضعف الدولة عن حربهم بإقامة الدعوة ل الخليفة آخر ، وكان ذلك الخليفة هو أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسن والي مكة الذي استجاب لدعوة عرب الشام ، فأعلن نفسه خليفة باسم الراشد بالله ، وأقيمت له الخطبة في كثير من بلاد الشام^(٢) ، مما اضطرر الحاكم إلى دفع الأموال لبني الجراح حتى انحازوا إليه ، فلم يجد أبو الفتوح بدأً من العودة إلى مكة وإعادة الخطبة والسكنة للحاكم منذ ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م^(٣) .

وبعد انتهاء المجاعة جرد الحاكم في سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م حملة ناجحة بقيادة علي بن أبي طالب^(٤) . جعفر بن فلاح هزمت العرب في الرملة واستولت على أموالهم وذخائرهم ثم دخلت دمشق بعد ذلك^(٤) .

أما في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله ، فقد إرتبطت مجاعة سنة ٤١٤ - ٤١٥ هـ بحركات تمرد واسعة النطاق بدمشق .

وبدأ ذلك التمرد بخروج حسان بن جراح الطائي على منتخب الدولة أتوشتكين الديزيري ونجح حسان في هزيمته ومحاصرته في الرملة ونهب طبرية^(٥) .

وأغرى نجاح حسان هذا وانشغال الخلافة الفاطمية بالمجاعة بقية عرب الشام بالتحالف مع حسان لاقتسام أملاك (الرجل المريض) الخلافة ، فتكاففت سنان بن عليان بن البناء ، وصالح بن مرداد مع حسان وتكلبوا على الديزيري ، الذي طلب نجدة الخلافة ولو بألف فارس وألف راجل ، ورغم أن الدولة نجحت في تجريد هذا العدد ، إلا أنه لم يخرج من التجريد إلا طائفة يسيرة مضت إلى العريش ، وبطْلَ أمر من تجرد بعد ذلك بسبب حالة الفوضى التي كانت البلاد تعيشها ، وربما لقلة التفقة أيضاً والتي بلغت لكل فارس أربعين ديناراً^(٦) .

فلما أيقن العرب بضعف الخلافة عن نجدة الديزيري ، استولى حسان على الرملة وأحرقها ،

(١) د. عبد المعتم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ١٤٣ .

(٢) النهي (شمس الدين) : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير وطبقات الإعلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ ، تاريخ - مجلداً ٦ - ص ١٢٢ - ١٢١ .

(٣) د. جمال الدين سرور : التفرد الفاطمي في جزيرة العرب - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٥٠ - ص ١٧ - ١٩ . ويلذكر ابن خلكان أنهم تثبوا بالرشيد - وقيات الأعيان - ج ١ ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٤) د. جمال الدين سرور : التفرد الفاطمي في بلاد الشام والعراق - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٥٩ - ط ٢ - ص ٤٥ - ٤٦ .

(٥) المقريزي : انتهاز الحقائق - ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣ . وكان الديزيري قد تقلد ولاية بتشارية في فلسطين عام ٤١٤ هـ - المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤ .

(٦) المقريزي : انتهاز الحقائق - ج ٢ ص ١٥٢ ، ابن خلكان : وقيات الأعيان - ج ٢ ص ١٨٠ ، العماد الخليلي : شلالات الذهب - ج ٣ ص ٢١٥ .

واستولى صالح على حلب سنة ٤١٧ هـ ويعملبك وحاصر دمشق ، واتفق صالح بن مرداش وصمam الدولة سنان وحسان على أن يكونوا يداً واحدة على صاحب مصر وقسموا البلاد بينهم ، فصار لحسان الرملة إلى باب مصر ، ولمحمود أخيه طبرية وما يتصل بها من الساحل ، ولسنان دمشق وسوارها ، ولصالح ما بقي من الشام إلى عاتة^(١) .

ولا شك أن تفكك أملاك الدولة في الشام يعود إلى حد بعيد إلى عجز الخلافة عن تجريد العساكر إلى الشام ، ففيما كان مجاعة ٤١٤ / ٤١٥ هـ وفي ذي الحجة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ ، خرج رجال الدولة إلى المضرب بالصلب ، وحضر الكتاميون وطلب منهم مائة فارس ليتفق فيهم ويسيروا مع العسكر ، فذكر شيوخهم أن ليس لهم دواب وأن أي شيء أفق فيهم ضاع وسألوا أن يحملوا إن توفر لهم الخيل وتزاح عليهم بما يتفق فيهم ، ويدلوا أن هذه المطالب كانت فوق قدرة الدولة المنكحة ، فنزعوا الخيمة ولم يتم التجريد^(٢) .

وكان الكتاميون قد ذكروا بحضور الخليفة الظاهر أنهم وطائف الجندي لهم المقدرة . على هزيمة ابن الجراح لولا أنهم هلكوا فقرأ وجوعاً ، وليس لواحد منهم مال يرجع إليه ، ففشل لذلك محاولة تجريد سابقة في شعبان ٤١٥ هـ^(٣) وإذاء ذلك العجز المتزايد اضطرت الدولة إلى إقرار الوضع على ما عليه بالشام ، والإعتراف بشرعية استيلاء حسان على الرملة ، وأعطي بعد ذلك إقطاع نابلس بناء على طلبه^(٤) .

وكان ذلك الإجراء بمثابة اعتراف بعجز الدولة عن دفع المتمردين ، الذين ظنوا أن الطريق مفتوح إلى القاهرة ، فأنفذ حسان بن الجراح سرية فيها ألفاً فارس إلى الفرما فقر أهلها منها إلى تinis ثم القاهرة^(٥) .

ولأجل انشغال الخلافة أرسل حسان إلىبني قرة بالبحيرة يدعوهم إلى نصرته ويعدهم بغنائم كثيرة ، وأجابه بنو قرة بالموافقة ، ثم قبض على رسول حسان وأخذت منه الكتب وحبس^(٦) .

إلا أنبني قرة المقيمين بيرقة ، وقد أمعنوا في الإستهانة بسطوة الخلافة أقاموا إنساناً دعوه بأمير المؤمنين بيرقة وحملوا على رأسه المظلة^(٧) إشارة إلى خلافته وهو ما لم يسع إليه العرب في

(١) اتعاظ الحتفا - ج ٢ من ٥٣ - ١٥٧ . ذكر Lewis أن صالح بن مرداش استولى على حلب عام ٤١٤ هـ والأصح أنه استولى عليها عام ٤١٧ هـ . انظر :

(٢) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ - ص ٨٦ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحتفا - ج ٢ من ١٥٥ - ١٦١ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحتفا - ج ٢ من ٣ - ١٥٤ - ١٥٧ .

(٥) المسيحي : المصادر السليق - ج ٤٠ من ٧٦ ، المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤ .

(٦) المقريزي : اتعاظ الحتفا - ج ٢ من ١٦٢ .

(٧) المصادر السليق - ج ٢ من ١٥٧ .

الشام ، فقد كان مطلبهم هو الاستيلاء على البلاد وخراجها وإنفاقه في رجالهم مع اعترافهم بالسيطرة الإسمية للخليفة الفاطمي وحقوقه في الخطبة والسكنة^(١) .

ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تعيد بسط نفوذها على الشام إلاّ عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢١ م ، عندما نجح الدزيري في قتل صالح بن مرداس في ربيع الآخر وهزيمة حسان في الأقحوانة ، واسترداد أملاك الخليفة ما عدا حلب التي استعادت عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م بعد قتل شبل الدولة ثمال بن صالح^(٢) .

وقد استغل ملك الروم باسيلوس الثاني (باسيل) Basilius Bultgaroetnos فرصة الشغاف الظاهر بحوادث الشام عام ٤١٥ هـ ، فأغار على أملاك الخليفة الفاطمية في جزيرة صقلية وأ Mintwali على قلورية (كالبريا)^(٣) .

وأثناء هذه المجاعة أيضاً اضطررت علاقه مصر بالأراضي الحجازية ، التي كانت ترتبط بمصر برباط اقتصادي سياسي ، قوامه حصول الحجاز على المأذن العذائية مقابل إقامة الدعوة الفاطمية بالأراضي المقدسة وكانت هذه الميرة ضمانت لعلم قيام الغرب بالنهب والسلب في موسم الحج . ومن ناحية أخرى كان للحجاج أهمية خاصة عند الفاطميين حيث تعد سيطرتهم عليه دليلاً حاسماً على تزعدهم للعالم الإسلامي^(٤) .

وفي عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م تأخرت ميرة الحجاز ، فجاء إلى مصر وفده في العام التالي ، وطلبوها النفقه وهندوا بنقل الدعوة بمكة والمدينة للعباسين ، ومع ذلك لم يستطع الخليفة أن ينفق فيهم ، وتصدق عليهم جمال الدولة مظفر الصقلي صاحب المظلة بألف دينار من ماله ، ففرقوها خمسمائة نفس لكل واحد دينارين ، ولم يجد وفد الحجاز مسؤولاً في الدولة ليجيب مطالبهم^(٥) .

وأثناء المجاعة التي وقعت بمصر عام ٤٤٧ - ٤٤٨ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٥٦ م حدثت بعض القلاقل في الشام . وفي سنة ٤٤٧ هـ ، تجمع كثير من التركمان بحلب وغيرها فأفسدوا في أعمال الشام . وكانت خطبة الفاطميين قد قطعت أثناء ذلك ، وخطب للعباسين في حلب على الأقل ، إذ يذكر ابن ميسير أن الفاطميين استعادوا سيطرتهم على حلب في يوم الخميس لثلاث بقين من ذي القعدة ، وخطب فيها للمستنصر بعد ما كانت الخطبة للقائم العباسي وذلك بعد حروب كثيرة^(٦) .

(١) المقريزي : انتظام الحجنا - ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) ابن القلاطي : ذيل دمشق - من ٧٣، ٧٤، ابن العمام : شرارات النهب - ج ٣ ص ٢١٥ .

(٣) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٢٨٢ .

(٤) علي بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية - ص ٩ .

(٥) المقريزي : انتظام الحجنا - ج ٢ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٦) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٧ - ٨ .

كما نجد تميم بن المعز بن باديس والي أفريقيا يقطع خطبة الفاطميين ويختضع للمرابطين الذين ظهرت دولتهم في جنوب بلاد المغرب مما يجاوز الصحراء ، في عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م أو ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م وإن أعاد بعد ذلك الخطبة للفاطميين^(١) .

ومنذ مجاعة ٤٤٧ هـ سادت العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية ومصر بسبب رفض إبنة قسطنطين التاسع ، تيودورا إرسال الغلال إلى مصر بعد وفاة والدها الذي تعهد بإرسالها ، وفضل البيزنطيون صدقة السلagleة الأقوباء ، على صدقة الفاطميين الصيغاء ، فخطب للخلفية العباسية في جامع القسطنطينية وأسقطت خطبة المستنصر بالله^(٢) .

أما الشلة المستنصرية التي كانت من عوامل انهيار الخلافة الفاطمية^(٣) فقد أثرت تأثيراً عميقاً على السياسة الخارجية للدولة الفاطمية فتقلصت ممتلكاتها وخاصة في الشام وأفريقيا وبلاط الحجاز ، وإذا كانت القوة هي صبغة السياسة الحربية للفاطميين حتى النصف الأول من خلافة المستنصر بالله ، فإن سياسة الدولة الحربية أصبحت بعد ذلك مبنية فقط على الدفاع عن كيان الدولة^(٤) . وقد أدى الضعف الذي شاب قوى البلاد المادية والحربية أثناء الشلة إلى ضعف سيطرة المصريين على بلاد الشام ، وإهمال الجيش والأسطول وسهل ذلك مهمة الصليبيين في الاستيلاء على بعض بلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى^(٥) .

وقد أفضى اشغال الحاكم في مصر منذ الشلة بسوء الأوضاع الداخلية بسبب الأزمات الاقتصادية والأوبئة والصراعات الداخلية إلى ضعف المقاومة للغزو الصليبي ، والعجز عن إخراج الصليبيين من المواقع التي احتلواها^(٦) . ونجم عن ذلك أيضاً ذهاب ما تبقى من سوريا بعيداً عن أيدي الصليبيين إلى الأسر المحلية الحاكمة ، والسلagleة ، وحتى بلاد الحجاز التي كانت ذات أهمية روحية خاصة رفضت أن تشارك مصر في المجاعة وتحولت نحو بغداد^(٧) .

كانت الشام أكثر أملاك الخلافة تأثراً بحالة الضعف التي اتسمت بها سياسة الفاطميين الحربية أثناء الشلة المستنصرية وبعدها، إذ عجزت الدولة عن التصدي لأطماع الأسر المحلية من العرب أو الأتراك في السيطرة على أملاكها ، هذا فضلاً عن ضعفها عن الوقف بوجه الدولة

(١) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٢٧١ .

(٢) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية - القاهرة ١٩٦٩ - ط ٢٦ من ١٣٣ ، وقد خلط بين مجاعة ٤٤٧ هـ والشلة .

(٣) نبيلة محمد أحمد صبرة : الخدمات الطبية في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني - مخطوط رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب - كلية الأدب - جامعة الإسكندرية ١٩٨٢ - ص ١٤١ .

(٤) د. عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ١٢٤ .

(٥) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٧ .

(٦) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية - ص ١٨ .

(٧)

السلجوقية الفتية ، التي امتدت أيدي عسكرها إلى معظم بلاد الشام وملكتها ، فخرجت عن أيدي المصريين ولم تعد إليهم^(١) ، ولم يمتلك المستنصر بعد إنتهاء الشدة سوى التمني لوزيره بدر الجمالي أن يتمكن من إستعادة الأعمال الشامية (فيشفي صدره بما وقع على ولده وحريمه ، من جهة الغزاة الملاعين الذين امتلكوها وحصلوا في قبضتهم)^(٢) .

بدأ خروج معظم الشام عن الخلافة ، مع بداية الشدة عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، ففي رمضان من هذه السنة تمكن محمود بن شبلي الدولة بن صالح بن مرداش ومعه الأمير ابن خان التركي ، من دخول حلب ، بعد أن فشل في أخذها من قبل عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م ، وسنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م^(٣) إلا أن محموداً لم يسقط الدعوة الفاطمية عند دخوله المدينة ، بسبب تخوفه من احتفال ثورة أهلها ، ولكنه أسقطها عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م عندما طلب منه ألب أرسلان السلجوقي أن يدعوه للعباسيين^(٤) . ولم يكتف ألب أرسلان بذلك فسار إلى حلب في ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م وحاصرها فخرج له محمود بن صالح فقلده ولاية حلب من قبله^(٥) ليؤكد بذلك خروج حلب نهائياً عن الدولة الفاطمية. خرجت صور من الخلافة سنة ٤٦٢ هـ عندما أعلن قاضيها عين الدولة أبي الحسن علي بن علي بن عياض بن أحمد بن أبي عقيل خروجه عن طاعة الفاطميين ، ولم يتمكن بدر الجمالي من أخذ صور^(٦) ، وكان وقتها والياً على عكا ، وذلك بسبب إستجاد القاضي بالأمير قرلو مقدم الأتراك المقيمين بدمشق ، فحاصر الأخير صيدا وهي من أعمال بدر الجمالي فاضطر إلى فك الحصار عنها ، ثم عاد بدر فحاصر صور سنة كاملة ولم يتمكن أيضاً من القضاة على تمرد قاضيها ،^(٧) ولم يتمكن الفاطميون من استرداد صور إلا سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م^(٨) .

أما فلسطين فقد بدأ أتسرز بن أوق مقدم الأتراك الغزو بالشام للاستيلاء على أعمالها منذ عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، واستولى أولاً على الرملة وبيت المقدس^(٩) ولما حلّ عام ٤٦٥

(١) المقريزي - انتطاح الجنـا - ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) د. ماجد : السجلات المستنصرية - ص ١٨٥ . سجل بتاريخ المحرم نفسه ٤٦٧ هـ .

(٣) ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٩٣-٩٠ .

(٤) د. محمد جمال الدين سرور : نفوذ الفاطميين في بلاد الشام - ص ٦٠ ، ويحدد ابن القلاسي يوم ١٩ شوال تاريخاً لاستيلاء المستنصر في حلب سنة ٤٦٢ هـ - ذيل تاريخ دمشق - ص ٩٨ ، مخالفًا بذلك ما ذكره النهي من أن إسقاط دعوة الفاطميين في حلب كان عام ٤٦٣ هـ - النهي : تاريخ الإسلام - مجلد ٦ - ص ٢١٥ .

(٥) د. محمد حمال الدين سرور : المرجع السابق - ص ٦٠ .

(٦) المقريزي - انتطاح الجنـا - ج ٢ ص ٣٠٣ - ذكر ابن ميسير أنها صمدت ولم يُستطع صور - ج ٢ ص ٢٠ .

(٧) ابن القلاسي : المصدر السابق - ص ٩٨ .

(٨) د. سعيد عاشور : شخصية الدولة الفاطمية - ص ١٧ مجھول : إنسان العيون - ص ٤٢١ .

(٩) ابن القلاسي : المصدر السابق - ص ٩٩-٩٨ ، ويدرك المقريزي (انتطاح - ج ٢ ص ٣١٨) أن بيت المقدس سقط في يد أتسرز

هـ / ١٠٧٣ م كان قد استولى على سائر فلسطين عدا أرسوف^(١) . وقطعت بذلك خطبة المستنصر بالله من أحد الأماكن المقدسة على يد أنسز التركماني قائد السلطان ملكشاه^(٢) .

ونهج قاضي طرابلس نهج قاضي صور ، فقد أعلن الحسن بن عمار طرابلس إمارة مستقلة عن الفاطميين عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، وظلت هذه الإمارة قائمة حتى استولى الصليبيون على طرابلس عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م^(٣) .

وبدأت دمشق قصة خروجها عن الخلافة أثناء الشدة منذ سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، عندما شغب أهلها على العسكر الفاطمي ، ووالى مصر وقتها أمير الجيوش بدر الجمامي الذي اضطر إلى الخروج من المدينة بعد أن أحرق قصر الوالي ونقضت أخشابه^(٤) .

ولم يكن مصير خلفه الأمير قطب الدولة بارز طغان بأفضل حالاً ، فقد أرسله الخلافة ليتولى دمشق عوضاً عن بدر الجمامي ومعه الشريف أبو طاهر حيدرة بن مختص الدولة أبي الحسين في شعبان ٤٦٠ هـ ، فنزل في دار العقيقي بعد حريق القصر ، وخرج هو والشريف من دمشق في ربيع الأول ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م^(٥) . فاغتنم الفرصة الأمير حصن الدولة معلي بن حيدرة الكتامي ، فاستولى على دمشق عنوة بالسيف وبدون تقليد في ٨ شوال ٤٦١ هـ ، وزعم أن التلقييد وافاه بعد ذلك ، وأساء السيرة في الناس^(٦) . وقد أدى انتشار ظلمه إلى خراب دمشق وأعمالها ، حتى اضطر أهلها إلى الهجرة عنها ، فخررت الغوطة ، وخلت الأماكن من السكان ووقع الإختلاف بين الوالي والعسكر ، فاضطر إلى الفرار لبنياس ووصلها في ٢٢ ذي القعدة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م^(٧) . وكان أنسز بن أوق قد بدأ محاصرة دمشق منذ سنة ٤٦٥ هـ / ٧٢ - ٧٣ م ، بعد استيلائه على الرملة وبيت المقدس ، فحاصرها ثلاث سنوات ، أحرق خلالها زروعها فارتفعت الأسعار وجلا أكثر أهلها عنها وفرّ إليها عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، فعاد أنسز لمحاصرتها حتى فقد الناس الطعام بها وأكلوا

سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م، عند انهزامه من مصر ، وإن كان ابن الجوزي يذكر أن استيلاء السلجوقية على بيت المقدس كان في شوال ٤٦٥ هـ - المستظم - ج ٨ ص ٢٨٤ .

(١) د. سعيد عاشور : المرجع السابق - ص ١٨ .

(٢) المقريزي : اتحاظ الحنقا - ج ٢ ص ٣١ ، د. جمال الدين سرور : الفتوذ الفاطمي في بلاد الشام - ص ٦٠ .

(٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : شخصية الدولة الفاطمية - ج ١٧ .

(٤) ابن القلاطني : ذيل تاريخ دمشق - ص ٩٣ ، ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ١٨ .

(٥) ابن القلاطني : المصدر السابق - ص ٩٤ ، وفي نفس السنة قتل أمير الجيوش الشريف حيدرة وسلخ جلده - ابن ميسير - ج ٢ ص ١٩ .

(٦) المقريزي : اتحاظ الحنقا - ج ٢ ص ٢٩٦ ، ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ١٩ ، وفي أثناء هذه الأحداث التي عصفت بدمشق احرق جامع دمشق (المسجد الأموي) وزال ما كان فيه من الأعمال النحية ، وسيب ذلك اندلاع النيران في دار مجاورة له أثناء حرب جرت بين العمارية والمشاركة ، وانتدلت إلى المسجد - العماد العتبلي شذرات النهب - ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

العربي : مختصر تاريخ الدول - ص ٣٢٢ .

(٧) ابن القلاطني : ذيل تاريخ دمشق - ص ٩٥ - ٩٦ .

الميّة وأضطرّ الأمير زين الدولة انتصار بن يحيى مقدّم المصادمة في المدينة إلى تسليمها بالأمن إلى أتّسز عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م^(١) ، فأصبحت دمشق تحت سيادة السلاجقة وقطعت خطبة المستنصر ، وخطب للمقتدي بالله العباسي ولم تعد خطبة الفاطميين إليها بعد ذلك^(٢) إلا لفترات قليلة . ولم يكفّ أتّسز بالاستيلاء على أملاك الدولة بالشام ، بل طمع في أخذ مصر ذاتها ، فجهز جيشه وتحرك نحو مصر بعد أن أغراه بذلك ابن يلدوز الذي فرّ من بدر الجمالي^(٣) ودخل أتّسز مصر وأساء السيرة فيها حتى استغاث أهل الفرما وصمموا على قتال أتّسز مع جند الخليفة التي قُلّ عددها بسبب المجموعات والفتنة^(٤) . ونجح بدر الجمالي في هزيمة أتّسز وقتل أخيه ، فعاد أتّسز منهزاً إلى دمشق سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧ م^(٥) .

ولم تفلح محاولات الخلافة المتكررة في استرداد دمشق ، ففشل نصر الدولة الجيوشي في استردادها بعد أن حاصرها عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ، رغم أنه استولى على أعمالها وأعمال فلسطين ، وذلك لاستنجاد أتّسز بناج الدولة تشن الذي تسلّم دمشق منه ، مما أضطرّ نصر الدولة إلى الانسحاب ناحية الساحل ، وفشلت أيضاً محاولة العسكر المصري استرداد دمشق بالتحالف مع سلم بن قريش وجماعة منبني كلاب وعرب قيس^(٦) .

وحتى ولادة عكا التي كانت بحوزة بدر الجمالي ، استولى عليها بشكل أحد الأتراك بعد رحيل بدر عنها إلى مصر ، وفيها أولاد أمير الجيوش ، فقتل والي عكا واستولى بعد ذلك على طبرية أيضاً^(٧) .

ولا شك أن طبيعة الروابط السياسية الاقتصادية مع الأراضي الحجازية^(٨) كانت وراء تأثير ولاعنة والمدينة للفاطميين ، الذي يتمثّل في الخطبة للخليفة الفاطمي في الحرمين ، بأحداث الشدة العظمى .

وقد بدأ الأضطراب يسود علاقة الأرضي المقدسة بالخلافة منذ انقطاع ما ترسّله مصر من معونة وأغذية مع بداية الشدة سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، ففي عام ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م قطع محمد بن جعفر بن أبي هاشم أمير مكة خطبة المستنصر ، إلا أنه أعادها بعد قليل طمعاً في عودة ميررة

(١) ابن القلاطي : الذيل - ص ٩٨-٩٩ ، ويبلغ سعر غوارة القمع أثناء الحصار عشرين ديناراً . ابن العبري : مختصر - ص ٣٣٤ .

(٢) أبو المحاسن : التحوم الراحلة - ج ٥ ص ١٠١-١٠٢ ، د. جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام - ص ١٢٥ .

(٣) د. جمال الدين سرور : المرجع السابق - ص ٦١-٦٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج ٨ ص ١٢٧ .

(٥) المقريزي : اعتماد الحتفا - ج ٢ ص ٣١٧ ، وإن كان ابن الأثير يذكر أن أتّسز انصرف مهزوماً بدون قتال - الكامل - ج ٨ ص ١٢٣ .

(٦) ابن القلاطي : المصدر السابق - ص ١١٤، ١١٦ .

(٧) ابن ميسير : ج ٢ ص ٢٢ .

(٨) عن أهمية هذه الصلات لمصر من الناحية التجارية والسياسية . انظر : د. عطية القوصي : تجارة مصر ص ٩٦ .

مصر .^(١) ولعل وجود علي الصالحي في اليمن كان رادعاً له ، فما أن توفي عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م^(٢) حتى استولى أمير مكة على الأموال التي كان قد تركها الصالحي للإنفاق على الحرم منها في عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م^(٣) ، وأخذ أيضاً قناديل الكعبة وستورها وصفائح الباب والميزاب وسبكها وضرب منها الدنانير والدر衙م وصادر أهل مكة فهربوا ، وكذا فعل أمير المدينة مهنا الذي قطع أيضاً الخطبة للمستنصر فانقطعت بذلك الدعوة الفاطمية من الحجاز^(٤) . وينذر الذهي أن تمرد الحجاز يعود إلى زلة المصريين بالقطط المفرط وانشغالهم بأنفسهم حتى أكل بعضهم ببعضأ^(٥) .

ولما لم يجد أمير مكة من يردعه ، فضلاً عن توقف ما يرسل من مصر من نفقات الحج التي كانت قد زادت في وزارة اليازوري من مائة ألف دينار إلى مائتي ألف دينار ، فقطع خطبة الفاطميين من مكة سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م والتي يبدو أنها كانت قد أعيدت ، وصارت الخطبة للقائم العباسي وع ضد الدولة آل أرسلان في مكة والمدينة^(١) ونال أمير مكة مقابل ذلك ثلاثين ألف دينار وصاحب المدينة عشرين ألف دينار من السلاجقة^(٢) .

ويبدو أن أمير مكة كان يطمع في أن يصل ثمن خطبة العباسين إلى ما كانت تدفعه الخلافة الفاطمية ، فاكتفى بالخطبة للعباسين في موسم الحج فقط ، وكتب المستنصر بعثرة إليه ، إلا أن ألب أرسلان عاد فأرسل أموالاً كثيرة له في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م خطب أمير مكة بنفسه للعباسين^(٨) . واستمرت الخطبة لهم في عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م أيضاً^(٩) ويظهر أن ذلك استمر حتى مقدم بدر الجمالي ، الذي كانت أول أعماله التنظر في أمر الحرمين المحررسين وإعادتهما إلى ملكة الدولة بعد أن علت فروق منابرهما الأقدام الرجسة من الفتنة الأموية والعباسية^(١٠) . فأرسل في سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م رسالة باسم المستنصر بالله إلى صاحب مكة وهدية جليلة ، طالباً منه إعادة الخطبة المستنصرية لمكة ، فقطعت خطبة الخليفة العباسي التي دامت بمكة أربع سنين وخمسة

(١) القلقشندی : صبح الاعشن - ج ٤ ص ٢٧٠ .

(٢) المقربى : اتعاظ الحتفا - ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) د. ماجد: ظهور خلقة القاطعين - ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٤) أبو المحاسن : الترجمة الظاهرة - ج ٥ ص ١٩-٢٠ ، ابن الجوزي : المستطرم - ج ٨ ص ٢٥٩ .

(٢) التمهيد : تأريخ الإسلام - مجلدان (١-٢) ص ٤٤٦.

(٦) المغريزي : اعتاذ الحضا - ج ٢ ص ٣٠٤-٣٠٣ ، ولم يلتفت المستنصر لقطع خطبته في المحرمين لشغله بنفسه ورعايته من حفلة الغلاء والخراب الذي حلّ بمصر ، أبو المحاسن : النجوم - ج ٥ ص ٢٠.

^{٢٧} أبو الحسن: المصير السابق - ج ٥ ص ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣. جمال الدين سرور: التغذى الفاطمي في جزيرة العرب - ج ٣ - ٢١.

^{٢٧} (القاشندي) : صحة الأعشش - ٣٤ ص ٢٧.

٢٣- حالات مرضية في المرض العصبي الشمالي

(١) ملکہ الہامیہ میرزا : اختریج اسٹڈیز - جلد ۱۱۷۔

أشهر^(١) . ويرغم الأموال الطائلة التي أنفقت لأجل إعادة الخطبة إلى الأرضي المقدسة^(٢) ، فإن الخطبة سرعان ما أعيدت للمقتدي العباسي في ذي الحجة سنة ٤٦٨ هـ^(٣) .

ويعلل ابن الجوزي سبب هذا التحول السريع إلى أن حاكم مكة بعث إلى مصر رجلين ليتعرفا على مدى قوة خليفة مصر ، وإن كان يرجى من وراء الخطبة له صالحًا ، فعادا إليه فقالا: ما تقي ثم شيء يرجى عنده بعد فقاد الأموال وفساد الأحوال ، فأعاد بسبب ذلك الخطبة للعباسين^(٤) .

بيد أن أحد العلوين نجح في الإستيلاء على المدينة المنورة ، وطرد عنها أميرها الحسين بن مهنا الذي فرّ قاصداً ملكشاه السلجوقي ، وأعاد الخطبة المستنصرية إلى المدينة وذلك سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧ م^(٥) .

وأعيدت خطبة الفاطميين إلى مكة عام ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م وكسر المنبر الذي أرسله العباسيون وأحرق ، إلا أن الخطبة العباسية أعيدت لمكة عام ٩٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م^(٦) .

وقد شاب الاضطراب علاقة الفاطميين بمكة ، فاستمرت خطبة العباسين بها حتى عام ٥٢٧ هـ عندما أقام هاشم بن قاسم بن محمد بن جعفر الخطبة لمحافظ الدين الله الفاطمي لأن ذلك لم يستمر لفترة طويلة ، واستقرت الدعوة العباسية بشكل نهائي في ولادة قاسم بن هاشم الذي تولى إمارة مكة عام ٥٤٩ هـ^(٧) .

أما اليمن ، فلم يكن للشدة التي أصابت مصر في عهد المستنصر بالله أي تأثير على استمراره تبعيتها للخلافة الفاطمية وذلك بفضل ولاء السيدة الحرة للبيت الفاطمي^(٨) .

بل أصبحت اليمن هي المأوى لتراث الفاطميين ، خاصةً منذ استحوذ القواد السنة على منصب الوزارة في القاهرة^(٩) .

(١) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٢٢٤ ، ابن الأثير : الكامل - ج ٨ ص ١٢١ .

(٢) د. عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية - ص ١٨٨ - سجل بتاريخ ذي القعده سنة ٤٦٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل - ج ٨ ص ١٢١ .

(٤) ابن الجوزي : المتظم - ج ٨ ص ٢٩٨ .

(٥) ابن تفرييري : التسجوم الزاهرا - ج ٥ ص ١٠٤ .

(٦) ابن الجوزي : المتظم - ج ٨ ص ٣١١، ٣١٢، ٣٢٣ .

(٧) د. جمال الدين سرور : التفوذ الفاطمي في جزيرة العرب - ص ٢٤ .

(٨) د. عطية القرصي : تجارة مصر في البحر الأحمر - ص ٩٨ ، كانت السيدة الحرة زوجًا لعلي الصالحي مؤسس دولة الصالحية في اليمن ، وقد عرفت بهذا اللقب الذي منحها إيه الخليفة المستنصر بالله وأسمها السيدة أروى - راجع د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٩) د. حسن سليمان محمود : الصالحية في اليمن وعلاقتهم بالفاطميين في مصر .. رسالة دكتوراه مخطوطة - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٥٢ - ص ١٦٦ .

وكان غاية ما أصاب اليمن من جراء الشدة عدم انتظام السجلات التي كانت ترسل من الخلافة إلى الصليحيين ، ففيما خلا سجلات أعوام ٤٥٧ هـ ، ٤٦٠ هـ ٤٦١ هـ فإنه لم ينتظم ورود هذه السجلات إلى اليمن إلا منذ عام ٤٦٧ هـ^(١) .

تأثير المجاعات على حدود الخلافة في أفريقيا وصقلية :

إذا كان خروج بعض ولايات الخلافة في الشرق أثناء المجاعات ، يكاد يرقى إلى حد التعميم ، فإن المغرب مهد الخلافة الفاطمية لم يستثنى من هذه القاعدة . فقد منعت كوارث الخلافة من مجاعات وأوبئة وصراعات من الاهتمام بشؤونه ، حتى خرج عن حوزة الخلافة ، ولم تضرب سكة باسم المستنصر بالله في المهدية منذ بداية الشدة العظمى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م^(٢) . وكان ضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي قد توقف قبل ذلك في عهد المعز بن باديس وقطعت كذلك الخطبة الفاطمية سنة ٤٤٠ هـ^(٣) ، وإن كان المعز بن باديس قد اضطر بعد ذلك إلى إعادة السكة والخطبة بسبب الغزوat الهلاكية التي حركتها الدولة الفاطمية ضدّه^(٤) .

ومنذ عام ٤٥٧ هـ أيضاً لم تضرب سكة باسم المستنصر في جزيرة صقلية ، وأخر ما ضرب باسم المستنصر كان في أواخر ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، بل إن ابن الثمنة أحد الولاة المستقلين بالجزيرة سعى إلى تملك النورمان الصقلية ، وذلك بسبب عجز المستنصر بالله عن أداء ما طلبه من أموال بسبب الشدة ففتح ابن الثمنة الأبواب للفرنج^(٥) بعد أن بعث ابنه كرهينة لدى روبيروتو أخي روجر^(٦) .

وأثناء مجاعة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م إستطاع الجيش الفاطمي أن يستعيد صيدا وصور وعكا ويعلبك^(٧) إلا أن تشن استولى على عكا في العام التالي من ابن ملاعب بسبب إقامته الخطبة للمستنصر بالله^(٨) وسرعان ما أعقب ذلك تحرك نواب ملكشاه بحلب والرها

(١) راجع - د. عبد المنعم ماجد السجلات المستنصرية .

(٢) د. عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٣) العماد الحنبلي : شترات الذهب - ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا التونسية - مكتبة المغار - تونس ١٩٦٤ - ج ١ ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .
وبنوا هلال من المدنانية وكانت قد ساروا إلى مصر أثناء حروب القرامطة ضد مصر في بداية خلافة الفاطميين في مصر - عمر وضا
كحالة : معجم قبائل العرب - ج ٣ ص ١٢٢١ . ولمزيد من التفصيات عن هذه الغزوat الهلاكية انظر :

The Ency . Of Islam . London , 1971 . Vol . III . PP . 385 - 386 .

(٥) د. ماجد : ظهور خلافة - ص ٢٨٤ - ٢٨٦ .

(٦) د. عبد المنعم رسنان : الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا - دار تهامة جلة - السعودية ١٩٨٠ - ص ٢١ .

(٧) الذهبي : تاريخ الإسلام - مجلد ١٦ - ص ٢٤١ .

(٨) أبو المحاسن : المصادر السابق - ج ٥ ص ١٢٨ - ١٣٠ .

عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م مع قوات السلطان السلاجوفي بقيادة تشن واستولوا على حمص وقلعة عرقا
وأقاموا^(١).

وفي خلافة المستعلي بالله التي شهدت مجاعات خطيرة في أعوام ٤٩٠ هـ ، ٤٩٢ - ٤٩٣ هـ ، إختل حال الدولة الفاطمية بشدة وانقطعت الدعوة من معظم الشام الذي القسم بين الأتراك والفرنج^(٢).

في مجاعة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م أقام فخر الملوك رضوان متولي حلب الخطبة للمستعلي بعد خطاب من الخليفة وأخر من وزير الأفضل ، وذلك طمعاً في أن يستعين بالعسكر المصري لأجل الاستيلاء على دمشق ، فلما وجد ما آل إليه حال الخلافة من ضعف وانشغالها بالمجاعة قطع الخطبة بعد أربعة أسابيع فقط^(٣) ، وفي نفس هذه السنة أعيدت إلى دمشق خطبة الخليفة العباسي وقطعت المستعلية التي ييدو أنها كانت قد أعيدت قبل ذلك لوقت قصير^(٤) . كما استولى الفرنج على إنطاكية في ١٦ رجب ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م بعدما حاصرواها منذ شهر ذي القعدة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وأخليوا أيضاً بحرة النعمان عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م^(٥).

ورغم أن الخلافة نجحت في إستعادة بيت المقدس عام ٤٩١ هـ إلا أن الفرنج استولوا عليها في العام التالي ، وهزمو الجيش الفاطمي عند عسقلان^(٦) واضطرب الأفضل شاهنشاه إلى العودة بجيشه إلى مصر^(٧).

وفي أثناء الأزمة الاقتصادية بالبلاد عام ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م ، نجح الصليبيون في الإستيلاء على مدينة عكا في شعبان من نفس السنة^(٨).

(١) د. محمد جمال الدين سرور : *القورة الفاطمي* في بلاد الشام - ص ٦٣.

(٢) ابن خلkan : *وفيات الأعيان* - ج ١ ص ١٦١ ، العماد الحنفي : *شذرات الذهب* - ج ٣ ص ٤٠٤.

(٣) ابن القلاسي : *ذيل تاريخ دمشق* - ص ١٣٣.

(٤) المقريزي : *الخطسط* - ج ١ ص ٣٥٦ . وإن كان ابن العري يذكر أنه لم يخطب للفاطميين بلعشرين من عاصمة ٤٦٨ هـ - مختصر تاريخ الدول - ص ٣٣٤.

(٥) ابن خلkan : *وفيات الأعيان* - ج ١ ص ١٦١.

(٦) الذهبي : *تاريخ الإسلام* - مجلد ١٦ - ص ٢٦١ ، حسن جبشي : *الحرب الصالبية الأولى* - ص ٨١، ٨٧.

(٧) ابن القلاسي : *ذيل تاريخ دمشق* - ص ١٣٥ - ١٣٧ ، العماد الحنفي : *شذرات الذهب* - ج ٣ ص ٣٩٧ ، ابن العري : ص ٣٤٢ ، ويقال إن عدد قتلى المسلمين في بيت المقدس بلغ أكثر من ٧٠،٠٠٠ شخص ولم تستطع الخلافة الفاطمية أن تحرك ساكنها لهذا الحادث كما تقاضس السلاجقة عن نجلة المدينة ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

وكيف تنام العين ملء جفونها على هنوات أيسقطت كل نائم وإنحوانكم بالشام يضحي مقيلهم ظهور المداكي أو يبطون القشائم تجرؤون ذيل الخفاف فعل المسلم نسومهم الرؤم الدهون وأنتم

ابن الجوزي : *المتنظم* - ج ٩ ص ١٠٨.

(٨) ابن خلkan : *وفيات الأعيان* - ج ٤ ص ٣٨٤.

ولا شك أن الضعف الذي انتاب الدولة الفاطمية منذ الشدة العظمى قد تزايدت مضاعفاته السلبية في السنوات الأخيرة من حياة الخلافة ، حتى عجزت عن مقاومة ضغط السلاجقة والصلبيين ، الذين اقسموا الشام فيما بينهم .

فلم تصل نجدة الفاطميين إلى طرابلس الشام إلا بعد أن دخلها الصليبيون عام ٥٠٢ هـ / وقتلواً معظم أهلها^(١)

والى أبعد من ذلك ، تردى حال الدولة الفاطمية ، حتى إن الصليبيين بعد استيلائهم على عسقلان عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م ، شرعوا في الإستيلاء على مصر فهاجموا تيس ونهبوا^(٢) . كما حاول الأدفونس صاحب طليطلة وقشتالة وأشبيلية وبإنسنة بالأندلس أن يستولي على بلاد مصر والشام في آخر الدولة الفاطمية^(٣) .

ولم تك مصر مطمعاً فقط للصليبيين ومسيحيي الأندلس ، بل طمع فيها عسكر لوانه بإفريقيا فهاجموها عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م وإن كان المأمون البطائحي قد نجح في ردهم^(٤) .

ومهما يكن من أمر فقد أدى ضعف الدولة إلى إنهيار ممتلكاتها خارج مصر ، بعد سلسلة المجموعات والأزمات الاقتصادية والأوبئة التي كابتتها أثناء حياتها ، وأودت بها على يد وزيرها صلاح الدين الأيوبي .

ثانياً : الآثار الاجتماعية للمجموعات

١ - تأثير المجموعات على الملكية الزراعية والملاك :

شهدت مصر منذ الفتح العربي نوعين من الملكية ، الملكية الخاصة ، وملكية الدولة للأراضي الزراعية ، والأخيرة ورثتها الدولة ، إما أراضٍ كانت ملكاً للدولة البيزنطية (الأباطرة) أو أراضٍ هرب أصحابها أو هلكوا زمن الفتح ، وأضيف إلى ذلك الأرض الموات أو الأرض المهجورة ، أو عن طريق الشراء ، أو بمصادرة موظفين ماتوا بدون وارث أو فصلوا من وظائفهم لأسباب جعلت الدولة تصادر أراضيهم^(٥) . وظل المصريون الذين يمتلكون الأرض ملكية خاصة يتصرفون فيها بالبيع والشراء والتوارث والهبة والوقف ، أي أنهم يمتلكون الأرض ملكية تامة (ورقة

(١) ابن خلkan : وقيات الأعيان - ج ٤ ص ٣٨٤ . وينظر العماد الحنبلي أن الفرجنج أخذت طرابلس عام ٥١٣ هـ بعد حصار دام سبع سنوات وأنهم استولوا في العام التالي على بيروت وصيدا - شهادات الذهب - ج ٤ ص ٦٢ - ٦٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين - ج ١ ص ٩٩ .

(٣) الفلقشندي : صحيح الأعشى - ج ٨ ص ٣٥ - ٣٤ .

(٤) ابن القلاطي : ذيل تاريخ دمشق - ص ٢٩ .

(٥) د. سبلة كاشف : الأرض والفلاح في مصر الإسلامية - مقال ضمن كتاب الأرض والفلاح على مذَّ المصور - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧٤ - ص ١٦٥ .

^(١) ومتفرعة) وكان للحكومة فقط حق السيادة العليا على هذه الملكيات الخاصة.

أما عن كيفية تحصيل الدولة لضرائب الأرض (الخروج) ، فإنه منذ ما بعد عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، قد قسمت البلاد إلى مناطق أو صفتات تطرح في مزاد علني كل أربع سنوات فيتزايد عليها من يرغب في ذلك ، ويجلس متولى الخراج في جلسه عمرو بن العاص وبنادي على البلاد صفتات محددة المبالغ المفروضة عليها ومن يتقبل أرضاً يضمها إلى ناحيته وتولى زراعتها وإصلاح جسورها وأحوالها ويحمل الخراج في أقساط وبخصم منه ما ينفقه على عمارة الأرض (٤) .

وعندما فتح الفاطميون مصر أقرّ جوهر الصقلي بحق الإبقاء على الملكيات الخاصة^(٣) ، وفي سند وقف تاريخه ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ، يوجد ما يؤيد ملكية الأفراد للأراضي ملكية تامة مطلقة رقبة ومنفعة ، حيث للملك حق التصرف في ملكيته^(٤) و فيما عدا أراضي الامتلاك الخاصة ، كان الخلفاء الفاطميين يملكون أراضي مصر ، وكانت الأرض تتجزء إلى كبار السكان من المزارعين بصفتهم متقبلين أو ضمانتها يتنهلون بدفع ما عليها من خصوبة لقاء استغلالها^(٥) وقد ظل نظام المزايدة على الخراج متبعاً في العصر الفاطمي ، ففي عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م جلس يعقوب بن كلس وعلسوج بن الحسن في دار الإمارة بجامع أحمد بن طولون للنداء على الشنياع وسائر وجوه الأعمثال وحضر الناس للقبالات^(٦) وقد قام الفاطميون بتوزيع جانب من الأراضي العامة بالانعام بها على المغاربة وغيرهم من الأتياخ ، إما على هيئة التمليك المطلق أو الانتفاع بإيرادها فقط^(٧) . وفضلاً عن ذلك كان الخلفاء يقطعون الأرض للأفراد سواء كقطع تمليك أو كقطع استغلال وهبة الانتفاع طيلة حياة المقطوم أو لفترة معينة مع حق الدولة في استرداد الإقطاع^(٨) . ففي شعبان ٣٩٨

(١) محمد محمود أحمد إدريس : الحياة الزراعية في مصر في العصر الفاطمي الأول (٣٥٨-٤٨٧هـ) رسالة ماجستير مخطوطة بإشراف د. حسن أحمد محمد. كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٦ - ص ٢٣.

(٢) د. محمد حمدي المطاوي : نهر النيل في المكتبة العربية - ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) محمد محمود إدريس : *الحياة الزراعية* - ص ٢٤.

(٥) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ ، والفضعين هو أن يضمن هؤلئك دفع الخراج على جهة معينة بمبلغ معروف يتفق مع أولي الأمر ويقوم بجمع الخراج كالالتزام في العصر العثماني وهو غير مستحب في الإسلام لأن حبس الأموال يقدر معلوم يقتضي الاقتدار عليه وبذلك يتملك الضامن ما زاد ويغفر ما نقص وهذا مناف وحكم الأمانة فيكون باطلًا - د. إبراهيم طرخان : نظام الإقطاع الإسلامي في العصور الوسطى إلى نهاية عصر الأيوبيين - رسالة مخطوطية مقدمة لنيل درجة الماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٤٩ - ص ١٧٤ .

(٦) د. المناوي : المرجع السابق - ص ١٨.

(٧) محمد محمود : المترجم السابق - ج ٢٦ .

^(٨) سيدة كاشف : المراجع السابق - ص ١٦٥ ، الإقطاع هو ما يقطعهوليّ الأمر لنفسه أو يسمح له فيه من أرض أو أي نوع من المال الثابت أو المتنقل وتسمى الأرض المقطعة والجمع قطائع أو إقطاع والجمع إقطاعات - د. إبراهيم طرخان : نظام الإقطاع - ص ١٧٩ - ١٧٠ .

هـ / ١٠٠٨م أقطع الحكم بأمر الله مالك بن سعيد برمانت والمحرقه وغيرها^(١).

كما كان الخلفاء يوقفون بعض هذه الأراضي أو يحبسونها للإنفاق على المسجد^(٢).

ومنذ الشدة العظمى تزايدت ثروات الجناد من الفرق المتنازعة بسبب الإنفاق عليهم ، وبال مقابل قلت القوة المادية للصلاحين ، فلجأوا إلى بيع ما يملكون لأجل تأمين لقمة العيش ، فانتقلت بعض الملكيات إلى غير المصريين ، فقد قام أحد العبيد البربر بشراء أراضٍ وعقارات في عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م بمدينة الأشمونين^(٣).

ولبيان هذه الشدة وما صاحبها من قحط ووباء ، إزدادت أراضي الدولة العامة بسبب ضم الملكيات الخاصة التي لم يوجد لها وارث شرعى^(٤).

كما أن بعض المقطعين انتهزوا فرصة الاضطراب أيام الشدة فزادوا من إقطاعاتهم ثم أخذوا يجيرون على ما في أيدي المقطعين ويتحملون أنهم أرغموهم على التماس الحماية مقابل رسم مقرر^(٥).

ويذكر المقرizi أنه في وزارة الأفضل أضاف أرباب الأراضي إلى أراضيهم من أملاك الدواوين أراضٍ أغتصبواها وموقع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها وحاوزوها ، ورغم ثبوت الإعتداء إلا أن الأفضل أقر بالوضع القائم مع إلزام المقطعين بأداء الخراج عن هذه الأرضي^(٦).

ويبدو أن بعض الأرضي أصحابها البوار منذ الشدة ، فقام المقطعون بإصلاحها ولأجل التشجيع على زيادة مساحة الأرضي المستصلحة أعمى الأفضل من يفعل ذلك من أداء الخراج لمدة أربع سنوات^(٧).

وقد أدت الشدة المستنصرية إلى زيادة عدد الإقطاعات في البلاد ، إذ كان من نتيجة تسلط العناصر العسكرية إبتداء من ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م أنهم أخذوا يقطعن الإقطاعات للأمراء والجناد مع إيقاعها تحت إشراف الديوان ، ويبدو أن هذه الإقطاعات كانت من الأرضي الحكومية ، ولعلها بدأت عن طريق الضمان^(٨).

ولا شك أن انتشار الإقطاعيات ، ليس في مصر فحسب بل في الدول الإسلامية ، كان انتشاراً

(١) أين فؤاد سيد : نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسيحي - ص ٢٥.

(٢) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ١٠٩.

(٣) محمد محمود أحمد : المرجع السابق - ص ٢٦ - ٢٧.

(٤) د. عطية مشرق : نظام حكم الفاطميين - ص ١٨٨ ، إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في العصر الفاطمي الثاني - ص ٣١.

(٥) د. راشد البراوي : المرجع السابق - ص ٦٠.

(٦) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٨٥ ، محمد محمود : الحياة الزراعية - ص ٢٨.

(٧) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٨٥.

(٨) د. عبد العزيز النوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٩ - ص ١٠٣.

مطرباً مع ضعف شخصية ولئن الأمر^(١) ، فمنذ ضعفت شخصية الخليفة ، أصبح من حق وزراء السيف منح الإقطاعات^(٢) .

وانتهت إقطاعاتهم منذ عهد بدر الجمالي بالإتساع بعد أن أصبح الأمر بأيديهم ، ويغلب أن تكون إقطاعات هؤلاء الوزراء إقطاعات تملّك لهم الحق في توريثها لذراريهم^(٣) .

وقد قام بدر الجمالي بتحجيم بعض النواحي في الرين الشرقي والغربي للتليل على عقبة هي وبساتين بظاهر باب الفتوح ، وعرفت جملة هذه الأراضي بالجيش الجيوش ، ولم يتم فك هذه الأحباس إلا بعد أن إنقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة فأفتقى فقهاء ذلك العصر بيطلان ذلك^(٤) وكانت قيمة متاحصل الجيش سنوياً نحو ٣٠،٠٠٠ دينار^(٥) .

ولم يكفي الوزراء العظام بمنح الإقطاعات لأنفسهم ، بل تصرفوا في منحها للإشتثار من الأنصار حتى يتمكنا من الوصول إلى مطامعهم الشخصية في السلطة والرئاسة ، ووصل الأمر إلى حد أن شاور أثناء صراعه مع ضرغام عرض على نور الدين محمود بن زنكى ، أن يقطعه ثلث خراج مصر ، ويعنى ذلك أن الخليفة لم يصبح له أي قدرة على التصرف في الإقطاعات^(٦) .

إلا أن لهم تطور حدث في نظام الملكية الزراعية فيما يتعلّق بالأراضي المقطعة ، ونوعية المقطعين ، كان على عهد الأفضل بن بدر الجمالي عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ - ١١٠٨ م ، ويتضح مما أورده المقرizi أنه كان يقصد بالمقاطعين الضمان الذين كانوا يتزايدون على الأرضي ويضمون دفع خراجها ، ويحسن أن نورد أولاً ما ذكره المقرizi في هذا الصدد ، عندما رأى المأمون البطائحي «احتلال أحوال الرجال العسكرية ، والمقاطعين وتضررهم من كون إقطاعاتهم قد خس ارتفاعها وساعت أحوالهم لقلة المتاحصل منها ، وأن إقطاعات الأمراء قد تصاعدت ارتفاعها وازدادت عن غيرها ، وأن في كل ناحية من الفوائل للديوان جملة تجيء بالعسف ويتعدد الرسل من الديوان الشريف يسيّها . فخاطب الأفضل بن أمير الجيوش في أن يحل الإقطاعات جميعها ويروكها ، أي يعيد توزيعها ، وعرّفه أن المصلحة في ذلك تعود على المقاطعين والديوان ، لأن الديوان يتضمن^{كله} من هذه الفوائل جملة يحصل بها بلاد مقورة . فأجاب إلى ذلك وحل جميع الإقطاعات وراكها ، وأخذ كل من الأقوباء والمماليق يتضررون ويدركون أن لهم بساتين وأملاكاً ومعاصر في نواحיהם ، فقال لهم من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل في الإقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء

(١) د. إبراهيم طرخان : نظام الإقطاع الإسلامي - ص ٦٦.

(٢) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ٣٣.

(٣) د. محمد حمدي المتاوي : الوزارة والوزراء - ص ٨٤.

(٤) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ١١٠.

(٥) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ١١٥.

(٦) د. إبراهيم علي طرخان : نظام الإقطاع - ص ٦٩.

أجره . فلما حللت الإقطاعات أمر الضعفاء من الأجانب أن يتزايدوا فيها ، فوقعت الزيادة في إقطاعات الأقوية إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم ، وكتب السجلات بأنها باقية في أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد وأحضر الأقوية وقال لهم : ما تكرهون من الإقطاعات التي كانت بيد الأجانب قالوا : كثرة خيرها وقلة متحصلها وخرابها وقلة الساكن بها ، فقال لهم إنذروا في كل ناحية ما تحمله ، وتقوى رغبتكم فيه ، ولا تنتظروا في العبرة الأولى ، فعند ذلك طابت نفوسهم وتزايدوا فيها إلى أن بلغت الحد الذي رغب كل منهم فيه ، فأقطعوا به وكتب لهم السجلات على الحكم المتقى ، فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم وحصل للديوان بلاد مقورة ، بما كان مفرقاً في الإقطاعات بما بلغه خمسون ألف دينار^(١) . كما تمت زيادة مدة الإقطاع من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة^(٢) .

ويمكن أن نستخلص من هذا النص ما يلي :

- ١ - إن بعض المقطعين وأصحاب الضمان ، كانوا يدفعون أقل من الوارد المتظر (الخراج الذي تزايدوا عليه) حتى اضطررت الدولة لشطب مبالغ كبيرة مما يسمى بالباقي^(٣) . وذلك منذ بوار الأرض واضطراب الحياة الزراعية إبان الشدة المستنصرية .
- ٢ - إن عدد المقطعين العسكريين بدأ يتزايد بسبب الحوادث التي صاحبت الشدة العظمى ، والتي أدت إلى تناقص أعداد الفلاحين حتى إن الجندي كان يخرج بنفسه هو وجماعته يحرثون ويزرعون في البلاد^(٤) . كما أن الشدة العظمى نشرت الفقر بين صفوف الكثريين من صغار المالك ، فأصبح من العسير على أفراد الشعب الاشتراك في المزایدات التي كانت تعقد بشأن هذه الإقطاعات وصار القادرون على هذا العمل من الأجانب والموظفين والأمراء من ذوي الرواتب الثابتة^(٥) . ولا شك أن الأجانب هم الذين ورثوا الأراضي التي كانت بأيدي الضمان من المالك وال فلاحين الذين فقدوا ثرواتهم أيام الشدة ، فانسحبوا من العملية المالية^(٦) . ولم يبق في الميدان سوى كبار الضمان من الأمراء .
- ٣ - إن البعض من كبار الضمان تصرف بالأرض وكانتها أصبحت ملكاً له فغرس البساتين وأنشأ الأبنية والمعاصر ، كما تجاوز على أملاك الديوان وأضافها إلى حوزته^(٧) .

(١) المقرizi : البخطاط - ج ٢ ص ٨٣ ، والمقصود بالبلاد المقورة ، إقطاعات جليلة يمكن منها لمقطعين جدد.

(٢) د. محمد حمدي المناوي : نهر النيل - ص ١٨٠ .

(٣) د. عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي - ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٤) ابن لیاس : بداع الزهور - ج ١ ص ٦١ .

(٥) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٦١ .

(٦) د. راشد البراوي : المرجع السابق - ص ٣٢١ .

(٧) د. عبد العزيز الدوري : المرجع السابق - ص ١٠٣ .

٤ - إن المقطعين العسكريين تزايد عددهم وتقلهم في الحياة الزراعية ، فطالبو بتغيير إقطاعاتهم المنخفضة الريع بآخر أعلى ريعاً فكان لهم ما أرادوا^(١) .

٥ - إن نظام الضمان تحول إلى ما يشبه الملكية حيث زادت مدة الضمان من أربع سنوات إلى ثلاثة سنة . ولا شك أن زيادة عدد الضمان من العسكريين ، وانتشار إقطاعاتهم بعد الوجه الاقتصادي لسيطرة العسكريين السياسية على أمور الخلافة منذ عهد بدر الجمالي أمير الجيوش .

وتبدو أهمية إقطاعات العسكريين مما ذكره القلقشندي عن ديوان الإقطاع في العصر الفاطمي من أنه كان مختصاً عندهم بما هو مقطع للأجناد وليس للمباشرين فيه تنزيل حلية جندي ولا شيء دابته ، وكان يقال لإقطاعات العربان في أطراف البلاد وغيرها الاعتداد ، وهي دون عبرة الأجناد^(٢) .

على أنه مع كثرة إقطاعات الأجناد والأمراء ، لم تعمم الدولة الفاطمية الإقطاع الحربي في بلادها ، حيث كانت الإقطاعات قبلات للأرض وليس إقطاعاً بالمعنى المعروف بعد ذلك فيما تلي الدولة الفاطمية من دول^(٣) . وقد شهدت الفترة الأخيرة من العصر الفاطمي تنامياً لدور المقطعين ، ففي أثناء التجهيز لمحاربة الفرنج في عسقلان على عهد المحافظ للدين الله ، قام صاحب الخريطة بإرسال النفقة إلى من كان مسافراً في إقطاعه من طوائف الجندي المجردين^(٤) . كما أن الأجناد من مقاطعي البلاد أيدوا طلائع بن رزيك في تحركه للاستيلاء على الوزارة عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م^(٥) .

وهذه التطورات التي طرأت على نظام القبالات «أي الالتزام بأداء خراجها» والإقطاع ، هي التي مهدت لدخول الإقطاع العسكري زمن الأيوبيين وإن كان من الواضح أن الإدارة المالية كانت لا تزال ب之下راff الدواوين^(٦) .

٢ - تأثير المجتمعات على التركيب الديموغرافي للسكان :

كانت المجتمعات تؤدي في غالب الأحوال إلى انتشار الأوثقة الفتاكية بين السكان ، ويرجع سبب انتشارها عادة إلى انعدام الوعي وخاصة بين سكان الريف المصري بسبب الجهل وانتشار الشعوذة^(٧) . فضلاً عن تخلف وسائل الطب الوقائي وازدحام المساكن غير الصحيحة بالسكان في الحضر^(٨) .

(١) د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ١١٤ .

(٢) القلقشندي - صبح الأعشى - ج ٣ ص ٤٩٣ .

(٣) د. إبراهيم علي طرخان : نظام الإقطاع - ص ٧٧-٧٩ ، وإن كان د. عبد المعتمد ماجد يذكر أن الإقطاعات كانت للأحتاد لقاء قيامهم بالواجبات العسكرية - نظم الفاطميين - ج ١ ص ١٩٢-١٩٣ .

(٤) المقريري : انتظام الحفاظ - ج ٣ ص ١٩٠ .

(٥) المصدر نفسه - ج ٣ ص ٢١٦ .

(٦) د. عبد العزيز الدوري : المرجع السابق - ص ١٠٤ .

(٧) نيلة محمد : الخدمات الطبية - ص ١٢٨ .

(٨) انظر الفصل الأول .

ويعد الطاعون أخطر هذه الأوبئة ، فهو مرض سريع الانتشار ويرجع سببه في معظم الحالات إلى قصور النيل وما يتربّط عليه من توقف الزراعة وتغدر توافر الأقوات وبالتالي ارتفاع الأسعار ، ويرتبط ظهور الطاعون بظهور عدد كبير من الجراد ، وتم حديثاً اكتشاف هذا الوباء في الجرдан ، وكان انتقال العدوى للإنسان يتم بواسطة البراغيث التي تترك الفئران المصابة التي على وشك الهلالك فتسقبل للإنسان ^(١) . فضلاً عن أن الفيسبانات العالية للنيل والتي تؤدي إلى إغراق الأرض كان يعقب انحسار ماء هذه الفيسبانات انتشار الوباء بالبلاد ^(٢) .

ويصفه عامة أدى انتشار الأوبئة إلى التأثير بشكل واضح على التركيب الديموغرافي بسبب موت الكثيرين وكان الريف أكثر المناطق تأثراً بهذه الأوبئة.

ففي عام ٣٦٠ هـ اشتد الوباء وتفشت الأمراض وكثير الموت حتى عجز الناس عن تكفين الأموات ودفونهم فكان من مات يطرح في النيل^(٣) . فقد تزايدت الأمراض وكثير الموت مع مجاعة ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م / ١٠٠٨ م^(٤) ، مع ندرة الأدوية وارتفاع الأسعار ، بلغ رطل السكر أربعة دراهم ، وبذر الرمان كل أوقية بدرهم ، ودهن البنفسج كل أوقية بدينار ، والبطيخة بثلاثة دنانير^(٥) . وفي سنة ٤١٠ هـ مات كثير من الناس بالجوع وبلغ عدد من مات في مدة رمضان وشوال وذى القعدة مائتي وسبعين ألفاً سوی الغرباء وهم أكثر من ذلك^(٦) .

وإبان المجاعة التي حدثت عام ٤١٤ هـ - ١٥٤٠ هـ انتشرت الأوبئة وكثير الموت ولا سيما بين الفقراء والمساكين^(٧). وأحصي من مات ممن عرف وكفن ودفن من آخر شهر رمضان إلى بعض ذي القعدة عام ٤١٤ هـ فكانتوا ١٧٠ ألف إنسان، وأماماً الغريب ومن لم يعرف ومن يلقى في النيل ولا يجد من يقتره فأكثر من هذه العدة أضعاف لا تحصى^(٨).

ومن المرجح أن هذه الأوبئة كانت استمراً للأمراض التي كانت متشرة منذ مجاعة

(١) نيلة محمد : الخدمات الطبية - ج ٤ - ١٣٤.

(٢) محمد الفزالي : تحفة الخليل في أخبار مصر والليل - مخطوط مصور على ميكروفيلم بمتحف إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة - رقم ٦١١ تاريخ عن نسخة بمعكبة جامع الشيخ إبراهيم باشا - الإسكندرية (١٤٠٢) ورقة - بدون تاريخ ، ويعود إلى بداية ١١١هـ . ورقة ٢٣ ، أسطر ٧ و٨ .

(٣) المقرنزي : [غابة - ص ١٣]

(٤) المقرنزي : الخطط - ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٥) نيلة محمد : الخدمات الطبية - ص ١٢٨ .

(٢) المعماري : الخطط - ج ٢ ص ١١٥ .

(٦) المسئل : أخبار مصر - ج. ٤ ص. ٢٢.

(٨) المقرئي : انتظر الحفا - ج ٢ ص ١٧٢ . ويبدو أن ابن النباش الذي كان له مسجد معروف بالقرافة قد حضر هذا الربا الذي
 كفنه في ألف طريح وستمائة ، إذ أن ابن النباش كان يحضر حلقات الفقيه ابن التعمان .
 وكان علي بن التعمان ومحمد بن العمان يقدمان حلقات الفقه في عهد العزيز باهه ، كما كان الحسين بن التعمان داعياً في
 عهد الحاكم يأمر الله ، د. ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية - ص ٣٤٨ .

٣٩٩ - ٣٩٩ هـ^(١) ، وقد خفت وطأة هذه الأوبئة لبعض الوقت وعادت للانتشار مرة أخرى في البلاد عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م^(٢) .

وصاحب مجاعة ٤٤٧ - ٤٤٨ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٥٦ م انتشار الوباء في مصر^(٣) . ويبلغ الوباء أشدّه عام ٤٤٨ هـ حتى إنه كان يموت في اليوم ألف نفس^(٤) ، وعمَ ذلك الوباء سائر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والمحجاز واليمن والعراق^(٥) . ثم عاد الطاعون ليستشرى بين سكان البلاد وخاصة القرى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م فمات في عشرة أشهر كل يوم ألف إنسان^(٦) .

أما الشدة المستنصرية فقد ضجّ بها وباء عظيم لم يعهد مثله حتى أفنى معظم السكان^(٧) . ويقال : إن هذا الوباء أودى بحياة ثلثي أهل مصر ، ولم تزرع الأرض لعدم الرجال ، حتى إن الرجل كان يمشي من جامع ابن طولون إلى باب زويلة ، لا يرى في وجهه إنساناً يمشي في الأسواق^(٨) . ويبدو أن هذا الوباء بدأ منذ عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م^(٩) . واشتتد حده في العام التالي ، «فكان يموت الواحد من أهل البيت في القاهرة أو الفسطاط فلا يمضي ذلك اليوم حتى يموت سائر من في ذلك البيت»^(١٠) . وبلغت الوفيات حداً عجز الناس معه عن مواردة الأموات فكفّوهم في الأنذاх ثم اضطروا إلى حفر حفائر كبيرة يلقون فيها الأموات بعضهم على بعض حتى تمتليء الحفيرة بالرجم من الرجال والنساء والصغار والكبار ثم يهال عليها التراب^(١١) .

ورادت ضراوة الوباء عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م في القاهرة والفسطاط حتى إن أهل البيت كانوا يموتون في يوم واحد ولا يوجد من يستولي عليه^(١٢) . وقد اضطرب الناس في العام التالي إلى إلقاء

(١) نيلة محمد : المراجع السابق - ص ١٢٨.

(٢) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٣٥٥.

(٣) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٧ ، الحبلي : شذرات الذهب - ج ٣ ص ٣٧.

(٤) ويبلغ من هذا الوباء أوجهه في شهرى رجب وشعبان حتى إن الخليفة كفّن من ماله ١٨ ألف إنسان وحمل أربعين وخمسة في تابوت واحد . ابن الجوزي : المتظم - ج ٨ ص ١٧١ - ١٧٢.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج ٨ ص ٧٩ . وذكر أبو المحاسن أنه كان يموت في مصر كل يوم عشرة آلاف إنسان : النجوم الزاهرة - ج ٥ ص ٥٩ ، وقد استمر هذا الوباء في عام ٤٤٩ هـ في بخارى والأهواز بواسطه بسب قلة القوت ونبش الموتى وأكلهم . انظر : المقريزي : انتهاز الحقائق - ج ٢ ص ٢٢٥ ، والحبلي : شذرات الذهب - ج ٢٧ ص ٢٧٩.

(٦) أبو المحاسن : النجوم - ج ٥ ص ٧٤.

(٧) مجھول : إنسان العيون في مشاهير سادس القرن - ص ٤١٩.

(٨) ابن إيلان : بذائع الزعور - ج ١ ص ٦١ . ويبدو أن عدد الوفيات كان كبيراً حتى إن ابن تيري يرمي بذلك أنه مات أكثر أهل مصر - النجوم - ج ٥ ص ١٥.

(٩) المقريزي : انتهاز الحقائق - ج ٢ ص ٢٩٧.

(١٠) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٢٠.

(١١) المقريزي : انتهاز الحقائق - ج ٢ ص ٣٠٣.

(١٢) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

موتاهم في النيل بغير أكفان^(١) ، وأدى الحصار الغذائي الذي فرضه ابن حمدان على مصر والقاهرة عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م إلى استمرار تفشي الوباء^(٢) .

وإذا كان الوباء قد أدى إلى وفاة الكثير من السكان، حتى إن البلاد كانت بحاجة إلى فترة من الوقت حتى تعود لسيرتها الأولى^(٣) ، فإن الحروب والفتنة التي كانت عادة ما تصاحب المجاعات أدت إلى تناقص أعداد السكان أيضاً^(٤) ، هذا فضلاً عن وباء الجدري الذي جاء في أعقاب الشدة العظمى^(٥) .

ورافق الوباء مجاعة عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م التي وقعت في عهد المستعلي بالله فمات من أهل مصر خلق كثير^(٦) . وفي عام ٥٠٥ هـ / ١١١١ م حدث وباء هلك به خلق كثير يقدر عددهم بنحو ستين ألف نفس^(٧) .

وتكرر بطش الوباء أثناء مجاعة عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م ، ويبلغ أشدّه في العام التالي حتى صعب إحصائه من توفي^(٨) ، ويبدو أن الوباء بلغ أشدّه في مدينة الإسكندرية^(٩) .

لم تكن الأوكية التي تصاحب المجاعات هي السبب الوحيد وراء تناقص أعداد السكان ، إذ ساعدت هجرة الناس إلى خارج البلاد على خلخلة الكثافة السكانية خاصة في الأراضي الزراعية التي كان سكانها يفرّون منها هرباً من الوباء حتى إن النيل ظلّ يطلع وينزل أثناء الشدة ولا يوجد من يزرع^(١٠) .

وخلال الشدة العظمى نجا أهل القوة من المصريين بأنفسهم وساروا إلى العراق والشام^(١١) ، ولم يكن رحيل هؤلاء من مصر هرباً فقط من الجوع والوباء ، بل للتجارة أيضاً فيما حازوه من ثياب المستنصر وذخائره وألاته^(١٢) . ومن مفارقات القدر أن التجار فروا إلى بغداد ومعهم بعض ما نهب

(١) المقريزي : انتاظ الحنفـ ج ٢ ص ٣٠٧.

(٢) ابن الأثير : الكاملـ ج ٨ ص ١١٧.

(٣) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٧.

(٤) المقريزي : الخطـ ج ١ ص ٣٣٦.

(٥) ثيبة محمد : الخدمات الطبية - ص ١٣٠.

(٦) المقريزي : انتاظ الحنفـ ج ٣ ص ٢٥ ، كان الوباء متفشياً أيضاً في العراق حيث اختفت الأدوية وصار يحمل في التعش الواحد ستة موقيـ ابن الجوزي : المتنظمـ ج ٩ ص ١١٢.

(٧) ابن القلانيـ ذيل تاريخ دمشق - ص ١٨١.

(٨) ابن ميسـ أخبار مصرـ ج ٢ ص ٨٥.

(٩) ابن القلانيـ ذيل تاريخ دمشق - ص ٢٧٦.

(١٠) المقريزي : الخطـ ج ١ ص ٣٣٧.

(١١) ابن ميسـ أخبارـ ج ٢ ص ٢٠ ، أبو المحاسن : النجومـ ج ٥ ص ١٥ . ويبدو أن حركة الهجرة إلى الخارج هذه كانت ظاهرة ملحوظة عام ٤٦٢ هـ ، كما يستفاد مما ذكره ابن الجوزيـ المتنظمـ ج ٨ ص ٢٥٧ ، وابن خلkanـ وفياتـ ج ٤ ص ٣١٨.

(١٢) المقريزي : انتاظ الحنفـ ج ٢ ص ٣٠٣.

من دار الخلافة في بغداد أيام ثورة البساسيري ونقل لخزائن المستنصر ، فأخذ أحد الشعراء يمدح القائم بأمر الله العباسي قائلاً :

فقيد علم المصري أن جنوده
سنويوسف منها وطاعون عحواس
وأوجس منه خيفة أي إيجاس^(١)
.. أقامت به حتى استراب نفسه
وإن كان التجار بدأوا يعودون إلى مصر مع استقرار الأمور في وزارة أمير الجيوش .

٣ - تأثير المجتمعات على مظاهر الحياة الاجتماعية :

شهدت المجتمعات انتفاضات للسكان في شكل مظاهرات خرجت تجوب الشوارع مطالبة الخلفاء بتوفير الأقواء للشعب والنظر في مصالح الرعية ، مثلما حدث في خلافة الحاكم بأمر الله ، والظاهر لإعزاز دين الله^(٢) ، والمظاهرة التي قادتها امرأة أثناء الشدة المستنصرية^(٣) .

إلا أن الشعب لم يتم بثورة للتخلص من هذه الأوضاع المتردية ويرجع سبب ذلك إلى قوة نظام يقرب من الاسترافق ، والرعب الذي أثاره في نفوس سكان المناطق الزراعية هو الانشداد وطوابق الجندي والضعف الشديد المترتب على التكبات التي أصابت السكان حتى أصبحت شيئاً شبه عادي ومألوف لهم^(٤) . ولا شك أن الأوثقة والمجتمعات كانت تشغله الناس عن الاهتمام بالاحتفالات الموسمية والمواكب فضلاً عن أن الاحتفالات الخاصة بوفاة النيل لم تكن تعمل أثناء المجتمعات .

وعندما غرفت البلاد في عهد الظاهر لإعزاز دين الله في لجي الماجاعة المروعة امتنع التجار والباعة عن أن ينفقوا على احتفال الذهاب إلى سجن يوسف حيث إن عدم الأقواء كان يمنعهم عن هذا^(٥) .

واضطر الظاهر إلى إجبار التجار على الدفع ، وأطلق للعامة ضعف ما أطلق في العام السابق (٤١٤هـ) من الهبة فخرج العامة إلى السجن كعادتهم^(٦) . ليلة الميلاد يوم الخميس ٢٠ شوال انشغل الناس عمّا كانوا يتذمرون فيه من الفواكه والحلوى بما كانوا عليه من الأمراض وتواتر الموت واللوباء^(٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل - ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) المقريزي : الخطاط - ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) انظر الفصل الأول .

(٤) انظر مقال د. عبد المنعم ماجد : امرأة مصرية تتزعم مظاهرة في عهد الخليفة المستنصر بالله - في المجلة المصرية للدراسات التاريخية - سبق الإشارة إليه .

(٥) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٩٦ .

(٦) المقريزي : اتعاظ الحقا - ج ٢ ص ١٤٤ . يقع سجن يوسف عليه السلام بوصير من أعمال الجيزة .

(٧) المقريزي : اتعاظ الحقا - ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، الخطاط - ج ١ ص ٢٠٧ .

(٨) المسيحي : الخطاط - ج ٤ ص ٦٩ .

٤ - تأثير المجاعات على العمران :

يرجع المقرizi سبب إنشاء المعز لمدينة القاهرة إلى احتلال حال مصر بسبب الأوبئة والمجاعات^(١). وقد أدت الشدة المستنصرية إلى التأثير على حركة العمران في مصر والقاهرة ، فبدأ خراب الفسطاط منذ تعرضها للحصار من قبل ابن حمدان ومات عدد كبير من أهلها بالوباء^(٢) . وخلا موضع العسكر والقطائع وظاهر مصر مما يلي القرافة حيث الكيمان إلى بركة الجيش^(٣) . وأسفرت الشدة عن خراب خط جامع ابن طولون^(٤) ، وهلك من كان في القطائع من السكان ، واندثر ما يبقى من منازلها بعد تدمير محمد بن سليمان العباسي لها ، وكان أكثر من ألف دار^(٥) .

وعندهما قدم بدر الجمالي نقلت أنقاض ظاهر مصر مما يلي القاهرة حيث كان العسكر والقطائع ، وصار فضاء وكيماناً فيما بين مصر والقرافة ، وتراجع أمر الفسطاط حتى أحرقت في وزارة شاورن بن مجير^(٦) ، وإذا كانت الفسطاط قد انحدر أمرها فإن الشدة قد غيرت أيضاً من معالم القاهرة^(٧) ، ولذا فإنه عندما دخل أمير الجيوش القاهرة « وهي بباب دائرة خاوية على عروشها غير عاهرة ، أباح للناس من العسكرية والمحلية والأرمي ، وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله » ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل في القاهرة ، وسكنوها ، وبذلك لم تعد القاهرة قاصرة على حرس الخليفة وحواشيه ، وأتيح سكن العامة والجمهور فيها^(٨) . وكان من ضمن ما تم استخدامه حارة الحسينية خارج باب الفتوح حتى أختطفت على يمين من خرج من باب الفتوح إلى صحراء الهليلج^(٩) . كما إناثر قصر اللؤلؤة الذي بناه الظاهر عند باب القنطرة وهو من القصور المعدودة بالقاهرة « ودام أمر هذا القصر مستقيماً إلى أن وقع الغلاء أيام المستنصر فذهب من محسن القاهرة شيء كثير»^(١٠) .

كما أثرت هذه المجاعات أيضاً على عمران القرى ، وبعد أن كان عدد القرى في العصر

(١) المقرizi : الخطط - ج ١ من ٣٥٩.

(٢) جاستون فيت : القاهرة مدينة الفن والتجارة - بيروت ١٩٦٨ - ص ٦٢ ، د. جمال محرز، أن الشدة المستنصرية كانت سبباً رئيساً لخراب الفسطاط كما تكشف عنها خاتمة الفسطاط . حيث ضمن أبحاث التنمية الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٧٠ - ج ١ من ٣٢٤.

(٣) المقرizi : الخطط - ج ١ من ٣٣٧.

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة - ص ١٧٧.

(٥) أبو المعasan : النجوم الراهرة - ج ٣ من ١٤٠.

(٦) المقرizi : الخطط - ج ١ من ٣٣٥ - ٣٣٧ ، علي بهجت ، البير جبريل : حفريات الفسطاط - مطبعة دار الكتب - القاهرة - ١٩٢٠ - ص ١٤ .

(٧) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية - ص ٤٤ .

(٨) المقرizi : الخطط - ج ١ من ٣٣٤ ، جاستون فيت : القاهرة مدينة الفن والتجارة - ص ٩٢ - ٩٣ .

(٩) المقرizi : المصدر السابق - ج ٢ من ١٣٦ .

(١٠) أبو المعasan : النجوم - ج ٤ من ٢٥٤ - ٢٥٥ .

وإن كان المقرizi يذكر أن قصر اللؤلؤة بناه العزيز بالله . انظر : انتظام - ج ٣ ص ٨١ هامش (١) .

الأخشيدى نحو ٢٣٩٥ قرية نقص هذا العدد في أواخر الدولة الفاطمية ليبلغ ٢٠٦٢ قرية فقط^(١).

٥ - تأثير المجتمعات على التركيب الاجتماعي :

لما كان المجتمع المصرى بالأصل مجتمعاً زراعياً تتمحور أنشطة سكانه حول الزراعة فإن التغيرات التي طرأت على الملكية الزراعية ونظام القبالت أثرت يقيناً على تركيب القوى الاجتماعية في مصر منذ الشدة المستنصرية . فإذا كان المجتمع المصرى في العصر الفاطمى ينقسم إلى فئة محدودة تملك كل شيء وتتمتع بكل شيء ، وأغلبية عظمى لا تملك أي شيء^(٢) ، فإن هذه التغيرات قد أدت إلى زيادة حدة هذا التقسيم .

ولا شك أن أهم معالم هذه التغيرات الاجتماعية ظهور العسكريين كقوة اجتماعية لها دورها وأهميتها في المجتمع المصرى ، خاصة منذ إتجاههم للتعامل المباشر مع الحياة الزراعية سواء كمتقبلين أو كملاك . فقد رأينا أن المجتمعات نشرت الفقر بين سكان الريف وأزهقت الأروية الكبير من أرواح الفلاحين ، وأصبح الأمراء والأجناد هم فقط القادرون على المزايدة على الإقطاعات ، وبذل أصبح المقطعون العسكريون هم أصحاب اليد العليا في البلاد سياسياً واقتصادياً ، فمنهم الوزراء وقادة الجيوش وأصحاب الإقطاعات الزراعية . ولم يؤد هذا التطور فقط إلى القضاء على كبار المالك الزراعين الذين كانوا يترايدون على قبالت الأرض ، بل أيضاً قضى على شراء الطبقات التقليدية كالأمراء والأشراف الذين فقدوا ثرواتهم أثناء المجتمعات بسبب النهب وارتفاع الأسعار ، حتى إن الأشراف المتعلمين كانوا يحاولون أثناء الشدة الحصول على كسرة من الخيز في مقابل العمل في أحد الحمامات^(٣) . وساعد على إندثار طبقة الأشراف والأمراء سيطرة الوزراء الذين تعمدوا تقليص سلطات البيت الخليفي وثرواته ، واستعملوا بالمقابل بالأجناد وكبار موظفي الدواوين في محاولتهم كسب قدر من الأنصار بالهبات والأعطيات والرشاوة .

والى جانب العسكريين وكبار الموظفين ظهر التجار كقوة اجتماعية ومادية مؤثرة . فهم من ناحية ، نجحوا في أن يحققوا أرباحاً خيالية من التجارة ، وساعدهم على ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، ف berhasilوا بذلك معظم النقد المتداول في الأسواق خاصة الذهب والفضة ، وليس من المستبعد أنهم وجهوا بعض هذا الفائض إلى شراء الأمتعة والذخائر والعقارات والمجوهرات التي انخفض ثمنها وقد انعكس هذا التراكم النقدي ، على قدرة هؤلاء التجار على الإسهام بنشاط في مجال اقتصادي بعيد عن اضطراب الحياة الزراعية ، وهو تجارة الشرق ، وتوضح وثائق الجنائز Geniza أن التجار تمعوا بثروات طائلة من مشاركتهم في تجارة الشرق^(٤) .

(١) د. عطية مشرفة : نظم الحكم - ص ١٨ ، د. عبد المعجم ماجد : امرأة مصرية - ص ٣٦.

(٢) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ١١٦.

(٣) ستانلي لين بول : سيرة القاهرة - ص ١٤٢ .

(٤) د. عطية الفوصي : تجارة مصر - ص ١٢٥ .

وأفاد صيادلة العصور الوسطى (العطارون) من انتشار الأوثة في أوقات المجاعات التي شهدت رواجاً في بيع الدواء وتركيبيات الصيدلانية ، فعظم شأن العطارين ونمث ثروتهم بسبب ذلك^(١) حتى إن أحد العطارين باع في عام ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م في يوم واحد ألف قارورة شراب^(٢) .

ويمكن القول بأن السبب الرئيسي وراء تراكم ثروات التجار يعود بالدرجة الأولى إلى فوارق الأسعار قبل المجاعات وبعدها ، فقد حاز هؤلاء التجار معظم النقد الذهبي والفضي والأمتعة والمجواهر التي تعد مخزناً للقيمة ، وأعادوا استمارها بعد المجاعات حين عادت الأوضاع إلى طبيعتها بعدها ، فاستردت العملة قيمتها المنهارة ، وارتقت ثانيةً أسعار الأمتعة والمجواهرات^(٣) .

وقد أدى الشراء العريض الذي أصابه العسكريون والتجار وكبار موظفي الدوافين إلى انتشار مظاهر الترف في المجتمع ، وليس فقط في القاهرة ، ففي الإسكندرية ازدحمت المدينة في العصر الفاطمي الثاني بقصور كثيرة رائعة للقضاة والأسر الكبيرة بالمدينة ، وقد أسهبت مصادر كثيرة في وصف عظمتها ونظمت فيها أبيات الشعر^(٤) .

وعلى الجانب الآخر ، فإن الأحداث التي صاحبت المجاعات أدت إلى مزيد من الارتفاع في مستوى حياة فقراء المدن والفلاحين ، الذين أصبحوا أجراء لدى المقطعين من الأمراء والأجناد ، فقد كان مستوى العمال الزراعيين غاية في الأضيق حال خاصة إذا ما قورن بالأغنياء وكبار الملوك^(٥) .

ورغم أن الدولة كانت تسامح في بقایا ضرائب الأرض في بعض الأحيان ، وكانت تراجع من وقت لآخر ، تقديرات الضرائب على الأرض ولم تترك تقديرها للمقطعين والمقبلين^(٦) ، فإنها من ناحية أخرى وسعت نطاق الضرائب (المكوس) على أنشطة الحياة المختلفة ، حتى إن هذه المكوس شملت كل شيء عدا الهواء^(٧) ، الذي ترك حرّاً طليقاً ، وأدت زيادة المكوس إلى إثقال كاهل الشعب سواء في المدينة أو الريف .

(١) نيلة محمد : الخدمات الطبية - ص ١٤١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة - ج ٥٩ - ابن الجوزي : المنتظم - ج ٨ من ١٧١ .

(٣) تطورت البرجوازية الإسلامية بشكل عام بطيء خلال القرن الأول الهجري وخرجت إلى ضوء التاريخ في القرن ٢ هـ ؛ وأصبحت عملاً اقتصادياً واجتماعياً مؤثراً منذ القرن ٤ هـ ، ويبلغ هذا التطور مداه في القرن الرابع والخامس أيام العصر الفاطمي . Goiten (A , D) Studies in Islamic History and Institution . Brill , Leiden 1968 , P. 218.

(٤) د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية - ص ٥٢-٥٣ .

(٥) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ١١٥-١١٦ .

(٦) المرجع نفسه - ص ١٠٥ .

(٧) انظر : الفصل الأول ، وقد أثبتت هذه المكوس على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي بعد قصائه على الدولة الفاطمية - أبو شامة : الروضتين - ج ١ ص ١٧٤ .

الفصل الثالث

النتائج المالية والنقدية للمجتمعات

كانت النتائج الاقتصادية للمجتمعات بعيدة الأثر في المجتمع المصري الذي يحيط به سياج من المركزية الشديدة .

وقد أثرت المجتمعات ، بشكل أو بآخر على محمل الحالة المالية للخلافة الفاطمية إذ أن الخزانة العامة كانت تعتمد في تمويلها على المصادر الضريبية سواء كانت مالية أو عينية ، تأتي بشكل أساسي من ضرائب الأرض الزراعية ، إضافة إلى ضرائب الأنشطة التجارية والصناعية والخدمة .

أما الإدارة المالية للبلاد في العصر الفاطمي ، فقد بدأ تنظيمها بعد فتح جوهر مصر وقضائه على المظاهر السلبية للمجاعة التي صاحبت الفتح^(١) . ويمضي التنظيم المالي الجديد بخصوص كل إيراد لوجه معين من الإنفاق ، كأن يخصص خراج الأرض لسداد رواتب الجندي وموظفي الدواوين ، ولم يستعمل بيت المال أو خزائن الخاص إلا في تخزين الفائض والاحتياطي من الأموال^(٢) .

ويلاحظ على النظام المالي الفاطمي تضارب الاختصاصات بين الدواوين^(٣) وإن كان من الثابت أن مهمة ديوان النظر وديوان التحقيق كانت المقابلة بين الدخل والصرف^(٤) ، أو ما يعرف

(١) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ١٠٣ .

(٢) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ من ١٢٣ - ١٢٤ . وكان بيت المال في مصر منذ الفتح الإسلامي بالجامع العتيق وينسب بناؤه إلى قرة بن شريك والي مصر وإلى أسماء ابن زيد التخري . انظر : المقريزي : إغاثة الأمة - ص ١٤ هامش (٢) . وقد نقل بيت المال في العصر الفاطمي إلى القصر . ابن سير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨ . أما خزانة الخاص فهو تغير يستعمل للدلالة على وظائف القصر المالية في بعض الأحيان . انظر : د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ١٢٢ .

(٣) د. عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر - ص ٢٣٠ .

(٤) د. ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ١٢٤ . وينقل المقريزي من ابن الطويرأن ديوان المجلس هو أصل الدواوين وفيه علم الدولة بأجمعها - الخطط - ج ١ ص ٣٩٧ .

الآن بالموازنة العامة . ولمقتضيات البحث فإن الدراسة ستقتصر على تبع تأثير المجاعات على إيرادات الدولة ومصروفاتها بغض النظر عن تفاصيل التنظيم المالي للخلافة الفاطمية .

أولاً : تأثير المجاعات على الإيرادات :

كان ويط إيرادات الدولة يتم حسب التقويم الشمسي لأن خراج الأرض كان يشكل الجزء الأكبر منها^(١) ، وإن كان ذلك لم يحل دون جبائية أموال المكوس على أساس الشهور الهلالية^(٢) أو التقويم القمري .

١ - الخراج :

مع الاعتراف بوجود اختلافات فرعية بين الفقهاء ، فإنه يمكن تعريف الخراج بأنه «أجرة عن الأرض لأن مالكيها هم مجموع الأمة الإسلامية وتبقى الأجرة وإن انتقلت الأرض من أيدي أهل الذمة إلى أيدي المسلمين فيجب على المسلمين دفع الخراج لأنه مؤيد مع الأرض ، وهكذا يبقى الخراج طوال المهد الإسلامية»^(٣) .

وكانت هذه الضريبة تفرض أحياناً على المحصول ، وإن كان الغالب فرضها على أساس مساحة الأرض المزروعة^(٤) .

ولم تكن الضريبة العقارية تدفع كلها نقداً ، فقد كان بعضها يدفع عيناً بالحاصلات وغيرها ، وكان أكثر خراج الأرض في الوجه القبلي يؤخذ عيناً بينما كان معظم خراج الوجه البحري يؤخذ نقداً^(٥) .

وبديئهياً ، كانت حالة الفيضان تؤثر على مساحة الأرض المزروعة ، سواء في حالة نقصان الفيضان أو زيادته عن الحد المأمول ، ويترتب على ذلك عجز الحكومة عن جبائية الخراج^(٦) . وقد أشار ناصر خسرو إلى أن الخليفة كان لا يأخذ الخراج إذا لم يصل مستوى الفيضان إلى ١٨

(١) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٢٩٤ . ويرجع ذلك إلى ارتباط المواسم الزراعية بالتقويم الشمسي وقد ظلت أسماء الشهور الشمسيّة مستخدماً حتى مع السنة الهجرية ، مثلاً تجد في بعض شواهد القبور . انظر :

Wiet (G) Catalogue Général du Musée Arabe du Caire. Stèles Funéraires. La Caire 1936. Tome 2.

شاهد قبر رقم ٣١٥٠/١٥ بتاريخ ٢٥٠ هـ عام ١٩٣٧ . شاهد قبر بتاريخ سبع خلون من طيبة

عام ٣٨٠ هـ - رقم ٢٧٢١/٤٩٥ PLXLIV .

(٢) د. عطية مشرفة : نظام الحكم - ص ٢٢١ .

(٣) د. سعيد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية . دار المعارف القاهرة - ط ٣ - ١٩٦٩ - ص ١٣٠ .
وانظر : محسن خليل : في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي - بند ١٩٨٢ - ١٩٨٣ - ص ٢٤١ ، وما يعلمه .

(٤) د. محمد حمدي المناوي : نهر النيل في المكتبة العربية - ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٥) د. عطية مشرفة : نظام الحكم بمصر - ص ١٨٩ .

(٦) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٦٣ .

ذراعاً^(١) . ولا يعني ذلك بالضرورة أن الحكومة كانت تغاضى نهائياً عن استيفاء حقها من الخراج في الأعوام التي لا يصل النيل فيها إلى حد الوفاء ، فقد كان غاية ما تفعله أن توخر جانباً من الخراج إلى بعض الوقت^(٢) وهو ما أصطلح على تسميته بالبواقي . وبالجملة فإن المجاعات التي تفجّر حالة الفيضان وراءها كانت تسبب اضطراباً في جيابه الخارج وفي الاقتصاد العام^(٣) .

وقد تبأنت تقديرات المؤرخين لمقدار الضريبة على الفدان ، فمن قائل بأن جوهر القائد جعل على كل فدان سبعة دنارات عند فتحه لمصر^(٤) ، إلى قائل بأن هذه الضريبة أصبحت بعد ذلك وحتى نهاية العصر الفاطمي ثلاثة أرادب لكل فدان من القمح أو الشعير^(٥) .

وتجدر الإشارة أولاً إلى أن المساحة المزروعة من أرض مصر تعرضت للتقلص وخاصة بعد مجاعات العصر الإخشيدى ، فبعد أن كانت هذه المساحة تقترب من ستة ملايين فدان عند الفتح الإسلامي ، أصبحت عند بداية حكم المعز لـ دين الله ٨٥٧١ هـ ، فدانًا وفي أحسن التقديرات ٦٤٦٧٤٥ فدانًا^(٦) .

أما مبلغ خراج مصر أثناء مجاعات العصر الفاطمي ، فإنه كان يتعرض للنقصان بسبب تقلص المساحات المزروعة من الأراضي التي يحصل عنها الخراج . فحالة فيضان النيل ، سواء بالنقصان أو الزيادة المفرطة ، كانت تؤدي إلى عدم زراعة بعض الأراضي وبالتالي عدم تحصيل الخراج عنها أو تأجيل التحصيل .

وحتى في حالة وفاء النيل ، كما حدث أثناء بعض المجاعات ، كانت هناك عوامل أخرى تؤدي إلى نفس التبيجة ، فقد كانت الأرض لا تزرع بسبب قلة الأيدي العاملة في الزراعة ، والتي كانت تتضيّط لهجرة الأرض لاحتلال الأمن وانتشار أعمال السلب والنهب أثناء المجاعات ، أو لأن الأوئمة التي عادة ما كانت تصاحب المجاعات كانت تتکفل ببحصه أرواح سكان الريف ، فلا تجد الأرض من يزرعها رغم توفر مياه الري .

ويضاف إلى هذه العوامل عامل آخر أكبر تأثيراً على المدى البعيد ، وهو ما ينجم عن المجاعات من ضعف السلطة المركزية وتفكك الأدلة الإدارية للدولة وهو ما يفضي إلى عدم الاهتمام بمشروعات الري وإقامة الجسور وتطهير الترع وإقرار الأمان في المناطق الريفية ، وهي أسباب تؤدي

(١) ناصر خسرو : سفرنامة - ص ٤٢ .

(٢) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٢٦ .

(٣) د. عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين - ج ١ ص ١١٥ .

(٤) د. محمد حمدي العناوى : نهر النيل - ص ١٢٨ .

(٥) القلقشنلي : صبح الأعشى - ج ٢ ص ٤٥٢ ، عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن - الإسكندرية ١٩٣١ - ص ١٣٣ .

(٦) د. عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر - ص ١٩٤ .

في مجملها إلى تقلص المساحة المزروعة وبالتالي إلى قلة الخراج المتحصل منها :
وإذا ما أردنا تتبع مدى تأثر خراج مصر أثناء المجاعات بهذه العوامل فإننا سنواجه في بداية العصر الفاطمي بمحاولات المؤذخين من أهل السنة إلصاق الحيف والظلم بحكومة الفاطميين الشيعية ، فيذكر بعض المؤذخين أن الخراج كان في عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، ٧ ملايين من الدنانير لأن جوهر الصنلي رفع الضريبة على الفدان من ثلاثة دنانير ونصف إلى سبعة دنانير^(١) ، بينما يشير البعض الآخر إلى أن مجمل خراج مصر عن هذه العام كان أكثر من ثلاثة ملايين وأربعين ألف دينار^(٢) . ورغم أن عمر طوسون يرى أن هذا التقدير الأخير للخراج كان في عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م لأن فتح الفاطميين لمصر كان في شعبان ٣٥٨ هـ أي في أواخر العام ولا يعقل أن يجني جوهر خراجاً في هذا العام^(٣) ، فإنه من غير المنطقي أن يكون ذلك المبلغ هو خراج مصر في أي من عامي ٣٥٨ ، أو ٣٥٩ هـ ، لأن مصر كانت تمر بأزمة اقتصادية عنيفة يستحيل معها تحصيل هذا القدر من الخراج ، خاصة وأن الأمان الذي أعطاه جوهر للمصريين وعد فيه بتحفيض المعاشات عليهم^(٤) . ولعل فيما نقله المقرizi عن ابن زوالق ما يؤيد ذلك ، إذ ذكر أن يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن توليا الخراج ووجوه الأموال من قبل الخليفة العزيز بالله عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م ، وأنهما طالبا الملاك والمتقبلين ببقايا الأموال^(٥) ، وهي على الأرجح الأموال التي لم تعجبها الحكومة بسبب المجاعة التي اجتاحت مصر منذ نهاية العصر الإخشيدوي واستمرت مصحوبة بالوباء حتى عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م .

وقد بلغت جبائية الخراج عام ٣٦٠ هـ / ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار^(٦) ، ويتنااسب ذلك المبلغ مع حالة الاستقرار التي بدأت تعم البلاد بعد إنتهاء حالة الاضطراب الاقتصادي والسياسي التي سبقت وواكبت الفتح الفاطمي .

وقد ارتفع خراج مصر بعد عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م على يد يعقوب بن كلسي إلى مليون^(٧) دينار في تقدير عمر طوسون ، وإن كان من المرجح أن ذلك كان مقدار الخراج في عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م وهو العام الذي تولى فيه ابن كلسي وعسلوج بن الحسن جبائية الخراج وطالبا الناس بسواءي ومتأخرات الخراج كما أشير إلى ذلك آنفًا .

(١) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) المقرizi : الخطط - ج ١ من ٨٣.

(٣) عمر طوسون : مالية مصر - ص ٤٥ . وإن كان ذلك لا يعد دليلاً قاطعاً ، إذ أن جبائية الخراج كانت تتم على أساس السنة الشمسية لا الهلالية .

(٤) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٣٣.

(٥) المقرizi : الخطط - ج ١ من ٨٢.

(٦) أبو المحاسن : التحريم الراهن - ج ٤ - ص ٤٦ .

(٧) عمر طوسون : مالية مصر - ص ٤٥-٥٥ .

وظل خراج مصر طوال عهد الخلفاء الأوائل يتراوح بين ٣ و٤ ملايين دينار^(١) . ورغم تسلينا بمعقولية ما أورده المؤرخون من تقدير للخراج في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله بحوالى ٢ مليون دينار^(٢) أو ٤٠٠,٠٠٠ دينار^(٣) بسبب تسلد الحاكم وسطوة حكومته واستقرارها إلا أن ذلك المبلغ لم يكن ليجمع في أوقات المجاعات التي حفل بها عهد الحاكم ، خاصة وأن الخليفة كان يعطي إعفاءات ضريبية كثيرة في أوقات الأزمات ، ففي عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م سافر ضامن الصعيد بما عليه من ضرائب قدرت بنحو ٧٦٥,٦٤ ديناراً^(٤) وربما كان ذلك المبلغ يشكل متأخرات تراكمت بسبب مجاعة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م خاصة وأن الصعيد من أكثر مناطق مصر تضرراً من انخفاض الفيضان .

ولم تمنا المصادر التاريخية بأية أرقام عن خراج مصر أثناء خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الذي وقعت في عهده مجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٢٤ م ولا بد أن هذه المجاعة الخطيرة قد تسبيت في اتساع الخراج لأن انخفاض الفيضان كان عاملاً رئيسياً فيها فضلاً عن عوامل الإحتكار التجاري والغزو الخارجي وتفكك الأداة الإدارية للدولة .

ويمكن أن نتبين بوضوح مدى تأثير المجاعات على الخراج ، إذا ما قارنا مقداره خلال خلافة المستنصر بالله ، في ثلاثة فترات متميزة ، تستوعب أولها مدة وزارة البازوري ، والثانية تستغرق الشدة المستنصرية ، والأخيرة في مدة وزارة بدر الجمالى وبابنه الأفضل . ورغم أنه لا يوجد لدينا تقدير واحد دقيق لمقدار الخراج في وزارة البازوري (٤٤١ - ٤٥٣ هـ) إلا أنه يمكن أن نشير إلى قوة مركز الدولة الفاطمية المالى الذي امتدحه الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر خلال هذه الفترة وإلى ما أورده المقريزى عن ارتفاع^(٥) الدولة في وزارة البازوري والذي حدده بمبلغ ٢ مليون يتبقى منها فائض مقداره ٢٠٠,٠٠٠ دينار بعد النفقات^(٦) .

وبعد وفاة البازوري دخلت مصر في فترة من الاضطراب والاقتتال بين طوائف الجناد مهدت للشدة المستنصرية التي انخفض خلاماً الخراج لعدم زراعة معظم الأرض وعجز الدولة عن التحصل أيضاً ، حتى إن المبالغ التي كانت على النواحي ولم تسدد كانت كبيرة واضطربت الدولة في النهاية

(١) د. سيدة كاشف : الأرض والنلاح - ص ٧٣ .

(٢) مصر طوسون : المرجع السابق - ص ٥٦٥ ، تقلأ عن: شق الأزهار لابن طوسون .

(٣) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٣٣٦ .

(٤) المقريزى : انتاظ الحينا - ج ٢ ص ١١٤ .

(٥) يعني كلمة الارتفاع وكذا العبرة مقدار الدخل لجهة معينة - انظر : د. إبراهيم طرخان : النظام الاقتصادي - ص ١٧٤ .

(٦) المقريزى : انتاظ - ج ٢ ص ٢٤٥ . وإن كان المقريزى نفسه قد ذكر في الخطط (ج ١ من ٩٩ - ١٠٠) أن مقدار ارتفاع مصر والشام معًا ٢ مليون دينار يخص مصر منها مليون دينار فقط . ومع ما عرف عن كفافة البازوري واستقرار البلاد ربّما عمر طوسون ود. البراوي أن يكون مبلغ المليون دينار هو فائض ميزانية مصر . مالية مصر - ص ٥٧-٥٦ ، حالة مصر الاقتصادية - ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

إلى شطب هذه المبالغ التي عرفت بالبواقي^(١). وقد بلغ مقدار هذه الأموال ٢ مليون دينار و٧٦٧,٧٢٠ ديناراً و٦٧٠ درهماً و٣,٨١٠,٢٣١ أردياً من القمح ، فضلاً عن المحاصيل والسلع الأخرى^(٢) ، ولعل في ضخامة هذه البواقي ما يشير إلى انخفاض الخراج أثناء الشدة العظمى^(٣) . وبكفي أن نشير إلى أن خراج الوجه البحري الذي كان يقدر في عهد اليازوري بنحو ٦٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً^(٤) انخفض حتى عاد لا يبلغ المائة ألف دينار^(٥) . وقد بلغ الخراج في عام ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م ٦٠٠,٠٠٠ دينار وهو يتناسب مع استمرار الشدة^(٦) .

وامتد تأثير الشدة على الخراج إلى السنوات التي تلتها بسبب إهمال مشروعات الري خلالها . وقلة الأيدي العاملة في الزراعة ، إما بسبب هجرة الأرض أو الموت بالأوبئة ، إضافة لقلة البدور والفقر الذي خلفته الأحداث ، الأمر الذي دفع بدر الجمالي بعد قضائه على المتمردين إلى إعفاء المزارعين من الخراج ثلاث سنوات «حتى ترافقت أحوال الفلاحين»^(٧) . والأرجح أن هذه السنوات تبدأ بعد دخول بدر إلى مصر عام ٤٦٦ هـ أي في الملة من ٤٦٧ هـ إلى ٤٦٩ هـ . ولعل هذا الإعفاء الضريبي الذي لجأ إليه بدر الجمالي كان بسبب ضالة المبالغ التي كان يمكن تحصيلها ويشير عن الوضع المتردي الذي هوت إليه اقتصاديات البلاد ، وهو ما يدفع بنا إلى تحديد التشكك الذي أبداه د . راشد البراوي بشأن مقدار الخراج عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م وهو رقم أوردته المقريзи نقلاً عن كتاب «المنهج في علم الخراج» للقاضي أبي الحسن المخزومي الذي أشار إلى عمل مقاييس لخراج مصر قبل عهد بدر الجمالي وحتى عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م^(٨) ، وذلك أن البلاد لم تكن قد برئت بعد من آثار الشدة المستنصرية فضلاً عن تفكك الإدارة وعجزها عن جباية مثل هذا المبلغ الضخم .

بل يمكن القول بأن الشدة وما تلاها من مجاعات قد أثرت على خراج مصر حتى سقوط

(١) د. عبد العزيز الدروري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي - ص ١٠٣-١٠٤.

(٢) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٨٣-٨٤.

(٣) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٣٢٦.

(٤) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٨٢.

(٥) د. عطية شرقه : نظم الحكم - ص ٢٣٠.

(٦) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٣٧.

(٧) ابن ميسور : أخبار مصر - ج ٢ ص ٣٠ ، والأرجح أن هذا الإعفاء كان مجرد تأجيل للسداد كما يتضح من الإعفاء من البواقي بعد ذلك .

(٨) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٣٧ . ذكرت إن الصافريات خطأ أن ذلك كان مقدار الخراج في عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م وهو أيضاً مستبعد لأن الشدة كانت لا تزال مستمرة وكان الخراج في العام السابق ٦٠٠,٠٠٠ دينار . انظر : الحالة الاقتصادية في مصر - ص ١٠٤ .

(٩) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ١٠٠ ، عمر طوسون : مالية مصر - ص ٥٧ .

الفاطميين نتيجة لاضطراب الريف وتكرار تفشي الأوبئة بين سكانه وضعف الإدارة المركزية التي عجزت عن مواصلة مشروعات الري الكبيرة ، وهي عوامل أدت في المحسنة النهاية إلى تراجع مساحة الأراضي المزروعة تبعاً لأنخفاض عدد القرى الذي وصل في نهاية العصر الفاطمي إلى ٢٠٦٢ قرية^(١) بعد أن كان عددها في العصر الإخشيدي ٢٣٩٥ قرية^(٢) .

ورغم أن بدر الجمالى نجح في رفع إيراد الدولة إلى حوالي ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً^(٣) ، فإن هذا المبلغ وهو على وجه التحديد ٣,١٠٠,٠٠٠ دينار كان في عام ٤٨٧ هـ ، لم يكن يعتمد فقط على الخراج أو الضريبة العقارية بل كان يشمل أيضاً ضرائب التجارة (المكوس) حيث وردت ضمن مصادرة متحصلات تنيس وهي مدينة صناعية وعيذاب وهو ميناء مصر على البحر الأحمر وكذا الإسكندرية^(٤) . وبالمثل فإن تقدير إيرادات مصر خلال وزارة الأفضل بن أمير الجيوش بـ ٥ مليون دينار ومليون أربضب للإحراء^(٥) كان يشمل المكوس إذ أن التجارة الخارجية لمصر كانت قد أخذت في النشاط منذ القرن ٦ هـ وأصبحت إيراداتها تشكل جزءاً معتبراً من إيرادات الحكومة^(٦) . ولا يعود ذلك الارتفاع ، كما تقول الباحثة إنصاف رياض ، إلى أن الأفضل قام بحل الإقطاعيات وأعاد توزيعها وزاد مدة الانتفاع إلى ثلاثين سنة^(٧) ، إذ أنه رغم بقاء هذا التغيير في نظام قيادات الأرض إلا أن الخراج واصل انخفاضه في السنوات التالية^(٨) .

فمنذ مقتل الأفضل عام ٥١٥ هـ وحتى عام ٥٤٠ هـ لم يزد خراج مصر عن ١,٢٠٠,٠٠٠ دينار على يد القاضي الموفق أبي الكرم بن معصوم التنيسي «ولم يجب أحد هذه الجباية حتى انقرضت الدولة الفاطمية»^(٩) .

والخلاصة ، أن المجتمعات كانت تؤثر على مقدار الخراج وأن الشدة المستنصرية وما اتبعها من نتائج اقتصادية وسياسية واجتماعية وديموغرافية قد أثرت على الخراج تأثيراً سلبياً حتى نهاية العصر الفاطمي ، وازداد هذه التأثير تعاظماً مع الضعف المتواتر للإدارة المركزية في البلاد وتفرق مراكز الثقل السياسي بين الخلفاء والوزراء وعمال التواحي وقادة العسكر .

(١) عمر طوسون : مالية مصر - ص ٢٢٩ .

(٢) د. عبد المنعم ماجد : امرأة تتزعم - ص ٣٦ .

(٣)

Lewis (B) The Cambridge History . Vol . P . 189 .

(٤) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ١٠٠ ، وهذا المبلغ هو خراج عام ٤٨٣ هـ فقط وليس بمتوسط للخرج في عهد بدر الجمالى كما أشارت إلى ذلك إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ١٠٤ .

(٥) عمر طوسون : مالية مصر - ص ٥٨ ، والأهماء مخازن يحمل إليها ما ورد من الغلات السلطانية وكانت ترد من مختلف المحافظات ويتفق منها ما يقع به عليها من أمور الدولة والمرتبات . انظر : المقريзи : انتهاط الحفا - ج ٢ ص ٧٢ هامش ٢ .

(٦) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٧) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ٤ .

(٨) بدأ هذا النظام الجديد على يد الأفضل عام ٥٠١ هـ . انظر: القسم الأول الفصل الثاني .

(٩) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ١٠٠ ، عمر طوسون : مالية مصر - ص ٥٨ - ٥٩ .

٢- المكوس :

وهي المصدر الثاني من مصادر الإيرادات الفاطمية وهي في الأصل ضريبة تؤخذ على الوارد وال الصادر من البضائع في الموانئ^(١) ثم أصبحت تفرض على التجارة الداخلية وبعض الأنشطة الاقتصادية غير المتعلقة بالزراعة ، فكانت تفرض أيضاً على المراعي والمنصائد والبهاش وتجارة الترانزيت والذباائح وسوق الرقيق وأنواع الصناعات كالفاحور والموز وحتى الحجيج^(٢) .

وكان هذا النوع من الضرائب يثير حفيظة الفقهاء حيث يعتبرونه غير مشروع إذ أن التجارة في دار الإسلام ليس عليها أي ضرائب^(٣) ، فهللاً عن أن المصادر الطبيعية للثروة كالنطرون والكلأ والمصايد مما لم تمتد إليه يد الإنسان بالرعاية ، كانت تعد أيضاً من الأنشطة التي يحرم فرض الضرائب عليها^(٤) .

وكان تحصيل هذه الضرائب يتم بواسطة ديوان الهلالي^(٥) وكانت قيمة المكوس تتراوح ما بين ١٠٪ و ٢٥٪ من ثمن البضاعة^(٦) . فعروض تجارة أهل الحرب وأهل اللمة المازين يهتم على تغور الإسلام كان يؤخذ عليها العشر متى عهد الخليفة عمر بن الخطاب^(٧) على أن هذه الضريبة التجارية عرفت في بعض الحالات بالخمس أيضاً وتراوحت ما بين ٣٥ و ١٠٠ دينار وكانت تتحفظ أحياناً إلى عشرين دينار^(٨) على الحمل .

ويدخل ضمن موارد الدولة الضريبة التي عرفت بالسواحل ، وكانت تستأدي في التغور الساحلية مثل الإسكندرية ودمياط ونسترو والبرلس والفرما وكان لها ديواناً خاصاً بجايتها هو «ديوان التغور»^(٩) وكان بعض هذه الضرائب يستأدي عيناً ، فكان يبتاع للديوان أو المتجر السلطاني من التجار الواردين إلى مصر بعض السلع التي تستبدل قيمتها من ضرائب التجار فإذا زاد ثمن ما يباع عن الضريبة دفعت الدولة لهم ذهباً بقيمة الثلث وبصائر أخرى بقيمة الثلثين^(١٠) .

(١) د. ماجد : نظم - ج ١ ص ١١٧ ، وكانت كلمة مكس بمعنى ضريبة أسوق معروفة من قبل في العصر الجاهلي وكلمة مقس اسم قرية على ساحل النيل في شمال القاهرة وكانت تعرف باسم أم نفين وسيت بعد ذلك بهذا الاسم لأن الماكين كان يقعد بها ليستخرج المكوس فكلمة مقس تحريف لكلمة مكس ، د. سيلة الكاشف : مصر في عصر الولاة - سلسلة الآلف كتاب (٢٤١) ص ٤ ، وعن تطور هذا النوع من الضرائب . انظر : د. إبراهيم طرخان : النظام الإقطاعي - ص ١٧٧ - ١٨٠ .

(٢) د. ماجد : نظم - ج ١ ص ١١٨ .

(٣) د. ضياء الرئيس : الخراج والنظام - ص ١٣٩ .

(٤) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٤١ .

(٥) القلقشنطي : صبح الأعشى - ج ٢ ص ٤٩٦ .

(٦) د. ماجد : نظم - ج ١ ص ١٨ .

(٧) د. ضياء الرئيس : الخراج والنظام - ص ١٣٨ .

(٨) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ١١١ .

(٩) د. ماجد : نظم - ج ١ ص ١١٩ ، د. مثربة : نظم - ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(١٠) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ١١٢ ، وهو تغير في شكل تعاطي الضرائب وليس ضريبة جديدة كما اعتقدت الباحثة .

وإلى جانب الضرائب على التجارة الخارجية عرفت أيضاً الضرائب على التجارة الداخلية الواردة إلى المدن والمخازن والأسواق والبصائر الصادرة من المدن وحراسة الغلات بالمقس ورسوم السمسرة والدلالة وأجرور استخدام المعدّيات على النيل^(١).

ويضاف إلى ذلك الضرائب التي كانت تؤخذ على بعض المنتجات من منابعها مثل صناعة النسيج ، فنعرف أن مدينة تنس التي اشتهرت بهذه الصناعة كان خراجها في اليوم الواحد ألف دينار كما ذكر ناصر خسرو^(٢).

وقد أثرت المجتمعات المتراكمة ، ومانجم عنها من تحطم السلطة المدنية البيروقراطية وانهيار الاقتصاد القائم على الزراعة أساساً ، على إيرادات الدولة من الزراعة فاجتهد محصلو الضرائب لتعويض النقص الكبير في الداخل^(٣) . ونتج عن ذلك تزايد مقادير وأنواع المكوس على أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة ، فقد وجّه الفاطميون إهتمامهم إلى هذه الضرائب غير المباشرة لتنمية مواردهم عند اتساع الخراج^(٤) ، وساعد على ذلك ازدهار التجارة في نهاية العصر الفاطمي فاستطاعت أن تحتمل على هذه الأعباء الضريبية المتراكمة^(٥) . إلا أن المكوس تزايدت في الدولة الفاطمية بمورور الوقت حتى وصلت إلى حد لا يطاق في نهاية العصر الفاطمي ، كما سلاحت من الضرائب التي أسقطتها صلاح الدين ، ولا ينفي ذلك بعض المحاولات التي بذلت لإلغاء المكوس أثناء المجتمعات عملاً على تخفيف العبء عن أفراد الشعب ، فتعرف عن الحاكم بأمر الله أنه أمر بإلغاء بعض هذه المكوس غير الشرعية^(٦) . فيذكر المقريزي نقلاً عن المسبحي أن الحاكم أسقط في شهر رمضان عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م عن أهل مدينة القلزم ما كان يؤخذ من مكوس المراكب^(٧) وذلك أثناء أول مجاعة حدثت بمصر في عهد الحاكم وعندما توقفت زيادة النيل في مجاعة عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م . أمر الحاكم بإبطال عدة مكوس^(٨) ، وما أن انتهت هذه المجاعة في شعبان عام ٣٩٩ هـ / ١١٠٩ م^(٩) ، حتى أعاد الحاكم المكوس التي كان قد رفعها^(١٠) .

ومع بداية الانخفاض النسيي للفيضان والتوقع المبكر للمتاعب الاقتصادية التي حدثت أثناء

(١) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٢٠.

(٢) د. محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة طبع دار الكتب ١٩٤٢ - ص ٥٧.

Lewis (B) , The Camb. History Vol I. P. 188.

(٣)

(٤) د. عطيه مشرفة : نظم الحكم - ص ٢١٧.

(٥) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٢٠٢.

(٦) د. ماجد : المحاكم - ص ٦٣ . يذكر د. ماجد أن ذلك تم لاعتقاد الحاكم في عدم شرعية هذه المكوس وإن كانت حرواث التاريخ تبرهن على أن ذلك يتم لضرورات اقتصادية واجتماعية إذ أنه أعادها كما تلاحظ بعد ذلك.

(٧) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٢١٣.

(٨) المصدر نفسه - ج ٢ ص ٢٨٦.

(٩) انظر مجاعات الحاكم .

(١٠) المقريزي : اعتماد - ج ٢ ص ٧٩.

مجاعة عام ٤٠٢ هـ / ١١٢ - ١١٣ هـ ، أمر الحكم بإبطال عدة مكوس في جمادى الآخر عام ٤٠١ هـ / ١٠١١ م^(١) . وأدى استمرار هذه الأزمة الاقتصادية طوال العام التالي إلى عودة الحكم إلى إلغاء المزيد من المكوس في شهرى رجب وجمادى الأول عام ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م^(٢) . وفي عام ٤٠٦ هـ أُسقط الحكم مكوس الغلة والفاكهه ودار الضرب^(٣) .

وعندها تفاقمت المجاعة التي بدأت عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م وتظاهر الناس في الطرق وصاحوا بوجه الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله واحتقى القمح من الأسواق ، أمر الظاهر في ذي القعدة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م بإلغاء جميع مكوس الغلة المباعة بساحل مصر^(٤) . ويبدو أن هذه المكوس قد أعيادت بعد ذلك ، فعرف أن الخليفة الحافظ عندما ولّي الخلافة حاول استرضاء مشاعر الناس فأمر في ثالث ربى الأول ٤٢٦ هـ بإلغاء يوامي مكس الغلة^(٥) . ومن المصادر المالية التي تأثرت بأحداث المجتمعات المواريث الحشرية ، « وهي مال من يموت وليس له وارث خاص يقرابة أو نكاح أو لاء أو باقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستفرق جميع المال ولا عاصب له^(٦) » . فقد استولى الخليفة على أموال من ماتوا بالوباء أثناء مجاعة عام ٤٤٧ هـ وليس لهم وارث ، وكان مالاً جزيلًا على حد تعبير ابن أبي أصيحة^(٧) . وأضيف ذلك المال إلى إيرادات الدولة .

وشكلت المصادرات ، وخاصة منذ العصر الفاطمي الثاني ، جزءاً من مصادر الدولة المالية ، ففي أعقاب الشلة المستنصرية قام بدر الجمالى بمصادرة أموال القادة الأتراك وإيداعها ديوان المفرد^(٨) .

وكان للدولة الفاطمية ضرائب لم تكن معروفة في الدولة الإسلامية التي سبقتها ، وهي « القطرة » وهي شبيهة بضرية الرؤوس ومقدارها درهم عن كل ولد من الرجال والنساء ، و« الهجرة » ومقدارها دينار عنم آدرك من النساء والرجال ، و« البلقة » وهي اختيارية يدفعها

(١) المقريزي : الخطط - ج ٢ ص ٢٨٧.

(٢) المقريزي : اتحاظ - ج ٢ ص ١٠٢.

(٣) مؤلف مجهول : إنسان العيون - ص ٤٥.

(٤) المقريزي : اتحاظ - ج ٢ ص ١٦٦ ، وربما كان ذلك لقلة المعروض منها في الأسواق وتشجيعاً على ظهور التلال .

(٥) المصادر نفسه - ج ٣ ص ١٤٦.

(٦) الفلكشندى : صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٦٤.

(٧) ابن أبي أصيحة : هiron الآباء - ص ٥٦٣ . ومنذ وزارة الأفضل بن بدر الجمالى مع أحد شيء من التركات وأمر بحفظها لأصحابها حتى يحضر من يثبت حقها . انظر : إنصف ويفس : الحالة الاقتصادية - ص ١١٤ . ولم ذلك كان بسبب قلة المال المستحصل منها بعد انتهاء الشلة ودخول مصر في طور من الاستقرار النسبي في عهد بدر الجمالى .

(٨) إنصف ويفس : الحالة الاقتصادية ١١٧ - ١١٨ . وقد ثنا ديوان المفرد ليس في العصر الفاطمي الثاني كما ظلت الباحة بل إنه أنشى في عهد الحكم بأمر الله في صفر عام ٣٩٨ مـ . أثناء المجاعة التي مرت بمصر برس من يقبض ماله من المقتولين وخرم . انظر : المقريزي : الخطط - ج ٢ ص ٢٨٧ .

القادرون ومقدارها ٧ دنانير و«الألفة» وتجمع أموالها في موضع واحد ويكونون فيه أسوة واحدة، أي ينفع كل منهم مبلغاً محدداً من المال، و«الزكاة» و«الخمس»، أي أن الرجل يخرج خمس ما يملك والمرأة خمس غزلها^(١). بالإضافة إلى «النجوى» وبلغها ثلاثة دراهم وثلث الدرهم ، تجمع من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لا سيما الصعيد^(٢) . والثابت تاريخياً أن هذا النوع من الضرائب المذهبية قد تعرض للنقض بسبب المجاعات في بعض الأحيان ، ففي صفر عام ٣٩٨ هـ أمر الحاكم بإبطال أحد الخمس والتباكي والنفطرة^(٣) ، وكان ذلك بسبب المجاعة التي كانت في هذا العام ، وعندما حاول بعض القضاة تحصيل هذه الضريبة في وقت لاحق أعاد الحكم أوامر بوقف أحد هذه الضرائب مرة أخرى عام ٤٠٠ هـ^(٤) ، ذلك أن البلاد لم تكن قد أفاق بعد من المجاعة التي وضحت أوزارها عام ٣٩٩ هـ ، ودليل ذلك أن الحاكم عاد في عام ٤٠١ هـ فامر بإأخذ مال النجوى^(٥) . وقد أدت الشدة المستنصرية إلى توقيف تحصيل هذه الضرائب ويستفاد من أحد السجلات الموجهة من المستنصر بالله إلى حاكم اليمن علي بن محمد الصابري أن اليمن لم ترسل طوال سنوات الشدة المستنصرية أي ضرائب سواء من الفطرة والزكاة والتباكي والنفطرة أو أي ضرائب أخرى ولا درهم واحد وذلك «لموانع الطريق»^(٦) .

أما الجزية التي كانت تعجبى من أهل الذمة في دار الإسلام جزء المنعة لهم وأمنهم على أموالهم وحرياتهم^(٧) ، فكانت تدفع سنوياً وتجمع في المدن من المشغلي بالتجارة أو الصناعة وغيرهم وكانت تدخل في خراج الأرض في الريف^(٨) ، ولا يعلم مقدارها طوال العصر الفاطمي ، ونعلم فقط أنها كانت في عهد الأمر بأحكام الله تراوح ما بين دينار وثلث دينارين على كل رأس^(٩) . ولا توجد إشارة في أي مصدر تاريخي إلى تعرض مقدار الجزية المفروضة على الرؤوس إلى أي تغيير أثناء المجاعات . مما يدل على حرص دولة الفاطميين على رعايتها من أهل الذمة وعدم غبنهم أو تجاوز حدود الشرع معهم . ورغم أن المقرizi قد أخطأ عندما ذكر أن المكوس التي كان قد بدأ أحمد بن المديبر فرضها على المصادر الطبيعية من المصايد والكلأ قد الغيت أيام

(١) د. عطية مشرفة : نظم الحكم - ص ٥، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٥ .

(٢) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) المصدر نفسه - ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٤) ايمون فؤاد سيد : نصوص ضئلة ص ٢٩ .

(٥) المقرizi : الخطط - ج ٢ ص ٢٨٧ .

(٦) د. ماجد : السجلات - ص ١٨٩ - ١٨٨ ، سجل بتاريخ ذي القعدة ٤٦٨هـ .

(٧) د. خبياء الرئيس : الخارج والنظام - ص ١٣١ .

(٨) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٣٢٩ .

(٩) د. ماجد : نظم - ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠ ، ويقدرها د. ماجد و د. راشد بحو ١٣٠،٠٠٠ دينار وهو مقدار جبائيها عام ٥٥٨٧.

(١١٩) أي بعد عشرين عاماً من سقوط الدولة الفاطمية - انظر أيضاً : د. راشد : حالة مصر - ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، وعموماً فقد كانت هذه الضريبة آخرة في التناقض بسبب تحول أهل الذمة للإسلام ، فتعرف أنها بلنت عام ٥٨٦هـ، مبلغ ١١،٤٠٠ دينار فقط - المقرizi : الخطط - ج ١ ص ١٠٧ .

أحمد بن طولون ولم تعد إلا عندما ضعفت الدولة الفاطمية^(١) ذلك أنها كانت موجودة ، كما رأينا أيام الحاكم بأمر الله ، إلا أنه يمكن القول أن هذه الضرائب قد تعددت واتسعت بسبب اتضاع الخراج في أواخر الدولة ولا شك أن زيادة هذه المكوس كان مطرباً مع محاولات تعويض نقص الخراج الناجم عن المجاعات وتتابعها ويمكن تبيان مقدار هذه الضرائب غير المباشرة (المكوس) مما ذكره المؤرخون عن إسقاط صلاح الدين الأيوبي لبعض هذه الضرائب . فهو أولاً قد أمر بإسقاط متأخرات سنوات سابقة حتى عام ٥٦٤ هـ بلغت قيمتها مليون دينار و٢ مليون أردب غلة ، وأبطل هذه الضرائب من الدواوين^(٢) .

ثم أسقط ما كان يستأدي من الحجاج بالمحجاز من المكوس^(٣) ، وأبطل ما كان يؤخذ من المكوس بمصر والقاهرة وكان جملة ذلك في كل سنة مائة ألف دينار^(٤) بالإضافة إلى ما كان يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية وهو بنفس المقدار^(٥) . وقد أورد أبو شامة نص السجل الذي ذكر المقرizi أن القاضي الفاضل هو الذي كتبه بشأن إسقاط هذه المكوس وفيه إشارة إلى عدم شرعية هذه الضرائب وثقلها على السكان «نظهر منها مكاسبنا ونচون عننا مطالبنا ونكتفي الرغبة بضرورهم الذي يتوجه إليهم ونضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم^(٦) .

وقد أورد المقرizi قائمة تفصيلية بأنواع المكوس الملغاة ومقدار كل منها يتضح منها أنها قد فرضت على التجارة الخارجية مثل مكس البهار والبصائع والقوافل وعلى التجارة الداخلية مثل سمسرة التمر ورسوم العلبة المنسوية إلى بلبيس وعلى أسواق الغنم بالقاهرة ومصر ، وعبور الأغمام بالجيزة وعلى المواد الخام ، كرسم فندق القطن والكتان والمصنوعات ، مثل خاتم الشرب والدبيق فضلاً عن المعديات على النيل والسلخانات ، بل والدواجن التي يتم تربيتها^(٧) . ويعود الفضل بهذه الضرائب المفروضة على التجارة والصناعة في تعويض نقص خراج الأرض ، وخاصة في الفترة الأخيرة من حياة الدولة الفاطمية التي تعددت وزادت خلالها هذه الضرائب والمكوس التي ألغتها صلاح الدين .

فعلى الرغم من تدهور الحالة السياسية والاقتصادية في أواخر عهد الفاطميين إلا أن اقتصاد

(١) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) أبو شامة : الروضتين - ج ١ ص ١٧٤ ، المقرizi : الخطط - ج ١ ص ١٠٥ .

(٣) أبو شامة : المصدر نفسه والصيغة نفسها .

(٤) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٤ - ١٠٤ .

(٥) أبو شامة : الروضتين - ج ١ ص ١٧٤ .

(٦) المصدر نفسه - ص ٢٠٥ ، ويبدو من صيغة السجل أنه خاص بالقاء مكوس مصر والقاهرة فقط ولا يعني ذلك أن صلاح الدين قد أسقط جميع المكوس ، فقد بقي مكس الطرون الذي استحوذه ابن العلير في العصر الأيوبي فلما ذكر القاضي الفاضل أن الطرون كان مضموناً إلى آخر ستة هـ بمبلغ ١٥,٥٠٠ دينار . المقرizi : الخطط - ج ١ ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٧) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٤ .

مصر ظل قوياً بسبب حركة التجارة العالمية عبر أراضيها وإن كانت هذه الحركة قد تأثرت ولا شك بسبب الحروب الصليبية ونجاح الصليبيين في إقامة مملكة بيت المقدس^(١). فكانت لمصر علاقات تجارية واسعة في حوض البحر المتوسط بفضل السيطرة الكاملة التي فرضها الأسطول الفاطمي على البحر المتوسط وقد ظلت لهذا الأسطول قوته البحرية حتى عام ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م ورغم ضعف الدولة الفاطمية^(٢).

ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري / الحادى عشر الميلادي عقدت مصر سلسلة من المعاهدات التجارية مع البندقية وجنو وبيزا بشأن حماية تجار هذه الدول أثناء مزاولة نشاطهم التجارى في مصر ، وقد أشار بنiamin التطيلي إلى وجود سفن من ٢٩ دولة ومدينة أوروبية بميناء الإسكندرية عند زيارته لها عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م^(٣).

ورغم المنازعات السياسية التي كانت بين مصر الفاطمية وبين نظرة إلا أن ذلك لم يحل دون قيام نشاط تجاري واسع بينهما ، وخاصة بالنسبة لتجارة المنتوجات المصرية^(٤) ، وذكر ناصر خسرو أن كثيراً من السلع التي رآها وأعجب بها في أسواق الفسطاط كانت من واردات بلاد الروم^(٥) . كما أن مصر كانت تعتمد على بيزنطية أحياناً في استكمال احتياجاتها من القمح^(٦) . وقد تركزت الأنشطة التجارية الفاطمية في البحر الأحمر ، ويعزى صمود الاقتصاد المصري في عهد الخلافة الفاطمية الأخيرة إلى استمرار نشاطها التجارى في البحر الأحمر^(٧) .

وتعد تجارة الكارم أو الكارميه على الطريق البحري بين مصر وشرق إفريقيا والهند والشرق الأقصى أهم هذه الأنشطة التجارية على الإطلاق^(٨) .

وقد بدأت هذه التجارة في العصر الفاطمي واشتراك فيها التجار اليهود إلى جانب المسلمين والمغاربة وأصبحت كلمة الكارم شائعة في القاهرة منذ بداية القرن ٦ هـ / ١٢٥٠ م ، ولم يكن الكارم وحدهم في مجال التجارة مع الهند ، فحتى عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م لم يكن الكارم قد احتكروا بعد

(١) د. عطية القوصي : تجارة مصر - ص ١٢٦.

(٢) د. أحمد مختار العبادي ، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام - بيروت ١٩٧٢ - ص ١٢٧ .
وتعذر هذه السيطرة البحرية امتداداً للهيمنة العربية على المتوسط منذ القرن ٢ هـ / ٨٠ والتي استمرت حتى صعود المدن التجارية في إيطاليا مثل فينيسا وجنتو . انظر :

Newbiggin (M) The Mediterranean Lands , London . 1938 , P . 176 .

(٣) د. عطية القوصي : تجارة مصر - ص ١١٠ - ١١٣ .

(٤) د. إبراهيم العدوى : الدولة الإسلامية وأمراض طيبة الروم - الأنجلو المصرية - القاهرة ط ٢ - ١٩٥٨ - ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٥) د. عطية القوصي : تجارة مصر - ص ١١٢ .

(٦) د. ماجد : ظهور خلافة - ص ٣٦٥ .

(٧) د. عطية القوصي : تجارة مصر - ص ١٢١ .

(٨) لمزيد من التفاصيل عن تجارة الكارم وتطورها ، انظر : صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى - المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع العدد الثاني - مايو ١٩٥٢ .

هذه التجارة إذ كانت تشارکهم حوالي مائة سفينة لا يملکها تجار الكرام^(١).

كما أن الازدهار الصناعي الذي شهدته البلاد بفضل تشجيع الصناع الأجانب والتسامح مع الأقباط الذين كان يعمل عدد كبير منهم في الصناعة . وترتیزد الإقبال على المنتجات الترفية كالملابس الفاخرة^(٢) كان له الأثر في زيادة رصید الدولة من الضرائب التي فرضت على هذه الصناعات حتى شملت المواد الخام بل وبيعت هذه المنتجات على أيدي السمسرة الذي كان وجودهم فيما ييلو عاملاً مساعداً على تقدير وجباية الضرائب^(٣) .

المصروفات في الدولة الفاطمية :

لم ترد في كتب المؤرخين إحصاءات دقيقة تبين أبواب المصروفات والإيرادات حتى يمكن موازنة النفقات بالدخل وتحديد الفائض أو العجز^(٤) .

وإن عرفاً أن المبدأ السائد في التنظيم المالي أن يخصص كل إيراد لنفقة معينة ، فكان الخراج مثلاً يخصّص للإنفاق على الأجناد وغيرهم من أرباب الوظائف في الدولة حيث كانت رواتبهم من بين نفقات الدولة ، وكان على ديوان الرواتب أن يقوم بدفع العطاء إلى الأجناد والموظفين شهرياً ، كما كانت إيرادات المكوس وغيرها تسد نفقات بعض موظفي الدولة وأجنادها^(٥) .

ويديهي أن انخفاض إيرادات الدولة ، وخاصة الخراج ، أثناء المجاعات كان يؤثّر سلباً على وفاء الدولة ببعض التزاماتها ، وخاصة بعض الرواتب التي كان يتأخر صرفها في أحسن الأحوال . كما كانت الدولة تعجز أثناء المجاعات عن سداد مستحقات فقراء مكة والمدينة ، مما أدى إلى خروجهما عن سلطة الخلافة في أثناء بعض المجاعات . ويحدث أثناء المجاعات أيضاً أن تتخلّى الدولة عن بعض التزاماتها تجاه الفقراء وخاصة في ليالي شهر رمضان ورمضان .

إلا أن بعض الأحداث المصاحبة للمجاعات وما يتربّع عليها من نتائج ، كان يؤدّي إلى زيادة أوجه الإنفاق ، وخاصة نفقات إقرار الأمن والقضاء على المتمردين ، أو زيادة رواتب الثائرين من العسكري ، وقد كان من نتيجة الشدة المستنصرية وما أدت إليه من زيادة نفوذ وزراء التغويض

(١) د. عطية القوصي : تجارة مصر - ص ٩١-٩٩ . وقد بدأ احتكار الكرامية لهذه التجارة يأخذ شكله المكتمل في عصر العمالق حيث شكل تجارة الكرام قوة مالية تمولية إلى جانب الحكومة .

(٢) انظر : Goiteia : OP . cit . P . 349 .

(٣) المرجع نفسه - ص ١٤٥-١٤٦ .

(٤) د. عطية مشرفة : نظام الحكم - ص ٢٢٨ .

(٥) د. ماجد : نظام الفاطميين - ج ١ ص ١٢٣-١٢٤ .

والعسكريين ، أن تزايدت التزامات الدولة ونفقاتها تجاه هذه الفئات واستمر تزايد النفقات حتى نهاية الدولة الفاطمية .

تأثير المجتمعات على المصاروفات :

تشكل الرواتب العباء الأكبر على الخزانة الفاطمية ، وما من شك في أن ما أورده د . ماجد نقلأً عن خطط المقريزي من تقدير لعطاء الأجناد وأرباب الوظائف بـ «ثلاثة ألف دينار سنويًا»^(١) يتسم بالتواضع الشديد خاصة إذا ما قورن مع ما أورده عمر طوسون عن الرواتب أيام كافور الإخشيدى والتي بلغت نحو نصف مليون دينار «خارجًا عن مرتبات الجيش والحاشية والمتصوفين في الأعمال»^(٢) .

وإذا كان بالإمكان اعتبار مبلغ «الثلاثة ألف دينار مبلغًا تقريبًا لعطاء الجنود وأرباب الوظائف فإنه قد يكون صحيحاً في بداية عصر الدولة الفاطمية ، إلا أنه بتعاظم القوة العسكرية للخلافة وتعدد فرق الجناد وازدياد نفوذ الوزراء وحواشيهم إزداد هذا المبلغ ، خاصة إذا ما أضفنا إلى هذه المرتبات ما كان يصرف من جرایات الطعام والكسوات لأرباب الوظائف . فمن المسلم به أن راتب الوزير كان خمسة آلاف دينار في الشهر ورغم ثبات هذا الرقم القريب من راتب الخليفة العباسي^(٣) ، إلا أن الامتيازات الأخرى المقررة كجرایات أو رواتب لحواشي الوزير وأولاده كانت متاثرة بمدى مكانة الوزير وقدرته على السيطرة على أمور الخلافة . ففي عهد الحاكم بأمر الله كان يصرف للوزير ابن عمار كل شهر ما قيمته ٥٠٠ دينار شهرياً للحم والحيوان والتوايل والفاكهه علاوة على سلة من الفاكهة كل يوم بدينار وعشرة أرطال شمع كل يوم وحمل ثلوج كل يومين^(٤) . وهو ما يتضاعل أمام ما كان يحصل عليه وزير من وزراء العصر الفاطمي الأخير وهو المأمون البطائحي ، الذي كان يساق إلى مطابخه ٨ آلاف رأس «أما الحيوان والأحطاب وجميع التوابيل فمهما استدعاه متولى المطابخ يطلق له» ، وذلك خارج عن الإقطاعات ومقدارها في السنة ٥٠ ألف دينار وعشرون ألف أردب قمحًا وشعيرًا ، فضلًا عن مقرر كسوة الوزارة في العيددين وفصلي الشتاء والصيف وموسم عيد الغدير وفتح الخليج وغير ذلك من غرة شهر رمضان وأول العام وغيره^(٥) .

وليس بإمكاننا أن نقرر ما إذا كانت الدولة الفاطمية تلتزم بدفع رواتب لأقارب الوزير في بدايتها أم لا ، وذلك لعدم توافر أي إشارة تاريخية إلى ذلك وإن جل ماوصلنا ، سواء عن طريق المقريزي أو القلقشندي ، كان عن طريق ابن الطوير . وغاية ما يمكن أن نسوقه من أدلة على التشكيك في وجود

(١) د. ماجد : نظم القاطمين - ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) عمر طوسون : مالية مصر - ص ٥٣ .

(٣) د. محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء - ص ٨٢ - عدا حالة المأمون البطائحي الذي وصل راتبه إلى ٣ آلاف دينار .

(٤) المرجع نفسه - ص ٨٣ .

(٥) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

هذا الالتزام هو ما أشارت إليه المصادر التاريخية من قيام العزيز بالله من تسديد ديون وزيره يعقوب بن كلس رغم ما عرف عنه من إتساع التفوذ وسعة الحال .

ومهما يكن من أمر فإن من يلي الوزير من ولد وأخ كان راتبه المقرر من ١٠٠ إلى ٢٠٠ دينار وإن كان شجاع بن شاور المتعوت بالكامل قد وصل راتبه إلى ٥٠٠ دينار بسبب تضعضع سلطة الخليفة . تم حواشي الوزير مهما كان عددهم من خمسة إلى أربعين إلى ثلاثة خارجاً عن الإقطاعات^(١) .

ولا شك أن إزدياد نفوذ وزراء التفويض منذ الشدة المستنصرية قد كلف الخزانة العامة وأنقل كاملها بالنفقات ، حيث عمل هؤلاء الوزراء على استمالة حواشيم بالأموال لضمان ولائهم وكانت الإقطاعات التي لاحظنا تزايدتها خلال النصف الأخير من حياة الخليفة الفاطمية أحد أهم وسائل التحايل على الرواتب المحددة بواسطة ديوان الرواتب ، بل إن بعض الوزراء لجأ إلى تحبس بعض الأراضي للإنفاق منها على ذويهم حتى بعد وفاتهم مثل الحبس الجيوش . مما كان يعني في المحصلة الأخيرة ضياع ربع هذه الأوقاف على الخزانة . ولم تقتصر زيادة النفقات على الأموال القدية ، إذ ازدادت النفقات العينية كالكسوات والجريات الغذائية ، تبعاً لمحولات الوزراء استمالة قلوب حواشيم ومؤيديهم ، فتذكرة الطراز كانت أيام الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي تشتمل على ٣١ ألف دينار ارتفعت في عهد خلفه الوزير المأمون البطائحي إلى ٤٣ ألف دينار ، تضاعفت بعد مقتله واستيلاء الخليفة الأمر بالحكم الله على السلطة^(٢) . وقد ضاعف المأمون الكسوة الشتوية عما كانت عليه أيام الأفضل لتصل إلى ما دون العشرين ألف دينار بقليل^(٣) .

وقد تحملت الخزانة العامة أيضاً متطلبات مظاهر الترف التي أحاط الوزراء العظام أنفسهم بها ، فعند مقدم بدر الجمالي لم يسكن بدار الديبايج التي كانت دار الوزارة القديمة وأنشاً داراً آخرى لهذا الغرض . ولما تلى من بعده ابنه الأفضل أنشأ دار القباب التي عرفت بدار الوزارة الكبيرى قريباً من رحبة باب العيد^(٤) . ونقل المقريزى عن ابن ميسر أنَّ الأفضل أقام فيها خيمة سماها خيمة الفرج بلغت تكاليفها ١٠,٠٠٠ دينار^(٥) يضاف إلى ذلك ما استحدثه المأمون من زيادة في نفقات الطيب حيث صار له راتب منها مستقل عملاً للخليفة وهو ما لم يكن موجوداً قبل ذلك . كما أنه قرر تقديم شراب حلو في إيوانه فأضاف ذلك إلى نفقات خزانة الشراب^(٦) .

(١) القلقشى : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٥٢٥ .

(٢) المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٣٩٩ - مع ملاحظة أنَّ ما ينقى في دار الطراز لاستعمالات الخاصة (الخليفة وحواشيه) في كل ستة عشرة ألف دينار . انظر : المصدر نفسه - ج ١ ص ٣٩٨ .

(٣) المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٤١ . وتفصيل ذلك ١٤,٣٠٥ قطعة مقارنة بـ ٨,٧٧٥ قطعة في عهد الأفضل .

(٤) المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٤٦١ .

(٥) المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٤٢٠ .

(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

أما رواتب أرباب الوظائف فإن المقرizi والقلقشندى أوردوا راتب كل وظيفة نقاً عن ابن الطوير^(١)، وإن كنا نجهل مدى تأثير هذه الرواتب بالمجتمعات والتائج التي نجمت عنها . ويلفت النظر ما أورده ابن الطوير من أن راتب قاضي القضاة كان في الشهر مائة دينار ومثله داعي الدعاء^(٢) ، وهو ما يتناقض مع ما ذكره ناصر خسرو الذي زار مصر في النصف الأول من حكم المستنصر من أن راتب قاضي القضاة ألفا دينار مغربي في الشهر ومرتب كل قاضٍ على قدر مرتبيه وذلك «حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم»^(٣) .

وقد يكون هذا التخفيض الذي أجري على راتب قاضي القضاة داعي الدعاء ناجماً عن تدهور الدعوة الدينية في آخر الدولة الفاطمية بفضل الوزراء العظام من المخالفين لمنذهب الإسماعيلية ، فضلاً عن تلقب الوزراء بألقاب : «كافل قاضي القضاة وهادي داعي الدعاء» وتحول من يتولى هذين المنصبين إلى مجرد وكيل عن الوزير في إدارة القضاء والدعوة^(٤) .

ولا شك أن الراتب الذي أورده ناصر خسرو يتاسب مع جلال المتنزلة التي كان يشغلها قاضي القضاة داعي الدعوة في أوائل الخلافة الفاطمية حيث كانوا على إتصال مباشر بال الخليفة وبلغ بعضهم نفوذاً واسعاً .

وقد تأثرت نفقات الدولة الأخرى بالمجتمعات نتيجة لانخفاض الإيرادات ، مما جعلها تتخلّى عن بعض واجباتها في الإنفاق .

ففي أثناء مجاعة ٣٩٧ - ٣٩٨ هـ ونتيجة للفتنة التي أثارها أبو ركوة ، أنفق الحاكم بأمر الله الأموال الطائلة لأجل القضاء على الفتنة وإعادة حالة الاستقرار للبلاد حتى إن وزن الأكياس التي أنفق أموالها وهي فارغة بلغ ٢١ رطلاً^(٥) . ونتيجة لأحداث المجتمعات اضطر الحاكم في شهر رجب عام ٤٠٢ هـ إلى قطع ما كان يصرف من الخبز والحلوى لمن يبيت بجامع القاهرة (الأزهر) في ليالي الجمع والأنصاف من شهور رجب وشعبان ورمضان^(٦) .

وإن لم تمنع المجاعة عام ٤٠٣ هـ الحاكم من أن يقوم بإحصاء المساجد التي لا غلة لها فكانت ثمانمائة مسجد فأطلق لها في كل شهر من بيت المال ٦٢٢ درهماً^(٧) .

(١) المصدر نفسه - ص ٤٠١ - ٤٢٠ - ٤٢١ ، القلقشندى : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٥٢٥ - ٥٢٧ ، وقد عاش ابن الطوير في أوائل العصر الأيوبي - د. ماجد : ظهور خلافة - ص ٢١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٥٢٦ ، د. عطية مشرفة : نظم - ص ٢٥٨ .

٦٥

٦٥

(٣) ناصر خسرو : سفر نامة - ص ٦٥ .

(٤) ظل وزير السيف يتولى منصب قاضي القضاة على الأقل حتى ولادة بهرام التصراني للوزارة في خلاة الحافظ فولى قاضياً بدلاً منه لأنه كان نصراً . انظر : د. عطية مشرفة : نظم - ص ٣٧٢ .

(٥) مؤلف مجھول : إنسان العيون - ص ٤١٠ .

٤٦٦

٤٦٦

(٦) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٤٦٦ .

(٧) أيمن فؤاد سيد : نصوص ضائعة - ص ٣١ . وفي نفس هذا العام قام الحاكم بإيقاف ريعاً وحوافيت على الجامع الأزهر وجامع

ويلاحظ إن الحاكم أقر مرتبات الفقهاء والمؤذنين بجواجم القاهرة كما هي دون تقصان ، وكان مقدارها في ٤٠٦ هـ ٧٣٠ دينار^(١) ، ولعل ذلك يعطي بعدها جديداً لعقلية الحاكم بأمر الله وقوه إدارته التي جعلته يفرق بين الالتزام بالمصروفات الأساسية للدولة والمتعلقة بأعمال العبادات والرواتب وبين إمكانية التغاضي عن بعض المصروفات غير الملحة كصرف الخبز والحلوى . ولما كان النظام المالي للدولة الفاطمية يرتكز على قاعدة تخصيص كل إيراد لنفقة معينة وما نعرفه عن تخصيص خراج الأرض وبعض المكوس لأجل سداد الرواتب فإن أحداث المجاعات كانت مصحوبة عادة بعجز الدولة عن سداد الرواتب أو تأخيرها في أحسن الأحوال .

وكان مصدر التخوف الرئيسي في هذه الحالة يأتي من قبل فرق العسكر التي سرعان ما تلجم إلى السلاح لأجل تعويض راتبها الموقوف .

ومن خلال ما ذكرته المصادر التاريخية نستطيع أن نقرر باطمئنان أن ثورات العبيد واختطاف الأمن أثناء مجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ في عهد الظاهر مرجعه الأساسي ارتفاع الأسعار مع عدم وفاء الدولة بتسديد رواتب الجنود وخاصة خلال عام ٤١٥ هـ . حيث اشتكى طوائفه العسكرية من الفقر وال الحاجة فلم يجذبوا^(٢) . وحتى التجربة التي أرسلت إلى تونس ثاروا على عاملتها في شعبان ٤١٥ هـ لتتأخر رواتبهم ، واستولوا على ١٥٠٠ دينار من إيرادات الدولة^(٣) . وعندما طلب من العميد محسن بن بدوان صاحب بيت المال أن يحمل المال لينفق في الرجال خشية الفساد اعتذر صاحب بيت المال بأنه ليس لديه «إلا يسير الموفور لخواص مهمات الخليفة» ، وعارض الجرجراطي اقتراحًا بمصادرة التجار لأن تجار مصر أصبحوا «هلكي من الغلاء» ولا مال لهم^(٤) ، وأضطررت الدولة إلى الاستدانة ، ففي الخامس والعشرين من ذي الحجة عام ٤١٥ هـ حمل الأمير بهاء الدولة مظفر مبلغ عشرة آلاف دينار على سبيل القرض وطلب من أبي طالب الحسني العجمي متولي الصناعة قرضاً بنفس القيمة فسأوم حتى وصل القرض إلى خمسة آلاف دينار بعد أن خمن أبو القاسم الجرجراطي أن يعاد المبلغ إليه بعد ذلك^(٥) .

وبعأً لتredi الحالة المالية عجز الظاهر عن تسديد كامل ما كان ينفق للحسينين بعكة من أموال ، ففي ٥ ذي الحجة أطلق لهم ألف دينار يرتفقون بها وأمرت لهم أم الظاهر أيضاً بشيء من عندها^(٦) .

الucus وجماع الحاكم وجامع راشدة ودار العلم بالقاهرة .

(١) د. عبد المنعم غابد : الحاكم بأمر الله - ص ٨١-٨٢، د. صلاح البغيري : عالية الحضارة الإسلامية - ص ٧٨-٨١.

(٢) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤.

(٣) المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ١٥٧.

(٤) المصدر نفسه - ص ١٥٤ ، المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤.

(٥) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٨٦.

(٦) المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ١٦٦ ، يلحوظ أحياناً من سياق كتابات المؤرخين أن مال الخليفة وأهله كان يعد مالاً خاصاً لا علاقة له

وانتظر الوفد المكي حتى ٢٥ من ذي الحجة فلductت لهم الدولة النصف من واجباتهم ، إلا أنها الفتوح حسن بن جعفر فإنه لم ينفذ إليه بشيء ووعد بأن يرسل له المال عن طريق البحر ، فعاد الوفد المكي إلى مكة ساخطاً على عجز الخليفة عن تحمل واجباته المالية تجاه بلادهم^(١) .

وقد ارتبطت المجامعتات في الغالب بعجز الخليفة عن تسليم أموال الحجاز التي كانت عاملاً رئيسياً في الحفاظ على ولاء حكام الأراضي المقدسة للفاطميين ، وظهر ذلك بجلاء أثناء الشدة المستنصرية وخاصة مع تعاظم قوة السلاجقة ودخولهم حلبة المنافسة في الإنفاق على الحرمين ، فاستطاعوا أن يحولوا ولاء الحجاز لصالح العباسين أيام الشدة المستنصرية كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

كما أن الخزانة الفاطمية أرهقت قبل الشدة بإنفاقات حروب العبيد والأتراء ، فقد تكلفت الأتراء في عبورهم إلى الجيزة لمحاربة العبيد عام ٤٥٩ هـ مليون دينار^(٢) .

وفي أثناء الشدة العظمى كان الإنفاق يتم على خلاف قواعد الرواتب ، فقد أنفقت الخزانة العامة في غير استحقاق ٣ ملايين دينار خلال خمسة عشر شهراً أولها شهر صفر عام ٤٦٠ هـ^(٣) .

ولعل الحالة الوحيدة التي زادت فيها الرواتب أثناء المجامعتات كانت تلك الزيادة التي أقرها ابن حمدان أثناء الشدة المستنصرية حيث أجر الخليفة على زيادة رواتب الأتراء بالجيش حتى نفذت الخزائن^(٤) ، فرفع راتبهم عام ٤٦٠ هـ من ٢٨ ألف دينار إلى ٤٠٠ ألف دينار^(٥) والمعلوم أن الجنود استوفوا حقوقهم عن طريق بيع محتويات خزائن المستنصر عندما عجزت الخزانة الخاوية عن دفع رواتبهم^(٦) .

وقد احتفظ لنا المقرizi بنص توقع للخليفة الحافظ لدين الله على استمرار الرواتب ، جاء به : «إن أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثيراً لإعطاء، ولا يكره بالتأخير له والتسوف والإبطاء . ولما انتهى إليه ما أرباب الرواتب عليه من القلق للامتناع من إيجاباتهم وحمل خروجاتهم قد ضعفت قلوبهم وقطعت نفوسهم وساعت ظنونهم، شملهم برحمته ورأفته وأمنهم مما كانوا وجلين من مخافته ... إلخ^(٧) .

بمال الدولة ، وإنفاق منه كان يتم على سبيل المتع والمن .

(١) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤ ص ٨٦ .

(٢) المقرizi : اتفاقيات - ج ٢ ص ٢٧٣ .

(٣) المقرizi : اتفاقيات - ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٤) أبو المحاسن : التجوم - ج ٥ ص ١٢٣ .

(٥) المقرizi : اتفاقيات - ج ٢ ص ٢٧٥ ، د . واشد : حالة مصر - ص ٩٠ ، وكان ذلك عام ٤٦٥ هـ . وكان الراتب ٢٨ ألف دينار وليس ٢٠ ألفاً كما ذكرت الباحثة إنصاف رياض . انظر : الحالة الاقتصادية - ص ١٣٠ .

(٦) انظر كتاب النهاوى والتحف .

(٧) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٣٩٨ ، نقلاً عن ابن الطوير .

ويظهر من توقيع الخليفة الذي أنهاه بإقرار الجميع على رواتبهم دون نقص ، أن الدولة قد تأخرت في سداد الرواتب ، ولعل ذلك كان بسبب إحدى المجاعات التي مرت بمصر أثناء حكم الحافظ لدين الله ، وربما كان هذا التوقيع أثناء سنوات المجاعة الهائلة التي عصفت بالبلاد خلال الأعوام من ٥٣٨ - ١١٤١ هـ / ١١٤٣ - ٥٣٦ م .

وقد تسبّب الضعف المالي للدولة الناجم عن المجاعات في قلة الاهتمام بمشروعات الري الكبيرة إذ لم تشر المصادر التاريخية إلى مشروعات ري كبيرة في العصر الفاطمي الأخير .

الأسعار

تکاد ظاهرة تحرك الأسعار أن تكون القاسم المشترك الأعظم بين مختلف أحداث المجاعات التي وقعت بمصر مهما اختلفت الأسباب التي وقفت خلف هذه المجاعات ، سواء كانت طبيعية أو سياسية أو اقتصادية .

ومن خلال الدراسة التفصيلية لأسباب وحوادث المجاعات يمكن القول بأن العوامل الطبيعية ، كالفيضان وانتشار الآفات والرياح ، لم تكن هي العوامل المؤثرة في احتفاء السلع الغذائية .

وبعد التحكم في عرض السلع - لا ندرتها - أهم العوامل على الإطلاق في ارتفاع الأسعار ، خاصة وأن إنتاج مصر من الحبوب في حالة وفاة الفيضان كان يكفيها لمدة عامين ويمكن تتبع حالات التحكم في عرض الحبوب ، منذ قيام تجارت الجملة بشراء الحبوب وهي بعد لا تزال محصولة في الأرض عن طريق تسليم ثمنها - أو معظمه - مقدماً لل فلاح حتى يتسع له شراء البذور ودفع الضرائب المقررة عليه ، ويقوم هؤلاء التجار بخزن الغلال حتى إذا ما ارتفعت الأسعار قاموا ببيعها^(١) .

ويحدثنا ناصر خسرو عن تاجر قبطي من أثرياء مصر ، إلتجأ إليه الخليفة الفاطمي عند انخفاض الفيضان ليعطيه ما يستطيع من الغلة ، إما نقداً وإما قرضاً ، فقال له التاجر إن لديه من الغلة ما يكفي لإطعام أهل مدينة مصر ست سنوات^(٢) . ومع الضرب صفحأ عمما قد يكون في قول ناصر خسرو من مبالغة فإنه لا يمكن أن تخفي الطرف عن قدرة كبار التجار على خزن الغلال ، بل واحتكارها ، بحكم قوتهم التمويلية الضخمة . وتتضاعف أهمية الإحتكار فيما سبق ذكره من قيام الوزير اليازوري بالاستيلاء على مخازن الغلال الخاصة بالتجار وبيعها للجمهور بسعر يعادل حوالي ثلث السعر الذي كان يباع به في الأسواق مع إعطائهم هامش ربح قليل^(٣) ، وهذا الإجراء من الناحية الفقهية لا غبار عليه ، حيث نهى الرسول الكريم (ص) عن الإحتكار فقال (لا يحترك إلا

(١) المغرizi : إغاثة - ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامة - ص ٦٢ .

(٣) كان ذلك خلال أعوام ٤٤٧ - ٤٤٨ هـ - انظر الفصل الأول .

خطيء) والمحتكر هو الذي يعمد إلى شراء ما يحتاج إليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاعه عليهم^(١).

وبجانب إجراء المصادر لجأت الدولة الفاطمية إلى أسلوب آخر لكيح جماح ارتفاع الأسعار أثناء المجاعات . وقد سبقت الإشارة إلى الأهراء السلطانية والمتجز السلطاني الذي كان يشتري في كلّ عام ما قيمته مائة ألف دينار من الحبوب ليوزع وقت الحاجة على الطحانين والخبازين^(٢) ، ودخول الدولة كتاجر مشارك في السوق يكاد يقارب فكرة تدخل الحكومات في تجارة الجملة أو تقديم السلع المدعومة للمجاهور . ومن شأن هذه السياسة أن تحدّ من ارتفاع الأسعار أثناء الأزمات بحيث يصبح التضخم السعري مكبّوتاً بهذه القيود^(٣) .

ولم يكتف الفاطميون بالتدخل في تجارة الجملة بل لجأوا إلى إقامة متاجر بيع الغلال ودكاكين الخبز المملوكة للدولة بقصد ثبيت سعرهما أو ترخيصهما^(٤) . وتجلد الإشارة إلى أن الدولة كانت تلجأ في حالات كثيرة إلى إلغاء الوسطاء في عملية تداول وبيع اللائق والقمع ، فلم تكن تسمح ببيع القمع إلا للطحانين ولا يخرج الدقيق من المخازن إلا إلى المخابز . ومن الملاحظ أن الخوف من المستقبل المجهول كان يساعد على تفاقم الأزمات الاقتصادية ، فما أن يستشعر الناس توقف النيل عن الزيادة حتى يقوموا بخزن الغلال ويحجموا عن عرضها في الأسواق توهماً بحدوث المجاعة أو طلباً لمزيد من الكسب^(٥) .

وكان الفاطميون يواجهون ذلك ، إما بمحاولة إخفاء أمر الفيضان عن طريق منع المنشادة بزيادته ، كما أمر المعز لدين الله ، أو عن طريق التهديد بعقاب من يخزن الغلال ، مثلما فعل الحاكم بأمر الله ، وعلى الرغم من هذه الإجراءات إلا أن ذلك لم يحل دون قيام الناس بخزن الحبوب .

أما لجز الدولة إلى سياسة التسعير فلم نسمع عنه في عصر الفاطميين قبل خلافة الحاكم بأمر الله . فعلى الرغم من ارتفاع الأسعار عند فتح جوهر لمصر ووعده فيأمانة للمصريين بإلزام الصناع والأسعار وتوفير الأقواف^(٦) ، إلا أنه لم يلنجا إلى التسعير وأكفي بضبط ما يرد إلى الساحل من غلال منعاً للإحتكار^(٧) . ويرجع تخوف جوهر من اللجوء إلى التسعير إلى معارضه معظم الفقهاء لإجراءات

(١) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام - المطبعة السلفية - القاهرة ١٤٠٠هـ - ص ١١.

(٢) د. ماجد : امرأة تزعم - ص ٣٥.

(٣) د. رمزي زكي : مشكلة التضخم في مصر - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٠ - ص ٢٣.

(٤) د. ماجد : امرأة مصرية - ص ٣٥.

(٥) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٨١.

(٦) د. عطية مشرفة : نظم الحكم - ص ٣٩٥.

(٧) المقريزي : اتعاظ - ج ١ ص ٧١، ١٦٩.

التسعير، ولم يشاً جوهر فيما يبدو أن تستثار حفيظة رعاياه المصريين ضد الدولة الفاطمية الناشئة، ويستند الفقهاء في ذلك إلى ما روى عن الرسول (ص) عندما طلب منه أن يسرع لل المسلمين بسبب ارتفاع الأسعار فقال «إن الله هو القابض الباسط الرازق المسعر وإنني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد لمظلومة ظلمتها إياه في درهم ولا مال»^(١) ولا يمكن أن يعد لجوء الحاكم للتسعير تحدياً للدين الإسلامي أو خروجاً على تعاليمه ، إذ أن جمهور العلماء اشترطوا «قيام الناس بالواجب» أي قدرتهم على الدفع حتى لا يحد لأهل الأسواق حد لا يتتجاوزونه في السعر^(٢) ، وهو ما لم يكن قائماً مع تزايد الأسعار الجنوني وعدم وفاء دخول وثروات عامة الناس بشراء احتياجاتهم من السلع الغذائية ، وفضلاً عن ذلك كان الحاكم يجمع التجار ويتفق معهم على تسعير كل صنف من الغلال بشمن معين لا يزيد ولا ينقص^(٣) ، ولعل في ذلك محاولة لتحقيق السعر العادل Foter Price الذي كان سائداً في أوروبا في العصور الوسطى وبلاد المسلمين وهو السعر الذي ليس فيه غبن على التاجر أو إرهاق للمستهلك^(٤) .

ولا يمكن اعتبار السعر الذي يقرره أبناء الطائفة فيما بينهم وبين المحاسب بواسطة عريفهم نوعاً من أنواع التسعير بل هو أقرب إلى التسعيرة الودية التي تحاول الاقتراب من فكرة السعر العادل ، ويدرك ناصر خسرو أن التجار في مصر كانوا يبيعون بأسعار محددة^(٥) ، ويفيد ذلك حادثة عريف الخازين الذي ضرب خبازاً لأنه باع بأقل من السعر المتفق عليه بين أبناء الطائفة والمحاسب^(٦) وهو ما استنكره البازوري في حينه مع أن ذلك جائز شرعاً لأن في الحفاظ على ذلك السعر العام مراعاة لمصلحة الجمورو والعبرة بهذه المصلحة^(٧) .

ولم تكون سياسة التسعير هذه تؤتي ثمارها المرجوة في جميع الأحوال ، فنعرف أنها نجحت على عهد الحاكم بأمر الله لشدة رعب الناس منه وسلطته^(٨) ، وفشلت في أثناء مجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥ م بسبب التواطؤ بين رجال الدولة والتجار ، ولم تتبع عام ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م بسبب معي رضوان بن ولخي إلى تأليب الرعية على الخليفة الحافظ لدين الله .

ومهما يكن من أمر ارتفاع الأسعار ومحاولة التغلب على ذلك فإن بداية الشعور بالضائقة

(١) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام - ص ١١.

(٢) نفسه ص ٢٠.

(٣) ابن إياس : بذائع الزهور - ج ١ ص ٢٥٥ ، وتراضي أهل السوق مع الإمام على السعر جائز عند ابن حبيب . انظر : ابن تيمية : الحسبة - ص ٢٠.

(٤) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٢٧٣ .

(٥) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٢٧٣ .

(٦) المقريزي : إغاثة - ص ١٧ - ١٩ .

(٧) ابن تيمية : الحسبة - ص ٢٠ - ٢١ .

(٨) ابن إياس : بذائع - ج ١ ص ٥٥ .

الاقتصادية وارتفاع الأسعار يكون عادة في الفسطاط والقاهرة، وذلك بسبب اعتمادها على غلات الأقاليم وخاصة الوجه القبلي^(١) ، وإن كانت الفسطاط تظل أرخص في السعر بسبب قرب النيل من الفسطاط ، فالمرأكب التي تصل بالمحاصيل ترسو هناك وي Bauer ما يصل فيها بالقرب منها «وليس يستحق ذلك في ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة»^(٢) .

ويلاحظ من كتابات المؤرخين أن الغلاء لم يكن يشمل الريف إلا عند تضليل عوامل نقص الفيضان وانتشار الأوبئة واحتلال الأمن مثلما حدث في الشلة المستنصرية .

وقد شملت حركة الأسعار كافة السلع، سواء الغذائية أو غيرها من السلع المعيشية كالآمنة والملابس وإن اتسمت كل منها بالتحرك في اتجاهين متباينين تماماً ، في بينما ترتفع أسعار السلع الغذائية تنحدر قيمة الآمنة وما شابهها ، وذلك بتأثير قوانين العرض والطلب ، وهو طلب بطبيعته غير مرن فترتفع الأسعار ، وبالمقابل تتجه كميات النقد الموجدة بأيدي الناس إلى شراء الأغذية ويعرض الناس امتحنهم لأجل تأمين التغذية الضرورية ، وأمام كثرة المعروض من الآمنة وقلة الطلب عليها تختفي أسعارها ، تلك العلاقة العكسية هي أول ما يميز حركة الأسعار أثناء المجاعات .

١ - السلع الغذائية

تشمل قائمة السلع الغذائية كلَّ ما يحتاجه الإنسان لغذائه من مأكل وشراب ، في كافة صوره سواء كانت محاصيل تحصل من الأرض أو حيوانات أو يدخل فيه العمل الإنساني بالصنعة والتحويل ، ويمتد أيضاً إلى الأشربة وخاصة الماء وما قد يستعمل كدواء أثناء حالات انتشار الأوبئة .

أولاً : تطور سعر القمح ومشتقاته :

يعد القمح الغذاء الرئيسي للسكان وخاصة في المدن ، وهو أول السلع التي تخفي عند استشعار حدوث المجاعة ، وطبيعي أن يمتد ذلك إلى مشتقات القمح من الدقيق والخبز .

ويعتنينا بداية أن نصل إلى تحديد سعر تقريري للقمح في خلال العصر الفاطمي في غير أوقات المجاعات ، إذ لم تشر المصادر التاريخية إلى سعر القمح في الأوقات العادلة ، وإن كان لدينا ثلاثة أسعار للقمح ، أحدها قبل العصر الفاطمي والثاني في العصر الأيوبية والأخير في العصر المملوكي . السعر الأول ورد في بردية نشرها Grohmann وترجع إلى صفر عام ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م ، وهي تتضمن بعض الأسعار الخاصة بسلع اشتراها كاتب البردية ، بهمنا منها أن متوسط سعر القمح

(١) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٨١.

(٢) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٣٦٧.

كان ٢٣ / ١ أرجب لكل دينار^(١) ، وباستخدام القياس المتري^(٢) ، نجد أن هذه الكمية توازي ٤٠٠،١٧٠ كيلو جرام .

أما السعر الثاني فقد أورده المقريزى نقاً عن القاضى الفاضل الذى ذكر أن سعر القمح أثناء الرخاء الذى عمّ البلاد عام ٥٨٧ هـ بلغ مائة أرجب بثلاثين دينار^(٣) . ومعنى هذا أن الأرجب الواحد كان بثلث دينار أي بحوالي ٤٥،٠٠٠ من الدينار للكيلو جرام . والسعر الأخير ينقوله القلقشندي عن كتاب : مالك الأ Biasar - المقرى الشهابى ابن فضيل الله^(٤) ، الذى ذكر أن أواسط سعر أرجب القمح أيامه ١٥ درهماً^(٥) .

وإذا ما أخذنا في الاعتبار استمرار ارتفاع قيمة الذهب (الدنانير) مقارنة بالفضة (الدرهم) نتيجة لعامل الندرة ، حيث بلغ سعر الدينار بعد موت الناصر فرج ثلاثين درهماً^(٦) ، نجد أن سعر الأرجب الواحد حوالي نصف دينار ، أي أن ثمن الكيلو جرام هو ٦٨،٠٠ من الدينار .

فإذا اعتبرنا من الناحية الحسابية فقط أن الدينار يوازي مائة قرش فإن هذه الأسعار تكون على النحو التالي :

١ - سعر عام ٢٨٨ هـ	٥ مليم للكيلو جرام (سعر للأجل)
٢ - سعر عام ٥٨٧ هـ	٤ مليم للكيلو جرام .
٣ - سعرها قبل عام ٧٤٩ هـ	٦،٨ مليم للكيلو جرام

ويكون متوسط هذا السعر ٧٣،٥ مليم للكيلو جرام الواحد ، وهو لا يبتعد كثيراً عن سعر عام ٢٨٨ هـ وهو ما اتخذه أساساً للسعر العادى أثناء العصر الفاطمي ، كما هو مبين بلوحة الأسعار . وباعتبار أن سعر الدينار بالدرهم تراوح ما بين ١٥،٥ و ١٦ درهماً فإن السعر المعتمد للمقمح بالدرهم بالنسبة للكيلو جرام يكون ٠٩،٠ من الدرهم .

(١) Grohman (A) . Arabic Papyri in the Egyptian Library . Vol . VI , Cairo 1962 . PP . 35-36 . PLS . III - IV .

ففي السطر ١٧ بـ ٢١ أرجب لكل دينار ، وفي السطرين ٢١،٢٠ (٣) دينار عن ثمن ٨ أرجب وهو ما يعني أن كل دينار يشتري ٢،٢٨ أرجب أي $\frac{1}{3}$ أرجب .

(٢) انظر : هتسن (فالتر) : المكابيل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في التظام المتري ، ترجمة عن الألمانية : د. كامل العسلي : عمان ١٩٧٠ - ص ٤٥ ، الأرجب يوازي ١٢٥،٧٣ كيلوغراماً .

(٣) المقريزى : الخطط - ج ٢ ص ٢٤ .

(٤) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى فضل الله العمري المتوفى ١٣٤٩ هـ / م مؤلفه هو مالك الأ Biasar . انظر : د. أحمد عبد الرزاق : دراسات في المصادر المملوكية المبكرة - القاهرة ١٩٧٤ - ص ٤٧ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٤٤٧ .

(٦) المقريزى : إغاثة - ص ٧٢ .

وإذا ما بدأنا دراسة تطور سعر القمبح قبل العصر الفاطمي فإننا سنجد أن سعر الكيلو جرام منه بلغ ٤٩٧ ، من الدرهم عام ٣٤٣ هـ^(١) . ثم ارتفع بعد تسعه أعوام أي عام ٣٥٢ هـ^(٢) إلى ٦٦٦ ، من الدرهم وتضاعف في المدة من ٣٥٦ - ٣٥٧ هـ^(٣) ليبلغ ١,٢٣٥ من الدرهم ، وما أن أصبحت مصر على اعتاب الغزو الفاطمي حتى بلغ سعر الكيلو جرام عند فتح جوهر لمصر عام ٣٥٨ هـ^(٤) ٢,٣٢٥ درهماً .

أما في خلافة الحاكم فإن أقصى سعر وصل إليه القمبح كان خلال عام ٣٩٧ هـ^(٥) ١٠٠٦ م حيث بلغ سعر الكيلو جرام ٧٣٨ ، من الدرهم ، وكان سعر التسuir الذي قرره الحاكم في عام ٣٩٧ هـ^(٦) للكيلو جرام هو ٢٣٥ ، من الدرهم أي أقل قليلاً من الثالث . وبهمنا هنا أن نذكر بعبارة للمقريزى وردت عند حديثه عن مجاعات العصر الإخشيدى (٣٥٢ هـ) من أن الأسعار تضاعفت ثلاث مرات بما هي عليه^(٧) ، ومع ذلك يبقى هذا التسuir دون مستوى السعر العام حيث أن نسبة التضخم به تبلغ نحو ٢٦٥٪ من السعر العادى ، ومعنى ذلك أن معدل التضخم في سعر القمبح خلال عصر الحاكم يصل إلى ٨٢٠٪ من السعر العادى ، واتخذ التضخم في سعر القمبح شكل التضخم الزاحف Creeping Inflation^(٨)، بمعنى تزايد السعر من فترة لأخرى في خلال المجاعة التي وقعت في عهد الظاهر ٤١٤ - ٤١٥ هـ / ٢٣ - ١٠٢٤ م ، ففي خلال جمادى الآخر ٤١٤ هـ^(٩) بلغ سعر الكيلو جرام ١٦٤ ، من الدرهم وتضاعف بعد نهاية هذا الشهر^(١٠) إلى ٣٢٨٢ ، من الدرهم ثم تضاعف للمرة الثالثة في ربيع الأول^(١١) ليصل إلى ٤٩٥ ، من الدرهم ، أي أن السعر تضاعف بنسبة ٣٠٠٪ في المدة من جمادى الآخر ٤١٤ إلى ربيع الأول ٤١٥ هـ ، أي خلال ٩ شهور فقط ، وقد ظل هذا السعر قائماً حتى ١٧ من ذي القعدة^(١٢) فوصل سعر الكيلو

(١) ٢,٥ وبة بدينار . المقريزى : إغاثة - ص ١١ .

(٢) ٢ وبة بدينار . المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) وبة بدينار : المصدر نفسه - ص ١٢ .

(٤) المقريزى : انتهاز - ج ٢ من ١٦٨ (٩ أقداح بدينار) .

(٥) المقريزى : إغاثة - ص ١٦ .

(٦) المقريزى : إغاثة - ص ١٥ .

(٧) المصدر نفسه - ص ١١ .

(٨) د. رمزي ذكي : التضخم في مصر - ص ٢٣ .

(٩) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ من ١٢ - ١٣ .

(١٠) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١١) المقريزى : انتهاز - ج ٢ من ١٤٢ .

(١٢) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ من ٨٦ .

جرام إلى ٥١٢ ، من الدرهم ليقفز في ذي الحجة^(١) إلى ٧٠٧ ، من الدرهم . ومعنى ذلك أن نسبة التضخم في سعر القمح خلال عهد الظاهر وصلت إلى ٧٨٥٪ من السعر العادي أما التسuir الذي عمل به لمدة يوم واحد وهو ١٦ ذي القعده عام ٤١٥ هـ^(٢) فقد جعل سعر الكيلو جرام ٤١٠ ، من الدرهم ، أي بنسبة تضخم ٤٥٥٪ .

أما في خلافة المستنصر بالله فإن سعر القمح سجل أعلى معدلات التضخم المعروفة في العصر الفاطمي ، وربما في مصر الإسلامية على الإطلاق . ففي مجاعة عام ٤٤٦ - ٤٤٧ هـ^(٣) مبلغ سعر الكيلو جرام ١,٣١٢ درهماً أي بنسبة تضخم قدرها ١٤٥٪ في حين أن التسuir الذي طالبت الدولة أن يبيع التجار على أساسه جعل سعر الكيلو جرام ٤٩٥ ، من الدرهم أي أن نسبة التضخم به بلغت ٥٥٪ .

يبدو أن نسب التضخم هذه تتضاعل بجانب ما كان عليه الحال أثناء الشدة المستنصرية ٤٥٧ - ٤٦٤ هـ / ١٠٦٤ - ١٠٧١ م وإن كانت هذه الأسعار تؤخذ بجانب من الخبر لما في بعضها من مبالغات واضحة خاصة من قبل المؤرخين المتأخرین . وأقل تقدير لسعر القمح كان عام ٤٦٤ هـ^(٤) حيث بلغ سعر الكيلو جرام ٤,٠٦٣ درهماً أي نسبة تضخم قدرها ٤١٤٪ . يليه تقدير آخر في نفس العام^(٥) يجعل سعر الكيلو جرام من ١,١٢٦ درهماً إلى ١٢,١٩٠ درهماً . أما تقديرات الأسعار خلال عام ٤٦١ هـ فمتباينة ، أقلها^(٦) يصل بسعر الكيلو جرام إلى ١٥,٣١٦ درهماً ، وقرب منه تقدير ابن الزيارات لسعر الكيلو خلال الشدة المستنصرية بـ ١٥,٥٣٥ درهماً ، أي بنسبة تضخم تصل إلى ١٧٠٧٪ ، ثم تقدير آخر^(٧) يجعل سعر الكيلو ١٧,٥٠٤ درهماً ، وبالتالي ترتفع نسبة التضخم إلى ١٩٤٪ ، وأعلى سعر لنفس العام ورد في النجوم الزاهرة^(٨) وهو ٢١,٨٨ درهماً للكيلو جرام ، أي بنسبة تضخم قدرها ٢٤٣٪ . أما أقصى سعر للكيلو

(١) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤١ ص ٧٥ - ٧٤ ، المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ١٦٥ .

(٣) ابن منج الصيرفي : الإشارة - ص ٤٢ ، المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٤) المقريزي : إغاثة - ص ٢٠ - ٢١ .

(٥) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٦) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٧) المصدر نفسه - ص ٢٩٩ .

(٨) ابن الزيارات : الكواكب السيارة - ص ١٧٧ .

(٩) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ٢٦٧ ، كذلك ورد نفس السعر عند الحديث عن سعر القمح أثناء الشدة في المقريزي : إغاثة الأمة - ص ٢٣ .

الحطط - ج ١ ص ٣٣٧ ، نقلًا عن الجواني ، ابن إبراهيم : بدائع - ج ١ ص ٦٠ ، وهو نفس التقدير الذي أورده أبوالمحاسن التنجوم - ج ٥

ص ٧٩ .

(١٠) أبوالمحاسن : النجوم - ج ٥ ص ٨٣ .

جرام من القمح فقد وصل في تقديرات البعض^(١) إلى ٤٣,٧٦٠ درهماً للكيلو جرام الواحد، أي بنسبة تضخم ٤٨٦٤٠٪.

وهذه الأسعار حتى في حدتها الأدنى تشكل أكبر نسب التضخم في أسعار العصر الفاطمي وهي ولا شك تناسب مع حالة الانحدار والشلل الكامل الذي أصاب اقتصاد البلاد والتحلل الذي أكفل يد الإدارة عن التدخل في الأسعار أو القضاء على الفتن والثورات وأوضطرابات الأمن الداخلي.

في مجاعة ٣٩٧ هـ / ١١٠٣ م بلغ سعر الكيلو ٦,٥٦٤ درهماً لمدة ٦ أشهر^(٢) ، أي أن نسبة التضخم وصلت إلى ٧٢٩٣٪ وهو رقم يبعث على التشكيك خاصة وأن البلد لم تكن في حالة قحط شديد، يضاف إلى ذلك بعد الزمني لابن إيس عن العصر الفاطمي ، ولدينا تقدير آخر لسعر القمح خلال هذه السنة أورده العلامة المقرizi^(٣) وهو ٢٨٤٪ من الدرهم لكل كيلو جرام وتكون نسب التضخم في هذه الحالة ٣١٥٪ فقط ، أي نحو ثلاثة أضعاف السعر الطبيعي .

وقد نزل التسuir بثمن الكيلو إلى ما دون السعر العادي بلغ سعر الكيلو ٦٥٪ من الدرهم^(٤) ، والغريب أنه بعد أن تم البيع على أساس هذا السعر للطهانين فقط منعاً للوساطة، تسربت كميات إلى أيدي الناس فباعوها في السوق السوداء على أبواب المخازن بسعر ٢١٨٪ من الدرهم^(٥) للكيلو جرام ، أي بأكثر من ثلاثة أضعاف سعر الشراء . وذات السعر كان للكل جرام من القمح أثناء مجاعة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م^(٦) . ثم تضاعف ذلك الرقم ثلاث مرات في عام ٥٣٣ هـ فبلغ سعر الكيلو ٦٥٦٤٪ من الدرهم^(٧) ووصل الأمر إلى حد بيع الغلال الفاسدة في نفس العام مع اشتداد الأزمة بسعر ٨٧٥٪ درهماً للكيلو جرام^(٨) .

وواصل التضخم الزاحف لسعر القمح نمواً ، فبلغ سعر الكيلو جرام عام ٥٣٦ هـ / ٤١-١١٤٢ م ١,٢٣٠٪ أي نسبة تضخم قدرها ١٣٦,٦٪ ، وانخفض عام ٥٥١ هـ إلى ١,٠٩٤٪ درهماً للكيلوجرام^(٩) وقدرت بالتبعية نسبة التضخم إلى ١٢١,٥٪ .

(١) وهو ٢٠٠ دينار للأردب . انظر : ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٣٤ ، د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ٩٤ ، نقلًا عن التوبيري .

(٢) ابن إيس : بدائع الزهور : ج ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرizi : إغاثة - ص ٢١ .

(٤) المصدر نفسه - ص ٢٦ ، وهو يماطل تقدير القاضي الفاضل لسعر القمح في عصره . انظر : المقرizi : الخطط - ج ٢ ص ٢٤ .

(٥) المقرizi : التعاظ - ج ٣ ص ٦٦-٦٧ - هامش ٤ .

(٦) المصدر نفسه - ص ١٣٣ .

(٧) المصدر نفسه - ص ١٦٨ .

(٨) المقرizi : التعاظ - ج ٣ ص ١٦٩ .

(٩) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٥ .

(١٠) المقرizi : إغاثة - ص ٢٧ .

سعر الدقيق :

الدقيق هو طحين القمح ، ولذا فإن ارتفاع سعر القمح أثناء المجاعات يؤدي إلى رفع سعره بالتبعية ، إضافة إلى تزايد أجور الطحانيين ، باعتبار العمل المبذول في الطحن سلعة خاصة للتغير ، ولدينا إشارة واضحة لقيام الطحانيين برفع أجور الطحن إذ أخذ الطحانيون في ذي القعدة عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م «في طحين القفة القمح خمسة دراهم»^(١) وهو ما يعادل سعر أكثر من ١٠ كيلو جرامات من القمح وقتها (٥٢٨،٠ من الدرهم لكل كيلو) .

وإذا كانت الدولة تستطيع أن تحكم في سعر القمح عن طريق محاصرة السواحل التي ترد إليها الغلة أو البيع من مخازنها بالسعر الذي تحده ، فإن التحكم في سعر الدقيق - مرحلة ما قبل الخبز - كان يتم عن طريق قصر بيع القمح للطحانيين والتشديد عليهم بالبيع بالسعر المنخفض^(٢) . ولم تشر المصادر التاريخية إلى سعر للدقيق قبل أو خلال العصر الفاطمي في الأوقات العادمة ، وأول ما وصلنا عن أسعار الدقيق كان في عهد الحاكم بأمر الله عندما استشعر الناس توقف زيادة النيل عام ٣٩٧ هـ ولجهة الحاكم إلىأخذ ما في مخازن الغلال والمطاحن والمخابز وتفرضه بالسعر الرسمي ، بلغ سعر الكيلو جرام من الدقيق في البداية ٣٧٧،٠ من الدرهم^(٣) . وسرعان ما ارتفع في نفس السنة^(٤) ليصل إلى ٨،٠ من الدرهم . واستمر نفس السعر خلال عام ٣٩٨ هـ^(٥) .

إن العلاقة بين سعر القمح والدقيق خلال هذين العامين تميزت بثبات سعر كل منهما ، سعر الكيلو جرام من القمح كان ٧٣٨،٠ من الدرهم ، ومعنى ذلك أن سعر العمل اللازم للطحن لكل وحدة (كيلو جرام) كان ٠٦٢،٠ من الدرهم ، أي أن الزيادة في السعر أقل قليلاً من $\frac{1}{12}$ من سعر القمح . ويبلغ سعر الدقيق أقصى ارتفاع له في خلافة الحاكم بأمر الله عام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م^(٦) بلغ سعر الكيلو جرام من الدقيق ٢،٣٠٦ درهماً وهو سعر مرتفع للغاية ولكننا فيه أسرى للمقريзи الذي لم يورد أحد من المؤرخين غيره شيئاً آخر عن مجاعة هذا العام .

ولدينا فيض من الأسعار الخاصة بالدقيق نقلها إلينا مؤرخ قريب عهد بالمجاعة التي وقعت في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله فيما بين عامي ٤١٤ ، ٤١٥ هـ وهو المسيحي ، ففي جمادى الآخر ٤١٤ هـ^(٧) بلغ سعر الكيلو جرام من الدقيق ٢٦٦،٠ من الدرهم مقابل ١٦٤،٠ من الدرهم

(١) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤ ص ٧٣.

(٢) مثلما حدث في عهد المعز ل الدين الله عام ٣٥٩ هـ والحاكم بأمر الله عام ٣٩٧ هـ . انظر : المقريзи : إغاثة - ص ١٢ - ١٧ .

(٣) المقريзи : إغاثة - ص ١٦ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٥) المقريзи : اتعاظ - ج ٢ ص ٧٤ .

(٦) المصدر نفسه - ص ١١٥ .

(٧) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤ ص ١٢ - ١٣ .

للكيلو جرام من القمح أي بزيادة قدرها ١٠٢% من الدرهم ، أي أن سعر العمل اللازم لطحن كيلو جرام من القمح كان $\frac{5}{8}$ سعر القمح ، ثم ارتفع سعر الكيلو في شوال ٤١٥ هـ (١) إلى ٩٤٠، من الدرهم مقابل ٤٩٥، من الدرهم لكيلو القمح في نفس الشهر ، وكان سعر العمل ٤١٩، من الدرهم ، أي ما يوازي ٨٤،٦٪ من سعر القمح ثم انخفض سعر الدقيق في ١٣ ذي القعدة (٢) عام ٤١٥ هـ فبلغ سعر الكيلو جرام ٥٥٥، من الدرهم مقابل ٤٩٥، من الدرهم للكيلو جرام من الدقيق وهو نفس سعر القمح في شهر شوال ، مما يعني انخفاض سعر العمل ليصل إلى ٠،٦٦٠ من الدرهم لكل كيلو جرام من القمح ، أي بنسبة $\frac{1}{8}$ من سعر القمح ، إلا أنه نتيجة لمصادر مخازن الغلال وقلة المعروض في الأسواق ارتفع سعر الدقيق في ١٥ ذي القعدة (٣) إلى ١٥٢٣ درهماً لكل كيلو جرام وإن لم يرد لدينا سعر للقمح في هذا اليوم ، ولعل ذلك كان بسبب عدم بيع القمح على الإطلاق في الأسواق (٤) .

أما السعر الذي قررته الدولة كتسعيرة لبيع الدقيق في ١٦ ذي القعدة (٥) فقد جعل سعر الكيلو جرام من الدقيق ٤٧٤، من الدرهم مقابل ٤١٠، من الدرهم لنفس المقدار من القمح ، أي أنه سعر قوة العمل ضمّناً بما يوازي ٠٦٤، من الدرهم لكل كيلو جرام ، أي نحو $\frac{1}{7}$ من سعر القمح .

إلا أن ثمن التسعير هذا لم يعبأ به أحد طويلاً ، فواصلت الأسعار ارتفاعها حتى وصل سعر الكيلو جرام من الدقيق في شهر ذي الحجة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م (٦) إلى ٧١١، من الدرهم مقابل ٧٠٧، من الدرهم لنقل الكمية من القمح وبلاحظ هنا انخفاض سعر العمل إلى ٤،٠٠ من الدرهم ، أي حوالي $\frac{1}{17.5}$ من سعر القمح .

أما أسعار الدقيق خلال الشدة المستنصرية فلدينا منها تقديران متبايانان وكل منهما لا يتعلق بسعر متداول نقدياً بالسوق وإنما بسعر مقايضة ، الأول ورد في حادثة المرأة التي باعت عقداً من الجوهر قيمته ١٠٠٠ دينار لتشتري به ٩٧،٥ كيلو جرام من الدقيق (تليس) (٧) وسعر الكيلو جرام في هذه الحالة يبلغ ١٦٤،١٠٢ درهماً ، أما السعر الثاني فنجد أنه في واقعة المقايضة بمترizable قيمته ٩٠٠

(١) المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٧٢ .

(٣) المصدر نفسه - ص ٧٤ .

(٤) يذكر المسيحي أن الطحانيين أخلوا في طحين القفة من القمح في شهر ذي القعدة خمسة دراهم - ج ٤٠ ص ٧٢ ، ولعل ذلك يفسر رفع أجور العمل في هذا الشهر .

(٥) المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ١٦٥ .

(٦) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٨٦ ، المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ١٦٩ .

(٧) المقرizi : إغاثة - ص ٢٤ .

دينار بعشرين رطل من الدقيق^(١) (٨,٧٥٠ كيلو جرام)، أي أن سعر الكيلو جرام ٦٤٥,٧١ درهماً . وهي كما نرى أرقام ضخمة تتناسب مع حجم التضخم الهائل في أسعار القمح التي أشرنا إليها خلال الشدة المستنصرية . والتقدير الوحيد لسعر الدقيق أثناء الشدة العظمى كان لعام ٤٦٢ هـ وهو يقلل سعر الحملة من الدقيق (١٣٥ كيلو جرام) بثلاثمائة دينار^(٢) . ومن شأن هذا التقدير أن يجعل سعر الكيلو جرام ٣٥,٥٥٥ درهماً .

وآخر أسعار الدقيق في العصر الفاطمي ورد عند ذكر مجاورة عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م ، حين بلغ سعر الحملة (١٣٥ كيلو جرام) ^(٤) ١٥٠ درهماً ، أي إن سعر الكيلوجرام من الدقيق كان ١,١١١ درهماً مقابل ١,٢٣٠ للكيلوجرام القمح ، وهو ما يدفعنا إلى التشكك في صحة هذه الأرقام، إذ ليس من المعقول أن ينخفض سعر الدقيق عن سعر القمح، اللهم إلا إذا وضعتنا في الاعتبار أن سعر بيع القمح كان يشمل العبوة أو الجوال الذي يوضع فيه^(٥) .

الخبز :

كان اختفاء الخبز هو أقبح مظاهر المجاعة التي تمس الناس مباشرة ، حيث يتزاحم الناس على الأفران بغية الحصول على احتياجاتهم ويكثر التلاعب في أسعاره عن أي سلعة أخرى وذلك لتنوع هذه الطرق ، فانتقال الخبز من الأفران إلى دكاكين^(٦) بثمني الخبز كان يزيد من كلفته نتيجة لزيادة هوماش الربيع الخاصة بتجارة الخبز، فضلاً عن أجراة الأفران ، ولما كان الخبز بياع وقها بالوزن فإن الأفران كانت تلجأ إلى الغش عن طريق إخراج الخبز قبل تضجمه مما يزيد من نسبة الماء به فيزيد وزنه^(٧) ، وفي بعض الأحوال كان الخبازون يخلطون الخبز بالطفل^(٨) فيزداد سواده . مستغلين في ذلك تكالب الناس على الخبز وسرعة شرائه بعد خروجه من الأفران مباشرة، إذ أن عشُّ الخبز كان يظهر بشكل واضح بعد أن يبرد الخبز^(٩) ، ولذا فإن سعر الخبز «البات» كان دوماً أرخص سعراً كما

(١) أبو المعاسن : الترجم - ج ٥ ص ١٧.

(٢) هتس (فالتر) : المكاييل والأوزان الإسلامية - ص ٣١.

(٣) ابن الجوزي : المستظم - ج ٨ ص ٢٥٧.

(٤) ابن مطر : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٥.

(٥) ذكر المسيحي أن سعر القمح في شوال ٤١٥ هـ كان ثلاثة دنانير للتلبس غير ثمن التاليس - ج ٤١ ص ٦٧ - ٦٩ . ويستبعد هنا أن يكون سبب ارتفاع سعر القمح عن الدقيق هو عادة أهل مصر في استعمال القمح لعمل المزر الآبيض الأمر الذي كان يؤدي إلى ارتفاع أسعاره ، إذ إن لارتفاع السعر رهن بقوتين العرض والطلب وليس الاستخدام . انظر : المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٣٦٨ .

(٦) كان للخبز دكاكين بياع فيها وكان لباقي الخبز عريف يعاون المحاسب . انظر : المقرizi : إغاثة - ص ١٨ - ١٩ .

(٧) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ١٥ - ١٦ ، المقرizi : انتاظ - ج ٢ ص ١٣٥ ، وكانت الأفران تجذب في ازدحام الناس وتتكالبهم سبباً يدفعهم إلى ذلك .

(٨) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٢٧٦ ، المقرizi : انتاظ - ج ٢ ص ١٦٦ .

(٩) المقرizi : إغاثة - ص ١٨ .

مما أورده المقرizi نقاً عن القاضي الفاضل^(١).

ويلاحظ من كتابات المؤرخين أن الخبز في مصر كان على نوعين رئيسين :

الأول : أسمرا اللون وهو من دقيق أسمرا أقل نقاوة وهو أرخص الأنواع سعراً ويسمونه بالخبز الأسود^(٢) ، أو الخشكار^(٣) أو خبز الأفران^(٤) .

الثاني : وهو الخبز الأبيض وهو على نوعين : الحواري ثم السميد^(٥) الأكثر جودة وثمنه أكثر ارتفاعاً من ساقه الأسمرا ، ويمكن اعتبار أسعار الخبز الواردة في المصادر التاريخية مشيرة إلى خبز الأفران الأسمرا لم ينص صراحة على أنها تتعلق بالأنواع الفاخرة من الخبز كما في بعض الحالات .

أما السعر العادي للخبز في غير أوقات المجاعات خلال العصر الفاطمي فإنه كما أورد المقرizi ١٦ رطلاً بدرهم ، وذلك عند حدوثه عن الأسعار في حالة رخاء البلاد عام ٣٩٠ / ١٠٠٠ م ، أي أن المستوى الطبيعي لسعر الكيلو جرام من الخبز هو ١,٤٢٨ من الدرهم .

سعر الخبز في العصر الفاطمي :

عندما دخل جوهر مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م كان سعر الكيلو جرام من الخبز يبلغ ٤,٥٧١ (٦) ، أي بزيادة عن السعر العادي تقدر بنحو ٣٢٠٠٪ . وإذا ما قارنا هذا السعر بسعر جرام من القمح^(٧) في هذه السنة وهو ٢,٣٢٥ درهماً سنجد أن طحن هذه الكمية ثم خبزها تقريباً مثل هذا السعر أي ١٠٠٪ .

أما أسعار الخبز التي وردتنا عن مجاعات الحاكم بأمر الله فأولها سعر الخبز عام ٣٨٧ هـ^(٨) الذي يمقتضاه سعر الكيلو جرام ٥٧١ ، من الدرهم أي بنسبة تصخيم قدرها ٤٠٢،١٪ . وخلال decade التي استمرت خلال أعوام ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ هـ اتّخذ ارتفاع أسعار الخبز شكل خم الزاحف المطرد . ففي بداية المجاعة عام ٣٩٦ هـ / ١٠٠٦ م بلغ سعر الكيلو ٢٢٨ ، ٠ من الدرهم ، أي بنسبة تصخيم قدرها ٦٠٪ فقط ، إلا أن هذا السعر سرعان ما

١- القاضي الفاضل أن الخبز البايت في عام ٥٨٧ هـ كان يباع بسعر ستة أرطال بدرهم ، المقرizi : الخطط - ج ٢ ص ٢٤ .

٢- المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ٧٤ .

٣- سبحي : أخبار مصر - ج ٤١ ص ٤٧ - ٤٨ .

٤- مصدر نفسه - ص ٤٨ .

٥- مصدر نفسه - ص ٤٨ - ٧٢ .

٦- المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ٢٥ .

٧- الأثير : الكامل - ج ٧ ص ٣١ .

٨- المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ١٦٨ .

٩- المقرizi : إغاثة - ص ١٣ .

١٠- المقرizi : اتعاظ - ج ٢ ص ٦٢ .

وأصل تضخم ليصل في نفس العام^(١) إلى ٣٨٠، من الدرهم للكيلو جرام ، أي بنسبة تضخم قدرها ٢٦٧٪ / ٠ من السعر العادي .

وحاول المحاكم أن يوقف هذا التسارع في ارتفاع الأسعار فقرر في عام ٣٩٧ هـ^(٢) تعير الخبز فانخفض نصيب الكيلو جرام من الدرهم إلى ١٩٠، من الدرهم ، أي نصف السعر الذي في عام ٣٩٦ هـ بنسبة تضخم ١٣٣٪ / ٠ وجدير باللاحظة أن هذا السعر ينخفض عن تعير نفس وحدة الوزن من القمح في هذا العام وهو ٢٣٥، من الدرهم وهو التسعير الذي أقرّ فيما بعد بسبب استمرار انخفاض النيل وارتفاع الأسعار^(٣) . ويبدو أن هذه التسعيرة لم يعمل بها طويلاً ، فقد عاد سعر الكيلو جرام من الخبز إلى ما كان عليه في عام ٣٩٦ هـ وهو ٣٨٠، من الدرهم في نفس عام ٣٩٧ هـ^(٤) وكان سعر الدقيق في هذه الفترة ٣٧٧، من الدرهم للكيلو جرام ، أي أن الفارق لم يتعد ٣٪ / ٠ من الدرهم ومع اقتراب نهاية عام ٣٩٧ هـ تضاعف السعر ليصل نصيب الكيلو جرام من الدرهم بنسبة تضخم ٥٣٥٪ / ٠ وهو نفس السعر الذي استمر التعامل به في عام ٣٩٨ هـ^(٥) . وبشكل عام فإن الثبات في أسعار الخبز في نهاية ٣٩٧ هـ ، وعام ٣٩٨ هـ نجده كذلك في أسعار كل من القمح والدقيق إلا أن الملفت للنظر هو انخفاض سعر الكيلو من الخبز (٧٦١، من الدرهم) عن سعر الكيلو من الدقيق وهو ٨، من الدرهم ، ولعل ذلك الانخفاض يفسر سوء حالة الرغيف وزيادة نسبة الماء فيه أو خلطه بمواد أخرى حتى اسود لونه حسبما يذكر المقريري^(٦) . ولعل ذلك هو الذي دفع الدولة إلى القيام بدور إيجابي في حصر كميات القمح وتحديد وصولها إلى الطحاتين على أن يقوم كل تاجر بأداء قطعية أو فريضة للمطاحن والمخابز التي قدرت حاجاتها في كل يوم^(٧) .

وكما هو الحال في أسعار القمح والدقيق فقد أمننا المسبحي بفيض من الأرقام حول تطور سعر الخبز خلال مجاورة عام ٤١٤ - ٤١٥ هـ . بدأها بسعر ٩ رجب عام ٤١٤ هـ^(٨) عند بداية استشعار انخفاض النيل إذ بلغ سعر الكيلو جرام من الخبز (المبلول) غير كامل النضج ٧٦١، من الدرهم وانخفض هذا السعر في جمادي الآخر^(٩) ليبلغ ٦٤٢، من الدرهم ، أي بنسبة تضخم

(١) المقريري : اتعاظ - ج ٢ ص ٦٢.

(٢) المقريري : إغاثة - ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه - ص ١٦.

(٥) المقريري : اتعاظ - ج ٢ ص ٦٩.

(٦) المصدر نفسه - ص ٧٤.

(٧) المقريري : اتعاظ - ج ٢ ص ٧٤.

(٨) المقريري : إغاثة - ص ١٧.

(٩) المسبحي : أخبار مصر - ج ٤ ص ١٥ - ١٦.

(١٠) المقريري : اتعاظ - ج ٢ ص ١٣٥ . المسبحي : ج ٤ ص ١٢ - ١٣ .

قدرها ٤٥٢٪ من السعر العادي ويفارق ٣٧٦،٠ من الدرهم عن سعر الكيلو جرام من الدقيق في نفس الشهر .

في ربيع الأول ٤١٥ هـ ارتفع سعر الكيلو جرام^(١) إلى ٩١٤،٠ من الدرهم ، أي نسبة التضخم ارتفعت ٦٤٣٪ من السعر الطبيعي ويفارق ٤١٩،٠ من الدرهم عن سعر الكيلو جرام من القمح في نفس الشهر . ومنذ رجب ٤١٥ هـ يبدأ المسيحي في التمييز بين أسعار أنواع الخبز الرديئة والفاخرة ، ففي ٤ رجب^(٢) نجد أن سعر الكيلو جرام من الخشكار (الأسمر) ٤٥٧١،٠ من الدرهم مقابل ٥٧١٤،٠ من الدرهم للخبز الحواري ، أي أن الفارق بين كلا النوعين هو ١١٤٣٪ من الدرهم واستمر سعر الخبز الخشكار أو خبز الأفران على ما هو عليه حتى يوم ٦ رجب^(٣) ليارتفاع بعد ذلك إلى ٧٦١٩،٠ من الدرهم^(٤) ، بينما يصل سعر الكيلو جرام من الخبز الفاخر (السميد) إلى ٩١٤٥،٠ ومعنى ذلك ارتفاع الفارق بين السعرين إلى ١٥٢٦،٠ من الدرهم . وفي شوال واصل التضخم الزاحف في أسعار الخبز نمواً فوصل سعر الكيلو جرام^(٥) ١٤٥٨،١ درهماً (ولعل ذلك كان في خبز الأفران الأسود) وبنسبة تضخم قدرها ٨٠٦٪ من مستوى السعر العادي . ويزاده قدرها ٢٣١،٠ من الدرهم عن سعر الكيلو جرام من الدقيق في هذا الشهر .

وفي ١٣ ذي القعدة ٤١٥ هـ سجل السميد الفاخر ارتفاعاً جديداً في سعره فوصل سعر الكيلو جرام إلى ١٤٢٨ درهماً في حين طرأ على الخشكار انخفاض طفيف هبط بالسعر إلى ١١٤٢ درهماً^(٦) . إلا أن الخشكار أين سعره إلا أن يلحق بالسميد بعد يومين في ١٥ ذي القعدة فأصبح ١٤٢٨ درهماً^(٧) للكيلو جرام ، أي بنسبة تضخم قدرها ١٠٠٥٪ من السعر العادي وإن كان يقل عن سعر الكيلو جرام من الدقيق في نفس اليوم بمقدار ٩٥،٠ من الدرهم ولعل في وصف المسيحي للخبز بأنه أسود إشارة كافية لسوء حالة الرغيف وخلط دقيقه بمواد أخرى .

ولم يتمخض جبل سعر التسuir في اليوم التالي ١٦ ذي القعدة^(٨) إلا عن فار ، فأضحتي سعر الكيلو جرام ٩١٤،٠ من الدرهم ، أي بنسبة تضخم قدرها ٦٤٣٪ من السعر العادي . وقد استثنىت الأنواع الفاخرة من التسuir بلغ سعر الكيلو غرام من السميد ١٤٢٨ درهماً ومن الحواري ١٤٢ درهماً في ١٧ ذي القعدة^(٩) . ويبعد أن الالتزام بسعر الخبز الخشكار لم يستمر طويلاً

(١) المقريزي : انتاظ - ج ٢ ص ١٤٢.

(٢) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٧ ص ٤٨.

(٣) المصدر نفسه - ص ٤٨.

(٤) المصدر نفسه والمصطفحة نفسها كل أنواع عدا السميد وهو أفضل من الحواري .

(٥) المقريزي : انتاظ - ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٦) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٧٢.

(٧) المصدر نفسه - ص ٧٤.

(٨) المقريزي : انتاظ - ج ٢ ص ١٦٥ .

(٩) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٧٥.

فتعزز أن في ذي الحجة^(١) وصل سعر الكيلو جرام من الخبز إلى ١,٨٢٨ درهماً ونسبة تضخم ١٢٨٧٪ / ٠ وبفارق ١,١١ درهماً عن سعر الكيلو جرام من الدقيق في هذا الشهر .

إلا أن هجوم العبيد على الأسواق أدى إلى ارتفاع الأسعار مرة أخرى في نفس الشهر^(٢) فبلغ سعر الكيلو جرام ٢,٢٨٥ درهماً وارتفعت بالتبعية نسبة التضخم إلى ١٦٠٩٪ / ٠ وهي أعلى نسبة في هذه المجاعة .

وفي أثناء الشدة أوردت مصادر تاريخية عدّة واقعة بيع رغيف خبز وزنه رطل واحد كبيع الطرق عن طريق المزايدة وإن اختلفت في تقدير ثمنه ما بين ١٤^(٣) درهماً أو ١٤^(٤) ديناراً أو ١٥^(٥) ديناراً ، ومعنى ذلك أن سعر الكيلو جرام يكون على التوالي ٣٢ درهماً ، ٥١٢ درهماً ، ٥٢٨ درهماً .

وقد أورد أبو المحاسن سعراً للخبز عام ٤٦٣ هـ أثناء حصار ابن حمدان للقاهرة^(٦) يصبح بمقتضاه سعر الكيلو جرام من الخبز ٢,٨١٣ درهماً أي ينسبة تضخم قدرها ١٩٨٠٪ / ٠ من السعر العادي .

وآخر تقديرات أسعار الخبز في العصر الفاطمي ترجع إلى عام ٥٣٦ هـ^(٧) حيث بلغ سعر الكيلو جرام من الخبز ٧٦١ درهماً ، أي بنسبة تضخم ٥٣٥٪ / ٠ ويلاحظ على تقديرات الأسعار الخاصة بهذا العام استمرار تناقص نصيب الكيلو جرام من الدرهم من القمح ١,٢٣٠ إلى ١,١١١ إلى الخبز ٧٦١ درهماً .

الخلاصة :

أولاً : القمح والدقيق والخبز :

١ - إن قوائم الأسعار التي تتعلق بمجاعات الحاكم بأمر الله ومجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ تتسم في مجملها من حيث النسب بين أسعار القمح والدقيق والخبز بقليل من الواقعية يجعلنا أكثر اعتقاداً بصحتها مما يشير إلى اقترابها من الحقيقة التاريخية .

٢ - إن نسب التضخم في الأسعار في عصر الحاكم بأمر الله أقل عن مثيلاتها في عصر الظاهر لإعزاز دين الله وذلك يعد انعكاساً دقيقاً لقوة الإدارة المركزية في عهد الحاكم بأمر الله وسطورتها

(١) المقريزي : انتاظ - ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٨٨ .

(٣) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٣٤ .

(٤) المقريزي : الخلط - ج ١ ص ٣٣٧ .

(٥) المقريزي : إغاثة - ص ٢٢ ، ابن إياس : بذائع الزهور - ج ١ ص ٦٠ .

(٦) أبو المحاسن : التحjom - ج ٥ ص ١٥ .

(٧) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٥ .

وقدرتها على التأثير في الحد من ارتفاع الأسعار ، وفي ذات الوقت تأكيداً لروايات المؤرخين عن ضعف الظاهر وانصرافه إلى اللهو عن رعاية مصالح المسلمين ، فضلاً عن إتجاه رجال دولته إلى الانجذاب بأقوات الشعب .

رغم أن أعلى نسبة تضخم في سعر القمح في عصر الحكم كانت ٨٢٠٪ من السعر العادي مقابل ٧٨٥٪ في عهد الظاهر نجد أن أعلى نسبة تضخم في سعر الخبز في عصر الحكم كانت ٩٥٣٪ من السعر العادي مقابل ١٦٠٪ في عهد الظاهر .

إن هذه النسب المتباينة في سعر القمح وسعره في صورته النهائية (الخبز) يعكس طبيعة السياسات التي اتبعها الحكم بأمر الله والتي ارتكزت على من وسطاء من السماسرة والتجار وفرض الرقابة على المطاحن حتى لا يخرج الدقيق منها إلا إلى المخابز وقد أدت هذه السياسة الرشيدة إلى تقليل هامش الربح الناتج عن دخول أكثر من تاجر في عملية تداول السلعة . ويتبين ذلك من الجدول (١) إذ لم تتعذر نسبة تكلفة تحويل القمح إلى خبز وهوامش الربح التجاري ٣٢٪ من سعر القمح في خلال عصر الحكم . وعلى العكس من ذلك نجد أن هوامش الربح قد ازدادت في مجاعة ٤١٤هـ - ٤١٥هـ وخاصة في عام ٤١٥ حيث تولى ارتفاعها من ١١٨٪ في ١٣١٠هـ / ١٨٨٪ ثم انخفضت إلى ١٥٨٪ إلا أنها سرعان ما عادت إلى الارتفاع إلى ٢٢٢٪ ويدل ذلك التضخم الزائف على مدى شراسة الدور المخرب الذي لعبه الوسطاء والسماسرة .

٣ - إن التسعير الذي قرره الحكم بأمر الله وإن لم يعد بالسعر إلى مستوى العادي إلا أنه كان في حدود أقل من ثلاثة أضعاف وهو سعر الاختناق الأول في المجتمعات والتاجم عن الاحتياج عن عرض السلع لمجرد استشعار خطورة المجاعة ، وتسعير الحكم كان سعيًا لخدمة المستهلكين في حين نجد أن التسعير في عهد الظاهر وإن لم يستمر طويلاً كان مجرد تعديل بسيط في الأسعار لم يقدم شيئاً فعالاً على طريق رفع المعاناة عن الشعب ، فضلاً عن تراجع الحكومة وأزيد سطوة التجار الذين نجحوا في فرض أسعارهم .

ويلاحظ أن الحكم لم يسرع الدقيق لأنه كان غير قابل للتداول في الأسواق بالمرة ، إذ كان يخرج من المطاحن إلى المخابز بإشراف الحكومة ، وينتشر من الجدول (٢) أن نسبة السعر العادي في القمح إلى التسعير الذي قرره الحكم كانت ١:٢٦ وفي الخبر ١:١٣ في حين أنها في ٤١٥هـ بالنسبة للقمح ١:٤٥ وفي الخبر ١:٤٣ .

٤ - أن التسعير كان نهاية لمجاعة الحكم في عام ٤١٩هـ^(١) في حين أنه لم يعن شيئاً بالنسبة لمجاعة الظاهر ٤١٤هـ .

(١) المقرizi : إغاثة - ص ١٧ ، وإن لم يورد المقرizi الأسعار .

جدول (١) الأسعار بالكيلو جرام للدرهم والفارق ونسبة التضخم بين سعر القمح وسعر الخبز .

نسبة التضخم	الفارق	سعر الخبز	سعر الدقيق	سعر القمح	التاريخ
% ٣٢	٠,٠٢٣	٠,٧٦١٩	٠,٨	٠,٧٣٨	٣٩٨ - ٣٩٧
% ٢٩١	٠,٤٧٨	٠,٦٤٢٨	٠,٢٦٦	٠,١٦٤	جمادي الآخر ٤١٤ هـ
% ١١٨	٠,٤١٩	٠,٩١٤٣	-	٠,٤٩٥	ربيع الأول ٤١٥ هـ
% ١٣١	٠,٦٥٠	١,١٤٥٨	٠,٩١٤	٠,٤٩٥	شوال ٤١٥ هـ
% ١٣١	٠,٦٥٠	١,١٤٥٨	٠,٠٥٥	٠,٤٩٥	١٣ ذو القعدة ٤١٥ هـ
% ١٨٨	٠,٩٣٣	١,٤٢٨	١,٥٢٣	٠,٤٩٥	١٤ ذو القعدة ٤١٥ هـ
% ١٥٨	١,١٢٠	١,٨٢٨	٠,٧١١	٠,٧٠٧	١٤ الحجة ٤١٥ هـ

جدول (٢) أثمان التسuir بالكيلوجرام للدرهم ونسب التضخم بها

السعر للخبز نسبة تضخمها للسعر العادي	السعر للدقيق نسبة تضخمها للسعر العادي	السعر للقمح نسبة تضخمها للسعر العادى	التاريخ
٠,١٩٠	-	٠,٢٣٥	٣٩٧ هـ
% ١٣٠	-	% ٢٦٠	
% ٩١٤	٠,٤٧٤	٠,٤١٠	١٦ ذو القعدة
% ٦٤٣	-	% ٤٥٥	٤١٥ هـ

ثانياً : الشعير والأرز :

كان للأرز الذي يزرع في دلتا وادي النيل ، أهمية خاصة في غذاء المصريين في المدن كما يتضح من اهتمام المؤرخين بإيراد أسعار الأرز وقت الأزمات خاصة وأنه كان يمثل بدليلاً مقبولاً للقمح وخاصة في صورته الأولى قبل عملية التذرية وهو الشعير . والأرز بطبيعته يحتاج إلى ماء وغير لأجل زراعته ولذا فإن انخفاض الفيضان كان يعني في التحليل النهائي انحسار مساحة الأراضي المزروعة به .

وأقرب سعر للشعير ورد في بردية عربية ترجع إلى عام ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م وهو يجعل سعر $\frac{1}{٢}$

أربد ديناراً واحداً وثلث الدينار^(١) وهي كمية توازي بالقياس المترى ١٨٢,٨١٢ كيلوجراماً ويكون سعر الكيلو جرام ٧٤٩ ,٠٠ من الدرهم . ولم يرد إلينا سعر الأرز في الأوقات العادمة إذ لم يتزامن سعر الأرز مع آخر للشعر حتى تتسنى لنا المقارنة .

وفي عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م والبلاد تعاني من ضائقة شديدة^(٢) كان سعر الكيلو جرام من الشعير ٤٧٩ ,١ درهماً أي أن نسبة التضخم تعادل أكثر من ١٩٧ ضعفاً .

أما في خلافة الحاكم فقد وصلنا سعر للشعير يرجع إلى عام ٣٩٧ هـ^(٣) . وهي ضمن التسويق الذي قام به الحاكم . وهذا التسويق يجعل سعر الكيلو جرام ١٣١٤ ,٠ من الدرهم ونسبة التضخم ١٠٧٥ % . ووصلتنا من نفس السنة سعر آخر للأرز بعد انهيار هذا التسويق^(٤) يصبح بمقتضاه سعر الكيلو من الأرز ٣١٤٥ ,٠ درهماً . وهو نفس السعر الذي كان قائماً مع بداية عام ٣٩٨ هـ^(٥) .

وفي خلال مجاعة ٤١٥ هـ بلغ سعر الكيلو جرام من الشعير في ربیع الأول ٤١٥ هـ^(٦) ٣٢٨٧ ,٠ من الدرهم وانخفض في شوال^(٧) إلى ١٦٤ ,٠ من الدرهم ليعود الارتفاع بعد شوال^(٨) إلى ٢١٩١ ,٠ من الدرهم وأخر سعر للأرز يرجع إلى عام ٥٥٣ هـ^(٩) ١١٥٨ / م وهو أرز فاسد وصل سعر ربیع الكيلو جرام منه إلى ٢١ ,٠ من الدرهم . وبال مقابل فإن آخر سعر للشعير في العصر الفاطمي يعود إلى عام ٥٣٦ هـ^(١٠) وعلى أساسه فإن سعر الكيلو جرام يبلغ ٢٧٥٢ ,٠ من الدرهم .

Grohmann (A) ; OP . Cit . Vol . VI . PP . 37-38 .

(١) ترجع البردية فيما يدول بهما بالأجل وهو ما يعني ارتفاع السعر نوعاً ما واستبعداً سعراً ورد في بردية ترجع إلى القرن ٤ هـ ، تجعل سعر الخمس وبات يترواح ما بين دينار ونصف وقياط ويكون سعر الكيلوغرام على ذلك ٢٦٢ ,٠ من الدرهم وهو رقم يرتفع عملاً ورداً من أسعار في بعض المجاعات ، بل إنه يرتفع عن ثمن الشعير في أوائل العصر المملوكي التي أوردها العبرى ، حيث كان سعر الأربد من الشعير ١٠ دراهم (القلقشندى) : صبح الأعشى - ج ٢ ص ٤٤٧ وهو ما يجعل سعر الكيلوغرام ١٣٦ ,٠ من الدرهم ويدلواً أن بردية القرن ٤ هـ ترجع إلى إحدى سنوات المجاعة أو ربما تكون متعلقة ببيع بالأجل وهو ما يعني ارتفاع السعر عن المعاند .

(٢) ابن الأثير : الكامل - ج ٧ ص ٣١ .

(٣) المقريزى : إغاثة - ص ١٥ .

(٤) المقريزى : المكان نفسه والصفحة نفسها .

(٥) المقريزى : اتعاظ - ج ٢ ص ٧٤ .

(٦) وهي نفس ظاهرة استقرار أسعار ٣٩٧ هـ في أسعار القمح والخبز في هذه السنة .

(٧) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٣٢ .

(٨) المقريزى : اتعاظ - ج ٢ ص ١٦١-١٦٢ .

(٩) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٦٧ .

(١٠) المقريزى : اتعاظ - ج ٣ ص ١٦٨ .

(١١) ابن ميسر : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٥ .

ثالثاً : أسعار اللحوم والحيوانات :

بعد البروتين الحيواني أحد المصادر المهمة لغذاء الإنسان ، بل إن معدلات استهلاكه يمكن أن تؤدي إلى مستوى الدخل في دول العالم^(١) ويأتي البروتين الحيواني من حيوانات كالبقر والغنم أو من الطيور كلحوم الدواجن وبقائها^(٢) . وتتأثر أسعار الحيوانات واللحوم أثناء المجاعات بعدها عوامل :

- أ - قلة الكلاً الناجم عن عدم وفاة الفيضان أو زيادته المفرطة مما يؤدي إلى موت الماشية^(٣) .
- ب - انتشار الأوبئة بين الحيوانات ووفاة أعداد هائلة منها حتى إنما نجد الحاكم بأمر الله يأمر بعدم ذبح الإناث من الأبقار للحفاظ على نسلها^(٤) . وكذلك ابنه الظاهر لإعزاز دين الله^(٥) . وذلك للحفاظ على الحيوانات التي كانت تعد أدلة رئيسية من أدوات العمل في الحقول .
- ج - مع تفاقم أزمة المواد الغذائية المزروعة ، تتوجه الأنظار إلى الثروة الحيوانية ويزداد الطلب عليها فترتفع الأسعار. ويظهر من أسعار اللحوم أنها كانت تشمل بالأساس لحوم الأبقار ولحم الصناع ، وأن سعر الأخير كان أكثر ارتفاعاً بعض الشيء^(٦) .

ولم يرد في المصادر أسعار لحوم في العصر الفاطمي في حالة الرخاء، وإنما لدينا سعر يرجع إلى العصر المملوكي نقله القلقشلندي عن العمري (ت ٧٤٩ هـ) وهو يجعل أقل سعر لحم «الرطل» بنصف درهم وفي الغالب أكثر من ذلك^(٧) .

وفي خلافة الحاكم ومع اشتداد المجاعة عام ٣٩٧ هـ وصل سعر الكيلو جرام من لحم البقر ١,٥٢ درهماً ومن لحم الصناع إلى ٢,٢٨ درهماً^(٨). فسارع الحاكم إلى استخدام سلاح التسعير ليصل سعر الكيلوجرام إلى ١,١٤ ، أي إلى النصف من سعر لحم الصناع^(٩). واستمر هذا السعر ثابتاً ، كثيبة السلع خلال عام ٣٩٨ هـ^(١٠)، ويسعد أن ذلك كان بالنسبة للحم

(١) مورلايه (فرانسيس) وكولينز (جوزيف) : صناعة الجوع ترجمة أحمد حسان : سلسلة عالم المعرفة - العدد ٦٤ - الكويت ١٩٨٣ - ص ٣٠٦-٣٠٧.

(٢) كان في مصر الفاطمية تربية للدواجن بالمنازل ويندو أنها كانت على نطاق واسع إذ كانت تفرض عليها المكوس . انظر : المقريزي : الخطط - ج ١ حيث ذكر ضريبة بيت التر裘ج ٣٠ ديناراً .

(٣) كان في استشجار جزء من الأرض ضرر للحيوانات لعدم المراعي . انظر : أحمد الغزالى : تحفة الخليل - ورقة ١٢٣ .

(٤) د. ماجد : الحاكم - ص ٦٤ .

(٥) المقريزي : اتحاظ - ج ٢ ص ١٤٩ .

(٦) المقريزي : إغاثة - ص ١٦ .

(٧) القلقشلندي : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٤٤٧ .

(٨) المقريزي : إغاثة - ص ١٦ .

(٩) المقريزي : اتحاظ - ج ٢ ص ٦٩ .

(١٠) المقريزي : المصدر نفسه - ص ٧٤ .

الضأن ، إذ أن لحم البقر كان يباع في عام ٣٩٨ هـ بواقع ٥١٦ ، من الدرهم للكيلو جرام^(١) . أي أن النسبة بين سعر لحم البقر والضأن ظلت ثابتة وهي تقريباً نسبة ١ : ٢ وهو ما يعطي مصداقية أكثر لصحة هذه الأسعار .

أما في أثناء مجاعة ٤١٠ هـ والتي رجحنا أن يكون سببها الزيادة المفروطة للنيل الأمر الذي كان يؤدي إلى غرق أراضي الكلأ الخاصة بالمواشي فقد ارتفعت أسعار اللحوم نظراً لندرة غذاء الحيوانات فوصل سعر الكيلو جرام منها إلى ٦٧٦ درهماً^(٢) .

ونظراً لانخفاض النيل عام ٤١٤ هـ وتنشی الأوئلة بين الحيوانات في نفس العام والعام التالي له فإن أسعار اللحوم سجلت ارتفاعاً ملحوظاً أثناء المجاعة التي حدثت في عهد الظاهر . فبلغ ثمن الرأس من البقر ٥٠ ديناراً^(٣) . في شوال من عام ٤١٥ هـ في حين أن سعر الكيلو جرام من اللحم في هذا الشهر^(٤) ٦،٨٥ درهماً انخفض قليلاً في ١٣ ذي القعدة^(٥) ليبلغ ٦،٦٧ درهماً الكيلو جرام .

وخلال الشدة المستنصرية سجلت أسعار اللحوم أقصى ارتفاع لها فبلغ سعر الكيلو جرام منها عام ٤٦٤ هـ ٢٦،٧٠ درهماً في ذات الوقت أضطر الناس إلى طبخ جلود البقر وبيع الكيلو جرام منها بما يوازي ٤،٥٧ درهماً^(٦) .

وقد قدر المقريزى سعر بضم الدجاج عام ٤٦١ هـ بعشرة قراريط للواحدة^(٧) ، في حين جعل أبو المحاسن سعر الواحدة ديناراً كاملاً^(٨) .

والجات المجاعة الناس إلى أكل الكلاب والقطط ، بل ويعها حيث وصل سعر الكلب إلى ٥ دنانير والقط ثلاثة^(٩) ، ولما كان الجن من منتجات الآلبان فإن سعرها كان يتأثر أيضاً بالمجاعات . ففي أثناء مجاعة ٣٩٧ هـ وصل سعر الكيلو جرام من الجن إلى ٣،٣٣٨ درهماً^(١٠) وفي خلال مجاعة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م^(١١) وصل سعر الكيلو جرام إلى ٤،٥٧ درهماً .

(١) المصدر نفسه - ص ٧٤ .

(٢) المقريزى : انتاظ - ج ٢ ص ١١٥ .

(٣) المقريزى : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤ .

(٤) المقريزى : انتاظ - ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٥) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤٠ ص ٧٧ .

(٦) المقريزى : انتاظ - ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٧) المقريزى : المصدر نفسه - ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٨) أبو المحاسن : النجوم - ج ٥ ص ١٧ ، ويدرك د. راشد البراوي نقلأ عن السلامي أن سعر البيضة كان عشرة دراهم - انظر : حالة مصر - ص ٩٤ .

(٩) المصدر نفسه - ص ١٦ .

(١٠) المقريزى : إغاثة - ص ١٦ .

(١١) ابن موسى : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٥ ، وكان الجن ضمن المنتاعات التي يحصل عليها ضريبة تعرف بمكى دار الجن -

رابعاً : أسعار الزيوت :

ثانية الزيوت سواء المستخدمة في الأكل أو الوقود من بذور نباتات كبار الكتان ومن السمسم ومن نبات الخس والزيتون وقد تعرضت كلها للتغير بسبب أزمات الغذاء .

سجل سعر الكيلو جرام من زيت الطعام عام ٣٩٧ هـ سعراً يبلغ حوالي ٣٣٨ درهماً في حين كان سعر الكيلو جرام من زيت الوقود ٢٠٨٥ درهماً^(١) ، ونعلم من نص وقفة الحاكم بأمر الله على جامع الأزهر عام ٤٠٠ هـ أنه رصد لهذا الجامع من زيت الوقود في العام ألف رطل ومتانة رطل ثمنها مع أجراً للحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف الدينار^(٢) ، ومعنى ذلك أن محمل الوزن ٥٢٥ كيلو جرامًا ثمنها ٦٧٥ درهماً أي أن ثمن الكيلو جرام بأجراً حمله تبلغ ٧٧٠ من الدرهم وبذلك تكون نسبة التضخم في سعر زيت الوقود ٢٩٤ % .

ويبلغ سعر الزيت (زيت الطعام فيما يليه) سعراً خيالياً في عام ٤٦٤ هـ^(٣) أثناء الشدة المستنصرية حيث وصل إلى ٤١٥٣ درهماً . ولدينا من عام ٥٣٦ هـ سعر لزيت الطيب (زيت الزيتون) يجعل ثمن الكيلو جرام ١٦ درهماً في الوقت الذي يصل فيه سعر الزيت الحار (بندرة الكتان) ٣٤٢ درهماً^(٤) .

خامساً : أسعار خضروات ومنتجات نباتية :

بلغ سعر البصل خلال عام ٣٩٧ - ٣٩٨ هـ / ١٠٠٦ - ١٠٠٧ م ٢٠٨٥ درهماً للكيلو جرام^(٥) ، أما القلقاس (وهو نبات درني) فلدينا تقديران مختلفان لسعره خلال عام ٥٣٦ هـ أولهما يجعل سعر الكيلو جرام ٢٠٨٥ درهماً^(٦) والثاني ينخفض به إلى ١٠١٤ درهماً^(٧) .

أما السكر وهو أحد المنتجات النباتية ، فقد ذكر ابن الجوزي أنه كان يباع بوزن الدرهم^(٨) ، أثناء الشدة المستنصرية وإن كان ذلك القول به بعض المبالغة لأن السكر ليس طعاماً أساسياً كالخبز أو اللحم إلا أنه يدل على مدى ارتفاع سعر السكر ، خاصة إذا ما عرفنا أن متوسط سعر الكيلو جرام

= وكان مقدارها ألف دينار . المقريزى : الخطط - ج ١ ص ١٠٤ .

(١) المقريزى : إغاثة - ص ١٦ .

(٢) د. صلاح البغري : عالمية الحضارة الإسلامية ومظاهرها في القرون - حوليات كلية الآداب - جامعة الكوفة العلوية الثالثة ١٩٨٢ .

(٣) المقريزى : انتهاط - ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٥ .

(٥) المقريزى : انتهاط - ج ٢ ص ٧٤ ، إغاثة - ص ١٦ .

(٦) ابن ميسر : أخبار مصر - ج ٢ ص ٨٥ .

(٧) المقريزى : انتهاط - ج ٢ ص ١٧٦ .

(٨) ابن الجوزي : المتنظم - ج ٨ ص ٢٥٧ .

من السكر في منتصف القرن الثامن الهجري^(١) في مصر المملوکية كان ٣٠٤٢ درهماً . ولم تنج مخلفات النباتات كالأحاطب والتبين الذي يستعمل في إطعام الحيوانات من موجة الغلاء أثناء المجاعات حتى إن الحاكم أمر في عام ٣٩٧ هـ بتسعير الحطب^(٢) . على أساس دينار واحد للعشر حملات أي يوازن ٠٠٦٤ ، ٠ درهماً للكيلو جرام .

أما التبن فقد وصل سعر الكيلو جرام منه في جمادى الآخر ٤٦٤ هـ^(٣) إلى ٠٠٨ ، ٠ من الدرهم وانخفض قليلاً في ربيع الأول ٤١٥ هـ^(٤) بلغ ٠٦٤ ، ٠ من الدرهم وقد أفادتنا وقفيه الحاكم على الجامع الأزهر^(٥) بأن عشر مائة وخمسين حمل تبن ونصف حمل يبلغ ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار^(٦) ، ومعنى ذلك أن السعر العادي للكيلو جرام من التبن ٠٠٤٢ من الدرهم أي أن نسبة التضخم تبلغ نحو ١٢٠٪ من السعر العادي .

وفي الأوقات التي كانت المجاعات مصحوبة بالوباء ، كانت أسعار الأغذية التي تستعمل كدواء للمرضى تسجل ارتفاعاً خاصاً من حيث إنها غذاء ودواء بذات الوقت . فالرمان بلغت الثمرة الواحدة منه في شوال ٤١٥ هـ ٣ دراهم^(٧) مع أنها نعرف مما ذكره القاضي الفاضل عن أسعار عام ٥٧٨ هـ أن المائة حبة من الرمان كانت بدرهم واحد^(٨) . وفي ذات الشهر شوال ٤١٥ هـ وصل سعر البطيخة البرلس الواحدة إلى ٣٠ درهم ، وأوقية الشراب (الدواء) إلى درهم واحد^(٩) .

سادساً : سعر الماء :

حتى ماء الشرب كانت أسعاره تتعرض للارتفاع أثناء المجاعات متأثرة في ذلك بثلاثة عوامل قد تجتمع سويةً في مجاعة واحدة هي :

- ١ - أولها انخفاض منسوب مياه النيل مما يعني زيادة الجهد المبذولة لرفع الماء .
- ٢ - قلة حيوانات الحمل كالجمال والبغال بسبب نفوقها أو ذبح بعضها للأكل .
- ٣ - إن الارتفاع العام في أسعار المأكولات كان يؤدي إلى ارتفاع الأجور حتى يتمكن الأجراء من شراء غذائهم .

(١) القلقشتي : صبح الأعشى - ج ٣ ص ٤٤٧ .

(٢) المقريزي : إغاثة - ص ١٥ .

(٣) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤ ص ١٢ - ١٣ .

(٤) المقريزي : اتعاظ - ج ٢ ص ١٤٢ .

(٥) د. صلاح البهري : عالم الحضارة - ص ٨١ .

(٦) المسيحي : أخبار مصر - ج ٤ ص ٦٩ .

(٧) المقريزي : الخطط - ج ٢ ص ٢٤ .

(٨) المقريزي : اتعاظ - ج ٢ ص ١٦٢ .

في عام ٤١٥ هـ ارتفعت أسعار الماء وذلك على الأرجح يرجع إلى العاملين الآخرين لأن القيسان كان وفي هذا العام بلغ سعر راوية البغل (المحمولة على البغل) درهمين وراوية الجمل ثلاثة دراهم^(١).

وارتفعت أسعار الماء خلال الشدة العظمى بلغ سعر الراوية عام ٤٦١ هـ ديناراً واحداً^(٢)، وبلغ أثناء عام ٤٦٣ هـ ١٣ قيراطاً^(٣).

(ب) انخفاض أسعار العقارات والسلع غير الغذائية :

على عكس حال السلع الغذائية كان ما عدتها من الأملاك والسلع التي كانت تعد مخزناً لقيمة كالجواهر والعقارات ، يتعرض سعرها للانخفاض السريع في قيمته حتى إذا ما رغب أصحابه في عرضه للبيع من أجل التقد لشراء الغذاء لم يجدوا من يشتريه .

ففي إيان مجاعة ٤١٤ هـ - ٤١٥ هـ كانت الثياب والأمتعة تعرض في الأسواق وينادى عليها فلا يوجد من يدفع درهماً فما فوقه^(٤). وفي خلال الشدة المستنصرية تعرضت قيمة العقارات للهبوط العنيد ، فأصبح المنزل بيع مقابل عشرين مكعباً من القمح^(٥). وبيعت في عام ٤٦١ هـ دار ثمنها ٩٠٠ دينار بأقل من تلمس دقيق (التلمس ٩٧,٥ كيلو جرام) وفي العام نفسه بيعت حارة بمصر (القططاط) بطريق خبيز حساباً عن كل دار رغيف فصارت تعرف بحارة الطبق حتى دثرت فيما دثر من خطط مصر^(٦). ويدرك أن امرأة خرجت تروم بيع جواهرها فلم تجد من يشتريها فألقت بها في الطريق فلم يلتفت إليها أحد^(٧).

وتحفل مصادر تاريخية شتى بأوصاف لا حصر لها لما أخرج من خزانة المستنصر من كنوز على يد ابن حمدان بأسعار نورد منها أن سبعة أمداد من الزمرد تقدر قيمتها بـ ٣٠٠ , ٠٠٠ دينار^(٨) بيعت بخمسمائة ، أي $\frac{1}{٦٠}$ من قيمتها ، وبيع عقد جوهر تقدر قيمته بحوالي ٨٠ , ٠٠٠ دينار بـ ألف دينار^(٩) ، أي بما يعادل $\frac{١}{٨٠}$ من قيمته الحقيقة .

(١) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٣٥٤.

(٢) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ٢٩٦.

(٣) أبو المحاسن : التجوم - ج ٥ ص ١٥.

(٤) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ١٦٢ ، الخطط - ج ١ ص ٣٥٤.

(٥) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية - ص ١٠٥.

(٦) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٧) أبو المحاسن : التجوم - ج ٥ ص ١٧.

(٨) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٤١٤.

(٩) ابن الزبير : النثار والتحف - ص ٢٥٣.

علاقة الأسعار بالمرتبات :

من خلال الاستعراض السابق لأسعار المواد الغذائية فإننا يمكن أن نطمئن إلى أن الأسعار المعطاة في عهدي المحاكم والظاهر تسمى بقدر كبير من التناقض فيما بينها وخاصة ما بين القمح والدقيق والخبز وعلى الأخص أرقام مجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ حيث إن مصدرها الرئيسي كان تاريخ المسبحي قريب العهد بأحداثها .

ولما كانت المصادر التاريخية قد أمدتنا برواتب بعض الموظفين في الدولة ، فإنه بإمكاننا تلمس مستوى الحياة الاقتصادية لبعض أفراد الطبقات الوسطى والصغيرة في المجتمع المصري لمعرفة مدى تأثر قوتها الشرائية بأسعار الماجاعات وتحديد مستوى معيشتها خلال هذه الأوقات ، وسنجعل من القمح مرجعنا الرئيسي للأسعار حيث إنه أكثر المواد تداولاً في غذاء الشعب الأساسي .

وببداية ، فإن متوسط ما يحتاجه الإنسان من الحبوب ليقي على قيد الحياة يقدر بروطل واحد من الحبوب^(١) وهو ما يعادل ٤٣٧ جرام . وإذا ما افترضنا أن الموظف الواحد يعيش أسرة تتكون من زوجة وابنين ، أي أربعة أفراد ، فإن ما يحتاجه يومياً من الحبوب لتؤمن حياتهم يبلغ ١,٧٥٠ كيلوجراماً ، أي أن حصيلة الكمية الشهرية تبلغ ٥٢,٥ كيلوجراماً .

وستبدأ برواتب الموظفين بالجامع الأزهر الذين حددتهم وقفية للحاكم بأمر الله عام ٤٠٠ هـ^(٢) ، ولا نعتقد أن هذه المرتبات قد تعرضت للزيادة حتى نهاية العصر الفاطمي ، حيث إنها كانت محددة في وقفية .

أولاً : خطيب الجامع^(٣) :

وهو على قمة السلم الوظيفي ويعد من الشرائح العليا للطبقة المتوسطة وراتبه الشهري ٧ دنانير ، أي ما يوازي ١٦٢ درهماً ، حسب الإصلاح النقدي الذي أصبح بمقدسه سعر الدينار ١٨ درهماً في عهد الحاكم ، ١١٢ درهماً حسب سعر الصرف ١٦ درهماً للدينار منذ عام ٤٣٦ هـ حتى

(١) وهو ما يعادل ١٥٠٠ سعر حراري . انظر : مورلايه (فرانسيس) : صناعة الجوع - ص ١٨، ٢٦ ، وحسب إحصاءات الأمم المتحدة الأخيرة فإن نصيب الفرد من الحبوب في الدول الفقيرة يوازي ١٣٦ كيلوجراماً في العام ، أي ٣٧٧ غراماً يومياً .
انظر : د. محمد علي الفرا : مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي : سلسلة عالم المعرفة - العدد ٢١ - الكويت ١٩٧٩ - ص ٢٢ .

(٢) د. صلاح البشيري : عالمية الحضارة - ص ٧٩ - ٨١ .
(٣) عن الخطيب في العصر الفاطمي . انظر : د. حسن الباشا : الفتن الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ - ج ١ من ٤٨٢ .

عام ٤٤١ هـ عندما ضربت دراهم جديدة كل ٣٥ منها بدينار^(١) ، إلا أن سعر الدينار عاد إلى ١٦ درهماً أيام الشدة^(٢) .

في خلال أعوام ٣٩٧ - ٣٩٨ هـ يكون سعر ٥٢,٥ كيلو جرام يوازي ٣٨,٦٧ درهماً من مجمل ١٦٢ درهماً هي راتبه الشهري ، ومعنى ذلك أن خطيب الجامع الأزهر كان في مجاعة ٣٩٧ - ٣٩٨ هـ فوق خط الفقر وال الحاجة .

أما في مجاعة الظاهر لإعزاز دين الله فإن سعر القمح في جمادي الآخر ٤١٤ هـ يجعل ثمن ٥٢,٥ كيلو جرام يوازي ٨,٦١ درهماً وبعد جمادي الآخر يتضاعف السعر إلى ١٧,٢٢ درهماً وفي ربيع الأول ٤١٥ هـ يبلغ سعر هذه الكمية ٢٦ درهماً . وفي أقصى ارتفاع للسعر في هذه المجاعة في ذي الحجة ٤١٥ هـ يصل سعر الكمية الالزمة للأسرة شهرياً إلى ٣٧,١٤ درهماً ، وبذل خطيب الجامع الأزهر فوق خط الفقر في عهد الظاهر لإعزاز دين الله حتى وقت اشتداد الأزمات ، وإذا ما توغلنا إلى عهد المستنصر بالله فإن مرتب الخطيب ينخفض إلى ١١٢ درهماً ، لأن سعر صرف الدينار صار ١٦ درهماً ، في مجاعة ٤٤٦ هـ بلغ سعر ٥٢,٥ كيلو جرام ٦٨,٨٨ درهماً ، أي إن غذاء الحد الأدنى من الحبوب وحلمه يلتهم أكثر من ٦٠٪ من الراتب الشهري لخطيب الجامع الأزهر ، إلا أن مجاعة المستنصر الكبيرة أدخلت خطيب الجامع الأزهر في دوامة الفقر ودفعته به إلى أسفل خط الفقر ، فأقل تقدير لسعر القمح وهو في عام ٤٦٤ هـ^(٣) يجعل ثمن هذه الكمية من القمح يوازي ٢١٣,٣ درهماً ، ناهيك عن التقديرات المرتفعة الأخرى ، ومعنى ذلك أن راتبه يشترى ما يقدر وزنه بـ ٢٧,٥٦ كيلو جرام ، أي احتياجات ١٦ يوماً فقط ، وفيما عدا الشلة المستنصرية ومجاعة عام ٤٩٧ هـ ، التي يبلغ سعر ما يحتاجه من القمح خلالها ٣٤٤,٦١ درهماً ، أي أكثر من ثلاثة أضعاف راتبه الشهري ، يظل في مقدور خطيب الجامع الأزهر أن يقوم بأعبائه الأسرية في شراء الغذاء ، هذا إذا لم تتأخر الدولة أو تقطع عن تسديد راتبه الذي يأتي من أوقاف ، بعضها أطيان زراعية ، خلال المجاعات والأزمات .

ثانياً : إمام الصلاة بالجامع الأزهر^(٤) :

راتبه ديناران و $\frac{2}{3}$ دينار + $\frac{1}{8}$ دينار شهرياً ، فإذا كان سعر الصرف ١٨ درهماً يكون راتبه ٢٥,٢٥ درهماً ، وفي حالة سعر الصرف ١٦ درهماً يكون ٤٤,٦٦ درهماً ، مع أقصى سعر

Balog (P) . History of The Dirham in Egypt from the Fatimid conquest until the collapse of the Mamluk Empire (1) , R.N . Vie Série 1976 , p 115.

(١) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٤١٦ .

(٢) المقريزي : انتظام - ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٣) إمام الصلاة هو الذي ينوب المصلين في الجامع ، وكانت توليه للوظيفة تصدر عن الخليفة . انظر : د. حسن الباشا : الفنون والوظائف - ج ١ ص ١٠٨ .

لمجاعات عام ٣٩٧ - ٣٩٨ هـ يكون ثمن الـ ٥٢,٥ كيلو جرام ٣٨,٦٧ درهماً ، أي يتبقى له من راتبه ١١,٥٨ درهماً لمتطلبات الحياة الأخرى . ويظل إمام الصلاة في عهد الظاهر لإعزاز دين الله أفضل حالاً حيث يصل سعر الكمية المطلوبة لعيش أسرته الصغيرة ١٤,٣٧ درهماً في حالة أقصى سعر وصل إليه القمبح في مجاعة ٤١٤ هـ ٤١٥ هـ ، وفي مجاعة ٤٤٦ هـ كان مرتب إمام الصلاة كافياً فقط لشراء احتياجات ٢٠ يوماً من القمبح تقريباً .

وبالنسبة لأدنى سعر للقمبح في الشدة العظمى فإن راتب إمام الصلاة يكفي فقط لشراء ١١ كيلو جراماً تقريباً ، أي احتياجات أقل من أسبوع . وفي بدايات ٤٩٧ هـ لم يعد يكفي راتب إمام الصلاة إلا لشراء ٦,٨ كيلو جرام ، أي احتياجات أربعة أيام فقط ، وبعد ذلك يفلت إمام الصلاة من خط الحاجة والعوز في المجاعات الأخرى ، عدا عامي ٥٣٦ هـ ، ٥٥١ هـ ، ففي عام ٣٥٦ هـ يبلغ سعر احتياجاته من القمبح ٦٤,٦ درهماً ويغطي مرتبه فقط ما يزن ٣٦,٢٨ كيلوجراماً ، أي احتياجات ٢٠ يوماً تقريباً من الشهر . أما في عام ٥٥١ هـ فإن ثمن ما يحتاجه لأسرته من القمبح يبلغ ٤٣,٥٧ درهماً، بينما يغطي راتبه ما يزن ٤٠,٨ كيلو جراماً ، أي احتياجات ٢٣,٣ يوماً من الشهر .

ثالثاً : المؤذنون والقومة والمشرف على الجامع :

ويحدّد راتبهم بدينارين شهرياً ، أي من ٣٦ إلى ٣٢ درهماً . لم يفلت أي من هؤلاء الموظفين خلال مجاعات الحاكم من خط الفقر حيث يبلغ سعر ما تحتاجه أسرة كل منهم من القمبح ٣٨,٦٧ درهماً ، بينما يكفي مرتب كل منهم لتأمين ما يزن ٤٨,٧٥ كيلوجراماً ، أي احتياجات ٢٧,٨ يوماً وتعد هذه الفئات مستفيدة رئيسية من سعر التسعير الذي قرره الحاكم عام ٣٩٧ هـ وحيث يجعل هذا السعر ما يحتاجونه من القمبح يقدر بـ ١٢,٣٧ درهماً .

وخلال مجاعة ٤١٤ - ٤١٥ هـ لم تدفع الأسعار بالقوة الشرائية للمؤذنین والقومة إلى قرب خط الفقر إلا بعد شهر ندي الحجة عام ٤١٥ هـ حيث بلغ سعر احتياجاتهم ١٤,٣٧ درهماً وأصبح راتبهم قادراً على الوفاء باحتياجاته أسرهم لمدة ٢٩ يوماً من أيام الشهر .

وفي مجاعة ٤٤٦ هـ في خلافة المستنصر لم يعد المؤذنون والقومة بقادرين على شراء أكثر من ٢٤,٣٩ كيلوجراماً ، أي احتياجات ١٣,٩٣ يوماً من الشهر . وفي ظل أدنى تقدير لأسعار القمبح خلال الشدة العظمى لم يعد هؤلاء الموظفين بقادرين على شراء أكثر من ٧,٨٧ كيلوجراماً وهو ما يمثل احتياجات ٤,٥ أيام .

وكان الحال أكثر سوءاً بالنسبة لهم في النصف الأول من عام ٤٩٧ هـ ، وحيث أصبحت القوة الشرائية لراتبهم غير قادرة على الوفاء بأكثر من ٤,٨٧ كيلوجراماً ، أي احتياجات ٢,٧٨ يوماً . ولم يكونوا أحسن حالاً في عام ٥٣٦ هـ ، فقد تقلصت قوتهم الشرائية إلى ٢٦ كيلوجرام ، أي

احتياجات ١٤,٨٥ يوماً ولم يتغير الأمر كثيراً في ٥٥١ هـ الذي بلغت قدرتهم فيه على شراء القمح ٢٩,٢٥ كيلوجراماً ، أي احتياجات ١٦,٧١ يوماً .

رابعاً : قيم الميضة :

وراتبه كما حددته وثيقة المحاكم دينار واحد في الشهر (١٨ - ١٦ درهم) وهو يقع في آخر السلالم الوظيفي بالجامع الأزهر . وطوال مساعدة ٣٩٧ - ٣٩٨ كان قيم الميضة أدنى خط الفقر ، حيث لم يكن راتبه قادر على شراء أكثر من ٢٤,٣٧ كيلوجراماً ، أي احتياجات ١٣,٩ يوماً ، وبعد قيم الميضة معنباً بالتسهير التي أقرها المحاكم ، حيث تجعل بمقدوره شراء كل احتياجاته من القمح بعبلغ ١٢,٣٧ درهماً ، وكذلك تسعير ٤١٥ هـ في عهد الظاهر ، حيث بلغ ثمن احتياجاته ما يوازي ٢١,٥٣ من مجمل راتبه ٢٢,٥ درهماً (سعر الصرف ١٨ درهم) .

وياستثناء سعر عام ٥٢١ هـ فإن قيم الميضة منذ عهد الظاهر لإعزاز دين الله كان غير قادر على تأمين احتياجاته أسرته الأساسية من القمح .

ولدينا رواتب الخازن والفراش بدار العلم التي أنشأها المحاكم في القاهرة والتي أقر رواتبها منذ عام ٤٠٣ هـ ، ويعطي للخازن بهذه الدار ٤ خانير شهرياً وللفراش ١ دينار شهرياً^(١) .

أ - الخازن^(٢) :

ظل راتب خازن دار العلم يفي باحتياجاته من القمح حتى الشدة العظمى ، فإن أقل سعر للقمح وقتها كان يتيح له شراء ما يزن ١٥,٧٥ كيلوجراماً من القمح وهو ما يغطي احتياجات الأميرة الصغيرة في ٩ أيام فقط . ولم يلحق الضرر بعدها بخازن دار العلم إلا في النصف الأول من عام ٤٩٧ هـ ، إذ تقدر قوة راتبه الشرائية خلاله بما يعادل ٩,٧٥ كيلوجراماً وفي ذلك القدر باحتياجات ٥,٥٧ أيام .

ب - الفراش :

يظل راتب الفراش غير كافٍ لمواجهة متطلبات أسرته من القمح طوال الأزمات والمجاعات التي عصفت بمصر الفاطمية باستثناء :

١ - أسعار التسعير في ٣٩٧ هـ ذي القعدة ٤١٥ هـ .

٢ - أسعار عام ٥٢١ هـ .

(١) أيمن فؤاد سيد : نصوص ضائعة - ص ٣١ . المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٣٥٩ .

(٢) عن وظيفة الخازن . انظر : د. حسن الباشا : الفتوح والوظائف - ج ١ ص ٤٤٧ .

ولم يستند الغرash من تسعير عام ٤٤٦ هـ حيث لم يكن راتبه يكفي لشراء أكثر من ٤٠,٦٥ كيلوجراماً ، أي احتياجات ٢٣,٢٢ يوماً .

تلك كانت شريحة من الطبقات الوسطى للمجتمع المصري في العصر الفاطمي ومدى تأثيرها بالمجتمعات ، ونلاحظ أنه كلما اقترب الموظف من الأعمال البدنية أو غير الذهنية قل راتبه.

على أنه لا ينبغي أن يتادر إلى الذهن أن ذلك كان حال كل العاملين بمساجد مصر ، فقد كان بمصر عام ٤٠٣ هـ ثمانمائة مسجد أحصاها الحاكم كانت لا تلتقي نفقات من الدولة^(١) .

وقد ورد في أحد البرديات التي ترجع إلى ٣٥٦ هـ / ٩٧٦ م إشارة إلى خادم بمسجد^(٢) أجره في السنة ثلاثة دنانير ونصف الدينار^(٣) لا يستبعد أن يظل هذا الراتب قائماً بالنسبة لقومة صغار المساجد في العصر الفاطمي (٢٥,٥ درهماً بسعر ١٨ درهماً للدينار) .

أما الصناع والحرفيون فإن أجورهم كانت تتفاوت بحسب العمل الذي يؤدونه ، فالخياط كان أجره عن عمل ثوب $\frac{1}{4}$ دينار (درهمان) وعن خياطة غلالة امرأة أربعة دراهم وربع الدرهم^(٤) .

ويستفاد من بردية عربية ترجع إلى القرن ٣ - ٤ هـ أن أجراً بنايين كانت تبلغ ستة دراهم في اليوم وغداهم درهم واحد وأن ستة من أعوانهم (رقصين يعملون مقابل غذاء لهم بدرهم ونصف الدرهم)^(٥) .

وغمي عن البيان مدى ما يمكن أن يصيب هؤلاء الحرفيين من ضرر من جراء ارتفاع الأسعار خاصة وأنهم لم يكونوا يعملون في حرفهم بشكل يومي وكانت أعمالهم وخاصة غير المتعلقة بالغذاء ، تتعرضن للتوقف أثناء المجتمعات .

تأثير المجتمعات على السكة الفاطمية

ظلّت السكة المستخدمة في مصر طوال عصر الولاة هي ذات السكة الإسلامية المتداولة في أرجاء الخلافة الإسلامية^(٦) .

(١) أيمن فؤاد سيد : تصوّص خياله - ص ٣١ .

(٢) عن وظيفة خادم المسجد . انظر : د. حسن الباشا : الفنون والوظائف - ج ١ ص ٤٤٦ .

Grohmann (A) . OP . Cit . Vol . II . P . 104 , PL . XIII .

(٣)

(٤) د. راشد البراوي : حالة مصر - ص ١٥٠ .

Grohmann (A) . OP . Cit . Vol . VI . PP . 81 - 82 , PL . XII .

(٥)

(٦) د. سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة - سلسلة الألف كتاب - العدد ٢٤١ - القاهرة - ٢٠٠٣ . ويقصد بالسكة « الدينار والدرهم المغروبيين »، سبي كل منهما سكة لأنه طبع بالحديقة المعلمة ، ويقال لها السكة وكل مسار عند العرب سبك ، وقال الفارابي في ديوان الأدب : « السك المسماري والسكة (بكسر السن) سكة التراهم »، المقريزي : الأوزان والأكيال الشرعية - نشرة Rostocku Lychsen 1800 ص ٣٩ .

وكانت قاعدة النقد Etalon Monétaire بعد الفتح العربي هي الذهب ، أي إن مصر كانت تسير على نظام المعدن الفردي Monometallisme حيث كان للذهب قوة إيراء غير محدودة^(١) ، حتى إن المقريري يذكر أن نقد مصر كان دوماً الذهب ، وأن أول ذكر للدرهم الفضي بمصر كان في أيام الحكم بأمر الله^(٢) ، وهو ما يخالف الحقيقة ، إذ أن هناك أدلة تثبت عكس ذلك سواء في أوراق البردي العربية أو صنف السكة الزجاجية في عصر الانتقال^(٣) . فقد كانت قاعدة النقد هي الذهب ، مع استعمال الفضة والنحاس كعملات مساعدة وخاصة في الصفقات والمعاملات الصغيرة .

ومنذ خلافة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) كان اسم والي مصر يظهر على السكة وتدعم ذلك الحق بصورة أكثر قوة في عهد والي مصر أحمد بن طولون الذي نقش اسمه على السكة بجانب اسم الخليفة العباسي^(٤) .

ومع استيلاء جيوش الفاطميين على مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، دخلت سكة مصر طوراً جديداً ، فمن الناحية السياسية حلَّ اسم الخليفة الفاطمي محلَّ اسم الخليفة العباسي ، ومن الناحية الدينية ظهرت العبارات التي تشير إلى عقيدة الفاطميين مثل «عليٌّ أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين»^(٥) ، أمّا من الناحية الشكلية فقد اتسمت النقود الفاطمية بكمال استدارتها^(٦) .

وبعد الفتح الفاطمي لمصر تدشيناً جديداً وتأكيداً لعصر سيادة الذهب الذي كان النقد الرئيسي منذ ما قبل الفتح العربي وحتى قيام الفاطميين^(٧) ، وإن لم يستمر ذلك طويلاً وقد أفاد الفاطميين من سيطرتهم على طرق الذهب الآتي من بلدان السودان الغربي أثناء سيطرتهم على المغرب ، فحصلوا على رصيد ذهبي ضخم أعندهم على أعمال الدعوة في مصر ثم غزوهما حتى أنهم حملوا معهم عدداً ضخماً من الدنانير المغربية عند فتحهم مصر^(٨) . وتروي المصادر التاريخية أن المعز

(١) د. عبد الرحمن فهيمي : النقد العربي ، ماضيها وحاضرها - المكتبة الثقلية - القاهرة ١٩٦٤ - ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) المقريري : إغاثة الأمة - ص ٦٤ .

(٣) د. عبد الرحمن فهيمي : مجموعة النقد العربية وعلم النبات - فجر المسكة العربية - دار الكتب - القاهرة ١٩٦٥ - ص ٦٦ .

(٤) د. عبد الرحمن فهيمي : النقد العربي - ص ٥٠ - ٥٥ .

(٥) Ziya (Ahmed) Catalogue of Islamic Coins .

Constantinople - 1910 . P . 140 .

(٦) Porteaus (John) : Coins in History London 1969 . P . 36 .

(٧) يرجع بعض المؤرخين الاقتصاديين ظاهرة توفر النقد الذهبي ببلدان الشرق عاماً إلى أن ميزان المدفوعات كان يميل لصالح الشرق الذي كان يحصل على مبالغ كبيرة من النقد الذهبي خلال عملية التبادل التجاري مع الغرب . انظر :

Ashtor (E) Les Metaux Précieux et la Balance des Payements du Proche orient à la Basse Epoque .

Paris 1971 . P . 65 .

(٨) لومبار (موريس) : الأسس النقدية للسياسة الاقتصادية - الذهب الإسلامي مثل القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي - ترجمة توفيق إسكندر ، ضمن بحوث في التاريخ الاقتصادي - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٦٦ - ص ٦٣ .

لدين الله لما خرج من المغرب قاصداً مصر سبک من الذهب ثمانمائة رحمة وحملها بأحبار على أربعمائه جمل ، بل وإن حمل أربعة عشر حملًا من الإكسير الجيد الذي إذا وضع منه قليل على قنطرة نحاس صار ذهباً^(١) .

ويدل الأمان الذي أعطاه جوهر للمصريين على اضطراب حالة النقد بالبلاد عند الفتح ، إذ وعد جوهر بتجويد العملة ومنع الغش منها^(٢) . وفي سبيل ذلك خصصت الدولة مكاناً محدداً للصيরفة يسهل الإشراف عليه سعي برجة الصيارفة بجوار جامع عمرو بالفسطاط^(٣) ، وكان المحتسب يتولى معاقبة الصيارفة عند وقوع أي خطأ منهم ، وعندما حاول الصيارفة إثارة الشغب عام ٣٦٢ هـ لتأديب المحتسب لبعضهم ، هدد جوهر بإحرق رحبة الصيارفة^(٤) .

وقد أكد الفاطميون سيادتهم السياسية بمنع تداول الدينار الرازي العباسي ، الذي انخفض سعره نتيجة لإصرار الدولة على جباية الخراج بالدينار المعزى وحده^(٥) .

المجاعات وظاهرة الاكتناز :

ليس الاكتناز إلا نوعاً من أنواع الطلب على النقود^(٦) ، وذلك باعتبار أن الذهب والفضة سلعاً لها سعر للتداول في السوق .

وقد كان من جراء ما يصاحب المجاعات من ارتفاع الأسعار السلع الغذائية وهو ما يعني من ناحية أخرى انخفاض القوة الشرائية للنقود فإن الناس كانت تسارع إلى اخزان الذهب (الدنانير) خوفاً من خسارته وطمعاً في الاستفادة من قيمته بعد انتهاء المجاعات ، وهو ما يشبه ما يحدث الآن أثناء الحرب من اخزان المعادن النفيسة رغم ارتفاع ثمنها خوفاً من قيمة النقد الورقي بعد انتهاء الحرب^(٧) .

وقد ساعد على تفاقم ظاهرة الاكتناز تلك الأرباح الهائلة التي كان يجنحها تجار السلع الغذائية - على وجه التحديد - من جراء ارتفاع الأسعار ، فقد كانوا يحوزون حجماً ضخماً من النقد الذهبي

(١) ولعل في هذه المبالغة الأخيرة ما يشير إلى خسارة كميات الذهب . انظر : مجهول : إنسان العيون - ص ٤٠٦ - ٤٠٧ . وقد قلل بعض المؤرخين هذه السياطك الذهبية بثلاثة وعشرين مليون دينار - د. حسن الباشا (وآخرون) القاهرة - ص ٥٣٩ .

(٢) د. عطية مشرقة : نظام الحكم - ص ٣٩٥ .

(٣) د. عبد الرحمن فهمي : الثورة العربية - ص ٦٥ .

(٤) د. حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر - ص ١٨٦ .

(٥) المقريزي : شذور العقود في ذكر النقود - تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم - العراق ط ٥ - ١٩٦٧ م - ص ٢٧ ، وكانت عملة الفاطميين تضرب من الدينار وأجزاء الدرهم بها - انظر : P. Lane - Pool (S) The Coinage of Egypt . London . 1869 .

(٦) د. رمزي ذكي : مشكلة التضخم - ج ٥ .

(٧) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٣٠٧ .

الذى يضطر أصحابه للتخلّي عنه من أجل شراء الطعام ، وبعد انتهاء الأزمة الاقتصادية تستعيد النقود قوتها الشرائية وترتفع قيمتها ، وإذا انطلقت المكتنرات التي كونها الأفراد في الماضي نحو الإنفاق ، لأى سبب من الأسباب ، فإنها بلا شك تمثل إضافة حقيقة لكمية النقود المتداولة ^(١) ، ولكن درجة تطور المجتمع في فترة الدراسة وطبيعة احتياجات السكان واتجاهات الاستهلاك لم تكن بقدرة على فك جزء كبير من هذه المكتنرات التي ظلت على حالتها كنقود ، ومنها ما وصلنا من نقود القاطمين ، أو في حالات أخرى تحولت إلى حلٍ عن طريق ثقبها ^(٢) ، أو سكبها وإعادة صباغتها حلّياً ، كما أن ارتفاع الأسعار كان يدفع أصحاب المكتنرات الصغيرة إلى فتكها Dishoordings وتدالوها في السوق مما يزيد الطلب على المعروض من السلع فترتفع أسعارها ^(٣) . وكانت هذه المكتنرات الصغيرة تؤول لصالح أصحاب المكتنرات الكبيرة من التجار .

وكانت كل مجاعة تحدث تدفع بمزيد من الذهب إلى ظلام الاكتناف خاصة وأن الذهب كان يعتبر بالنسبة للدرهم «عملة جيدة» وطبقاً لقانون غريشام فإن العملة الرديئة (الفضة) طردت العملة الجيدة (الذهب) من السوق وأخرجتها من دائرة التعامل الدائم ^(٤) .

وقد أدى ازدهار التجارة الخارجية إلى تدعيم مركز التجارة المالي ومكنته من الاحفاظ شراؤتهم وتنميتها حتى إنهم كانوا يعدون قوة تمويلية ضخمة يمكن أن تقوم بتمويل الخليفة نفسه في وقف الأزمات حتى إن بعض رجال الدولة اقترح مصادرة التجارة أثناء مجاعة الظاهر عام ٤١٥ هـ ^(٥) .

وليس من المستغرب أن تكون بداية ظهور قاعدة المعدنين في مصر تالية لسلسلة المجامعت التي وقعت في عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٧، ٣٩٥، ٣٩٨ هـ) بعد ارتفاع الأسعار كان يزداد الطلب على الذهب ، وكلما بلغت المجاعة جداً خطيراً ارتفع سعر الدرهم ^(٦) وما ارتفاع سعر صرف الدرهم مقارنة بالدينار إلى ٣٤ درهماً في عام ٣٩٧ هـ ^(٧) إلا الوجه الآخر لارتفاع سعر الدينار نتيجة لزيادة

(١) د. رمزي زكي : مشكلة التضخم - ص ٥٠.

(٢) توجد قطع عديدة بها تقويب مثال ذلك دينار ضرب مصر عام ٣٦٠ هـ ومحفوظ بدار الكتب المصرية سجل ١٣٣٨ (لوحة ٥) ودينار من نفس المجموعة سجل ١٣٧١ مورخ عام ٣٧٣ هـ ضرب مصر (لوحة ١٣) ودينار ثالث نشره Miles من ضرب الإسكندرية عام ٤٤ هـ. انظر : Miles. (G): Fatimid coins, New York - 1951, p. 48.

(٣) د. رمزي زكي : المرجع السابق - ص ٥٠.

(٤) Ehrenkreutz. (A) , Arabic Dinars struck by the Crusaders , Journal of Economic and Social History of Orient Vol VII Part II . 1964 P 179.

(٥) المسيحي : المصدر السابق - ج ٤ ص ٨٦.

(٦)

Balog (P) , OP . Cit . P . 115 .

(٧) كان سعر الصرف في عام ٣٩٥ هـ عندما بدأت المجاعة ٢٦ درهماً ارتفع عام ٣٩٧ هـ إلى ٣٤ درهماً . المقريري : إغاثة الأمة - ص ١٤ .

الطلب عليه ، ولم تكن محاولة المحاكم إقرار سعر صرف رسمي للدرهم وضرب الدرهم الجديدة الجيدة إلا محاولة لوقف الطلب على الذهب عن طريق إدخال قاعدة المعدنين وهو ما سيأتي لاحقاً عند الحديث عن النقود الفضية .

ولا شك أن توالي المجنحات في العصر الفاطمي وانخفاضن القوة الشرائية للنقود غير مرة أن يدفع بمزيد من الأرباح إلى جيوب التجار ، وهنا تتجاوز النقود وظيفتها من مجرد وسيط للتبادل لتصبح مخزناً للقيمة وأداة من أهم الأدوات التي يستخدمها المجتمع كشكل من أشكال الاحتفاظ بالثروة^(١) وإضافة إلى مكتنرات التجار فإن ظهور الوزراء العظام والعسكريين كقوة حاكمة في البلاد واتساع عددهم هم وحواشيهم عند الخليفة وآل بيته واتجاه هؤلاء إلى زيادة ثرواتهم بطرق شتى سعياً وراء توطيد نفوذهم ، قد أدى إلى زيادة المكتنرات وهو ما تكشف عنه ترکات الوزراء وأملاكهم من الذهب والفضة .

وقد خلف الأفضل بن بدر الجمالي ٦ مليون دينار عيناً و٢٥ أرديباً دراهماً من نقد مصر^(٢) واستغرق نقل تركته أربعين يوماً ووجد بها أيضاً ثلاثة رحاء ذهباً ومائة مسمار ذهب زنة كل مسمار مائة مثقال وقنديل مذهبة^(٣) ، هذا فضلاً عما تركه من أواني الذهب والفضة والتي كان من بينها سبعمائة طبق ما بين ذهب وفضة^(٤) . وصندوغان كبيران فيهما إبر ذهب برسم النساء ودواة ذهب فيها جواهر باثني عشر ألف دينار^(٥) .

وعندما ألقى القبض على المأمون البطائحي وزير الأمر بأحكام الله عام ٥١٩ هـ وجد له سبعون سرجاً من ذهب مرصع ووجد لأنبيه المؤمن سرج محللي ذهباً^(٦) .

ورغم تدهور سلطان الخلفاء إلا أنهم ظلوا محظوظين بثروات ضخمة كان من ضمنها المصوغات الذهبية والأواني الفضية والنقود وذلك حتى عهد آخر خلفائهم العاضد^(٧) .

ولم يكتف التجار بما حصلوا عليه من مكافآت نتيجة لارتفاع الأسعار بل حصلوا أيضاً عن طريق الشراء على ما أخرج من خزانة المستنصر من التحف والذخائر ، وخاصة من الذهب

(١) د. رمزي زكي : مشكلة التضخم - ص ٥٠.

(٢) ابن خلkan : المصدر السابق - ج ٢ ص ١٦٢ ، وينظر د. المناوي أن وزن الدرهم كان خمسين أرديباً فقط ، وأن الدنانير كانت ٦،٣٥٠٠٠ مليون . انظر : الوزارة والوزراء - ص ٩٠ .

(٣) مؤلف مجهول : إنسان العيون - ص ٤٢٩ - ٤٢٨ ، وينظر المؤلف أن الأفضل حصل كل هذه التحف من كنز وجهه ١١ د. المناوي : المرجع السابق - ص ٩١ .

(٤) السيوطي : المصدر السابق - ج ٢ ص ١١٧ .

(٥) د. المناوي : الوزارة والوزراء - ص ٩٢ .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق - ج ١ ص ١٩٤ .

والفضة ، والتي كانت تباع بثمن بخس^(١) ، فزدادت بذلك مكتنزاً لهم . كما حصل العسكريون على جزء من هذين المعدنين حيث كانت الآلات المصوحة المجرأة بالذهب تسbk وتفرق عليهم^(٢) . وكان من نتيجة الشدة العظمى أن مكتنزاً الذهب والفضة التي جمعها الخلفاء الفاطميين خرجت من حوزة الخليفة إلى فئات كانت قادرة على الإكتناز مما حرم السوق من هذه الأرصدة حيث كان في مكتنة الخليفة سبکها ودفعها إلى الأسواق طالما كانت بحوزته . وما ازدهار صياغة الحلى في القرنين الخامس والسادس بعد الهجرة ١٢/١١ م إلا صورة أخرى للتغيير عن مكتنزاً الذهب والفضة^(٣) .

الإنفاق الترفي :

بعد الإنفاق الترفي تعيراً عن تزايد حجم مكتنزاً ميسير التجار والوزراء وحواشيهم ورجال الجيش الذين أفادوا من ضعف سلطة الخليفة وترابي قبضة السلطة المركزية من بعد خلافة الحاكم بأمر الله .

فقد تركت ثروات البلاد من عوائد الأرضي والمكوس في أيدي الوزراء وحواشيهم والجنود في صورة رواتب نقدية وعينية وإقطاعات ، بينما أفاد التجار من استثمار أموالهم في تجارة العبور المزدهرة ومن المضاربة بأقوات الشعب ، بل إن بعض الوزراء مارس الإحتكار في السلع الغذائية ، مثل أفضل الصالح طلائع بن رزيك .

وقد ازداد إنفاق الدولة على الملابس أو الكسوات وخيوط الذهب التي كانت تحلى بها هذه المنسوجات إلى ٤٣ ألف دينار في خلافة الامر بأحكام الله^(٤) .

مجاعات الحاكم بأمر الله والتحول إلى قاعدة المعدنين :

عرف الفاطميون ضرب نقود فضية منذ تأسيسهم خلافتهم في إفريقيا^(٥) ، وهو ما يخالف ما ذهب إليه المقرizi من أن تداول الدرام الفضية في عصر الحاكم بأمر الله^(٦) ، ويؤكد ما عثر عليه

(١) ابن إيلاس : المصدر السابق - ج ١ ص ٦١ .

(٢) المقرizi : الخطط - ج ١ ص ٤١٥ .

(٣) تعود معظم الأمثلة الفاطمية للحلى ، الموجودة بمتحف الفن الإسلامي إلى القرن ٥ - ٦ هـ . انظر : أحمد ممدوح حمدي : معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامي ، القاهرة ١٩٥٩ م .

(٤) إنصاف رياض : الحلة الاقتصادية - ص ٥١ ، بما أن أول من فطن إلى خطورة التوسع في استعمال الثيب النعيه على وصيف اللاد من الذهب فأمر بالغاء ما يصنع منها سواء أكان في خزان الكسوات أم مصانع التسريح الحكومية المعروفة بالطراز الشريف . انظر : د عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة - ص ٤٠ .

(٥) انظر ما نشره Balog عن الدرام وأجزائه في خلافة كل من المهدي بأمر الله والقائم بأمر الله والمنصور بأمر الله ١١٨ - ١١٦ . PP ، وما نشره Miles عن سكة المعاز الدين الله الفضية قبل فتح الفاطميين لمصر ، P . 12 . OP . cit .

(٦) المقرizi . إغاثة الأمة - ص ٦٤ .

من مسكونات فاطمية قيام الخلافة الفاطمية في مصر بإصدار عملات فضية منذ عام ٣٦٤ هـ على الأقل^(١).

وقد أصدر الفاطميون عملاتهم الفضية على أساس الدرهم وأجزاءه من نصف الدرهم وربع الدرهم وثمن الدرهم ، وكان معظم التداول في أنصاف الدرهم لا الدرهم^(٢) ، وكانت قيمة الدرهم منخفضة عند الفتح الفاطمي حيث كان سعر صرف الدينار المصري $\frac{1}{15}$ درهماً^(٣) مما يدل على أنه كان في حكم العملة المساعدة ، وظل الأمر كذلك حتى عام ٣٧١ هـ فانخفض سعر الدرهم ليصل إلى عشرين درهم بدينار^(٤) . وكانت هذه الدرهم تعرف بالقطع ، أي أنها دراهم غير كاملة للذهب جزء منها بسبب القطع والمزايدة عن الدرهم الجيدة في المحجم وليس في الوزن^(٥). وكنتيجة لزيادة الطلب على اخزان الذهب بعد مجاعات الحاكم بأمر الله ارتفع سعر الدينار في مواجهة الدرهم منذ بداية المجاعة في عام ٣٩٥ هـ / ٤٠٠٥ م فبلغ في رمضان عام ٣٩٥ هـ سنة وعشرين درهماً بدينار^(٦) . ومع تفاقم المجاعة وامتدادها في عام ٣٩٧ هـ / ٦٠٠٧ م (أي تزايد الطلب على الذهب) تدهور سعر الدرهم ليصل إلى ٣٤ درهم بدينار في ربيع الأول من هذه السنة^(٧) .

وقد حاول الحاكم بأمر الله أن يعالج أزمة النقد الذهبي عن طريق تحسين وضع الدرهم الرديئة حتى لا تطرد الدنانير من التعامل بشكل نهائي ، فأمر بسحب الدرهم القديمة من التعامل ، والتي ربما يكون قد دخلها شيء من الغش في الوزن والعيار ، وأنزل من القصر عشرين صندوقاً فيها دراهم جدد فرقت في الصيارة وقرىء سجل بمنع المعاملة بالدرهم الأولى وترك لمن في يده شيء منها مهلة ثلاثة أيام ليورده إلى دار الضرب ، وأدى ذلك الإجراء إلى انخفاض سعر الدرهم القديمة بالنسبة للدرهم الجديدة بلغت أربعة دراهم بدرهم جديد^(٨) . وقرر الحاكم أن يكون سعر صرف الدرهم الجديدة ١٨ درهماً بدينار^(٩) .

(١) نصف درهم من ضرب مصر . انظر : OP . Cit . P . 12 .

(٢) محمد أبو الفرج العشي : المرجع السابق - ص ٤٢ .

(٣) المقريزي : شذور - ص ٢٧ ، انسناس الكرمي : المرجع السابق - ص ٥٨ .

Balog : OP . Cit . P . 115 .

(٤)

(٥) المقريزي : إغاثة - هامش (٢) - ص ٢٦٥ .

(٦) المقريزي : اتعاظ - ج ٢ ص ٥٨ .

(٧) المقريزي : إغاثة - ص ٢٦٥ اتعاظ - ج ٢ ص ٦٩ ، وليس في عام ٣٩٩ - كما يذكر Balog : OP . Cit . P . 115 . الذي اعتمد فيما يليه على كتاب شذور العقود حيث ورد فيه هذه الأسعار منسورة إلى عام ٣٩٩ - ولعل تصحيف كلمة سبع إلى تسعة كان خطأ من الناشر أو ناشر الكتاب . انظر : المقريزي : شذور ص ٢٧ .

(٨) المقريزي : شذور المقود - ص ٢٧ - ٢٨ ، إغاثة - ص ٦٥ .

(٩) د. راشد البراوي : المراجع السابق - ص ٣٥ .

وكان من شأن هذا الإصلاح التقديي الذي رفع من سعر الفضة في مواجهة الدينار، بل وفن هذا السعر، أن أصبحت مصر تعتمد في نقدتها على قاعدة المعدين Bimetallic System⁽¹⁾ ولعل الحكم أراد بهذا الإجراء مواجهة تيار احتزان الذهب وحتى يصبح للبلاد نقد شرعي من الفضة تواجه به أي ازدياد في إتجاهات اكتناز الذهب⁽²⁾، ومن المستبعد أن يكون سبب هذا الإصلاح التقديي هو تيسير التعامل في السلع الفليلة الثمن⁽³⁾ إذ أنه من الملحوظ أن الأزمة التقديمة كانت في انخفاض نسبة إيدال الدرهم الناشيء عن تزايد الطلب على الدينار.

وينقل المقريزى عن المسجى الذى توفي عام ٤٢٠هـ^(٤)/١٠٢٩م ، أي في عهد الظاهر ، أن الدرهم أصبحت هي نقد مصر والقاهرة والإسكندرية وأنه أدرك الإسكندرية وأهلها لا يتعاملون إلا بها ويسمونها الورق^(٥) .

ولعل في تلك العبارة ما يؤكّد تحول مصر إلى قاعدة المعدنين وازدياد تداول الدرّاهم وتراجع الدنانير من المعاملة ، خاصة بعد مراجعة ٤١٥ هـ / ٢٤٠ م .

ورغم ما تشير إليه المصادر من أن مقادير العملة وتغييرها كان يتم على حسب رأي الإمام^(١) ، إلا أن عامل زيادة الطلب على الذهب كان يؤدي في الواقع إلى تحسين وضع الدرهم في مواجهة الدينار . ففي عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م كان سعر الفضة ستة عشر درهماً بدينار^(٢) ، وإن ذكره Quatremére أنه $\frac{1}{16}$ ^(٣) .

وقد ظل الدرهم حتى عام ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م محافظاً على سعر صرف تراوح ما بين ١٦ و١٨ درهماً للدينار ويمتوسط وزن متقارب (كان الوزن يقل بنسبة ١٠ % عن الوزن الشرعي) ، ويرجع ذلك الثبات في الوزن ونسب الإبدال إلى عدم وجود إشارات إلى مجاعات حدثت خلال هذه الفترة^(٩) .

ثم قام المستنصر في عام ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م بإصدار نوع جديد من الدرهم كل ٣٥ منها يدينار واحد . ولم يفسّر المؤرخون سبب هذا الانخفاض المفاجيء في قيمة الدرهم ، ولكن ذلك

(١) د. حسن الباشا (وآخرون): القاهرة - ص ٥٤.

(٢) د. راشد الراوى : المرجع السابق - ص ٣٠٥ .

^(٣) د. محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية - ص ١٦٠.

(٤) د. عبد المنعم ماجد : الترجم السماوي - جزء ٢١.

^(٥) المقدمة، إغاثة - ص ١٥٦-١٥٧.

(٢) د. المنعم ماجد : نظم - ح ١٢٩

(٧) المقدسي: الخطاب - ج ٢٩، ص ١٣٦.

Balog : OP Cit P 115

14

Ibid., PP. 122-3.

(9)

بلا شك قد سبب خسارة كبيرة للعامة^(١) . وقد يكون سبب هذا الانخفاض هو العيار السيء لهذه الدرهم (كما نلاحظ في هذا الجدول) . إلا أن دراهم المستنصر ضعيفة العيار سرعان ما ارتفع سعرها أثناء الشدة العظمى ليبلغ ١٦ درهماً بدینار^(٢) ، وذلك بسبب تزايد الإتجاه إلى اكتناف الذهب والفضة معاً .

عيار الدرهم وأجزائه تقادراً عن *Balog : Op. Cit. P. 122*

درهم	$\frac{1}{2}$ درهم	$\frac{1}{4}$ درهم	الخلفية
% .٨٨	% .٨٦	% .٨١	العزيز
% .٧٠	% .٦٦	% .٦٦	الحاكم
	% .٤٨		الظاهر
% .٤٨	% .٤٦,٦		المستنصر ^(١) قبل ٤٤١ هـ
	% .٣٤		المستنصر ^(٢) بعد ٤٤١ هـ
% .٣١	% .٢٨,٨	% .٢٥	العايد

وباطرداد زيادة الطلب على النقود الذهبية وانخفاض عيار هذه النقود ، خاصة في عهد الأمر ، قام الأمر بضرب الفضة السوداء المشهورة بالأمرية^(٣) وهي ضعيفة العيار^(٤) حيث كان معظمها من النحاس وفيها اليسير من الفضة ، وظللت هي المتعامل بها حتى استولت دولة بنى آيوب على مملكتي مصر والشام^(٥) .

والخلاصة أن تحول مصر إلى قاعدة المعدنين جاء نتيجة لاكتناف الذهب أثناء مجامعت الحاكم المتالية ، وأن سعر الذهب حق ارتفاعاً واضحأً بالقياس للدرهم التي قلّت بها نسبة الفضة منذ الشدة العظمى ، وأن الفضة زاد التعامل بها حتى أصبحت هي نقد البلاد كما لاحظ المسبحي .

تأثير المجامعتات على النقد الذهبي (الدينار وأجزاؤه) :

كان ذهب المعز كفياً بأن يعطي إيحاءً قوياً بأن التعامل القيدي في مصر سيظل يعتمد على قاعدة المعدن الواحد Monometallisme التي كان الذهب ركناً الركين منذ ما قبل الفتح الإسلامي إلا أن رياح الأحداث جاءت بما لا تشتهي السفن ، إذ سرعان ما تخلّت البلاد عن قاعدة المعدن

Balog : OP . Cit . P . 115 .

(١)

(٢) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٤١٦ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ١٥٤ .

(٤) محمد أبو الفرج : المرجع السابق - ص ٤٧ .

(٥) المقريزي : إغاثة - ص ٦٦ ، الخطط - ج ١ ص ١١٠ .

الواحد ، وأصبح التعامل يتم على أساس معدني الذهب والفضة منذ تحولت مصر إلى قاعدة المعدنين Bimetallic System في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذي ضرب دراهم جديدة حددت قيمتها بالنسبة للدينار ، فاكتسبت الدرهم بذلك الصفة القانونية^(١) .

وقد أخذ هذا التحول الجنيني في النمو طوال العصر الفاطمي ، وعندما سقطت خلافة الفاطميين كانت الدرام السود التي فيها قليل من الفضة ، معظمها من النحاس ، هي المسائدة في التعامل ، وظلت كذلك حتى ضرب محمد الكامل بن العادل الأيوبي الدرهم الكاملي في ذي القعدة عام ٦٢٢ هـ^(٢) .

ورغم ذلك فإن Hennequin يعتقد أن العصر الفاطمي كان عصر سيادة الذهب في التعامل النقدي^(٣) ، كما يرى د . عطية القوصي أن «الدينار الفاطمي ظل محفوظاً بمركزه ولم يتغير بالشدة العظمى أو بالحروب الصليبية» وهذا يرجع في المقام الأول إلى قوة اقتصاد مصر الذي كان يرتكز على تجارة الشرق^(٤) .

ورغم الاعتراف بأن الشلة المستنصرية وغيرها من الأزمات لم تؤثر كثيراً في وزن الدينار الفاطمي حيث ظل محافظاً على وزن قريب من وزن الدينار الشرعي^(٥) ، كما نلاحظ في الدنانير المحفوظة بدار الكتب المصرية وترجع في تاريخ ضربها إلى سنوات مجاعات أو سنوات لاحقة لها ، والملحقة بهذا البحث ، إلا أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعيار الدنانير الفاطمية .

ويستفاد مما ذكره Ehrenkreutz أن الدنانير الفاطمية المضروبة في مصر فيما بين ٣٥٨ - ٤٨٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٩٤ م تنسن في مجملها بارتفاع العيار ، فمن بين ١٢٦ قطعة تم فحصها كان هناك ٣ قطع فقط عيارها دون ٩٠٪ أي بنسبة ٢،٣٨٪ من عدد القطع التي فحصت . أما دنانير المستنصر المضروبة في مصر فإن ٣ قطع من بين ٧٣ قطعة منها يقل عيارها عن ٩٠٪^(٦) (٧٪) .

وتدهور العيار بشكل واضح في دنانير المستعلي بالله والأمر بأحكام الله التي تعتبر من أردا

(١) د. حسن الباشا (وانغرون) : القاهرة - من ٥٤١ .

(٢) المغربي : إغاثة الأمة - ص ٦٦ ، وكانت الدرام الفاطمية تعرف بالعتق (القديمة) والورق ، أما الكاملي « فقد كان ثلثه من النحاس والثلثان من الفضة » . انظر المغربي : الخطاط - ج ١ من ١١ .

(٣) Hennequin (G) , Points de vue sur L'Histoire Monetaire de L'Egypte Musalmane au Moyen Age . A 113 , 1977 . p. 2.

(٤) د. عطية القوصي : تجارة مصر - من ١٢٢ - ١٢٣ .

(٥) الوزن الشرعي للدينار هو ٤،٢٥ غرام - د. عبد الرحمن فهمي : مجموعة التقويد العربية - من ٣٠ .

Ehrenkreutz (A) OP . Cit . P . 174 .

Ibid . P . 177 .

الدنانير التي ضربت في العصر الفاطمي^(١) . وأية ذلك أن ١٥ قطعة من مجموعة ٩١ قطعة تم فحص عيارها (أي حوالي ١٦,٥٪) كان عيارها دون الـ ٩٠٪^(٢) .

وإجمالاً فإن من بين ١٤٢ عينة فاطمية ضربت في مصر قبل عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٣ م كان هناك ١٢١ قطعة (بنسبة ٨٥,٢٪) تبين أن دقة عيارها يزيد على ٩٨٪ بينما نجد أن نسبة ما يزيد عياره عن ٩٨٪ ، من بين ٩١ قطعة ، ترجع إلى عهد الأمر بالحكم الله لا تزيد عن ٦٣,٧٪^(٣) .

إن هذا الانخفاض التدريجي في عيار الدنانير الفاطمية كان أمراً ملحوظاً من قبل الحكومة ، التي حاولت فيما يلي التغلب على هذه المشكلة ، فقد حاول الأفضل بن بدر الجمالي أن «يحرر» عيار الدينار في المحرم من عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م ، إلا أن تلك المحاولة وغيرها قد ذهبت أدراج الرياح كما يلي من هذا الجدول^(٤) . الذي يوضح نتيجة فحص عيار دنانير الأمر .

نسبة العيار	مكان الضرب	التاريخ
% ٨١	مصر	٥٠٨ هـ
% ٨٠	مصر	٥١٠ هـ
% ٨٢	مصر	٥١٠ هـ
أقل من % ٥٠	الإسكندرية	٥١٤ هـ
% ٧٧	القاهرة	٥١٨ هـ

إن ظاهرة انخفاض عيار الدنانير في النصف الأخير من حكم الفاطميين وسياسة القدر الفاطمي المستداول في الأسواق ، يعكس قلة ما يزيد إلى دور الضرب من الذهب ، وقد حاولت دراسات مختلفة أن تتصدى لتفصيل هذه الظاهرة على أساس تأثير مصادر الذهب الفاطمي بعوامل طبيعية وسياسية ، مثل نضوب مناجم التعدين^(٥) المصرية ، أو قلة الذهب الوارد لمصر من شمال إفريقيا بسبب الانقسام الحاصل بين الفاطميين والزيريين وقتذاك أو بسبب الغزوات الهلاكية وقطعها طرق

Ashtor (A) , OP . Cit . P . 17 .

(١)

Ehrenkreutz (A) , OP . Cit . P . 177 .

(٢)

Ibid . PP . 174 - 177 .

(٣)

(٤) إنصاف رياض : الحالة الاقتصادية - ص ١٣٦ .

Ehrenkreutz (A) , OP . Cit . PP . 180 - 181 ..

(٥) تقلّ عن :

(٦) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٣٠٧ .

القوافل بين الشمال الإفريقي وجنوب السودان^(١) . ولذا فإنه من المفيد أن نشير بشكل موجز إلى علاقة مصادر الذهب الفاطمي بنقص كميات الذهب الازمة لضرب الدنانير .

أ- المصادر المحلية

اعتمد الفاطميون على جماعات الأرقاء المشتغلين باستخراج الذهب في إعادة العمل إلى بعض المناجم المصرية ، وذلك تحت إشراف عمال الخليفة ، فعادت المناجم إلى ما كانت عليه من ازدهار استغلال ذهبها في عهد البطالمة^(٢) . وقد ظلت مناجم وادي العلاقي بالصحراء الشرقية تدر كميات من الذهب حتى القرن ٤ هـ / ١٠ م ، ولم تقل أهميتها إلا منذ القرن ٧ هـ / ١٣٢ م ، وأصبحت المناجم الأخرى في مصر العليا غير متنجة أيضاً^(٣) .

ومعنى ذلك أن مناجم الذهب المصرية ، وإن قل إنتاجها في القرن ٤ هـ / ١٠ م ، إلا أنها لم توقف عن الإنتاج طوال العصر الفاطمي .

المصدر الثاني للذهب المصري كان كنوز فراعنة مصر القديمة . منذ عهد أحمد بن طولون أصبحت أعمال البحث عن الكنوز تتولاها السلطة الحاكمة^(٤) . وفي عهد الحاكم بأمر الله كان الخليفة يأمر باستخراج كنوز مصر من الآثار القديمة لصرفها على الناس^(٥) .

ويبدو أن كميات الذهب التي كان يعثر عليها بلغت حداً رأت معه الدولة تنظيم عمليات البحث ، ف تكون طائفة للمطالبين يتراوّه رجل يعرف بأمير المطالبين . ويمدنا ناصر خسرو بمعلومات مهمة عن هذه الطائفة ورئيسها عام ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ، فيذكر أن أمير المطالبين كان يعرف بلقب عمدة^(٦) الدولة ، وأنه أوفد على رأس جيش في هذا العام إلى حلب ، وأن أمير المطالبين كان عظيم المال والجاه حتى إنه لما قتل استغرق نقل خزائنه إلى خزائن الخليفة شهرین ، ويستفاد مما ذكره الرحالة الفارسي أيضاً أن رجال المطالب من المغرب وديار مصر والشام كانوا مغامرين يتحملون المشاق وينفقون المال الكثير في تلال مصر ومحاجرها لأجل الحصول على الذهب ، الذي كان الخليفة يحصل على خمسة^(٧) .

(١) لويس (أرشيالد) القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط - ترجمة أحمد محمد عيسى - النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٠ - من ٣٨٧.

(٢) لمبار (موريس) الأسس النقدية - ص ٦٢.

Ashtor . OP . Cit . P . 16 .

(٣) لويس : المرجع السابق - ص ٦٠ ، وتذكر الروايات التاريخية أن أحمد بن طولون ضرب دنانير الأحمدية عالية العيار مما اعتذر عليه من الذهب في أحد المطالب الفرعونية إنسناس الكرمي : التقدّم العربية وعلم النبات - القاهرة ١٩٣٩ - ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤) د. عبد المنعم ماجد : الحكم بأمر الله - ص ٦٢ .

(٥) العمدة في اللغة ما يعتد به ، قد أضيف إلى هذا اللفظ بعض كلمات لتكوين القاب مركبة مثل « عمدة الأحكام » و « عمدة الإمام » و « عمدة الأئمة » ، وهي لقب الملك والسلطان . انظر : د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية - ص ٤٠٨ .

(٦) ناصر خسرو : سفره إلى مصر - ص ٣٧ .



ولا ينبغي أن نقلل من قدر ذهب المطالب ، خاصة وأن مقدار ما عثر عليه من الذهب في مقبرة توت عنخ أمون ، وهو من الفراعنة الضعاف ، كان يقدر بضعف الغطاء المعدني في البنك الأهلي المصري عند اكتشاف هذه المقبرة في بدايات هذا القرن^(١) .

ب - المصادر الخارجية :

كان المعين الأساسي للذهب الفاطمي هو ذهب السودان الغربي ، من غانا وسلجامة ، وكان ذلك الذهب يأتي عن طريق التجارة من الجنوب الغربي لمراكش^(٢) .

وكانت تجارة الذهب تمر عبر عدة طرق رئيسية تخترق الصحراء من مراكش وتونس وطرابلس ولبيبا إلى أعلى السنغال والنiger وبحيرة تشاد^(٣) . وأهم هذه الطرق ثلاثة طرق رئيسية ، الطريق الأول : يمر بمدينة سجلمامسة التي أسمت بإقليم تافيللت . والطريق الثاني : من ورجلة إلى منحنى نهر النiger ماراً بتيديكلت . أما في الشرق إلى هذين الطريقين فقد قامت الطرق التي تربط ما بين الجريد وطرابلس من ناحية وغداميس وغيره والسودان من ناحية أخرى . وقد سيطر الفاطميين على هذه الطرق منذ تأسيسهم الخلافة بأفريقيا ، وقضوا على إمارة تهرت واحتلوا سجلمامسة فأصبحوا سادة طرق الذهب كلها إلى أنتمكن الأمويون في الأندلس من استعادة الإشراف على الطريق الصحراوي الغربي (طريق سجلمامسة) في القرن ٤ هـ / ١٠١٠ م^(٤) ، ثم فقد الفاطميين في متصرف القرن ٥ هـ / ١١٥ م سيطرتهم على طريق الصحراء الشرقية الكبرى والمجرى وطرابلس الذي كانوا ينقلون عبره ذهب السودان الغربي إلى مصر ، ووقع هذا الطريق في قبضة الزirيين^(٥) .

إلا أن صلة مصر لم تقطع نهائياً بغانة وغيرها من بلاد السودان الغربي والأوسط ، لأن مصر كانت تقع على طريق الحج ، وظلت أهمية مصر قائمة بالنسبة لبلاد غرب إفريقيا رغم اضطراب أحوال الشرق منذ أواخر القرن ٥ هـ / ١١٥ م^(٦) . وظلت غانا المصدر الرئيسي للذهب الذي تضرب منه الدنانير المصرية حتى عصر القلقشنلي وبين خلدون في العصر المملوكي^(٧) . وكان الحجاج من مناطق غرب إفريقيا يحملون معهم الذهب ، وليس من المستبعد أن يقوموا ببيعه في مصر ، وقد

(١) لمبار : الأسس النقدية - ص ٦٠ .

(٢)

Ashtor (A) , OP . Cit . P . 17 .

ولم تكون غانا هي المنتجة للذهب بل كانت هي الوسيط في نقل الذهب بين منتجيه في أعلى السنغال وبين شمال إفريقيا ، وكان الغانيون يحصلون عليه عن طريق التجارة الصامتة . Silent-Trade . بتبادل الذهب مع الملح والمساحع . انظر : د. إبراهيم طرخان : أمبراطورية غانا الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ - ص ٧٠ .

Lewis (B) , The Camb . History . Vol . I . P . 345 .

(٣)

(٤) لمبار : الأسس النقدية - ص ٦٢ - ٦٣ .

(٥)

Ashtor (A) , OP . Cit . P . 17 .

(٦) د. إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانا - ص ٨٤ .

(٧)

قام سلطان مالي من ابن موسى بإهداء بعض من ممتلكاته الشخصية من الذهب للسلطان المملوكي أثناء مروره بمصر في طريقه للحج عام ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م^(١).

وتشكل التجارة الخارجية مصدرًا مهمًا من مصادر الذهب في العصر الفاطمي ، حيث ازدهرت تجارة العبور (الترانزيت) التي كانت تمر بمصر وخاصة تجارة الكارم حتى أصبحت هذه التجارة تمثل النشاط الاقتصادي الرئيسي للبلاد ، وخاصة في أواخر الدولة الفاطمية ، ومن المعروف أن ميزان المدفوعات التجاري كان يميل لصالح بلدان الشرق العربي على حساب الأطراف الأخرى وبخاصة الدولة البيزنطية حيث كان هناك تزيف مستمر من الذهب البيزنطي لصالح الشرق الإسلامي^(٢).

والخلاصة أن مصادر الذهب طوال العصر الفاطمي لم يطرأ عليها تغيرات جوهرية تؤدي إلى نقص كميات الذهب بشكل مؤثر ، خاصة وأن الذهب المضروب لم يكن سلعة تستهلك طالما كان يعاد ضريبه في دور الضرب الفاطمية التي تقوم بتصدير الذهب وضريبه لحساب أصحابه نظير أجر رمزي^(٣).

لقد كانت كمية الذهب المتداولة في السوق المصرية ، وما حمله الفاطميين من ذهب غرب إفريقيا ، وما كانوا يحصلون عليه عبر طرق الذهب ، بجانب ما يستخرج من ذهب المناجم المصرية وكنوز الفراعنة ، وحاصل الفاتحون في ميزان التبادل التجاري ، كل كميات الذهب هذه ، كانت كافية بابقاء مصر على قاعدة المعدن الواحد (الذهب) . ولذلك فإنه من المستبعد أن يكون نضوب مصادر الذهب الفاطمي السبب الرئيسي وراء تراجع الدينار الذهبي عن موقعه كقرة إبراء غير محدودة ليفعي المجال لظهور الفضة إلى جواره ، خاصة وأن تحول مصر إلى قاعدة المعدنين تم في نهاية القرن ٤ هـ / ١٠ م قبل الغزوات الهلاكية بوقت كبير.

ولذا ، فإن البحث يجب أن يتوجه إلى عوامل داخلية ، أثّرت على مركز الدينار الذهبي ، وهي عوامل تتعلق بالمجاعات وما ترتب عليها من ظواهر اقتصادية أهمها اختزان الذهب واستعماله في أدوات الترف والزينة^(٤) ، إضافة إلى العوامل السياسية التي نجمت عن المجاعات وعلى رأسها تزايد نفوذ الوزراء والعسكريين .

(١) Lewis (B) , Islam , Vol . II , P . 22 .

(٢) لومبار (مورس) : الأسس النقدية - ص ٦٨ .

(٣) د. عبد الرحمن فهمي : إضافات جديدة في مذكرات الفاطميين مستخرج من مجلة المجمع العلمي المصري للمجلد ٥٢ - موسم ١٩٧١/٧٠ م - ص ٢٠ .

(٤) د. راشد البراري : حالة مصر الاقتصادية - ص ٣٧ .

أثر العملات التذكارية على الطلب على الذهب :

ابتدعت الدولة الفاطمية في القاهرة تقدماً تذكارية من معدن وأحجام مختلفة قصد الإنعام بها على الشعب في بعض المواسم والأعياد وذلك لامتصاص سخط أعدائهم وكسب مودة شعوبهم^(١). فمن هذه النقود دنانير الغرة التي كانت تضرب في العشرة الأخيرة من ذي الحجة بتاريخ السنة التي ركب بها الخليفة ، وتشمل جملة من الدنانير والرياعية والدرارهم المدوره، ويذهب جزء من ذلك للوزير وأولاده وإخوته ويبلغت الغرة التي ينعم بها في أول العام من الدنانير والرياعية والدرارهم ما يقرب من ثلاثة آلاف دينار^(٢).

كما كان من جملة رسوم الدولة الفاطمية في خميس العدس ضرب خمسة دينار ذهباً ، عشرة آلاف خروبة تفرقها على جميع أرباب الرسوم^(٣) ، ثم ارتفع مقدار ما يضرب من هذه الخراريب إلى ألف دينار في عهد المأمون البطائحي تضرب ٢٠،٠٠٠ خروبة^(٤).

وكانت هذه النقود التذكارية التي تضرب سنوياً تخرج من دائرة التعامل التقدي لتضاف إلى رصيد الاكتناز ، سواء كانت بداعم الاحتفاظ بهبة الخليفة على سبيل التبرك^(٥) ، أم بهدف الانتفاع بقيمتها الذهبية ، خاصة وأن هذه النقود كانت تذهب إلى أرباب الوظائف من يحوزون مكتنرات ذهبية ، أي أنهم لم يكونوا بحاجة إلى فك اكتناز هذه النقود التذكارية .

فعندما كانت قيمة ما يضرب في خميس العدس ٥٠٠ دينار كان الأفضل بن أمير الجيوش يحمل منها للخليفة ماتي دينار ويحتفظ هو بالباقي ، وعند تضاعف هذا المقدار إلى ١٠٠٠ دينار لم يزد ما يحصل عليه الخليفة عن ثلاثة دينار^(٦) ، وكان الوزير يحصل من نقود الغرة على ٣٦٠ ديناراً و ٣٦٠ رياعاً و ٣٦٠ قيراطاً وإلى أولاده وأخوته من كل صنف من ذلك خمسون^(٧).

وكان من نتيجة ازدياد الإتجاه نحو اكتناز الذهب في النصف الأخير من عمر الخلافة الفاطمية وقلة كمية الذهب المتداول في الأسواق أن عجزت الخلافة عن الاستمرار في ضرب هذه النقود التذكارية ، فلم تضرب في فترة خلافة الحافظ لدين الله غير ستة واحدة ونسبي ذكرها بعد ذلك^(٨).

كما كان سقوط أي جزء من ممتلكات الخلافة في أيدي الصليبيين أو السلاجقة أو التورماندين

(١) د. حسن الباشا (وآخرون) : القاهرة - ج ٥٤١.

(٢) المقريزي : الأوزان والمكاييل - ص ٥٠ - ٥١.

(٣) المقريزي : المصدر نفسه - ص ٥٣ ، الخطط - ج ١ ص ٢٦٦.

(٤) إنصاف رياض : المرجع السابق - ص ١٤١.

(٥) د. حسن الباشا (وآخرون) : القاهرة - ص ٥٤٢.

(٦) المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٤٥١.

(٧) المقريزي : الأوزان والمكاييل - ص ٥١ - ٥٠.

(٨) المقريзи : المصدر نفسه - ص ٥٢.

يؤدي إلى فقدان الدولة لجزء من ذهبها المتداول في هذه الممتلكات سواء استولى عليها الأعداء أو قام السكان هناك باكتنازها^(١).

إضافة إلى تلك العوامل التي أدت إلى ضعف الوارد إلى دور الضرب المصرية من الذهب ، فإن ضعف الخلافة الفاطمية العام منذ ما بعد الشدة العظمى أدى إلى استنزاف جزء من رصيدها الذهبي ، سواء في شكل أعباء مالية متزايدة في نفقات مواجهة الحملات الصليبية أو دفع غرامات للصلبيين^(٢) ، كما أدى إلى فقدان الدولة جزءاً من مواردتها الذهبية التي كانت تحصل عليها من بيع منسوجات تنسيلليزنتين والتي كانت تبلغ ٢٠ ألف دينار سنوياً وذلك بعد قيام الصليبيين بتدمير المدينة ونهبها^(٣) .

والخلاصة أن نتائج المجاعات الاقتصادية (ارتفاع الأسعار والاكتناز) والنتائج السياسية (تضييد نفوذ وزراء التمويض والعسكريين) وضياع أملاك الخلافة ، وخاصة في الشام ، كلها عوامل أدت مجتمعة إلى قلة الذهب المتداول في الأسواق .

تأثير المجاعات على دور الضرب الفاطمية :

كانت دار الضرب بمصر - الفسطاط - هي دار الضرب الرئيسية في مصر الفاطمية ، وإلى جانبها دار الإسكندرية القديمة . ويظهر أن دار الضرب بالفسطاط كانت معطلة عند دخول جوهر لمصر ، إذ أنه أمر يفتح هذه الدار وضرب بها مسکوكات المعز لدين الله^(٤) .

وإلى جانب دار الضرب بمصر ودار الإسكندرية أنشأ الفاطميين دار ضرب بقوص وأخرى بالقاهرة في أواخر خلافتهم^(٥) . فقد رأى الوزير الفاطمي المأمون البطائحي أن قام بالقاهرة دار الضرب فتم تشييدها في شوال عام ٥١٦ هـ بالقشاشين قبالة بمارستان قلاون وعرفت بالدار الأمريكية^(٦) . ورغم أن هذه الرواية قد توحّي بأن التقدّم الفاطمي لم يرد عليها اسم القاهرة قبل عام ٥١٦ هـ^(٧) ، إلا أن الواقع يثبت عكس ذلك ، فلدينا دينار مؤرخ بعام ٣٦٢ هـ من ضرب «مدينة

(١) مثلما حدث عند انتلاء التورمانليين على جزيرة صقلية . د. عبد الرحمن فهمي : إضافة جديدة - ص ٢٠ - ١٩.

(٢) د. حسن الباشا (وآخرون) : القاهرة - ص ٥٤٢ .

(٣) المرجع نفسه : ص ٥٤٣ .

(٤) د. حسن الباشا (وآخرون) : القاهرة - ص ٥٥٢ .

(٥) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ١١٠ ، ويدرك المقريزي أن الإشراف على دار الضرب في العصر الفاطمي كان من مهام متولّي وظيفة قاضي القضاة ، أو من يستخلفه أما عن وظائف دار الضرب وطريقة العمل بها فانتظر : تحقيق ونشر الدكتور عبد الرحمن فهمي لكتاب ابن بمرة الذهبي الكاملي : كشف الأمصار العلمية بدار الضرب المصرية - القاهرة ١٩٦٦ م.

(٦) المقريزي : الأوزان والأكيال - ص ٤٩ - ٥٠ .

(٧) د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية - ص ٣٠٨ .

المغز» وهي القاهرة ، وهو أول دينار ضربه المعز بعد انتقاله من المنصورية^(١) . كما ظهر اسم المعزية على درهم مؤرخ بعام ٤٧٠ هـ ، وورد اسم المعزية القاهرة على دينار ضرب في عام ٥٠٨ هـ^(٢) .

أما مدينة قوص^(٣) بصعيد مصر فقد أنشئت بها دار ضرب في عام ٥١٦ هـ بعد أن تولى ولايتها الأمير مؤيد الملك^(٤) ، وبدأت إنتاجها بعد تأسيس دار القاهرة بنحو عام^(٥) .

وإذا كانت الروايات التاريخية تقرن رغبة المأمون في إنشاء دار ضرب القاهرة بضرورة وجود دار في عاصمة الخلافة وموطن الإمامة^(٦) . فإن ذلك التبرير يمكن مواجهته بأن القاهرة كانت موطنًا للإمامية منذ عام ٣٥٨ هـ ، كما أن قوص لم تكن قط عاصمة للخلافة .

والواقع أن الفاطميين قاموا بإنشاء دار ضرب القاهرة وضرب قوص لتعويض خسارة دور الضرب السورية^(٧) . وحتى تقوم هذه الدور الجديدة بتزويد ولايات الخلافة بالنقود، وقد سبق الإشارة إلى تقلص أملاك الدولة الفاطمية في أوقات المجاعات نتيجة للضغط السلجوقي والغزو الصليبي للشام . فخرجت دمشق عام ٤٦٨ هـ نهائياً وأصبحت بحوزة السلجوقية^(٨) ، وخطب للعباسين في حلب منذ عام ٤٩٢ هـ^(٩) ، كما أن طبرية لم تعد خاضعة للفاطميين منذ الشدة المستنصرية^(١٠) . أما عكا فقد خرجت من يد الفاطميين على يد ترش السلجوقي عام ٤٨٣ هـ^(١١) .

(١) د. عبد الرحمن فهمي : إضافات جديدة في مسكونات الفاطميين - مستخرج من مجلة المجمع العلمي المصري المجلد ٥٢ - موسیٰ ١٩٧٠ / ١٩٧١ - ص ١٥ .

(٢) محمد أبو الفرج العشي : مصر ، القاهرة على النقود العربية الإسلامية ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة - القاهرة ١٩٧١ - ص ٦ .

(٣) عن مدينة قوص و تاريخها في العصر الإسلامي . انظر : محمد عبد الحجاجي : قوص في التاريخ الإسلامي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٢ .

(٤) المقريزي : اتعاظ - ج ٣ ص ٩٣ .

(٥)

(٦) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٤٤٥ .

Ehrenkreutz (A) , Arabic Dinars Struck by the Crusaders . Journal of Economic and Social History of Orient Vol . (٧) VII . part II . 1964 . P. 179 .

(٧) ابن العيري : مختصر تاريخ الدول - ص ٣٣٤ . وكانت بدمشق دار للضرب ظهر اسمها على النقود الفاطمية - انظر : Miles , Fatimid Coins P. 50 .

(٨) ابن القلاني : ذيل تاريخ دمشق - ص ٩٠ - ٩٣ ، وقد ظهر اسم دار ضرب حلب على نقود الفاطميين . انظر : Casanova (P) . Inventaire Somme de la Collection des Monnaies Musulmans . Paris 1890 , P. 57 .

(٩) ابن ميسير : أخبار مصر - ج ٢ ص ٢٢ ، وكان بها دار ضرب . انظر :

(١٠) أبو المحاسن : التحوم الزاهرة - ج ٥ ص ١٢٨ - ١٣٠ ، وكانت مكان دور الضرب الفاطمية . انظر : Lavoix (H) , Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque National . Paris 1890 . Vol III , P. 155 .

وسقطت أيضاً طرابلس الشام ودار الضرب بها في أيدي الصليبيين عام ٥٠٢ هـ^(١) ، كما أن الفاطميين خسروا بعد إنشاء دار ضرب القاهرة دار الضرب بمدينة صور التي خضعت للصليبيين عام ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م^(٢) .

ويضاف إلى ضياع دور الضرب بالشام ، أن مدينة المهدية بالمغرب لم يضرب بها نقود فاطمية منذ الشلة المستنصرية^(٣) .

وقد أتى فقدان هذه الدور إلى إنشاء دار القاهرة ودار قوص لسد احتياجات ممتلكات الخلافة من النقود . وإذا كانت القاهرة باعتبارها دار الخلافة قد اختيرت ليكون بها إحدى الدور الجديدة فإن قوص اكتسبت جدارتها بهذه الدار بحكم النشاط التجاري الكثيف الذي كان بها بعد تحول طرق الحج والقوافل إليها منذ الشلة العظمى ، فحلّت من حيث الأهمية مكان مدينة فقط التي اضمحلت نتيجة لذلك^(٤) . وقد زُودت هذه الدار عند بداية إنتاجها بعشرين ألف دينار وعشرين ألف درهم ، وفضلاً عن أن دار قوص كان متوفراً بها ضرب ما يصل من اليمن والحجاج من الدنانير العدنية على طراز السكة الفاطمية^(٥) . ولعل في ذلك ما يوحى إلى قلة الذهب المتداول في الأسواق المصرية حتى إن الدولة حاولت زيادة كميته عن طريق إعادة ضرب الدنانير العدنية (أي المضروبة في عدن) ويبدو أن قلة الذهب وفشل دار الضرب في امتصاص الدنانير العدنية كان وراء إغلاق هذه الدار بعد وقت يسير^(٦) .

(١) ابن خلikan : وقيات الأعيان - ج ٤ ص ٣٨٤ ، وكان بها دار الضرب - انظر : Casanova (P) , Inventaire S . P . 58 . Ehrenkrentz (A) , OP . Cit . P . 179 . Lane - Pool (S) Catalogue of the Collection of Arabic Coins (٢)

London 1897 . P . 150 .

(٣) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين - ص ٢٧١ - ٢٧٣ ، والمهدية من أقدم دور الضرب الفاطمية . انظر : Miles . OP . Cit . P . 51 .

(٤) د. عطية القوصي : تجارة مصر - ص ١٠٨ .

(٥)

Ehrenkreutz (A) , OP . Cit . P . 179 .

(٦) المقرizi : انتظام الحتفا - ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤ .

الفصل الرابع

تأثير المجتمعات على العمارة والفن

بعد تاريخ العمارة الإسلامية في مصر الفاطمية ، المرأة التي عكست بصدق كل تضاعيف وملامح صورة الحياة السياسية والاقتصادية وإلى مدى ارتباطها الشديد بالمجاعات ، وليس من قبيل المبالغة أن تنظر لدراسة عمائر الفاطميين من نفس منظور دراسة تطور سلطات الخليفة ومنازعاته الوزراء إياها ، والتي لعبت المجتمعات وما صاحبها من أحداث دوراً رئيسياً في نقل غالبية هذه السلطات إلى الوزراء .

وبصورة عامة فإنه يمكن التمييز بين فترتين متباينتين في تاريخ العمارة الفاطمية ، أولاهما تشمل فترة ما قبل الشدة المستنصرية والثانية تستوعب الفترة التي أعقبت الشدة حتى سقوط الخلافة الفاطمية .

وتوضح عمائر الفترة الأولى مدى ما كانت تتمتع به مصر من رخاء وازدهار قبل أن تدهمها أحداث مجاعة السبع سنوات العجاف في خلافة المستنصر ، وأيضاً مقدار تفوذ الخلفاء وتعاظم ثرواتهم ، فقد كانوا هم الذين تنشأ المباني بأوامرهم وبأسمائهم وهي مبانٍ تميزت في مجلملها بالضخامة من حيث المساحة وبالفخامة ودقة البناء وتركزت هذه العمائر - غالباً - في محيط القاهرة والقسطاط ورغم أنها شملت أنواعاً عديدة من المباني الدينية والمدنية ، إلا أن المباني ذات الوظائف الدينية كان لها الغلبة .

أما الفترة الثانية فقد عكست حالة البلاد سياسياً واقتصادياً بعد أحداث الشدة المستنصرية . فمن الناحية السياسية أصبح الوزراء هم أصحاب اليد الطولى في التشييد والبناء ، وقللت مباني الخلفاء . وظهر الاهتمام بالعمائر الحربية نتيجة لضعف الخلافة وعجزها عن حماية ممتلكاتها خارج مصر ، كما عبر الوزراء العظام من السينين عن رغبتهم الكامنة في إزالة المذهب الشيعي بإنشاء المدارس السنّية . وعلى عكس الحال في الفترة الأولى صغرت أحجام المباني ، وخاصة المساجد ، نتيجة لضعف الحالة المالية للدولة بعد الشدة ، وتفتت ثروة البلاد بين الخلفاء والوزراء

والعسكريين وكانت معظم الأعمال المعمارية عبارة عن تجديدات في مبانٍ قائمة . ويلاحظ في هذه الفترة أيضاً ميل الوزراء إلى تقليد الخلفاء في إنشاء القصور والمناظر .

وكما عبرت المركزية في الفترة الأولى عن نفسها بتمرير معظم الإنشاءات في حدود القاهرة والفسطاط ، عبرت حالة الامركزية التي ميزت ما بعد الشدة المستنصرية عن نفسها في تزايد حركة التشيد والبناء في الأقاليم التي تتمتع حكامها بقدر أكبر من الاستقلالية والتفوّذ حتى تولى بعضهم منصب الوزارة ، وتنطق النصوص التأسيسية التي ترجع إلى ما بعد الشدة العظمى بمدى التغير الذي تركته هذه الأزمة الطاحنة على خريطة القوى السياسية في الدولة الفاطمية إذ صار أمر التشيد منسوباً في معظم الأحوال إلى الوزراء وتقسمه لألقاب الخلفاء إلى جوار الألقاب التي تسمى بها الوزراء .

عماير الخلفاء الأقوياء قبل الشدة المستنصرية :

وتمتد فترة إنشاء هذه العمائر فيما بين الفتح الفاطمي لمصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ونهاية عصر الخليفة الحاكم بأمر الله (٤١١ هـ / ١٠٢٠ م) .

فقد كان لعصر الخلفاء الأطهّاء (المعز - العزيز - الحاكم) سماته الخاصة التي تميّزه عن عصر الوزراء العظام التي بدأها بوادره منذ خلافة الظاهر لإعزاز دين الله وكانت الشدة المستنصرية وما يسبّقها من اضطراب داخلي تتوجّها له.

فمن الناحية السياسية كانت السلطة المركزية وعلى رأسها الخليفة الفاطمي تسيطر بشكل كامل على كافة أجزاء الخلافة ، كما كانت الحالة الاقتصادية للدولة الفاطمية في عنفوان قوتها ، معتمدة على إيرادات الأرض الزراعية (الخراج) وما تحصل عليه من ضرائب التجارة الخارجية والداخلية (المكوس) ، وتمتعت البلاد في عصر الخلفاء الأطهرياء بحالة من الاستقرار مكت THEM من القيام بإنشاء عمائر ضخمة تعكس هذه الأحوال السائدة . فكان الخلفاء (الدوله) هم الذين يقومون بتمويل إنشاء العمائر ، ولا يخفى مدى تأثير رخاء الدولة على حجم الإنتاج الفني وأنواعه وقيمه⁽¹⁾ .

ويمكن تصنيف العماير التي وصلتنا من بناء هؤلاء الخلفاء (سواء آثار باقية أو متناثرة) حسب أغراض نشأتها إلى :

أ- العمائر الحربية :

يعد سور القاهرة الذي بناه جوهر الصقلي من اللبن عند بدء تأسيسه لمدينة القاهرة عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م^(٢)، المشروع الحربي الكبير في عهد الخلفاء الأقوسية ، وإن لم تكن كل أغراضه

(١) د. فريد شافعي : العمارقى المعاصرة في مصر الإسلامية - العجلد الأول - عمر الولادة - القاهرة ١٩٧٠ - ص ٢٣٣ .

(٢) د. حسن الباشا : المدخل إلى الآثار الإسلامية - القاهرة ١٩٧٩ - ص ١٨٧.

دفاعية ، فقد كان السور يقوم بوظيفة عزل الخليفة وجنوده ورجال البلاط عن عامة الشعب حيث كان الدخول من أبواب السور الثمانية التي أنشأها جوهر قائد في مقدمة

(١) .

ب - العماير المدنية :

تأتي القصور الفاطمية وعلى رأسها القصر الشرقي الكبير الذي أسسه جوهر القائد في مقدمة عماير الفاطميين المدنية ، ليس فقط باعتبار الأسبقية التاريخية (٢) ، ولكن أيضاً لاتساع مساحاتها وروعة بنائها . فقد اشتمل القصر الشرقي على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها قاعات وقصور الذهب والإقبال والظفر والشجرة وقصر الشوك والنسيم والبحر والحرير ، وأضاف إليه العزيز بالله قاعة الذهب والديوان الكبير (٣) ، وقد أضيف إلى هذه القصور إضافات كثيرة في كل عهود الخلفاء الفاطميين ، كانت كلها أعمالاً فنية رائعة ، فيذكر ناصر خسرو أن جدران القصر الفاطمي كانت من الحجر المنحوت بدقة كما لو كانت قطعة صخر واحدة (٤) . وليس هناك ما هو أدق على ما بلغته هذه القصور من شأن ، مما نقله غليمون رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولي الملك عموري للقاهرة عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ، وعن مدى اعجابهما بقصور الفاطميين (٥) .

ومن المباني المدنية أيضاً قصر المؤلوة الذي بناه العزيز بالله على النيل (٦) ومنازل العز وهي من بناء السيدة أم العزيز بالله على النيل ، فكان لا يحجبها عنه شيء ، وكان الخلفاء الفاطميون يخلذونها متزهاً لهم (٧) . ويدرك ابن خلkan في ترجمته للعزيز أنه أنشأ قصوراً بعين شمس (٨) .

ج - المباني الدينية :

١ - المساجد : وهي تمثل الجزء الأكبر من منشآت الخلفاء ، وإن كانت قد تركزت في إطار القاهرة والفسطاط وما حولهما .

ويأتي الجامع الأزهر في طليعة المساجد الفاطمية ، إذ بدأ جوهر القائد في تشييله يوم السبت لستٍ بقين من جمادي الأول عام ٣٥٩ هـ وأتم بناءه لسبعين خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩) ، ثم

(١) د. حسن الباشا (وآخرون) : القاهرة - ص ٤٦٩.

(٢) د. عبد الرحمن زكي : الأزهر وما حوله من الآثار - القاهرة - ١٩٧٠ - ص ١٣.

(٣) د. عبد الرحمن زكي : القاهرة - تاريخها وآثارها - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ١٩.

(٤) ناصر خسرو : سفر نامة - ص ٤٩.

(٥) د. زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين - القاهرة - ١٩٣٧ - ص ٧٤ - ٧٥.

(٦) المقرizi : انتظام المختف - ج ٣ ص ٨١، هامش (١) وإن كان أبو المحاسن يذكر خطأ أن الظاهر هو الذي بناه وقد ذهب هذا القصر ضمن ما ذهب من محاسن القاهرة أيام الشدة المستنصرية - الج้อม الزاوية - ج ٥ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٧) المقرizi : انتظام المختف - ج ١ ص ٢٣١ - هامش (٢).

(٨) ابن خلkan : وفيات الأعيان - ج ٤ ص ٨.

(٩) السيوطى : حسن المحاضرة - ج ٢ ص ١٣٨.

أدخل الخلفاء من بعد ذلك إضافات عديدة على الجامع ، وقد قدرت مساحته وقت الفراغ منه عام ٣٦١ هـ / ٩٧٢ م بنحو ٦١٦٠ م^(١) .

ويبدو أن المعز لدين الله قد أنشأ مسجداً آخر خارج القاهرة على التيل إذ يعدده ناصر خسرو ضمن أربعة جوامع تقام بها الخطبة وقت زيارته لمصر، وقد سماه جامعاً المعز^(٢) . وينسب للسيدة تغريد زوجة المعز وأم العزيز بالله بناء جامع القرافة^(٣) ، وقد عرف هذا الجامع الذي بني عام ٣٦٦ هـ بهذا الاسم في العصر المملوكي ، وقبل ذلك كان يعرف بمسجد القبة وجامع الأولياء^(٤) وتولى بناء يحيى بن طلحة مولى عامر بن لؤي^(٥) .

أما العزيز بالله فقد مات قبل أن يتم مسجده الضخم الذي بدأ في بنائه خارج سور الشمالى للقاهرة ، وأكمله بعده ابنه الحاكم بأمر الله الذي أطلق اسمه على الجامع^(٦) . وكان الجامع يعرف أولاً بجامع الخطبة وعرف أيضاً باسم الجامع الأنور، وقد أوقف الحاكم عليه عدة قياصر وأملاك بباب الفتوح^(٧) . وقدرت نفقات إتمام البناء في عهد الحاكم بأربعين ألف دينار^(٨) .

ويعود الجامع الحاكمي أضخم مساجد مصر بعد جامع ابن طولون^(٩) ، إذ تبلغ مساحته نحو من ١٤ ألف متر مربع ويتوسطه صحن مستطيل تبلغ مساحته ٥١٤٨ م^٢ فقط ويباقي المساحة مشغولة بالجدران والدعامات الضخمة^(١٠) . ورغم أن الجامع في مجموعه مبني من الطوب الأحمر ، إلا أنه أقدم مساجد مصر الباقية والتي استخدم الحجر في بنائها ، حيث استخدم في بناء سور والمدخل الغربي للجامع^(١١) . ومن الملاحظ أن الحجر كان مستخدماً أيضاً في جدران القصر الفاطمي .

ومن منشآت الحاكم بأمر الله المهمة في مصر جامع راشلة جنوبى القسطنططى الذي بدأ في إنشائه في ١٧ ربى الآخر عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م وكان متولى البناء الحافظ أبو محمد عبد الغنى

(١) د. حسين مؤنس : المساجد - مسلسلة عالم المعرفة - العدد ٣٧ - الكريت يناير ١٩٨١ - ص ٢٠٤ ، راجع تجدیدات المسجد في : د. عبد الرحمن زكي : الأزهر وما حوله من الآثار .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامة - ص ٥١ .

(٣) ابن خلkan : المصدر السابق - ج ٤ ص ٨ .

(٤) ابن الزيات : الكواكب السيارة - ص ١٧٤ ، وينظر المقرنizi أن موقع المسجد كان به مسجداً أقدم وهو مسجد بني عبد الله بن ماتع بن مودع ويعرف بمسجد القبة - الخطط - ج ٢ ص ٢١٨ .

(٥) د. سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - القاهرة ١٩٧١ - ص ٢٩٥ .

(٦) Hautecœur (L) , et Wit (G) . Les Mosquées du Caire Paris 1932 . Tome 1 , P. 220 .

(٧) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٩ .

(٨) أيمن فؤاد سيد : تصووص ضائعة من المسبحي ص ٢٠ .

(٩) د. أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها - دار المعارف - القاهرة ١٩٦٥ - ج ١ ص ٦٣ - ٦٥ .

Berntjes (B) , Die Arabic . West Germany 1971 . S . 136 .

Hautecœur (L) . et Wit (G) . Op. Cit. P.221 .

(١١)

ابن سعيد، والمصحح لمحرابه علي بن يونس المنجم^(١) . وكان في موقع المسجد ، كنيسة حولها مقابر للمسيحيين والنصارى^(٢) . وقد عرف بجامع راشدة لأنه كان بالمكان الذي أنشأ به عرب نازلة يقال لهم «بنو راشدة» ، اختطوا بهذا المكان جامعاً وبنى الحاكم جامعة على أثره فسمى بجامع راشدة^(٣) ، بينما نجد القلقشندى يذكر أن جامع راشدة الذى بنته قبيلة تعرف بهذا الاسم كان على مقربة منه فعرف جامع الحاكم بنفس الاسم^(٤) .

وقد فرش هذا الجامع في رمضان عام ٣٩٥ هـ^(٥) وصلى فيه ، وخطب الحاكم في المسجد في رمضان ٣٩٨ هـ^(٦) ، وبعد ذلك بعامين في رمضان عام ٤٠٠ هـ علقت بجامع راشدة قناديل وتනور من فضة^(٧) ، إلا أن الحاكم هدم المسجد في عام ٤٠١ هـ وأعاد بناءه بالحجر بعد أن كان مبنياً بالطوب^(٨) ، وفي شهر رمضان عام ٤٠٣ هـ صلى الحاكم بأمر الله صلاة الجمعة في جامعه الجديد^(٩) .

ويبدو أن الحاكم قد وجه عنابة خاصة لهذا الجامع . فبناء بالحجر ووضع فيه قناديل الفضة وأقام الخطبة فيه رغم وجود جامع عمرو بالفسطاط أيضاً . ومن المستبعد تفسير اهتمام الحاكم بهذا الجامع على أنه محاولة للقضاء على مركز جامع عمرو بن العاص ، إذ أنها تعرف أن الحاكم اشتري جامع عمرو من أبناء عمرو بن العاص بمائة ألف دينار وأدخل عليه عمارات كثيرة وعجبية منها ثرياً من الفضة ، أطنب في وصفها ناصر خسرو^(١٠) .

كما ينسب إلى الحاكم بناء ثلاثة مساجد معلقة^(١١) ، وجامع بمدينة الإسكندرية أمر ببنائه عام ٤٠٤ هـ^(١٢) / ١٣١٠ م .

(١) ابن خلكان : المصدر السابق - ج ٤ ص ٣٨٢.

(٢) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق - ص ١٩.

(٣) ابن الزيات : الكواكب السيارة - ص ١٨٣ ، ويستبعد ابن الزيات أن يكون قد سمى براشدة نسبة إلى خطبة للحاكم بينما يذكر د. ماجد أن راشدة كانت عمة للحاكم وتوفيت في أيامه وخلفت ثروة هائلة - الحاكم بأمر الله - ص ٨١.

(٤) القلقشندى : صحيح الأعشى - ج ٣ ص ٣٤٥.

(٥) المقرizi : انتظام الحنفأ - ج ٢ ص ٥٨.

(٦) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق - ص ٢٥.

(٧) المرجع نفسه - ص ٢٩.

(٨) ابن دقاق : الانصمار بواسطة عقد الأمصار - ج ٤ ص ٧٨ - ٧٩.

(٩) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق - ص ٣١.

(١٠) ناصر خسرو: المرجع السابق - ص ٥٩.

(١١) أبو المحاسن: التلجم الراهن - ج ٤ ص ٥٤ ، ويذكر علي مبارك أنها كانت بخط ابن طولون منها مشهد محمد الأنصفر والمسجد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولوني ؛ أما الثالث لعله كان بالقرب منها .

علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة - بولاق ١٣٥٥ هـ - ج ٢ ص ٤٢ .

(١٢) المقرizi : انتظام - ج ٢ ص ١٠٠.

وللحاكم بأمر الله جامع عرف بجامع المقس على شاطيء النيل بدأ في بنائه عام ٣٩٣ هـ (١) ١٠٠٣ م وأوقف على هذا الجامع أوقافاً عديدة وقد جدد هذا المسجد في العصر المملوكي عام ٧٧٠ هـ (٢) ١٣٦٨ م .

وقد شيد الحاكم دار العلم بالقاهرة بجوار القصر الغربي وافتتحت في جمادي الآخر عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م (٣) ويضاف إلى ذلك أن الحاكم كان يتحمل نفقات ٣٦ ألف مسجد بمصر ويحمل إليها القناديل والثانيير والمصاحف والبخور والستور والحضر والإضاءة الخاصة في شهر رمضان في مواكب شعبية (٤) .

وياتئه عصر الحاكم بأمر الله انتهى عصر الخلفاء المُشَيْدِين ، إذ تكاد تخلو فترة خلافة الظاهر والنصف الأول من عصر المستنصر (قبل الشدة) من مباني ذات خطر ، وكما كان عصرهما فترة إنتقال مهدت من الناحية السياسية لعصر الوزراء العظام ، كان الأمر كذلك من الناحية المعمارية .

فلم يرد في المصادر التاريخية ذكر عن منشآت للظاهر لإعزاز دين الله اللهم إلا حظير دائرة على مقاييس النيل بالجزيرة في ربيع الأول ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ووكل به الشريف «أبو طالب محمد بن العجمي» متولي الصناعة فبناء بالحجر الأبيض وأنفق عليه مالاً كثيراً ونقل إليه الحجر من حظير كبير كان مبنياً على الشاطيء (٥) .

عما في الخلفاء بعد الشدة :

أما المستنصر بالله فإن سجله المعماري حال من الأعمال المهمة فلا يحوي إلا تجديد قصر الذهب بالقصر الكبير عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م وقبله تجديد بالجامع الأزهر في عام ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م (٦) .

ويتميز العصر الفاطمي بعد الشدة العظمى بقلة منشآت الخلفاء ويلاحظ أن معظم منشآتهم تركزت في فترات حكموا فيها بدون وزراء . فالحقيقة أن الأمر بأحكام الله بنى قصراً بالروضية لزوجته البدوية حتى لا تبتعد عن جو الصحراء (٧) ، ويني أيضاً منظرة من خشب ببركة الحبس كانت مزروقة

(١) القلقشتي : صبح الأعشى - ج ٣٦٥ ص ٣ .

(٢) السيوطي : حسن المعاشرة - ج ٢ ص ١٣٩ .

(٣) د. عبد الرحمن زكي : القاهرة - ص ٢٠ ، وقد أشرنا إلى وقوفيتها عند الحديث عن الرواتب .

(٤) د. عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله - ص ٨١ .

(٥) المقرئي : اتعاظ - ج ٢ ص ١٤٢ .

(٦) د. عبد الرحمن زكي : القاهرة - ص ١٣ - ٢٥ ، ثبتت آثار القصر الكبير الآن ولا زالت بقايا تجديد الأزهر قائمة .

(٧) إنصاف رياض : المرجع السابق - ص ١٦٨ ، وقد أنتشر هذا القصر .

بصور شعراً وأبيات لهم^(١)، وربما يكون الأمر قد شيد هذه المنشآت في الفترة التي تولى فيها الأمر بالبلاد بدون وزراء^(٢) وهي عامة ليست بالمنشآت الضخمة .

ويرجع إنشاء الجامع العتيق بسوهاج إلى المحرم عام ٥٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، كما يدل على ذلك لوح تذكاري من الرخام (٨٠ × ٥٠ سم) وينسب البناء إلى «ولي عهد أمير المؤمنين ابن الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين»^(٣) . وهي فترة كان الحافظ يحكم بها بدون وزراء من ذي الحجة ٥٢٦ هـ إلى ١١ جمادي الآخرة ٥٢٩ هـ^(٤) / ١٠٣٨ م .

ويذكر ابن الزيات أن الحافظ أنشأ مشهد النور الذي دفنت به الشريفة مريم ابنة عبد الله بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن القاسم الرس بن طباطبا ، وبنى أيضاً مشهد السيدة رقية وهو مشهد رقية ، وبنى أيضاً مشاهد ومساجد أخرى^(٥) وربما كان ذلك في فترات الحكم المنفرد .

وليس من قبيل المصادفة أن آخر منشآت القاهرة التي تنساب إلى خليفة فاطمي وهو الجامع الطافري يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وهي فترة حكم فيها الظافر بدون وزراء من بعد وفاة الحافظ لدين الله^(٦) .

وقد بني الظافر بأعداء الله إسماعيل مسجده الذي وقف عليه أوقافاً كثيرة^(٧) داخل باب زويلة على الشارع الأعظم بالقرب من حارة الديلم^(٨) ، وقد عرف الجامع باسم الجامع الأفخر ويعرف منذ عصر المماليك على الأقل بجامع الفاكهين^(٩) ، ومكانه الآن على رأس حارة خوش قدم بالجزء الجنوبي من شارع المعز لدين الله ولا يعود بناؤه الحالى للعصر الفاطمي .

عمائر عصر الوزراء العظام (بعد الشدة المستنصرية) :

وبعد عصر الوزراء المشيدين انعكاساً صادقاً لكل سمات عصر الوزراء العظام التي تتلخص في:

١ - تزايد نفوذ الوزراء من العسكريين حتى أصبحوا هم الحكم الفعليين للبلاد وأصحاب أكبر

(١) د. حسن الباشا : ثقون التصوير الإسلامي في مصر - القاهرة ١٩٧٣ م - ص ٥٧ ، وهي أيضاً منظرة متقدمة .

(٢) تبدأ هذه الفترة بمقتل المأمور عام ٥١٩ هـ وحتى وفاة الأمر عام ٥٢٤ هـ - انظر : د. المناوي : الوزارة والوزراء - ملحق ٣ - ص ٣١٢ .

(٣) سعاد ماهر : محافظات - ص ٢٤١ - لوحة ١٦ . والمسجد مجدد ولا يرجع بناؤه الحالى للعصر الفاطمي .

(٤) د. المناوي : ص ٣١٢ . وفترة أخرى من ٥٤٢ هـ إلى ٥٤٣ هـ .

(٥) ابن الزيات : المصدر السابق - ص ١٨٤ . الباقي منها هو مشهد السيدة رقية .

(٦) القلقشندي : صحيف الأعشى - ج ٣ - ص ٣٦٥ .

(٧) د. المناوي : المرجع السابق - ص ٣١٢ .

(٨) ابن خلkan : المصدر السابق - ج ١ ص ٢١٥ ، عبد الله الشرقاوي : تحفة الناظرين - ص ٣٥ .

(٩) أبو المحاسن : المصدر السابق - ج ٥ ص ٢٩٠ .

(١٠) المقريزي : الخطط - ج ٢ ص ٢٩٣ .

- الثروات ، ومنهم من كان على مذهب السنة وعمل على إزالة الخلافة .
- ٢ - الضعف العام للدولة الفاطمية وقلة متحصلها من خراج الأرض (الإيرادات) .
 - ٣ - تعرض مصر لأطماع القوى الخارجية التي شجعها ضعف مصر .
 - ٤ - تزايد أهمية حكام الأقاليم ، وخاصة حاكم قوص الذي كان يعد الرجل الثاني بعد الوزير وقوى بعض حكام هذا الإقليم بمنصب الوزارة .

ولذا فإننا نجد أن معظم المنشآت التي قام بها الوزراء وحكام الأقاليم كانت عبارة عن تجديدات أو ترميمات في مبان قائمة سواء في المساجد أو القصور والمتاحف ، وتميزت منشآتهم بضخامة الحجم بالقياس إلى مباني الخلفاء الأول ، وقد أعطى الوزراء أهمية متزايدة لحركة البناء في الأقاليم .

وشهدت العمارة الحربية اهتماماً مكثفاً إلى جانب تزايد أعداد المدارس السنية التي أنشئت لمقاومة مذهب الدولة الشيعي وخاصة في أواخر العصر الفاطمي .

أ - العمارة الحربية :

كان من نتيجة الضعف الذي انتاب الخلافة بعد الشدة أن استطاع الصليبيون والسلجوقة الاستيلاء على معظم ممتلكات الفاطميين بالشام ، بل وذفروا بجيشه صوب مصر مقر الخلافة نفسها ، ومن المعروف أنه في أوقات الحرب والتهديد بها فإن العمارة والفنون تخضع للاتجاه نحو خلعة الأغراض الحربية^(١) .

ولا غرو أن كانت أسوار القاهرة وبواباتها هي أهم المنشآت المعمارية للوزير بدر الجمالي ، فما أن استقر له الأمر في مصر واستعادت البلاد بعض قوتها الاقتصادية ووحدتها السياسية التي فقدتها أثناء الشدة العظمى حتى بدأ بدر الجمالي في بناء سور جديد للقاهرة عام ٤٧٧ هـ^(٢) / ١٠٨٤ م .

وقد أقام بدر الأسوار الجديدة موازية لأسوار جوهر القديمة ، وإن زاد في رقعة مساحة القاهرة بمقدار ١٥٠ متراً إلى شمال السور القديم ، وحوالي ٣٠ متراً إلى الشرق ومثلها إلى الجنوب^(٣) .

وقد استعمل بدر في بناء السور الطوب واللبن ، بينما كانت الأبواب من الحجارة^(٤) ولا زالت أجزاء من أسوار بدر والبوابات الثلاثة الرئيسية باقية لآن كشاهد عيان على عظمة بنائها وكثرة

(١) د. فريد شافعي : العمارة العربية - ص ٢٣٣ .

(٢) المقرizi : انتهاز - ج ٢ ص ٣٢١ .

(٣) د. حسن الباشا (وأنزرون) : القاهرة - ص ٤٧٢ .

(٤) د. حسن الباشا : المدخل - ص ١٨٧ .

النفقات التي مولت هذا المشروع العربي الضخم والذي استمر بناؤه نحوً من ثمانى سنوات ، إذ انتهى السور الشمالي وبوابته باب الفتوح وباب التصر ، عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م^(١) ، بينما تمُّ بناء السور الجنوبي وباب زويلة عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ويشير في الأسوار والبوابات تأثير العمائر السورية^(٢) .

وعندما تولى صلاح الدين الوزارة للعاصد ، آخر خلفاء الفاطميين ، عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م كانت مصر قد مرّت بأحداث عاصفة عرضتها لخطر الصليبيين غير مرة . وإذاء استمرار التهديد الصليبي للخلافة المحتضرة بدأ صلاح الدين في تجديد سور القاهرة ليضم الفسطاط داخله حتى يتسع له الدفاع عن العاصمة الممتدة ضد الهجمات المحتلة من الصليبيين^(٣) ، وبدأ عمله ذلك في عام ٥٦٦ هـ ، أي قبيل سقوط الخلافة الفاطمية^(٤) .

وحظيت الإسكندرية أيضاً بعناية الوزراء من الناحية الحربية ، إذ كانت أهم موانئ مصر التجارية على المتوسط وكانت تتعرض لهجمات الصليبيين من البحر .

ففي أواخر عهد الأمر عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م تولى أبو تراب حيدرة أخو الوزير المأمون الإسكندرية فقام بتعزيز سور الإسكندرية وتجديده^(٥) .

وفي أواخر العصر الفاطمي عام ٥٥٧ هـ شيد الوزير أبو الأشبال ضرغام بن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية فعرف ببرج ضرغام ، وقد لعب هذا البرج دوراً كبيراً في الدفاع عن المدينة ضد كل المغирرين الذين حاولوا الهجوم عليها^(٦) .

أما عمائر عصر الوزراء العظام الدينية والمدنية فإنها غالباً ما كانت منشآت صغيرة لا ترتفق إلى مستوى المشاريع المعمارية الضخمة ، وكثير منها كان مجرد تجديدات في آثار قائمة ، وتعكس المباني المدنية ميل الوزراء إلى الترف ومحاكاة الخلفاء الأول في بناء المنازل الضخمة والمناظر ، وتتوسع كثرة منشآت الوزراء المدنية في مدن الأقاليم إلى اللامركزية التي ميزت العصر الفاطمي الأخير والأهمية المتزايدة التي اكتسبها حكام وولاة الأقاليم ، وقد أدى تسلط وزراء من السنة على الخلفاء وسعيهم نحو إضعاف الخلافة الشيعية إلى تزايد حركة إنشاء المدارس السنوية ، خاصة وأن

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe , Tome 6 , Le Caire MC M XXXVI , P. 238 .

(١)

(٢) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ٢٩ .

Hautecœur et Wiet : OP ' Cit . P. 232 .

(٣)

(٤) د. أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها - القاهرة ١٩٦٩ م - ج ٢ ص ٧ .

(٥) المقريزي : انتظام - ج ٣ ص ٣٢١ .

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية - ص ٢١٤ .

(٧) د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية - ص ٤٥ .

الأفضل بن بدر الجمالي كان قد أغلق دار العلم التي أنشأها الحاكم بأمر الله^(١).

ب - العمائر المدنية :

عمل الوزراء العظام على محاكاة حياة الخلفاء ، فلم تعد تقنهم إلا الدور الفاخرة ، وقد سكن بدر الجمالي في دار عرفت بدار المظفر بحارة برجوان . ولم تشيد دار للوزارة يسكنها الوزراء على تعاقبهم إلا في عهد الأفضل بن بدر الجمالي ، ولم تكن دار الوزارة إلا قصراً كبيراً، حيث كانت تشتمل على عدّة قاعات ومساكن وبيستان وغيره وكان فيها مائة وعشرون مقصماً للماء الذي يجري في بر其ها ومطابخها^(٢).

وينى الأفضل داراً آخرى على شاطئ النيل بالفسطاط عرفت بدار الملك ، وانتهى من بنائها عام ٥٠١ / ١١٠٧ م وسكن بها وقد مدحها الشعراء لحسنها^(٣) ، وللأفضل تسبب أيضاً منظرة الخمس وجوه والمتزه المعروف بالتابع^(٤).

ولم يكن خلف الأفضل الوزير المأمون البطائحي بأقل حماسة لبناء المناظر والقصور من سلفه ، فبني ثلاثة مناظر بالقاهرة اندثرت جميعها الآن ، أحدها بين باب الذهب وباب البحر ، والأخرى على قوس باب النصر ، ومنظرة ثالثة تعرف باسم الراحلة أو الفاخرة أو الناصرة ، وكان يجلس الخليفة في إحداها لعرض العساكر يوم عيد الغدير ، ويقف الوزير في قوس باب الذهب^(٥) . وفي عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م أنشأ المأمون منظرة بجزيرة مصر بعد أن نقل المراكب الحرية من الصناعة التي بها إلى الصناعة القديمة بساحل مصر^(٦).

كما أعاد المأمون بناء منظرة المؤولة^(٧) التي كانت من إنشاءات العزيز بالله وتشعّبت أثناء الشدة العظمى .

ولم يخل سجل المأمون المعماري من مبانٍ ذات أغراض تجارية ، فقد أمر في عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م ببناء دار وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار^(٨) . ومما يؤسف له أن الزمن لم يبق على أي من هذه المنشآت المدنية .

(١) د. عبد الرحمن زكي : القاهرة - ص ٢٠.

(٢) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٤٣٩ - ٤٤٨ . اندثرت هذه الدار أيضاً .

(٣) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ٤٢ ، ويدرك أنها أصبحت دار متجر في أيام السلك للكامل محمد الأيوبي ، ثم عملت وكالة في أيام الظاهر بيبرس ، ولا أثر لها الآن .

(٤) المقريزي : انتظار - ج ٣ ص ٧٤ ، زالت معالم هذه المنظرة ولا وجود لها .

(٥) المقريزي : الخطط - ج ١ ص ٤٠٤ .

(٦) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ٦٣ .

(٧) المقريزي : انتظار - هامش (١) - ج ٣ ص ٨١ .

(٨) ابن ميسير : المصدر السابق - ج ٢ ص ٦٢ ، كانت هذه الوكالة بجوار دار الضرب التي أنشأها المأمون بالقشاشين ، وقد حدد

جـــ العماير الدينية :

لم تذكر المصادر التاريخية منشآت دينية للوزير بدر الجمالي في إطار القاهرة ومصر إلا مسجد الجيوشي الذي شيد على هضبة المقطم في عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وبالرغم من صغره إلا أنه يعتبر من أجمل الآثار الفاطمية^(١) ، وهو فريد في تصميمه وبناء قبته عما هو معروف بمصر الفاطمية^(٢) . وعذذلك فإن أعمال بدر الجمالي المعمارية تقع كلها خارج القاهرة ، وكلها تقريباً أعمال إضافات وترميمات بآثار قائمة .

جامع العطارين :

تكاد المصادر التاريخية التي أشارت إلى الوزير بدر الجمالي أن تجمع على أنه قد بني هذا الجامع بالإسكندرية عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م بعد أن نجح في الاستيلاء على المدينة والقضاء على تمرد ابنه الأوحد وأخذه أسرى^(٣) ، وأنه بني هذا الجامع من أموال أخذها من الإسكندرانيين وفرغ منه في شهر ربيع الأول من عام ٤٧٧ هـ^(٤) / ١٠٨٤ م ، أي أنه لم يتفق على عمارة وقد ظلت الخطبة بالإسكندرية تقام بهذا الجامع حتى دخل صلاح الدين الأيوبي فنفع الخطبة منه^(٥) .

ورغم تأكيدات المؤرخين بأن منشئ هذا الجامع هو بدر الجمالي فإن النص التأسيسي يكذب ما ذهبوا إليه ، فأعمال بدر في الواقع كانت تجديدات قرر إقامتها «عند حلول ركابه بشعر الإسكندرية ومشاهدته لهذا الجامع خراباً ، فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفى إلى الله تعالى» وذلك كما ورد في لوح من الرخام لا زال في الجامع إلى اليوم أسفل المئذنة إلى يسار الدارجل من الباب الشمالي الشرقي ، وكان المسجد القديم قد أنشيء على أنقاض كنيسة قديمة^(٦) . وقد بلغ ما جمعه بدر من أهل الإسكندرية - على سبيل الغرامة فيما يبدو - ١٢٠ ألف دينار خصصها للإنفاق على الجامع^(٧) . والبناء الحالي للجامع لا يرجع إلى العصر الفاطمي .

المقريزي مكانتها في عصره بأنها على بحيرة السالك من رأس الخراطين إلى سوق البخيمين والجامع الأزهر . المقريзи : الخطط - ج ١ ص ٤٥١ .

(١) د. عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار . القاهرة ١٩٧١ ص ١٠٦ .

(٢) Répertoire : Op. cit. Tome I. p. 230.

Hautecœur (L.) et Wiet (G.) Op. cit. p. 232.

Glück (H.) Und Diz (E.) : Die Kunst des Islam, Berlin 1925, S. 163.

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٥ ص ١١٩ .

(٤) ابن ميسير : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦ - ٢٧ ، ويدرك ابن خلكان خطأ أنه بني جامع العطارين عام ٤٧٩ هـ . ونفيات ج ٢ ص ١٦٠ .

(٥) المقريзи : اتعاظ ج ٢ ص ٣٢١ .

(٦) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الإسكندرية ص ٤٢ .

(٧) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة الإسكندرية ص ٢٢٠ .

ولبدر الجمالى عدة أعمال تجدیدية في صعيد مصر ، منها المسجد العتيق بأسنا الذي تهدم وجُدد عدّة مرات حتى ذُهبت معالمه الأصلية^(١) . ويشير النص التأسيسي المثبت على لوح رخامي إلى يمين المحراب إلى أن بدر الجمالى أمر بعمارة الجامع ، فأسس على يد القاضي أبي الحسن علي بن أحمد بن النضر في ذي الحجة سنة ٤٦٩ هـ ، وكمّل سقفه عام ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م . إلا أن حوادث التاريخ ثبت أن الذي عمر هذا الجامع هم بنو النضر عام ٤٢٠ هـ ، ثم زادوا في عمارته عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م ، ولذلك فإن أعمال بدر الجمالى لا تعلو أن تكون بعض التجديفات^(٢) .

ومئذنة الجامع الباقي إلى الآن في ركن منه ترجع إلى عهد بدر الجمالى^(٣) ، وإن كان منشئها ، كما جاء في النص التأسيسي الخاص بها ، هو «الأجل المتّخب فخر الملك سعد الدولة تاج المعالى ذو العز بن حسام أمير المؤمنين أبو منصور سارنكتين الجيوشى» في عام ٤٧٤ هـ^(٤) / ١٠٨١ م ، وعلى أساس طراز هذه المئذنة فإن د . فريد شافعى يرجع مئذنة جامع أبي الحجاج بالأقصر التي شيدت باللبن فوق السطح العلوى لأعمدة معبود الأقصر ومئذنة المشهد القبلى بأمسوان إلى عصر بدر الجمالى^(٥) .

ينسب للأفضل بن بدر الجمالى بناء مسجدين بمصر ، أولهما مسجد الفيلة بالقرافة الكبرى^(٦) ، وهو بسطح الجرف المطل على بركة الجيش ، وبناه في شعبان عام ٤٧٨ هـ وبلغت نفقات بنائه ستة آلاف دينار ، وهو ما يدل على صغر حجمه ، وسمى بجامع الفيلة لأن في قبّلته تسع قباب في أعلى ذات قنطر إذا رأها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة كالتي كانت تعمل في المراكب أيام الأعياد ، وكان هذا المسجد خراباً في أيام المقرizi^(٧) .

أما المسجد الثاني فيعرف بمسجد الرصد ، وكان أفضلاً من جامع الفيلة ، وقد أكمله عندما صار مخصصاً لرصد الكواكب^(٨) وهو مسجد منتشر .

وتشمل أعمال الأفضل خارج مصر والقاهرة مسجد الغمرى بمدينة المحلة الكبرى بمحافظة الغربية^(٩) ، وقد أمر الأفضل ببنائه في المحرم عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م على يد القاضي «أبو الفتح

(١) د. سعاد ماهر : المحافظات من ٣٠ .

(٢) د. سعاد ماهر : مساجد مصر من ٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٣) د. فريد شافعى : المرجع السابق من ٣٣٠ .

(٤) د. سعاد ماهر : المرجع السابق من ٢٧٦ .

(٥) د. فريد شافعى : المرجع السابق من ٣٣٠ .

(٦) ابن الزيات : المصادر السابق من ١٨٣ .

(٧) المقرizi : الخطط ج ٢ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ . ويذكر ابن خلkan أن الماسون أكمل هذا المسجد في زواجه . المصدر السابق ج ٤ ص ٣٨٦ .

(٨) المقرizi : الخطط ج ١ ص ١٢٧ .

(٩) د. سعاد ماهر : المحافظات من ٩٤ - ٩٥ .

المسلم بن علي بن الحسن متولى الحكم الشريف في الغربية» ، كما تدل على ذلك لوحته التأسيسية التي لم يبق غيرها من المسجد الأصلي^(١) . كما ينسب إليه أيضاً بناء جامع الجيزة^(٢) .

وليس في سجل إضافات وتجديدات الأفضل سوى ثلاثة مآذن بناها لجامع عمرو بن العاص هي المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيبة والمئذنة المستجدة^(٣) ، وتجديد آخر بمسجد ابن طولون سجله على محراب به^(٤) .

ورغم أن المأمون البطائحي قد ولّى الوزارة ٤ أعوام فقط (شوال ٥١٥ هـ - ٤ رمضان ٥١٩ هـ)^(٥) ، إلا أن سجله المعماري حافل بأعمال الإنشاءات والتجديدات ، فبلغ ما أنشأه في وزارته وفي أيام الأفضل ٤١ مسجداً مع ما أمر بتجديده بعد وزارته بالقاهرة ومصر وأعمالها ما ينافر مائتي مسجد^(٦) .

ويأتي الجامع الأقمر في طليعة منشأته الدينية ، فقد بدأ في بنائه في نفس العام الذي ولّى فيه الوزارة وأتمه عام ٥١٩ هـ^(٧) ، وكان مكان الجامع دكاكين علاقوين^(٨) ، ويقال إن المأمون اشتري له حمام شمول ودار النحاس بمصر وحبسهما على سنته ووقف مصايبه ومن يتولى أمره ويؤذن فيه^(٩) وبلغت نفقاته مائتي ألف دينار^(١٠) . ولم تكن الخطبة تقام بهذا المسجد طوال العصر الفاطمي ، وإنما جلدت به خطبة على يد الأمير يليغا السالمي أحد أمراء الظاهر برقوم عام ٨٠١ هـ^(١١) .

وجامع الأقمر هو أول مسجد يراعي اتجاه خط تحديد الطريق ، ولذلك جاءت واجهته منحرفة بالنسبة لاتجاهات واجهات الصحن^(١٢) .

(١) د. سعاد ماهر : مساجد مصر ص ٢٩١.

(٢) المقريزي : اعتاظ ج ٣ ص ٧٢ وإن كان محق الكتاب يقل عن الخطط أن جامع الجيزة بني عام ٣٥٠ هـ زمن علي بن عبد الله بن الأخفش ، ولم يورد المقريزي في الخطط ذكر للدور الأفضل فيه ، هامش ٤ . ولا أثر لهذا الجامع الآن .

(٣) المقريزي : اعتاظ ج ٣ ص ٧٢.

Répertoire : Op. cit. Tome 8, p. 4.

(٤) د. حمدي المناوي : الوزارة ص ٣١٢ .

(٥) المقريزي : اعتاظ ج ٣ ص ٩٢.

(٦) المقريзи : الخطط ج ٢ ص ٢٩٠ اتفق المقريزي (اعتاظ ج ٣ ص ٧٧) وأبن خلكلان (ج ٤ ص ٣٨٦) وأبن ميسير (ج ٢ ص ٦٢) وأبو المحاسن (ج ٥ ص ٢٢٩) على أن باني الجامع الأقمر هو الوزير المأمون ، بينما يذكر ابن إياس أن الأمر هو المنشي^(٧) (ج ١ ص ٦٣) ويزيد القلقشندي أن الأمر بناه بوساطة وزير المأمون البطائحي (ج ٣ ص ٣٦٥) وثبت التصوص التأسيسية أن الذي أمر بعمل الجامع الوزير المأمون . انتد . سعاد ماهر / مساجد مصر ص ٣٢٣ .

(٧) ابن ميسير : المصادر السابق ج ٢ ص ٦٢ .

(٨) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٩) ابن إياس : المصادر السابق ج ١ ص ٦٣ .

(١٠) القلقشندي : المصادر السابق ج ٣ ص ٣٦٥ .

(١١) توفيق عبد الجود : تاريخ العمارة القاهرية ١٩٦٩ م ج ٢ ص ٣٠٥ .

وقد بنيت واجهته بالحجر الذي استعمل في القصور الفاطمية وبوابات بدر الجمالي ، ولعل ذلك جاء نتيجة الرغبة في الاعتماد على صلابة الحجر وقدرته على البقاء وتوفير العادة الملائمة للزخرفة المنحوة بشتى أنواعها من نباتية وهندسية وكتابية والتي أبدع الفنان فيها فجاءت آية من آيات الفن الجميل ^(١) . وكانت الواجهة الحجرية تتكون من ثلاثة أقسام ضياع الأيمن منها ^(٢) .

وتبدو هذه المبالغة الزخرفية في الواجهة ، كما لو كانت محاولة لإثارة إعجاب الناس ، وذلك كدليل للهيبة التي كانت تعطيها المباني ذات النسب الضخمة التي ميزت مباني الخلفاء الأقوية ، إذ أن هذا المسجد مساحته الداخلية (٢٨ × ٢٤ م) تعادل نحو ٤٨٥ م^٢ لست جميعها مبنية إذ يتوسطها صحن أوسط مساحته (٣٦ × ٣٩٩) ^(٣) .

ومن المساجد التي أنشأها مسجد الكافوري في البستان والكافوري بالقاهرة أسسه عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م ومتوليه عمارته ووكيله أبي البركات محمد بن عثمان ، وكتب اسمه عليه وقد ظل قائماً حتى شاهده المقرizi ^(٤) ، وينسب إليه أيضاً بناء مسجد أمام باب الخوشة على يد وكيله وكان الصناع يعملون فيه ليلاً ونهاراً حتى إنه تتصدع واحتياج إلى تجديده ^(٥) .

ومن مبانيه خارج القاهرة مسجد أبي بكر الطروشي الذي أنشأه عام ٥١٦ هـ بظاهر التغر على البحر ، وقد أمر المأمون قاضي الإسكندرية ابن حميد ببنائه في موضع يتخذه الفقيه وأن يبالغ في إتقانه (سرعة إنجازه) وتكون النفقه عليه من مال ديوانه دون مال الدولة ^(٦) . وقد ضاعت معالم هذا المسجد الآن ^(٧) .

وأنشأ المأمون في عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م مسجداً بالبهنسا لتقام فيه الخطبة «وأقيم فيه خطيب وإمام وقومة ومؤذنون وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم» ^(٨) . وقد زالت معالم هذا المسجد الآن .

وفي شوال من عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م بلغ المأمون أن جزيرة قويتنا ومنية زفتى ليس فيهما

(١) انظر : Creswell (K.A.C.): The Muslim Architecture of Egypt. Oxford 1952, Vol. I, P.I. 49, 65.

(٢) د. محمد عبد العزيز مرزوق : مسجد القاهرة قبل عصر المماليك ، الطبعة الثانية . القاهرة (بدون تاريخ) ص ٩٢ - ٨٣ .

(٣) د. كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر القاهرة ١٩٧٠ م شكل ٥٨ .

(٤) المقرizi : الخططج ٢ من ٤١٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤١٢ .

(٦) المقرizi : انتاظج ٣ من ٩٢ وكان الطروشي قد حضر من الإسكندرية إلى القاهرة في نفس العام ليقدم للmAمون كتابه ؟ سراج الملوك - انتاظج ٣ من ٨٨ . انظر ترجمته في د. سعاد ماهر : المرجع السابق من ٣٣٢ - ٣٣٠ .

(٧) د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق من ٢٢٤ - ٢٢٢ .

(٨) المقرizi : انتاظج ٣ من ٩٢ .

جامع فتقدم المأمون إلى بعض خواصه وخلع عليه فسار ويني جامعاً على شاطئ النيل بمنية زفتى وقرر فيه خطيباً وإماماً ومؤذنين^(١).

ومن المساجد التي بنيت في عهده مسجد الذخيرة بميدان القلعة الآن ، تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن ، أنشأه ذخيرة الملك جعفر متولى الشرطة عام ٥١٦ هـ ولـي القاهرة والمحسبة من نفس العام ، واستعمل السخرة في بناء المسجد حيث كان يقبض على الناس للعمل فيه بدون أجرا ، وكان الناس يحلقوه ويقولون له ، لا بالله ، فعرف لذلك بمسجد لا بالله^(٢) .

وقد بني آخوه المأمون المعروف بالمؤمن سلطان الملوك نظام الدين أبو تراب حيشرة مسجداً بالإسكندرية عرف بجامع المؤمن وكان والياً على الإسكندرية والأعمال البحريه منذ عام ٥١١ هـ، وبنى هذا المسجد أثناء مقامه في هذا الشقر^(٣).

أما التجدييدات التي تمت في وزارة الأمر فآفهمها قيمةً في عام ١٦٥٠ هـ بتجدييد مسجد القرافة التي بنته تغريد أم العزيز بالله وعمر بجانبه طاحوناً لليسيل ليحمل عن الضعفاء كلفة الطحن . وظل الجامع على عمارته حتى احترق عام ١٦٤٥ هـ أثناء حريق الفسطاط^(٤) .

وفي نفس العام أمر المأمون بتجديد المشاهد السبعة التي بين الجبل والقرافة ، وأولها مشهد السيدة زينب وأخرها مشهد السيدة أم كلثوم ، وإصلاح ما تهدم منها وإثبات تاريخ ذلك التجديد على لوح من الرخام^(٥) .

يضاف إلى ذلك إكماله لعمارة مسجد الرصد الذي بدأه الأفضل وأنشأ منيراً بهذا المسجد^(٣) ويني الوزير أبو الفتح يانس الأرمني الذي ولّى الوزارة لعام واحد فقط (٥٢٦ هـ)^(٤) مسجداً بظاهر باب السعادة ، إلا أنه توفي قبل إتمامه فكمله أولاً به بعد وفاته^(٥) .

ويعد جامع الوزير الصالح طلائع بن رزيك خير ختام لجوماوع الوزراء بالقاهرة إذ بناه عام ٥٥٥ هـ^(٤) وهو يحقق قمة جوماوع الوزراء من حيث المساحة ، حيث بلغت مساحتة

(١) المصدر نفسه من ٨٨.

^{٤١} (٢) المقرئي: الخطط ج ٢ ص ١١ وهو جزء من أرض مسجد الرفاعي الآن . د. سعاد ماهر: المرجع السابق ص ٣٠٧.

(٣) د. جمال الدين الشيل : المرجع السابق ص ٤٤ .

^٤) المقرizi : الخطط ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠

(٥) ابن ميسرة : المصادر السابقة ج ٢ ص ٦٣ .

(٦) ابن منجع : الاشارة ص ٦٣ - ٦٤ .

(٧) د. المناوى : الوزارة ص ٣١٢

(٨) المقذى : الخلط ح ٢ ص ٤١٢.

(٩) حسن عبد الله : تاريخ المساجد

(()) سُنْ بَدْلُوْرَبْ ، مَعْجَنْ

١٥٢٢ م^(١) وهو بذلك أكبر جوامع عصر سيادة الوزراء ، وتدلّ بقایا زخارفه بالواجهة وداخل المسجد ، بالإضافة إلى بابه الذي يعدّ أقدم باب نحاس بمصر^(٢) ، على مدى ثراء هذا الوزير وتعاظم نفوذه حتى إنه أراد نقل رأس الحسين التي كانت بعقلان خوفاً من الصليبيين إلى هذا الجامع ، إلا أن الخليفة الفائز بنصر الله لم يمكنه من ذلك حيث بني المشهد المعروف بمشهد الحسين بجوار قصره ونقل الرأس إليه في عام ٥٤٩ هـ ، ولم يكن بهذا الجامع خطبة حتى عام ٦٥٢ هـ^(٣) / ١٢٥٤ م.

والى جانب هذا المسجد الفخم أنشأ الصالح طلائع مسجداً آخر بالقرافة إلى جوار جامع القرافة أو الأولياء ويجاوره تربة ليدفن بها^(٤) . ويدرك أبو صالح الأرمني أن الصالح طلائع حمل إلى مسجده بالقرافة بعض الأعمدة من بيعة قبطية^(٥) .

وقد أجريت عدة إصلاحات في الجامع العتيق بقوص بقي منها منبر خشبي يرجع إلى عام ٥٥٠ هـ^(٦) / ١١٥٥ م.

د - المدارس السنّية :

عمد الوزراء السنّيون إلى إنشاء المدارس السنّية لإضعاف مذهب الدولة ، وكان ذلك التدعيّم هو السمة المميزة لعصر الوزراء العظام .

وقد بدأت هذه المدارس في الظهور بمدينة الإسكندرية حتى انتقلت إلى حاضرة الخلافة في القاهرة على يد صلاح الدين الأيوبي .

ففي عام ٥٣٢ هـ أنشأ الوزير رضوان بن ولخي ، وكان مالكي المذهب^(٧) ، مدرسة لتدريس المذهب المالكي قرر فيها الحافظ أبي الطاهر بن عوف شيخ المالكية بالثغر وكانت تقع بشارع المحجة^(٨) .

أما المدرسة الثانية فقد أنشأها أبو الحسن علي بن السلاط بالإسكندرية للحافظ أبي طاهر

(١) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٤٠٥ .

(٢) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٩٩ .

(٣) القلقشندي : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٦٦ . ويدرك المقريزي أن الصالح طلائع لما حضرته الوفاة نعم على بناء هذا المسجد حيث إنه كان خارج باب زويلة ومن الممكن استئلاله من الناحية الغربية ضد بواحة القاهرة الجنوبيّة . المخطّط ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٤) أبو المعحسن : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٥) أبو صالح الأرمني : تاريخ الكتابين ص ٥٣ - ٥٤ .

(٦) د. سعاد ماهر : المحافظات ص ٣٢ .

(٧) د. المناوي : الوزارة ص ٣٠٣ .

(٨) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، د. المناوي : المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨ ، وإن كان د. الشيال : يرجع تاريخها إلى عام ٥٣٣ هـ . انظر د. الشيال : المرجع السابق ص ٤٤ .

السلفي^(١) في عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، أي في خلافة الظافر الفاطمي^(٢) ، وأنباء ولادة ابن السلاطين على الإسكندرية^(٣) وعرفت بالسلفية .

وجاءت الطفرة في بناء هذه المدارس على يد صلاح الدين الأيوبي وذير العاشر الذي أقبل على إنشائها لضعف نفوذ مذهب الدولة^(٤) ، فأنشأ عدة مدارس بمصر الفاطميات . خصصت هذه بداية تأسيسها لتدريس مذهب واحد^(٥) .

في أول المحرم عام ٥٦٦ هـ هدم صلاح الدين حس المعمونة بمصر وعمره مدرسة للشافعية وعرفت بالمدرسة الشرفية بمصر الفاطميات^(٦) .

وفي المحرم من نفس العام هدم صلاح الدين دار الغزل^(٧) بمصر وحولها إلى مدرسة للمالكية عرفت بدار الغزل ، ثم عرفت بالقمحية لأن « معلومها كان يصرف للمدرسين والطلبة قمحاً »^(٨) .

هـ - النصوص التأسيسية :

تدل النصوص التأسيسية لمباني العصر الفاطمي الأخير على تزايد نفوذ الوزراء وتضاؤل نفوذ الخلفاء ، حيث احتلت أسماء وألقاب الوزراء الصدارة ، بينما تراجع نصيب الخليفة منها . وظهر أيضاً في هذه الكتابات أسماء لولاة أقاليم ومحاسبين وقضاة ما كان لها أن تظهر لولا تراخي قبضة الدولة المركزية وتضاؤل نفوذ الخليفة .

ففي النص التأسيسي لباب الفتوح بسور القاهرة الشمالي والمؤرخ بالمحرم ٤٨٠ هـ تشير الكتابات الكوفية إلى أن منشئ الأسوار هو الوزير الأجل بدر الجمامي الذي علّقت ألقابه^(٩) .

وفي النص التأسيسي لتجديدات بدر الجمامي بالجامع الطولوني^(١٠) يرد اسم الخليفة المستنصر في سطر واحد ، بينما يجيء أمر البناء منسوباً إلى بدر الجمامي والدعاء له في سطرين . وفي النص التأسيسي لتجديد جامع العطارين لم يرد اسم المستنصر بالله وحازت ألقاب ونعوت بدر الجمامي كل اللوح الرخامي^(١١) .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٩١ وكان كردياً شائني المذهب . المتأري : المرجع السابق ص ٣٠٣ .

(٢) د. جمال الدين الشيال : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٤) فريتز شافعي : العمارة العربية ص ٢٤٨ .

(٥) د. حسن الباشا : المدخل ص ١٥٦ .

(٦) أبي شامة : الروضتين ج ١ ص ١٩١ المقريزي : اعتماد الحفاج ٣ ص ٣١٩ .

(٧) أبي المحاسن : التلقوم الراهن : ج ٥ ص ٣٨٥ .

(٨) القلقشنلي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٩)

Répertoire . Op. cit. Tome 7, p. 238.

Répertoire : Op. cit. p. 199.

(١٠) محمود عنكوش : المرجع السابق لوحة ١٦ .

(١١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٢٧ ، د. الشيال : المرجع السابق ص ٤٤ .

وفي اللوح التأسيسي لتجديدات جامع إسنا العتيق يشار إلى اسم المستنصر في صيغة دعائية^١ بينما يقترن أمر البناء بيلدر الجمامي ، ويرد اسم القاضي علي بن أحمد النصر الذي كان ناظراً للأحياء بالأشغال القوصية^(٢) ، بينما يخلو نص بناء المئذنة الذي كان باسم سارتكتين المنسوب إلى الجيوشي (يلدر) من أي ذكر للمستنصر^(٣) .

وفي مشهد السيدة نفيسة الذي جدد عام ٤٨٢ هـ في وزارة بدر الجمامي ورد اسم الأفضل ابنه معه على النص التأسيسي الخاص بأعمال التجديد^(٤) .

أما الجامع الغمرى بالمحلة الكبرى فليس به إشارة إلى اسم الخليفة وإنما حوى فقط اسم الوزير والقاضي «أبو الفتح المسلم بن علي بن الحسن» متولى الحكم الشريف في الغربية^(٥) .

ويأتي أمر إنشاء الجامع الأقمر مقروناً باسم الأمر بأحكام الله الذي ذكر ألقابه والدعاء له في ٢٨٧ حرفاً ، بينما جاء ذكر المأمون والدعاء له في ٣٧٨ حرفاً^(٦) .

وحتى عندما كان الحافظ للدين الله يحكم بدون وزير وأجرى تجديدات في الجامع الطولوني سجلها نص تأسيسي ، فإن نصيب قاضي القضاة سراج الدين أبو الشريان بن جعفر كان هو الأولى منها^(٧) .

ويبدواليون أكثر اتساعاً بين نصيب الخليفة في الكتابات التأسيسية وبنصيب الوزراء في النص التأسيسي لجامع الصالح طلائع بن رزيك الذي حازت ألقابه والدعاء له باعتباره منشئ هذا الجامع ٢٥٩ حرفاً مقابل ١٠٢ حرفاً للفائز بنصر الله^(٨) .

تأثير المجتمعات على الفنون التطبيقية

ليس الباحث هنا بصدد الحديث عن أثر كل مجاعة بمفردها على الفنون التطبيقية ، إذ أن المجاعة ، كحدث تاريخي ، ليست إلا حدثاً عابراً ، محدوداً الأثر ، زمانياً ، على حركة الصناعات والفنون . فتطور هذه الفنون أو تدهورها لم يكن ليحدث طفرة واحدة ، فضلاً عن أن العوامل المؤثرة على الفنون التطبيقية تعدّ بالأساس عوامل اقتصادية واجتماعية مستقرة ومتمنية بالثبات التسفي

(١) د. سعاد ماهر : المرجع السابق من ٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٢)

(٣)

(٤) د. سعاد ماهر : المرجع السابق من ٢٩١ .

(٥) د. سعاد ماهر : المرجع نفسه من ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٦) محمود عكوش : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٧) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٩٩ .

Répertoire : Op. cit P. 202.

Ibid : P. 248.

Répertoire: Op. cit, Tome 8, PP. 146 - 8.

Répertoire: Op. cit, Tome 9, PP. 175 - 6.

Répertoire : Op.. cit, P. 21.

ولذا فإن النتائج التي تمخضت عنها المجتمعات سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية ، هي التي أثرت بشكل مباشر على هذه الفنون ، فالتأثيرات الكمية التي تنتج عن كل مجاعة كانت تترافق لتحول في النهاية إلى فوارق كيفية^(١) ، بلغت ذروتها في أعقاب الشدة المستنصرية التي كانت عالمة فارقة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، وأية ذلك أنها يمكن أن تميز بين منتجات مرحلتين مختلفتين في تاريخ الفنون الفاطمية ، إحداهما تشمل القرن ٤ هـ والنصف الأول من القرن ٥ هـ (١٠ - ١١ م) أي قبل الشدة العظمى ، والثانية تمتد من النصف الثاني من القرن ٥ هـ حتى سقوط خلافة الفاطميين في القرن ٦ هـ / ١٢ م ، أي بعد الشدة المستنصرية .

وترتكز دراسة أثر نتائج المجتمعات على الفنون التطبيقية بعد الشدة العظمى على مفهومين رئيسيين :

١ - إن ما خلفته المجتمعات البشرية من آثار ثابتة ومتقدمة كانت تعبيراً حضارياً عن حالة هذه المجتمعات ، اتخد من طريق الصناعة والتшиيد والفن سبيلاً من سبله المتعددة للإفصاح عن نفسه^(٢) .

٢ - إن منتجات الفنون التطبيقية في معظمها سلع ذات طابع فني سواء أكانت للاستخدام الشخصي أو المترتب ، كالخزف والزجاج والنسيج ، أو كانت سلعاً ترفيهية ، كالحلوي والمعادن والبلور الصخري ، وهي في ذلك تخضع في إنتاجها وذوقها الفني لطبيعة «الطلب» عليها ، ويدعي أن الطلب على هذه «السلع» يرتبط إلى حد كبير بنظم توزيع الثروة التي ترك أثراً على منتجات العمارة والفنون وتوضّح في الوقت نفسه المستويات المختلفة لمعيشة كل طبقة من طبقات الأمة^(٣) .

وقد أوجدت نظم توزيع الثروة في المجتمع المصري بعد الشدة ، نمطين مختلفين من الطلب نتيجة لتغير موازين القوى الشرائية :

١ - نمط الطلب الأعلى :

وهو الذي يشمل القوة الشرائية الكبيرة التي حاز أفرادها القسط الأكبر من ثروات البلاد بعد الشدة العظمى . والقوى الاجتماعية صاحبة هذا النمط من الطلب تشمل رجال العسكر ، الذين كانوا يتولون الوزارة ومناصب ولاة الأقاليم ، كما أن الأجناد كانوا هم المقطعين الذين حازوا معظم

(١) عن العلاقة بين التغيرات الكمية والكيفية راجع : بليخانوف (ج) : تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ - ترجمة محمد مستجير مصطفى - القاهرة ١٩٧٩ - ص ١١٦ .

(٢) د. صلاح الدين سيد البشيري : نحو منهج تحليلي وإنساني في دراسة الأركيولوجيا - مقال بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية - العدد الرابع المجلد الأول - الكويت ١٩٨١ - ص ١٥ .

(٣) د. فريد شافعي : العمارة العربية من ٢٢٣ .

قبالات الأرضي الزراعية ، وقد لعبت ثروات هذه الفئات وميلوها الترفية لتقليل الخلفاء أثراً بعيداً في تشكيل نمط الطلب الترفي الذي ساد المجتمع بعد الشلة .

ويضاف إلى فئات العسكريين ، كبار التجار ، سواء عملوا في تجارة السلع الغذائية أو ارتبطوا بازدهار تجارة العبور (الترازيت) ، ويلحق بهذه القوى موظفو الدواوين الذين أفادوا من تراخي القبضة المركزية للدولة ، وخاصة الذين كانت أعمالهم تتعلق بأقاليم البلاد كالمساحين وممحصلي الضرائب . وقد تمعن الأقباط بمركز متميز بين الفئات الأخيرة ، لأن الدولة كانت تعول عليهم في مسح الأرضي الزراعي وتقدير الخارج ^(١) . ولا نجد وصفاً لمركزهم المميز أبلغ تعبيراً أو أشمل مما أورده المقريزي عن حالهم في عهد الحافظ لدين الله بعد أن ولّى الدواوين الآخرين بن ذكريا الذي أعاد «كتاب النصارى» أوفرا ما كانوا عليه ، وشرعوا في التجير ، وبالغوا في إظهار الفخر ، وتظاهروا بالملابس العظيمة ، وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسرور المحلاة واللجم الثقيلة ، وضايقو المسلمين في أرزاقهم ، واستولوا على الأحباب الدينية والأوقاف الشرعية ، واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين ^(٢) . والحق أن أهل النمة احتلوا طوال عصر الفاطميين مكانة بارزة ، سواء اشتغلوا بالتجارة أو خدموا في دواوين الدولة ، أو يمكن ترسم أثرهم على الفتوح في ظهور رموز مسيحية على بعض المنتجات الفنية .

٢ - نمط الطلب الأدنى :

ويشمل القوى الاجتماعية ذات المقدرة الشرائية الضعيفة ، التي يأتي الفلاحون في مقدمتها باعتبار تأثيرهم باضمحلال الزراعة وانتشار الأوبئة الفاكحة أثناء المجاعات التي نشرت الفقيرين صفوف الفلاحين ، فلم يعودوا بقادرين على الدخول في مزايدات قبالة الأرضي ، وظلوا حتى نهاية العصر الفاطمي مجرد أجراء في الأرض .

إلى هذه القوى المحذودة الدخل يتسبّب فقراء المدن الذين أرهقوا من جراء تزايد المكوس التي شملت جميع أوجه النشاط التجاري والصناعي .

وقد توجه «طلب» هذه القوة الشرائية المنخفضة نحو السلع الرخيصة التي تلبي احتياجاتهم المعيشية الأساسية .

إذاء وجود هذين النمطين المتباغبين من الطلب ، نشأ نمطان مقابلان من «العرض» يوفر كل منهما سلعاً تستجيب لهذه القدرات الشرائية المتناقصة ، ورغم أن المنتجات أو السلع المرتفعة

(١) سجل لنا المقريزي محاولة أحد الكتاب الأقباط في عهد الحافظ لدين الله تقرير ضريبة أطيان على صامن المعدية الذي أصرّ على تحصيل آخر تغدية الكاتب ، رغم أن صامن المعدية لا يملك أراضٍ زراعية - الخطط ج ١ ص ٤٠٥ .
(٢) المقريزي : انتهاج ١ ص ٤٠٦ .

الثمن تميزت بذوق فني رفيع ، إلا أن الذوق الفني لم يتخل عن المنتجات الرخيصة الثمن ، لأن منتجات العصر الفاطمي الأخير تميزت في مجلتها بطبع عام ممیز ، كما سترى على منتجات الخزف بشكل خاص .

تأثير المجتمعات على منتجات الخزف والفالخار :

يعد الخزف والفالخار أكثر منتجات الفنون التطبيقية تأثيراً بحالة المجتمع وأبلغ تعبير عنها في ذات الوقت ، ويرجع ذلك ليس فقط إلى قابليته للكسر بسهولة ، مما يجعل الطلب عليه في تجدد مستمر ، بل وأيضاً إلى أن الخزف كان مادة شائعة الاستعمال بين كل طبقات المجتمع ، حتى إن الخزف يعد سجلاً صادقاً لحالة المجتمع المصري قبل وبعد الشدة ، حافلاً بالإشارات إلى مستويات المستهلكين المادية وذوقهم الفني .

أ - الخزف ذو البريق المعدني :

وهو نوع من الخزف ابتكره الخزاف المسلم ، وبما ليكون بديلاً عن الأواني الذهبية والفضية التي حرم الإسلام استعمالها^(١) . وفي هذا النوع تستعمل الأكاسيد المعدنية للرسم على البطانة البيضاء المعتمة التي تكسى بها طينة الإناء ، وذلك بعد حرق الأواني حرقاً أولياً ، ثم تحرق بعد الرسم حرقاً بطيئاً جداً تحت درجة حرارة أقل من الأولى ، وعندئذ تحول الأكاسيد المعدنية باتحادها مع الدخان إلى طبقة معدنية رقيقة جداً^(٢) .

ولا شك أن المواد المستخدمة في صناعة هذا النوع تتضع في مصاف المنتجات المرتفعة الثمن التي تقبل على شرائها القوة الشرائية الأكبر في المجتمع ، خاصة وأن هذا النوع كان يحرق في الفرن ثلاث مرات^(٣) ، قابلة للزيادة عند استخدام طلاءات مختلفة يلزم حرقها^(٤) .

وتظهر استجابة صناع أواني الخزف ذي البريق المعدني «الطلب» الأغنياء الجدد الترقي أول ما تظاهر في طريقة صناعة هذه الأواني ، فمنتجات هذا النوع التي تتسب إلى ما قبل الشلة العظمى (٤ - ٥ هـ / ١٠ - ١١ م) تختلف عن منتجات بعد الشلة (٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م) التي تميز بجمال أشكال أوانيها ورقة جلورانها^(٥) .

(١) د. زكي محمد حسن : فنون الإسلام - القاهرة ١٩٤٨ - ص ٣٥٩.

(٢) ديماند (م. س) الفنون الإسلامية : القاهرة ١٩٥٨ - ص ١٧٥.

(٣) مرة لإكساب الطبي صلابة ، وثانية لثبت الطلاء الزجاجي ، والثالثة لشيت الأملام المعدنية - انظر :

جمال محرز : الخزف ذو البريق المعدني في مجموعة د. علي إبراهيم : بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد السابع - عدد يوليو / تموز ١٩٤٤ . ص ٢ .

(٤) د. حسن البasha : المدخل إلى الآثار الإسلامية من ٣٢٥ .

(٥) د. حسن البasha (وآخرون) : القاهرة ص ٣١٥ .

ومن الناحية الزخرفية ، ازدادت العناية بزخارف أوانى الخزف ذي البريق المعدنى بعد الشدة ، ويعزى أولىج غرابار Grabar ذلك التطور الذى حدث في منتصف القرن ٥ هـ / ١١ م إلى الشدة العظمى عندما ظهر إلى النور عدد من التحف الفنية التي كانت حتى ذلك التاريخ محجوبة عن الأنظار ، نتيجة عمليات النهب التي جرت لخزائن المستنصر ومن ثم فإن الموضوعات الفنية التي كانت مقصورة على دوائر الخليفة والأمراء أصبحت متاحة أمام البرجوازية الثرية الجديدة في مدينة القاهرة وتحولت على أيديها إلى فن مصرى جديد^(١) . الواقع أن زخارف الخزف تميزت بعد الشدة بتصميماتها المركبة ودقتها ، سواء كانت رسوماً تمثل الطيور والحيوانات وأدميين أو زخارف نباتية وكتابية وهندسية .

زخارف الخزف ذي البريق المعدنى قبل الشدة :

اعتمدت التصميمات الزخرفية في القرن ٤ - ٥ هـ / ١٠ - ١١ م على رسم عناصر زخرفي رئيسى يملاً المسطح المراد زخرفته ، وهذه سمة عامة لمتحفاته هذه الفترة التي ينسب جزء منها للفنان مسلم ومدرسته^(٢) . ومتماز هذه الرسوم بالبساطة ، وكلها تقريباً مجرد موضوعات زخرفية قصد منها ملء فراغ الإناء بالرسوم ولم تخرج هذه الزخارف عن عناصر الزخرفة الإسلامية المعروفة .

ومن القطع التي زخرفت برسوم الحيوانات كموضوع زخرفي ، صحن من الخزف ذي البريق المعدنى محفوظ بمتحف الفن الإسلامي ببرلين^(٣) ، ملأ الفنان أرضيته برسم أرنب طويل الأذنين يخرج من فمه فرع نباتي يتشكل على هيئة أنصاف مراوح تخيلية ، تختلط مع جسم الأرنب لتكون موضوعاً زخرفياً واحداً . وت逞خ في رسم الأرنب السمات نفسها التي ميزت رسم الحيوانات في هذه الفترة مع عدم مراعاة النسب التشريحية والميل إلى رسم أجسام مماثلة للحيوانات^(٤) .

ويشبه أسلوب رسم هذا الأرنب رسم لأرباب على صحن محفوظ بمتحف كلية الآثار بجامعة القاهرة (رقم السجل ١٩٣١) يتميز باستطاله الأذنين وامتلاء الجسم ، ويخرج من فمه فرع نباتي ينتهي بورقة ثلاثة ، ويحيط برسم الأرنب مناطق رسمت بها دوائر تتوسطها نقط داكنة (لوحة ٧٦) وكان رسم هذه المناطق شائعاً في الخزف ذي البريق المعدنى العباسى^(٥) . وقريب من ذلك

(١) جرابار (أوليج) : الفنون العالمية والمحطية في الإسلام (موضوع الفن في العصر الفاطمي) - ضمن أبحاث الندوة الدولية ل تاريخ القاهرة ١٩٧٠ - ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) مسلم بن النهان أحد الخزافين الذين وردت توقعاتهم على القطع الزخرفية الفاطمية ، وينسب إنتاجه إلى نهاية القرن ٤ هـ - وبداية القرن ٥ هـ - انظر : د. محمود إبراهيم حسين : أعمال المصورين المسلمين وأشهر أعمالهم ، القاهره ١٩٨٢ .

(٣) Kleij (A.) Islamische Keramik, Berlin 1973, S. 90.

(٤) د. محمود إبراهيم : المراجع السابق ص ٥٠ .

(٥) د. زكي حسن : فنون الإسلام ص ٢٦٤ ، شكل ١٨٨ .

التصميم ما نجله على كسرة من الخزف محفوظة بمتحف الفن الإسلامي ببرلين تمثل حصاناً تخرج من قمة ورقة نباتية ثلاثة ويحيط برسم الحصان المناطق نفسها التي تحوي الدوائر المتقطعة^(١).

وتمتاز زخارف الخزف قبل الشدة بوضوح الرسم وضخامته والانصراف عن التفاصيل^(٢)، وتتبين هذه المميزات في رسم ثور يتوسط صحنناً من الخزف ذي البريق المعدني^(٣)، إلا أن عدم اهتمام الفنان بالتفاصيل أو تمثيل الواقعية في رسمه لم يخف محاولته إظهار القوة والضخامة على نسب أجزاء الحيوان الذي أحاط بأفرع نباتية ملتوية تخرج منها أوراق ثلاثة وأنصاف مراوح نخيلية. وهذا الصحن محفوظ بمتحف كلية الآثار بجامعة القاهرة (رقم السجل ١٧١٥)، لوحة (٧٧) وشبيه بأسلوب رسم هذا الثور ما نجله على كسرة من الخزف^(٤) ذي البريق المعدني من رسم لجزء من جسم حيوان يتسم بالقوة وضخامة النسب (لوحة ٧٨).

ومن أعمال الخزف ذي البريق المعدني التي ترجع إلى ما قبل الشدة المستنصرية صحن كان ضمن مجموعة د. على إبراهيم ، قوام الزخرفة فيه رسم فيل ضخم الجهة يحتل مساحة الصحن كلها تاركاً فراغاً بسيطاً مزيتاً بأوراق نباتية من ثلاثة فصوص ، ويلاحظ أن الخزاف الذي وجد توقعه على هذه القطعة مقرضاً باسم مصر «عمل إبراهيم بمصر»^(٥) جعل للفيل ذنباً طويلاً وهو ما يجافي الواقع .

والرسوم التي تجمع أكثر من حيوان على الأواني الخزفية التي ترجع إلى القرن ٤ - ٥ هـ / ١٠ - ١١ م قليلة ، ومن أمثلتها ، قدر من الخزف محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة تتألف زخرفته من ثلاثة مناطق رئيسية وعريضة تفصل كلّاً منها عن التالية منطقة ضيقة فيها رسوم أنصاف مراوح نخيلية ، أما المناطق الرئيسية الثلاثة فقوام الزخرفة في كل منها رسم حيوان ينقض على أرباب ليفترسه وحول هذا الرسم زخارف نباتية من فروع ووريقات^(٦) .

ولا يختلف الأمر كثيراً فيما يتعلق برسوم الطيور التي زخرفت بها أواني الخزف ذي البريق المعدني قبل الشدة العظمى ، فقد كان رسم الطائر يملأ معظم سطح الإناء محاطاً بالزخارف النباتية أو الكتابية . ومثلاً نجد على كسرة من الخزف يتوسطها رسم طائر يتلألئ من منقاره فرع نباتي وتحيطه الأفرع النباتية الحليزونية^(٧) ، وقد رسم الطائر بشكل تخططي لا يهتم بمحاكاة الطبيعة أو

Klein (A.), Op. cit. S. 92.

(١)

(٢) ديماند (م. س): الفنون الإسلامية ص ٢١٧.

(٣) د. حسن الباشا : فنون التصوير الإسلامي في مصر ص ٦٨ ، شكل ١٧.

Butler (A.), Islamic Pottery. London 1926 Pl. IX - B.

(٤)

(٥) جمال محزز : الخزف ذو البريق المعدني ص ٥ . وقد وجد اسم إبراهيم هذا فوق قاع إناء عليه زخرفة نباتية بالبريق المعدني - انظر : د.

محمود [إبراهيم] ، المرجع السابق ص ٦٦ .

(٦) د. ذكي حسن : أطلس الفنون الزخرفية وال تصاویر الإسلامية - القاهرة ١٩٥٦ ص ١٢ شكل ٤٠ .

Butler (A.), Op. cit. Pl. IX. A.

(٧)

إظهار التفاصيل ، وقد رسمت عين الطائر على هيئة دائرة بداخلها نقطة داكنة (لوحة ٧٩) .

وفي متحف المتروبوليتان بنيويورك سلطانية من إنتاج الخزاف مسلم يزيّنها رسم بالبريق المعدني الذهبي لنسر ناشر جناحيه فقطي فراغ الإناء^(١) . وللفترة نفسها تنسب كسرة من الخزف عليها رسم بالبريق لطاووس^(٢) تحيط به رسوم أوراق نباتية ثلاثة الفصوص (لوحة ٨٠) .

وقد نجد في بعض قطع الخزف التي تُورّج بالقرن ٤-٥ هـ / ١١-١٠ م تصميمات زخرفية تجعل من رسم الطائر موضوعاً أساسياً يتّوسط الآنية وتحيط به زخارف نباتية، كما في صحن من الخزف محفوظ بمتحف الفن الإسلامي^(٣) بالقاهرة ، يتّوسطه رسم بالبريق لدليك في منقاره ورقة نباتية ثلاثية ، والدليك محصور داخل دائرة محاطة برسوم أشكال مراوح نصف نخيلية (لوحة ٨١) . ورسم آخر على طبق لطاووس يمسك في منقاره فرعاً نباتياً ، ويضم الدليل الكلمة بالخط الكوفي تصعب قراءتها ، ويحيط بالجamaة التي تحصر رسم المطاووس كتابة كوفية وورقتان نباتيتان كبيرتان يتّوسط كلتاً منها ثقب يضاهي الشكل^(٤) . وحتى في حالة رسم أكثر من طائر على الإناء ، فإن كل طائر كان يرسم باعتباره موضوعاً زخرفياً مستقلاً محصوراً داخل منطقة أو جاماً ، مثلما نجد في قدر محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة^(٥) .

وقد وصلتنا من فترة ما قبل الشّدة أوايًن من الخزف ذي البريق المعدني ، اتّخذت من الرسوم النباتية موضوعاً زخرفياً رئيسياً لها وأشهر هذه الأمثلة ثابتة التاريخ ، طبق محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة يؤرّج بحوالي عام ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م ، وهو يحمل اسم «عين أستاذ الأستاذين» في عصر الحاكم بأمر الله ، وتقوم زخارف هذا الطبق ذات البريق ذاتي الذّهبي على أرضية بيضاء يتكون تصميماً العام من ثماني مناطق متساوية تمتد من حافة الطبق نحو المركز ، وقوام زخارف هذه المناطق وحدتان تتكرران بالتبادل حول الطبق أربع مرات باختلاف ضئيل ، وتتألّف إحدى الوحدتين من مراوح نخيلية في أوضاع متناظرة وت تكون الأخرى من شجرة محورة تخرج منها أفرع نباتية متّصلة^(٦) .

وتعود الزخارف النباتية التي رسمت على هذا الطبق معروفة النظير في الأواني المعاصرة ،

(١) فيمائد (م. س) : المرجع السابق ص ٢١٧ .

(٢)

Butler (A.), Op. cit. PI. X - A.

(٣) د. زكي حسن: فنون الإسلام ص ٣١٢ .

(٤) أحمد حمدي (وآخرون) معرض الفن الإسلامي في مصر - القاهرة ١٩٦٩ - ص ١٠٥ - لوحة ٢٣ .

(٥) د. زكي حسن : أطلس الفنون ص ١٢ شكل ٤١ .

(٦) د. حسن الباشا (وآخرون) القاهرة ص ٥٢٣ - ٥٢٤ ، شكل (٢٢) وعن أستاذ الأستاذين : انظر : د. حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ج ١ ص ٦٣ .

سواء من حيث الدقة أو إنقان التصميم الزخارفي ، ولعل ذلك راجع إلى أن هذا الطبق صنع لأحد كبار رجال الدولة .

وقد تميزت الرسوم النباتية المستخدمة كموضوع زخارفي رئيسي يكبر حجمها ، مثل الزخارف الحيوانية ورسوم الطيور ، ونجد ذلك في قدر محفوظ بمجموعة كلكتيان في متحف فيكتوري وألبرت بلندن ، حيث تحتل أشكال المراوح النخيلية منطقة عرضية متسعة من بدن القدر^(١) ، ويشبه ذلك القدر قدر آخر محفوظ بمتحف الكويت الوطني^(٢) ، قسمت زخارفه النباتية على أربعة أشرطة عرضية مزخرفة بأشكال مراوح نخيلية وأنصاف مراوح نخيلية بأحجام كبيرة تذكرنا سامرا من الطراز الثالث (لوحة ٨٢) .

ولم يهمل الفنان استخدام الزخارف الكتابية كموضوع رئيسي للزخرفة على أواني البريق المعدني قبل الشدة العظمى وتميزت الزخارف الكتابية أيضاً بضخامة الحجم وعدم الإنقان ، كما أنها قد تكون غير مقررة في بعض القطع .

ومن القطع التي وردت عليها كتابات ، صحن محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، قوام زخرفته رسم ثلاث مناطق لوزية الشكل تفصلها ثلاث مناطق أخرى على هيئة شرافات ، تضم كل من هذه المناطق الستة شريطاً من كتابة كوفية على أرضية من الفروع والأوراق النباتية^(٣) .

وينفس المتحف كسرة^(٤) من الخزف عليها بقايا كتابة كوفية يبدو أنها كانت تشكل الموضوع الزخارفي الرئيسي لصحن من الخزف ذي البريق المعدني (لوحة ٨٣) .

ومن أمثلة الزخارف الكتابية التي تتسم بعدم الدقة في رسماها ، كتابة على صحن محفوظ بمتحف الكويت الوطني^(٥) به كتابة تقرأ «بركة لصاحبه» (لوحة ٨٤) . وأخرى على صحن محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، ويوسط الصحن رسم لإماء إلى يساره زخرفة بالخط الكوفي تقرأ «المن»^(٦) وكتابه تقرأ : «نعمـة شـاملـة وـيرـكـة كـاملـة» على سلطانية كانت بمجموعة د . علي إبراهيم وترجع إلى القرن ٤ هـ / ١٠ م^(٧) .

ولم يكن الأمر أفضل من حال الزخارف السابقة فيما يتعلق باستخدام الرسوم الأدمية في زخرفة أواني البريق المعدني قبل الشدة العظمى .

(١) جنكينز (مارلين) : الفن الإسلامي في متحف الكويت الوطني - لندن - ١٩٨٣ - ص ٢٧ .

(٢) Du Ry (C.): Die Welt des Islam. West Germany 1970. S. 83.

(٣) د. ركي حسن : أطلس الفنون من ١٥ شكل ٥١ .

Butler (A.), Op. cit. Pl. X - B.

(٤)

(٥) جنكينز (مارلين) المرجع السابق ص ٢٦ .

Musée de l'Art Arabe du Caire : La Ceramique Egyptienne de L'époque Musulman. Le Caire 1922. Pl. 28.

(٦) د. حمال محزز : الخزف ذو البريق المعدني شكل ٤ .

فقد اعتاد الخزافون في تلك الفترة استخدام رسم آدمي واحد يغطي الإناء بكماله على أرضية من زخارف نباتية أو زخرفة الدوائر المنقوطة ، ونرى ذلك في عدة أمثلة يرجع صحن منها إلى القرن ٤ هـ / ١٠ م ومحفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، يتواصله رسم لراقصة لم ترَع فيه النسب التشريحية^(١) ، ويتجلى عدم مراعاة النسب التشريحية بشكل واضح في كسرة من الخزف ذي البريق المعدني ، كانت تمثل قاع إناء يتوسطها رسم لرجل يكاد^(٢) طول الذراعين فيه يماثل حجم الجسم بكماله (لوحة ٨٥) . وفي متحف كلية الآثار بجامعة القاهرة صحن من الخزف ذي البريق المعدني يرجع إلى القرن ٤ هـ / ١٠ م (رقم السجل ١٩٣٠) يتواصله رسم بالبريق لعاذف على آلة تشبه العود ، تحيط به أوراق نباتية ثلاثة الفصوص ودوائر منقوطة ، ويظهر جلياً عدم اهتمام الخزاف بالنسبة التشريحية ، وخاصة في رسم البددين والوجه المرسوم بطريقة إصطلاحية ، فضلاً عن إهمال إبراز التفاصيل في ملابس العازف (لوحة ٨٦) .

وغير شبهاً بهذا الرسم ما نجد له على صحن آخر محفوظ بمتحف كلية الآثار بجامعة القاهرة (رقم السجل ١٩٣٩) وإن كان رسم الراقصة على هذا الصحن يتسم بقدر أكبر من الدقة وهو ما قد يرجع نسبته إلى القرن ٥ هـ / ١١ م (لوحة ٨٧) .

ويشكل عام فإن الرسوم الأدبية تميزت في تلك الفترة بالجمود والبعد عن الطبيعة ، بل إن بعض هذه الرسوم كان يكتسب طابعاً زحرياً محضاً ، كما في صحن محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة يبوسطه رسم بالبريق لرجل يمسك في يديه كأسين في منظر شراب ، وقد زخرفت ملابسه بأوراق نباتية ضخمة وأفرع نباتية ، ويبدو واضحاً بعد الفنان عن محاكاة الطبيعة في الطريقة التخطيطية لرسم الوجه والرسم المشوه لأصابع اليدين^(٣) .

زخارف أواني الخزف ذي البريق المعدني بعد الشلة :

تميزت زخارف الخزف ذي البريق المعدني في تلك الفترة (٥ - ٦ - ١١ - ١٢ م) بكثرة الموضوعات الزخرفية المستمدّة من رسوم الآدميين والحيوانات^(٤) ، متأثرة في ذلك بالموضوعات الزخرفية التي كانت سائدة في التحف التي أخرجت من خزائن المستنصر بالله أثناء الشلة العظمى ، وأصبحت الموضوعات الزخرفية تتسم بالتصميم المركب الذي يجمع بين أكثر من عنصر زحري ، يمزج بينهم الخزاف في وحدة فنية متكاملة شديدة التعقيد في بعض الأحيان .

وأتاح صغر حجم الوحدات الزخرفية رسم أكثر من عنصر زحري ، ويدعوه أن صغر حجم

(١) د. محمد معطيش : متحف الفن الإسلامي - دليل موجز - القاهرة ١٩٧٩ - شكل ٦٤ .
Butler (A.), Op. cit. Pl. IX, F.

(٢)

(٣) أحمد حمدي (واترون) معرض الفن الإسلامي - لوحة ٢٤ .

(٤) جرابار (أوليج) الفنون العالمية والمحلية ص ٣٤٩ .

الزخارف وتعددتها يعني زيادة العمل المبذول في رسم زخارف الآنية وزيادة كمية مادة البريق المستخدمة ، والمحصلة النهائية لذلك كله ارتفاع ثمن الآنية .

وفي هذه الفترة قل الاعتماد على العناصر النباتية كموضوع زخرفي رئيسي وابتعدت الزخارف النباتية عن طابع البساطة والضخامة وبدأت الشقة بينها وبين زخارف طراز سامرا ، التي كانت سائدة في زخارف الخزف قبل الشلة العظمى .

ودليل ذلك رسوم أنيقاص مراوح نخلية وعناصر نباتية أخرى مرسومة على أرضية من البريق المعدني ، ترسم بقدر كبير من الإتقان وبراعة التنسيق وجمال التصميم المتوازن نجدها على صحن محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة^(١) .

ومن أبدع أمثلة زخارف الخزف ذي البريق المعدني التي تجمع بين رسوم النباتات والطيور ما نجده على صحن من الخزف (لوحة ٨٨) . في مجموعة Cote في ليون بفرنسا ، تتألف زخارفه من رسم شجرة دقيقة والفروع محورة عن الطبيعة وعليها رسوم ستة عشر طائراً في أربعة صفوف ، وقد تطورت الزخرفة في هذا الصحن ، فازدادت الدقة وصغر قياس الرسم بالنسبة للطvier وقلت الفروع والسيقان والوريقات النباتية التي ميزت زخارف ما قبل الشلة وترجع هذه القطعة إلى القرن ٦ هـ / ١٢ م^(٢) .

وثمة طبق آخر من الخزف ذي البريق المعدني رسمت بوسطه نجمة مدارية تحيط بها مناطق هندسية بكل منها رسم لطائر ، وينسب Lane هذه القطعة إلى القرن ٦ هـ / ١٢ م لما اتسمت به من تعقيد في تصميمها^(٣) .

ولحق التطور نحو الدقة والواقعية أيضاً رسوم الحيوانات ، ومن أمثلة ذلك كلاب الصيد التي التفت حول أشكال الجداول التي تتوسط الإناء الذي غطيت أرضيته بالبريق المعدني ، بينما تركت الرسوم محجوزة بدون بريق ، والإناء محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة^(٤) . وينفس المتحف صحن من الخزف يرجع إلى القرن ٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م يعتمد في تصميمه على دائريتين متحدلتين المركز ، الوسطى تضم رسم أرباب في فمه ورقة نباتية محورة ، والدائرة الأخرى تضم رسماً لخمسة أرانب تسير متتابعة وفي فم كل منها ورقة نباتية محورة^(٥) ، ويلاحظ على رسوم هذا الصحن صغر حجم الحيوانات ودقة رسم الزخرفة النباتية .

(١) د. زكي حسن : أطلس الفنون ص ١٥ شكل ٥٢ .

(٢)

Koechlin (R.), Migeon (G.) Islamische Kunstwerke - Berlin 1928. Tafel XVIII.

(٣)

Lane (A.), Early Islamic Pottery. London, 1953 Pl. 29 - A.

(٤)

Musée de L'art Arabe du Caire, La Ceramique Pl. 28.

(٥)

د. زكي حسن : الأطلس شكل ٥٨ ص ١٧ .

ولم تعد الزخارف الكتابية تمثل موضوعاً زخرفياً رئيسياً في الخزف ذي البريق المعدني الذي يرجع إلى القرن ٦ - ٥ هـ / ١٢ - ١١ م ، وقللت أحجام هذه الكتابات التي اتتختلت من الخط الكوفي المورق نمطاً سائداً في زخارف هذه الفترة ، مثلما نرى على كسرة خزفية محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة عليها كتابة متكررة تقرأ: العز^(١) . وتحولت الكتابات الدقيقة وغير المقرأة في كثير من الأواني إلى مجرد عناصر زخرفية تستعمل في تجديد المناطق الزخرفية وحواف الأواني^(٢) بعد أن كانت هذه الحواف تزخرف بزخارف بسيطة في أواني القرن ٤ - ٥ هـ / ١٠ - ١١ م ، مثل أسنان المشثار (لوحة ٧٩) والنقط (لوحة ٧٦) أو أنصاف دواير (لوحة ٨٤) .

أما الرسوم الأدبية فإن تأثيرها يتحف المخلافة والإتجاه الترفي الذي ميز حياة الطبقات البرجوازية كان أبعد من أي نوع آخر من الزخرفة ، فازدادت العناية برسوم الأدميين التي حاول الفنان فيها إبراز السمات الشخصية وراعى الدقة في رسم تفاصيلها وخاصة رسم الوجه وأشكال العمامة والملابس ، مثلما نجد على كسرة من الخزف ذي البريق المعدني محفوظة بمتحف الكويت^(٣) وترجع إلى القرن ٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م (لوحة ٨٩) .

والى جانب محاكاة الطبيعة وصغر نسب رسم الأدميين الذي استدعى تعدد الأشخاص في الإناء الواحد ، ظهرت الرسوم الأدبية في النصف الأخير من العصر الفاطمي كمناظر تصويرية تمثل موضوعات بعينها ، فسجل أحد الأطباق لعبة التحطيب ، وهو محفوظ بمتحف الفن الإسلامي ، وقام زخرفته المرسومة على أرضية من البريق المعدني رسم لرجلين يرقصان ويبارزان بالعصي ، ونلاحظ أن كلّاً من الرجلين يبدو عاري الرأس وأن أحدهما رسم رسمًا جانبيًا بينما يبدو الآخر في وضعية ثلاثة الأرباع^(٤) .

وقد انتشرت الرسوم التي تتعلق بحياة العسكريين والجنود الذين أصبحوا يمثلون الحكماء الفعلين للبلاد ، ونجد صدى سيطرتهم على صحن من الخزف رسم على أرضيته الملونة بالبريق المعدني صورة فارس يمتلك صهوة جواده وفرق يده اليسرى طائر من الطيور الجارحة التي تستخدمن في الصيد^(٥) .

Musée de L'art Arabe du Caire, Op. cit. Pl. 29.

(١)

(٢) د. زكي حسن: الأطلس، شكل ٥٥.

(٣) جنكينز (مارلين): الفن الإسلامي في متحف الكويت ص ٥٠.

(٤) د. حسن الباشا: الملحق ص ٦٨ شكل ١٠٣.

(٥) د. زكي حسن: الأطلس شكل ٤٣.

ويلاحظ أن كثرة رسوم العسكريين لم تكن ظاهرة قاصرة على الخزف ذي البريق المعدني إذ نجد صداتها في الرسوم القليلة التي وصلتنا على الورق وترجع إلى العصر الفاطمي ، مثل قطعة من الورق عليها رسم بالحبر الأسود يمثل أميراً ومعه أحد قواه وفوق الرجلين شريط من كتابة كوفية مزهراً نصها «عز وإقبال للقائد أبي من» وهي محفوظة بمتحف الفن الإسلامي^(١) ويمكن نسبتها إلى القرن ٥ هـ / ١١ م .

وقد انعكس الوزن المتزايد لدور الأقباط بعد الشدة العظمى على منتجات الخزف الذي ينبع إلى القرن ٦ - ٥ هـ / ١٢ - ١١ م مثلما نجد في سلطانية من الخزف ذي البريق المعدني محفوظة في مجموعة كيلكيان عليها صورة قسيس يمسك مبخرة على هيئة مشكاة^(٢) (لوحة ٩٠ - ٩١) وهي تحمل توقيع «سعد» الذي ينسب إنتاجه إلى نهاية القرن ٥ هـ والقرن ٦ هـ (١١ - ١٢ م)^(٣) . كما أن هناك قطع خزفية عليها رسوم لرجال دين مسيحيين ، كما في كسرة من الخزف ذي البريق المعدني عليها رسم قسيس وحول رأسه هالة التقديس بداخلها شكل لصلب ، كما يشير القسيس بيده إلى علامة التثليث والقطعة ترجع إلى القرن ٥ هـ / ١١ م^(٤) .

ب - فخار الفيوم المطلي :

وهو من المنتجات الرخامية الثمن ، وفيه تزخرف البطانات بألوان متعددة على شكل أشرطة تلتقي في مركز الأطباق ، أو تزخرف القدر طولياً ، ويشيع في زخارف هذا النوع البقع المرشوشة أو المنشورة التي تغطي سطح الإناء . وقد عثر على كسر وأواني من هذا النوع في منطقة الفيوم فعرف لذلك بخزف أو فخار الفيوم^(٥) . وقد صنع هذا الخزف في مصر منذ القرن ٣ هـ / ٩ م تقليداً لخزف أسرة تانج الصينية^(٦) . ومن الصعب تأريخ القطع التي تزخرف بالبقع أو الأشرطة نظراً لخلوها من العناصر الزخرفية الواضحة التي تساعد الباحث على نسبة التحف إلى أقرب التواريف احتمالاً . ومن أمثلة هذا

(١) د. حسن البasha : فنون التصوير من ٦٤ - ٦٥ إلى القرن ٥ - ٦٦ . تتبّع بعض الرسوم الفاطمية على الورق التي تمثل مناظر حراسة أو معارك حربية تصل جميعها بحياة العسكريين ، انظر : محمود إبراهيم حسن : التصوير الإسلامي في مصر في العصر الفاطمي على الورق والجلدان والخزف والجاج : رسالة ماجستير - كلية الآثار ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ من ٢٨ ، لوحة ٦٧ شكل أ ، ب.

(٢) د. حسن البasha : فنون التصوير الإسلامي من ٧٨ .

(٣) د. محمود إبراهيم حسن : أعلام المصريين من ٦١ .

(٤) د. سعاد ماهر : أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة في العصر الفاطمي . مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس - أبريل ١٩٦٩) القاهرة ١٩٦٩ ج ٢ من ٥٣٧ ، شكل ٩ .

(٥) د. حسن البasha وأخرون : القاهرة من ٣١٧ .

(٦) د. زكي حسن : أطلس شكل ٤ ، ٥ ، ٦ من ٢ . حكمت أسرة تانج الصين حوالى ثلاثة قرون (٦١٨ - ٩٠٧ م) انظر فهمي هوبي : الإسلام في الصين - عالم المعرفة ٤٣ - الكويت ١٩٨١ من ٤٢ .

النوع طبق صغير محفوظ بمتحف كلية الآثار (رقم السجل ١٤٤٥) به بقع من ألوان متعددة تغطي سطح الطبق بكتمه (لوحة ٩٢). كما استخدم الخزف بطانة بعض الأواني لرسم بعض الزخارف إلى جانب تغطية سطح الإناء يقع الألوان المتعددة، ومن أمثلة ذلك صحن محفوظ بمتحف كلية الآثار (رقم السجل ١٩٨١) يحوي زخارف محزورة تشبه السائدة في العصر الطولوني وبداية العصر الفاطمي (لوحة ٩٣).

وقد أثر الإتجاه الفني العام الذي ساد المنتجات الفنية بعد الشدة العظمى على هذا النوع من الفخار الرخيص، حيث أبى ذوق الفنان المسلم إلا أن يطبع هذه الأواني بطابع فنون الخلافة الفاطمية إستجابة لرغبات الناس في حياة أوانٍ قريبة الشبه مما كان في خزائن الخلفاء، فتخلت هذه الأواني الفخارية عن طابع التقليد الصيني وظهرت عليها الزخارف الكتابية والهندسية، كما في في قدر محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة^(١)، قواص زخرفته مناطق نجمية في بعضها كلمات «بركة شاملة» بالخط الكوفي، وفي البعض الآخر رسم وريدة (لوحة ٩٤)، ويتسم التصميم الزخرفي لهذه القطعة بنفس طابع الزخارف المركبة التي سادت بعد الشدة العظمى ويمكن نسبة هذا القدر إلى القرن ٦ هـ / ١٢ م على أساس مشابهة أشكاله النجمية للزخارف الخشبية المجمعة التي أخذت في الظهور في نهاية العصر الفاطمي^(٢).

وهناك قطع خزفية محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ثبتت إتجاه الخزافين في العصر الفاطمي إلى المزج بين ألوان البريق المعدني والألوان المستخدمة في فخار الفيوم ليكسروا هذه الأواني الرخيصة ملامح أوانٍ الأغنياء المصنوعة من البريق، ومن أمثلة ذلك صحن قواص زخرفته زهرة ذات ثمانية فصوص تتوسط المساحة ويحيط بها رسم أربعة حيوانات متتابعة ويفصل كلاً منها عن الآخر منطقة غير منتظمة الشكل^(٣).

وبنفس المتحف صحن آخر^(٤) تتضمن فيه محاولة رسم زخارف البريق الشائعة من رسوم حيوانية ونباتية على أواني فخار الفيوم.

جـ - الخزف المحزور تحت الطلاء :

وهو من أنواع الخزف التي عملت في مصر تقليداً للخزف الصيني الذي اشتهرت به أسرة

(١) Mostafa (M.) Moslem Ceramics, Cairo 1956, p. 1.

(٢) انظر : د. فريد شافعي ، مميزات الأشباد المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر . مجلة كلية الأدب - جامعة القاهرة. المجلد السادس عشر - الجزء الأول - مايو ١٩٥٤ ص ٨٣.

(٣) د. زكي حسن : الأطلس من ١٦ ، شكل ٥٦ ، فنون الإسلام من ٣٦ شكل ٢٤٧.

(٤) رقم السجل ٢٤٤٢٦.

سونج الصينية^(١) ، وتحز الزخارف في طين الإناء ثم تطلى بطلاء زجاجي من لون واحد وتبعد الزخارف أكثر دكتة من لون الإناء لترسب الطلاء في حزوز هذه الزخارف .

وقد ظهر هذا النوع في أواخر العصر الفاطمي القرن ٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م لتلبية حاجات القراء ، حيث إنه كان أقل نفقة من الخزف ذي البريق المعدني^(٢) ، ويدلُّ اسلوبها الضعيف على اضمحلال صناعة الخزف بصفة عامة في أواخر العصر الفاطمي^(٣) .

وقد اتسمت زخارف هذا النوع بالجمع بين أكثر من نوع من الزخرفة مثل الزخرفة الهندسية والجداول النباتية^(٤) ، وظهرت عليه في بعض الأحيان الرسوم الأدبية ، وإن كانت الزخارف الحيوانية أكثر انتشاراً على هذا النوع من رسوم الأدبيين ، فنجد على كسرة من الخزف محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة^(٥) ، رسمياً يمثل فيلاً محزوراً تحت طلاء زجاجي من لون واحد .

ويعد الفقر الذي انتشر بين قطاع عريض من السكان في الريف والمدن عاملاً مهمًا في صناعة هذا الخزف في مصر منذ منتصف القرن ٥ هـ ، أي بعد الشدة العظمى حيث يلائم سعره الرخيص القدرات المالية لهذه الفئات .

د- الزجاج والبللور الصخري :

لم تختلف زخرفة الزجاج في بداية العصر الفاطمي عن زخرفته في عصر الإخشيديين وإن اختفت تتطور بعد ذلك تدريجياً لتحمل نفس طابع رسوم وزخارف العصر الفاطمي مع اختلاف الطرق الصناعية التي تستخدم في تزيين الزجاج^(٦) .

وتتجدر الإشارة إلى ظاهرتين مهمتين في صناعة الزجاج في العصر الفاطمي ارتبطتا بالحالة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد قبل وبعد الشدة العظمى هما :

١- إن البريق المعدني صار يستخدم في زخرفة الزجاج ، ومررت الزخارف المستخدمة في ذلك بنفس مراحل الخزف ذي البريق المعدني تقريرياً ، فقبل الشدة كانت زخارف الزجاج ذي البريق المعدني بسيطة في تصميماتها وترسم في وحدات كبيرة تملأ سطح الآنية ، كرسوم الطائر الذي يحمل

(١) د. زكي حسن : فنون الإسلام من ٣١٨ حكمت أسرة سونج الصين من ٩٦٧ إلى ١١٦٨ م فهمي هويدى : الإسلام في الصين من ٥٢.

(٢) د. زكي حسن : كنوز الفاطميين من ١٧٤ .

(٣) د. حسن الباشا : فنون التصوير الإسلامي في مصر من ٧٨ .

(٤) د. زكي حسن : الأطلس من ١٩ شكل ٦٦ .

(٥) رقم السجل : ٢١٨٧٠ .

(٦) د. زكي حسن : فنون الإسلام من ٥٨٧ .

(٧) د. حسن الباشا : فنون التصوير من ٧٨ وشكل ٢٠ .

في منقاره ورقة نباتية ثلاثية والزخارف النباتية البسيطة التي تملأ سطح طبق محفوظ بمتحف الكويت الوطني^(١) ، بل إن حواف أواني الزجاج المزخرف بالبريق المعدني كانت تحمل طابع زخرفة حواف المخزف في القرن ٤/٥ هـ ، كما نجد في حافة إناء زجاجي حيث زخرف بنقاط تشبه أسنان المنشار^(٢) . ومما يرسّف له أن القطع الكاملة التي يمكن أن تعطي فكرة عن زخرفة البريق المعدني في أواخر العصر الفاطمي قليلة ونادرة ، ومعظم الذي وصلنا عبارة عن قطع صغيرة^(٣) .

٢ - إن خروج تحف المستنصر المصنوعة من البلور الصخري وانتشار استخدام البلور الصخري بين الأغنياء تبعاً لذلك أدى إلى محاولة صناع الزجاج تقليد منتجات البلور في أعمالهم ، وتنسب هذه القطع في مجموعها إلى النصف الثاني من القرن ٥ هـ والقرن ٦-١٢ م ، ولعل أشهر أمثلة الزجاج الذي صنع تقليداً للبلور الصخري الكؤوس الزجاجية التي تعرف باسم كؤوس القدس هدوبي وهي من زجاج سميك مزخرف بالقطع برسوم الطيور والحيوانات^(٤) . وترجع هذه الأواني إلى القرن ٦ هـ (لوحة ٩٥) . وهي محفوظة بمتحف أمستردام بهولندا . وفي متحف برلين مhibaة من الزجاج السميك الذي صنع تقليداً للبلور الصخري وهي ترجع إلى القرن ٦ هـ / ١٢ م^(٥) .

لقد ساعد تطور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن المجاعات المتعاقبة على تزايد ثروات العسكريين والتجار ، فاتجهوا إلى استعمال أواني البلور الصخري التي لم يعد استعمالها فاصلةً على الخلفاء وحدهم بل جمع الوزراء وعليّة القوم أعداداً من أواني البلور التي اعتقادوا أن للشرب فيها فوائد^(٦) . وإلى جانب ذلك العامل فقد ساعد على ازدهار صناعة البلور الصخري انخفاض أسعار مادته الخام نتيجة لاعتماد مصر ، منذ زيارة ناصر خسرو على الأقل ، على البلور المستخرج بالقرب من بحر القلزم بعد أن كانت مصر تستورده من المغرب . ويشير ناصر خسرو إلى ازدهار هذه الصناعة وقت زيارته لمصر^(٧) .

ويتضمن من الأمثلة المؤرخة وهي ترجع إلى عصر العزيز وعصر الظاهر^(٨) أن زخارف القطع التي ترجع إلى النصف الأول من العصر الفاطمي ثامة البروز وقطعها في البدن ظاهر ، بينما نرى في التحف التي ترجع إلى نهاية العصر الفاطمي أن يروز الزخارف بسيط لا يكاد يفصلها تماماً عن بدن

(١) جنكينز (مارلين) القرن الإسلامي في متحف الكويت الوطني ص ٢٩.

(٢) Lamm (G.), *Mittelalterliche Glaser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen Osten*, Band II, Berlin 1929, T. 43.

(٣) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٢٣٥.

Glück (H.) und Diz (E.) Op. cit. S. 433.

(٤)

(٥) د. زكي حسن : أطلس ص ٢٥١ شكل ٧٤٠.

(٦) د. زكي حسن : قرون الإسلام ص ٥٩٢.

(٧) ناصر خسرو : سفر نامة ٥٩، ٦٠.

(٨) د. حسن الباشا : المدخل، ص ٤٢٧.

التحفة أو أرضية الرسم^(١). وربما كان تخلي الفنان عن الزخرفة البارزة في نهاية العصر الفاطمي يرجع إلى محاولته تخفيض سعر القطع عن طريق تقليل الجهد المبذول في زخرفتها ، خاصة وأن قدرات الخلفاء الأقوباء على الشراء كانت كبيرة ، ومهما بلغت ثروات التجار وكبار العسكريين فإنها لم تكن لتواري ثروات خلفاء الفاطميين في العصر الفاطمي-الأول . ومن أمثلة قطع البلاور الصخري التي ترجع إلى العصر الفاطمي إبريق محفوظ بمتحف اللوفر بباريس عليه رسم زخرفة من شجرة فيها مراوح نخيلية يحف بها من الجانبين رسم بيضاء^(٢)، ويمكن أن ترجع إلى القرن ٥ هـ (لوحة ٩٦) . وإلى نفس الفترة ترجع قينة يزيئها رسم طائرين متقابلين يفصلهما رسوم فروع نباتية ومراوح نخيلية^(٣) (لوحة ٩٧) ، ويحتفظ متحف الكويت الوطني بقنية صغيرة من البلاور الصخري قوام زخرفتها أشكال بارزة تمثل مراوح نخيلية (لوحة ٩٨) وهي ترجع إلى مطلع القرن ٥ هـ ١١ / م^(٤) .

ومن أمثلة قطع البلاور الصخري التي صنعت في نهاية العصر الفاطمي إبريق على هيئة كمشري ولكنه ذو فصوص ، وكان محفوظاً بمتحف تاريخ الفن في فيينا بالنمسا^(٥) . وبالحظ اختفاء الزخارف الفاطمية البارزة التي كانت تندى بالقطع في المتحف التي ترجع إلى العصر الفاطمي الأول (لوحة ٩٩) .

هـ- النسيج :

ازدهرت صناعة النسيج في العصر الفاطمي نتيجة لاهتمام الخلفاء بما كان متبعاً في العالم الإسلامي من إهداء الخلع المنسوجة في مراسم التشريف والتكريم التي وصلت درجة عالية من التنظيم والاتقان^(٦) ، ورغم ما حل بالبلاد من حوادث أثناء الشدة العظمى التي وصلت بالبلاد إلى أحط درجات الفقر إلا أن ذلك لم يقض على صناعة المنسوجات نهائياً^(٧) ، إذ غدت مصانع الطراز^(٨) تخرج إنتاجها من المنسوجات بعد الشدة وإن لم تصلنا قطع من نسيج الطراز تحمل تاريخ إنتاج من فترة الشدة العظمى ٤٥٧ - ٤٦٤ هـ^(٩) ، وهو ما يشير إلى توقف مصانع الطراز عن الإنتاج ، ونستطيع أن نجد صدى سيطرة الوزراء على الخلفاء في ما ورد من كتابات على أنسجة

(١) د. زكي حسن : فنون الإسلام ص ٥٩٤ - ٥٩٥ - شكل ٤٨٨ .

(٢)

Lamm (C.) Op. cit. T. 63.

(٣)

Lamm (C.) Op. cit. T. 66.

(٤)

(٤) جنكينز (مارلين) : الفن الإسلامي في متحف الكويت ص ٦١ .

(٥)

Glück (H.) and Diez (E.) Op. cit. T. XXVIII.

(٦) د. حسن الباشا : المدخل ص ٣٤٧ .

(٧) د. محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٦٤ .

(٨) عن الطراز انظر : د. حسن الباشا : المدخل ص ٣٤٧ .

(٩) رابع :

الطراز ، فطوال عصور الخلفاء الأقوباء (المعز والعزيز والحاكم) لم ترد أسماء الوزراء على نسيج الطراز باستثناء ما ذكرته المصادر التاريخية من أن يعقوب بن كلس كتب اسمه على الطراز في عهد العزيز بالله^(١) ، وهو ما لم يصلنا على قطع من المنسوجات ، وباستثناء قطعة نسيج من عهد الحاكم ورد عليها اسم أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار سنة ٣٨٦ هـ^(٢) وهي الفترة التي كان الحاكم فيها صغير السن ولم ينفرد بالأمور وإلى جانب اسم الحاكم ظهر اسم ولی عهده عبد الرحمن بن ياس بن نسيج الطراز في مجموعة Abemoyer مما عمل بطراز العامة بتنيس عام ٤١٠ هـ^(٣) .

وقد بدأ ظهور أسماء الوزراء بشكل متكرر منذ عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الذي تعد خلافه والنصف الأول من خلافة المستنصر مرحلة إنتقالية بين «الخلفية المطلق الفوضى» وعصر «الوزراء العظام» ، وأقدم قطعة مؤرخة تحمل اسم الوزير الفاطمي علي بن أحمد الجرجائي إلى جانب اسم الخليفة الظاهر نجده على قطعة نسيج من الكتاب في مجموعة Tono مؤرخة عام ٤٢٥ هـ ويلاحظ أن اسم الوزير جاء مسبوقاً بعبارة : مما أمر بعمله ، أي أن أمر العمل صار منسوباً إلى الوزراء^(٤) .

ويتحف الفن الإسلامي ٤ قطع من نسيج الطراز يظهر عليها اسم الوزير علي بن أحمد الجرجائي إلى جانب المستنصر بالله . وقطعة خامسة بمتحف المتروبليتان من عمل طراز العامة بتونة نصها : مما أمر بعمله الوزير الأجل الكامل .. علي بن أحمد في طراز العامة بتونة^(٥) . وقد تميزت كتابات الطراز في عصر سيادة الوزراء العظام بأن معظم الكتابات صارت تشير إلى ألقاب الوزير الذي أمر بنسج قطع الطراز مثل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي وردت ألقابه «سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاء المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه» على قطعة من نسيج الطراز عليها اسم المستعلي بالله^(٦) .

وكان سماح الخليفة بظهور اسم الوزير بالطراز تسلیماً بالأمر الواقع وهو استيلاء الوزير على السلطة في البلاد^(٧) .

(١) د. ذكي حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٨ .

Répertoire, T.6, P. 20.

(٢) وعن أمين الدولة انظر : د. حسن الباشا : الفتن والوظائف ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

Répertoire T.6, P.118.

(٣) وعن تنيس انظر : محمد عبد العزيز مزروق : الزخرفة المنورة ص ٢٣ .

وقد ظهر اسم عبد الرحمن بن ياس أيضاً على المسکوكات ، انظر .

Nicol (N.) El - Nabarawy (R.), Bachemich (J.) Catalogue of the Islamic Coiens, Glass Weights, Dies and Medals in Egyptian National library, Cairo U.S.A. 1982, P. 58.

Répertoire, T. 7, P.2.

(٤)

Ibid. PP. 64 - 67.

(٥)

Ibid. Tome 8 P. 49.

(٦)

(٧) د. ذكي حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٨ .

ويلاحظ على أقمشة النصف الأول من العصر الفاطمي أن الشريط الكتابي كان يحتل الجزء الأكبر من مساحة الزخرفة المنسوجة^(١) ، مثلما نجد في قطعة باسم الحاكم بأمر الله وولي عهده محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، حيث كانت الزخرفة تتالف من شرطيتين كتابيين متعاكسيين يحصوران بينهما شريطًا يشتمل على وحدة زخرفية متكررة تتالف من طائرتين متقابلتين بينهما شجرة^(٢) ، ولعل ذلك كان تعبيراً عن أن كتابة اسم الخليفة كان هو الغاية من زخرفة الأقمشة التي كانت تمنع كهدايا يعتز بها رعايا الخليفة طالما كانت تحمل اسمه ، إلا أن أهمية الأشرطة الكتابية أخذت في التضاؤل منذ النصف الثاني من القرن ٥ هـ . وتزايدت أعداد وأهمية الشرائط الزخرفية الأخرى ، ويمكن أن يعزى هذا التطور أيضاً إلى روح الترف التي سادت الجزء الأخير من حياة الخلافة ، ومن ناحية أخرى إلى تضاؤل نفوذ الخلفاء حتى أصبحت كتابة أسمائهم على الطراز أمراً لا يعني شيئاً بالنسبة للذين يستعملون هذه المنسوجات ، وربما كان ذلك محاولة من الوزراء ، وخاصة السنّيون منهم ، لأجل القضاء على مركز الإمام الشيعي كما فعلوا ببناء المدارس السنّية في أواخر الخلافة .

ومنذ القرن ٦ هـ / ١٢٠ م أصبحت الزخارف المنسوجة بالحرير تغطي أكثر الأرضية الكتابية في الأقمشة^(٣) ، وأصبحت الأشرطة الكتابية مجرد شريط كتابي زخرفي غير مقرق في نهاية قطعة القماش ، ولا يحوى أي إشارة إلى الخليفة أو الوزير ، وكأنما حافظ النساج على وجود شريط كتابي حتى ولو كان لا يعني شيئاً ، وقد نجد بعض الأقمشة وقد خلت تماماً من الأشرطة الكتابية في نهاية العصر الفاطمي في القرن ٦ هـ / ١٢٠ م^(٤) .

و- صياغة الحلّي :

تدین صياغة الحلي بالفضل في ازدهارها في نهاية العصر الفاطمي لاكتناف العملات الذهبية التي كانت تزداد قوة بعد كل مجاعة ، كما لاحظنا عند دراسة المسكوكات . ونلاحظ في مجموعة النقود الفاطمية بدار الكتب المصرية المنشورة في هذا البحث وجود بعض الدنانير المقوية ، مما يحمل على الظن أنها استخدمت كحلي نظراً لجودة عيارها ، وترجع معظم الأمثلة التي وصلتنا من صياغة الحلي في العصر الفاطمي إلى الفترة ما بين النصف الأخير من القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس الهجري (١١/١٢ م) ^(٥) .

أي بعد الشّلة العظمى . ولا شك أن خروج تحف المستنصر وبيعها بثمن بخس كان من

(١) د. محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ١٠٢.

(٢) د. حسن الباشا : فنون التصوير ص ٨٢.

(٢) د. زكي حسن : كنوز القاطميين ص ١١١.

{ 1 }

⁽⁵⁾ انظر مانشـة : د. أحمد ملوح حمدي في : معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامي .

العوامل المهمة في زيادة المكتنرات، كما كان في نفس الوقت حافزاً لصناعة الحلي وعليه القوم لأجل صياغة وحياة حلبي تمثل ما كان في خزائن الخلفاء.

ومن الأمثلة الرائعة لازدهار فن صياغة الحلبي في العصر الفاطمي مشبك صغير من الذهب محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهو عبارة عن قرص مستدير من الذهب، وينسب إلى القرن ٥ هـ / ١١ م وزخارف هذا القرص موزعة في ثلاثة أقسام أفقية على سطحه، الأوسط أغرضها وتشغله كتابة كوفية باللون الأبيض ومزخرفة باللون الأحمر. أما الأرضية التي تقوم عليها الكتابة فذات لون سنجابي ونص الكتابة الكوفية على القرص «الله خير حفظاً» أما القسم العلوي والقسم السفلي من القرص فيزخرف كلّاً منهما فرع نباتي مرسوم باللون الأحمر على أرضية خضراء^(١) (لوحة ١٠٠).

ويتحف الفن الإسلامي أيضاً مشبك من الذهب على هيئة مثلث يصلح أيضاً كدلالة مزخرف بالمنيا المتعددة الألوان ويفصل بين كل لون وأخر جدار رقيق من الذهب، وفي وسط المثلث دائرة في شكل جاماً تضم ما يشبه زهرة ذات أوراق أربعة بيضاء اللون على أرضية خضراء وثلاث مراوح نخيلية على هيئة قلب بلون أحمر محاط بالأبيض وفي حواقه شريط زخارف متعرجة باللون الأزرق على خلفية بيضاء^(٢).

وقد ازدهرت صياغة المعادن بشكل عام تلبية لإتجاهات ترف الطبقات الغنية في المجتمع، ويحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بشمعدان من البرونز يرجع تاريخه إلى القرن ٦ هـ / ١٢ م، له ثلاثة أرجل فوقها قاعدة تزيينها زخارف نباتية وكتابية بالخط الكوفي المورق، تتضمن بعض عبارات الدعاء والتبرك، وللحافة قرص علوي تفصله عن القاعدة رقبة جزؤها الأوسط مسلس الجوانب فوقه وتحته كرة لها سطح مضلع وفوق القرص العلوي كتابة كوفية نصها «عمل بن المكي»^(٣).

ومن أجمل وأشهر التحف المعدنية الفاطمية عقاب من البرونز قائم عند مدخل مقبرة بيزا بإيطاليا. عليه نقوش غاية في الدقة والإبداع^(٤). وعند هذا العقاب وجناحاه مغطاة بريش مرسوم على هيئة تشبه فلوس السمك، وجسمه مغطى بزخارف محفورة فيه تضم رسوماً نباتية وهندسية وخطية ورسوم طيور وحيوانات، وهو يعطي فكرة واضحة عن مدى تقدم وازدهار صناعة الأواني والتحف المعدنية في نهاية العصر الفاطمي.

(١) د. حسن الباشا (وآخرون): القاهرة ص ٥٦٩.

(٢) د. أحمد مملوح حمدي : معرض الفن الإسلامي من ٣٣ . (لوحة ١).

(٣) د. زكي حسن : فنون الإسلام ص ٥١٩.

(٤) ديماند : فنون الإسلام ص ١٥٣ .

الخاتمة

وبعد ، فذلك كان بحثاً عن موضوع المجاعات التي حدثت في العصر الفاطمي والعوامل التي كانت وراء حدوثها ، والنتائج المباشرة وغير المباشرة التي ترتب عليها .

انتهيت فيه إلى أن انخفاض الفيضان لم يكن سبباً حقيقياً في معظم هذه المجاعات ، وأن عوامل أخرى غير الجغرافية كانت هي التي تدفع بالبلاد إلى حافة الفقر والمجاعة . وأهم هذه العوامل الإحتكار التجاري والإعراض عن طرح السلع الغذائية في الأسواق حتى ترتفع أسعارها ، وكان ضعف أداة الحكم المركزية منذ خلافة الظاهر لإعزاز دين الله إيداناً بتعاظم تأثير هذا العامل ، خاصة وأن بعض رجال الدولة كانوا يقومون بالإتجار في الغلال .

وقد أدى تكرار حرواث المجاعات إلى ضياع هيبة الخليفة رأس السلطة المركزية ، وبال مقابل تزايد الدور المؤثر لرجال الدواوين والعسكر ، وكانت كل ماجاعة تقطع جزءاً من صلاحيات الخليفة حتى انتهى الأمر إلى تركز سلطات الحكم الحقيقة في أيدي الوزراء العظام الذين أتوا إلى كرسى الوزارة من صفوف الجنديه .

وانعكس اضطراب أداة الحكم على قوة الخلافة ، فخرجت أملاكها في الشام والمغرب وصقلية والبحرين من حوزتها أثناء المجاعات التي كان يصاحب انتهاءها استعادة الخلافة لهذه الأماكن ، وظلت حركة المد والجزر هذه حتى أنهكت الخلافة وأصبحت مطمعاً للغزاة الصليبيين والسلاجقة والأكراد الطامعين الذين نجحوا في إسقاطها دون أن يشهر سيف بوجههم .

وقد أدت المجاعات إلى تغيير صورة الحياة في المجتمع المصري بسبب موت الكثيرين بالأوبئة ، واضمحلال الريف وفقر سكانه الذين أصبحوا غير قادرين على المزايدة لأجل الحصول على قبالات الأرض ، فتولى العسكريون هذه القبالات ، إضافة إلى الإقطاعيات الممنوحة لهم .

وتزايدت ثروات التجار لارتفاع الأسعار أثناء المجاعات ، فأصبحوا أثرياء المجتمع .
ولم يقتصر الإنحدار العماني على الريف بل امتد إلى الفسطاط والقاهرة التي أصبحت منذ

الشدة المستنصرية مدينة مفتوحة يسكنها الناس بعد أن ظلت حصنًا ملكيًّا منذ تأسيسها .

ومن الناحية المالية ، أثرت المجاعات والأوبئة على الحياة الزراعية ، وانعكس ذلك على انخفاض الخراج ، المصدر الرئيسي للإيرادات ، واستمر مقدار الخراج في التناقص منذ الشدة العظمى ، وبالمقابل زادت الفرقات على الأنشطة التجارية والصناعية ، كتعويض لانخفاض الخراج ، وكان ارتفاع أسعار السلع الغذائية وانخفاض أسعار ما عدتها ، أبرز الملائم الشابة المتكررة في هذه المجاعات . وحاولت الدولة في عصر الخلفاء الأقواء مواجهة ارتفاع الأسعار باتباع سياسة التشغيل ، والقضاء على الوسطاء في تجارة هذه السلع ، وقد حاولت ترسم الخطط البياني لمستوى معيشة بعض العاملين في الدولة من خلال ما وصلنا عن رواتبهم .

والى هذه المجاعات وما يصاحبها من أحداث يرجع سبب تحول مصر إلى التعامل النقدي على أساس معدني الذهب والفضة ، إذ أدى ارتفاع الأسعار إلى انهيار قيمة العملة الذهبية السائدة في التعامل (الدينار) ، مما دفع القادرين إلى اكتنازها ، وكان انخفاض سعر صرف الدرهم بالنسبة للدينار تعبيراً عن اختفاء الذهب من التعامل ، فاضطر الحاكم إلى تحرير سعر لصرف الدرهم فتحولت مصر بذلك إلى قاعدة المعدنين . ومع توالي المجاعات وارتفاع الأسعار ازداد إتجاه وقدرة التجار على اكتناز الذهب حتى أصبحت الفضة هي النقد الرئيسي للبلاد ، وارتفع سعرها أمام الدينار رغم سوء عيارها ، ومعنى ذلك أن عصر الفضة بدأ في عهد الفاطميين الذي لم يكن كله عهد سيادة الذهب في التعامل ، كما هو شائع في الكتابات الحديثة .

وقد أدت الشدة المستنصرية إلى بلورة نفوذ الوزراء ، وانعكس ذلك على حركة التشيد والبناء التي اتسمت في عصر سيطرة الخلفاء بكبر أحجام المباني الدينية (المساجد والجوامع) التي تركزت في مجال القاهرة ومصر ، بينما قلت مساحات هذه المباني في عهد الوزراء الذين كانوا هم رعاة الفن المعماري في أواخر العصر الفاطمي . وكثرت إنشاءات الوزراء في الأقاليم واعتني السنّيون منهم بإنشاء المدارس السنّية المذهب ، وإزاء ضعف مركز مصر الحربي وجه الوزراء جهودهم نحو تدعيم الإنشاءات والعمائر الحربية . وكانت معظم الأعمال المعمارية للوزراء عبارة عن تجديدات في مبان قائمة .

وتظهر النصوص التأسيسية التي ترجع إلى ما بعد الشدة العظمى مدى ما تمت به الوزراء من نفوذ وسلطان في هذه الفترة حيث احتلت ألقابهم معظم مساحة هذه الكتابات ، مقرونة بالإشارة إلى أن أعمال الإنشاء أو الترميم كانت بأمر منهم .

وكان من أثر التتابع الاجتماعية التي نجمت عن المجاعات وخروج التحف والذخائر التي كانت في خزائن المستنصر أن تركز طلب الأغنياء على تحف الترف التي أصبحت تحمل طابع الزخارف التي كانت على تحف المستنصر ، ويمكن ترسم هذا الطابع الزخرفي في المقارنة بين

الخزف ذي البريق المعدني الذي ينسب إلى ما قبل الشدة والخزف الذي ينسب إلى ما بعدها ، وقد أدى الاتجاه الترفي في الاستهلاك إلى انتشار استعمال البلاور الصخري وظهور نوع من الزجاج صنع تقليداً لأواني البلاور الصخري . كما أن اكتناف الذهب الذي أشرنا إليه آنفاً وجد متৎساً له في صياغة الحلي التي ازدهرت في القرن ٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م .

ومن جهة أخرى، أدى تزايد أعداد الفقراء في الريف والمدن ، نتيجة لتوالي المجاعات ، إلى ازدهار نوع جديد من الخزف المزخرف بالحبر تحت طلاء زجاجي من لون واحد وهو المعروف كتقليد لخزف أسرة سنج الصيني ، وإن حملت زخارقه نفس طابع الزخارف الفاطمية في القرن ٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م ، وهو نفس زخارف تحف المستنصر ، وظهرت هذه الزخارف أيضاً على أواني الفخار التي صنعت تقليداً لخزف أسرة تانج الصيني والمعروف بفخار الفيوم .

أما زخارف وكتابات نسج الطراز ، فقد أيدت ما أثبتته الدراسات التاريخية من انهيار سلطات الخليفة منذ عهد الظاهر وصعود نجم الوزراء الذين سجلوا ألقابهم وأسماءهم مسبوقة بأمر العمل على هذه المنسوجات التي لم تعد تحمل أسماء الخلفاء في نهاية العصر الفاطمي .

الملاحق

السنة الهجرية ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٣١٠

قياس النيل في المصر الفاطمي منذ الشدة العظمى

حد الوفاء
استشعار

٢٠

١٩

كتاب إنشاد العذبة

١٨

١٧

١٦

(ملحق رقم ١) قياس النيل أثناء المجاعات

المصدر	حسب المصادر التاريخية		حسب جدول ابن أبيك		حسب جدول أبي المحاسن		حسب جدول كارتسيير		الرقم العام
	فراغ	أصابع	فراغ	أصابع	فراغ	أصابع	فراغ	أصابع	
الجدارول الثلاثة نقلًا عن: أمين سامي: تقويم النيل - ص ٤ - ٢١.			١٦	٢٠	١٦	٢٠	١٦	٢٠	٥٨٧
ابن لیاس ج ١ ص ٣١.	١٢	١٦	١٤	١٩	١٤	١٩	١٤	١٩	١٢٤
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٦	٢	١٧	١٨	١٧	١٨	١٤٧
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٨	-	١٦	١٠	١٦	١٠	١٩٠
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٦	٦	١٨	-	١٨	-	٣٢٩
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٧	٦	١٦	٧	١٦	٧	٣٤٢
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٦	٧	١٧	٦	١٧	٦	٣٤٣
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٦	٧	١٥	١٣	١٥	١٣	٣٤٤
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٦	٧	١٧	١٨	١٧	١٨	٣٤٥
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٧	٢٠	١٦	١٩	١٦	١٩	٣٤٦
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٦	١٩	١٧	٢٠	١٧	٢٠	٣٤٧
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٧	١٩	١٧	٢٠	١٧	٢٠	٣٤٨
ابن لیاس ج ١ ص ٤٣.	١٥	١٤	١٨	-	١٧	-	١٧	-	٣٤٩
المقريزي: إغاثة الأمة ص ١١.	١٥	٤	١٥	٤	١٥	١٦	١٥	١٦	٣٥٢
المقريزي: إغاثة الأمة ص ١١.	١٥	٤	١٦	١٥	١٥	٤	١٥	٤	٣٥٣
المقريزي: إغاثة الأمة ص ١٢.	١٦	أصابع	١٤	١٩			١٦	١٥	٣٥٤
المقريزي: إغاثة الأمة ص ١٢.	١٤	أصابع	١٢	١٩			١٤	١٩	٣٥٥
المقريزي: إغاثة الأمة ص ١٢.	١٢	أصابع	١٧	١٤			١٢	١٧	٣٥٦
			١٧	٩			١٧	١٤	٣٥٧
			١٦	٢٠			١٧	٩	٣٥٨
			١٧	-	٢١		١٧	١٩	٣٥٩
			١٧	٢١			١٧	٢١	٣٦٠
المقريزي: إغاثة الأمة ص ١٣.	١٦	وأصابع	١٦	٧			١٦	٧	٣٨٧
المقريزي: إغاثة الأمة ص ١٤.	١٦	وأصابع	١٦	٣			١٦	٣	٣٩٥
[إغاثة ص ١٥]	١٣	وأصابع	١٦	١٦			١٦	١٦	٣٩٦
[إغاثة ص ١٦]	١٥	-							
الخطاطج ٢ ص ٢٨٦	١٦	١٦							
	ونزل								
[إغاثة ص ١٤]	١٣	وأصابع	١٤	١٦			١٤	١٦	٣٩٧
[إغاثة ص ١٦ (الخطاطج سريعاً)]	١٥	-	١٤	٩			١٤	٩	٣٩٨
يتبع			١٦	١٠			١٦	١٠	٤٠٢

	حسب المصادر التاريخية		حسب جدول ابن أبيك		حسب جدول أبي المحاسن		حسب جدول كارتسيير		الإجمالي
	أصوات	فراع	أصوات	فراع	أصوات	فراع	أصوات	فراع	
المقريزي: انتظام الختفا - ج ٢ ص ١١٢	١٩	٢	١٧	١٢			١٧	١٢	٥٤٣٦
نقض بعد أن أوفى - المسيحي ج ٤ ص ١٢ انتظام ج ٢ ص ٤ - ١٣٥			١٦	٩	١٩	٨	١٦	٢	٥٤٠٦
حسب انتظام ج ٢ ص ١٧٢ - المسيحي يدلّك أن النيل أوفى ج ٤ ص ٤٧	١٦	٨	١٦	-	١٤	١٤	١٦	٨	٥٤١٠
زيدة أدت إلى غرق - انتظام ج ٢ ص ١٧٥ الخطط ج ٧ ص ٣٥٥.			١٦	٧			١٦	٧	٥٤١٧
تأخرت الزيارة ٤ شهور انتظام ج ٢ ص ١٨٠ الخطط ج ١ ص ٣٥٥.			١٧	٦			١٧	٦	٥٤٢٢
كثر الفار ولا علاقة بالفيسان انتظام ج ٢ ص ١٨٠ - الخطط ج ١ ص ٣٥٥.			١٧	١٤			١٦	١٥	٥٤٢٦
يذكر المقريزي أن سبب ذلك نقض النيل.			١٧	٥			١٧	٥	٥٤٤١
			١٥	١٤			١٧	٤	٥٤٤٥
			١٧	٤			١٦	٤	٥٤٤٧
			١٧	١٣			١٧	١٣	٥٤٤٨
			١٩	١٢			١٧	١٢	٥٤٥٠
			١٦	٣			١٦	١٣	٥٤٥٦
			١٦	١٠			١٦	١٠	٥٤٥٧
			١٦	١٧			١٦	١٧	٥٤٥٨
			١٦	٧			١٦	١٧	٥٤٥٩
			١٥	١			١٥	٦	٥٤٦٠
			١٧	١٨			١٧	١٨	٥٤٦١
			١٧				١٦		٥٤٦٢
			١٦	٣			١٧	٣	٥٤٦٣
			١٦	١٠			١٦	١٠	٥٤٦٤
			١٦	٧			١٦	٧	٥٤٦٥
			١٥	٩			١٦	٣	٥٤٦٦
			١٦	١٢			١٧	٧	٥٤٦٧
			١٧	١٥			١٦	٩	٥٤٦٨
			١٦	٢١			١٧	١	٥٤٩١
			١٥	١٥			١٨	١٥	٥٤٩٣
بعض			١٧	١٣			١٧	١٣	٥٤٩٧

المصدر	حسب المصادر التاريخية			حسب جدول ابن أبيك		حسب جدول أبي المحاسن			كارتير		النسبة %
	ذراع	أصابع	ذراع	ذراع	أصابع	ذراع	أصابع	ذراع	أصابع	ذراع	
				١٦	١٥			١٧			٥٢١
				١٧	٣			١٨	١٢		٥٣٢
				١٨	٥			١٨	٥		٥٣٣
				١٦	١١			١٦	١١		٥٣٤
				١٨	٤			١٨			٥٣٧
				١٧	٨			١٦	٩		٥٣٨
				١٨	٧			١٧	٨		٥٥١
								١٨			٥٥٥

(ملحق رقم ٢) تطور سعر القمح أثناء المعارض

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن / الوحدة		التاريخ
		بالدرهم	باليورو	بالكيلو	غرام	
الرية تساري ١٦٧ - ١٢٠ كلغ هتس (فالتر) - الموازن والمحايل من ٨٠	إغاثة الأمة - ص ١١	١٥	دينار	٣٠,٤٢	٢١ وبة	٣٤٣ - ٩٥٤ م
	إغاثة الأمة ص ١١	١٥	دينار	٢٤,٣٣٦	٢ وبة	٩٦٣ - ٥٣٥٢
	إغاثة الأمة ص ١٢	١٥	دينار	١٢,١٦٨	٢ وبة	٩٣٧ - ٥٦
	انتهاز الحتفا - ج ٢ ص ١٦٨	١٥	دينار	٦,٤٥١	٩ أنداح	٩٦٨ - ٦٦
	إغاثة الأمة ص ١٥	١٤,٣٧٥	ديناراً إلا قيراطاً	٩٧,٥	تلبس	٩٦٩ - ٥٣٥٨
	إغاثة الأمة ص ١٦	١٣٦	٤ دنانير	٩٧,٥	تلبس	١١٠٦ - ٥٣٩٧
	انتهاز الحتفا - ج ٢ ص ٧٤	٧٢	٤ دنانير	٩٧,٥	تلبس	١٠٠٧ - ٥٣٩٨
	السبحي: ج ٤٠ ص ١٢ - ١٣	١٦	دينار	٩٧,٥	تلبس	٤١٤ - ١٠٢٣ م بعد جمادى
	السبحي: ج ٤٠ ص ١٢ - ١٣	٣٢	دينارين	٩٧,٥	تلبس	٤١٤ - الآخر
	السبحي: ج ٤٠ ص ٣٢	٤٨	٣ دنانير	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٠٢٤ م ربيع الأول
غير ثمن التيس	السبحي: ج ٤٠ ص ٦٧ - ٦٩	٤٨٧٣٢	دينارين ثم	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - شوال
	انتهاز ج ٢ ص ١٤٢		٢ دنانير	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٣ ذي القعدة
	السبحي: ج ٤٠ ص ١٦١ - ١٦٢		٣ دنانير	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٤ ذي القعدة
	السبحي: ج ٤٠ ص ٧٢		٣ دنانير	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٧ ذي القعدة
تعتير	السبحي: ج ٤٠ ص ٧٤ - ٧٥	٤٠	دينارين	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٦ ذي القعدة
	انتهاز ج ٢ ص ١٦٥		ونصف	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٧ ذي القعدة
	السبحي: ج ٤٠ ص ٧٥		٢ دنانير	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٧ ذي القعدة
	انتهاز ج ٢ ص ١٦٦	٥٠	وربع	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ١٧ ذي القعدة
	السبحي: ج ٤٠ ص ٨٦		١٤ دنانير	٩٧,٥	تلبس	٤١٥ - ذوالحججة
بعض	انتهاز ج ٢ ص ١٦٩	٦٩	٣	٩٧,٥	تلبس	

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن / الوحدة		التاريخ
		بالدرهم	بالدينار	بالكيلو غرام	الوحدة	
في إغاثة الأمة عام ٤٤٧ـ ص ٢٠ - ٢١	اتماظ ج ٢ من ٢٢٦ـ الإشارة من ٤٣ـ	١٢٨	٨ دنانير	٩٧,٥	تليس	١٠٥٤ـ / ٤٤٦
في إغاثة الأمة عام ٤٤٧ـ ٤٤٧ـ تعمير	اتماظ ج ٢ من ٢٢٦ـ	٤٨	٣ دنانير	٩٧,٥	تليس	٤٤٦
الإردن بوازي ١٢٥ كلغ هتس (فالتر) : ص ٥٨ـ اختفى القمح بعد ذلك.	النجوم ج ٥ ص ٧٩ـ	١٢٨	٨٠ ديناراً	٧٣,١٢٥	الأردن	١٠٦٦ـ / ٤٥٩
حادث ثوب قمح المشتري	اتماظ ج ٢ ص ٢٩٧ـ	١٢٨	٨١ ديناراً	٧٣,١٢٥	الأردن	١٠٦٨ـ / ٤٦١
٢٩٩ـ	اتماظ ج ٢ ص ٢٩٩ـ	١١٢٠	٧٠ ديناراً	٧٣,١٢٥	الأردن	٤٦١
الرطل يساوي ٤٣٧,٥ غراماً	النجوم ج ٥ ص ٨٣ـ	١٦٠٠	١٠٠ دينار	٧٣,١٢٥	الأردن	٤٦١
هتس (فالتر) ص ٧٦ـ	اتماظ ج ٢ ص ٣٠٧ـ	١٦	٦ دينار	٣,٩٣٧٥	أرطال	١٠٧١ـ / ٤٦٤
أولاً ثم اختفى	اتماظ ج ٢ ص ٣٠٧ـ	٤٨١٣٢	٨٠ تزاري مشكلين ثم ثلاثة	٣,٩٣٧٥	أرطال	٤٦٤
	الكوكاب السيارة - ص ١٧٧ـ	١١٣٦	٧١ ديناراً	٧٣,١٢٥	الأردن	٤٦٤ - ٤٥٧ـ الشدة
	إغاثة الأمة - ص ٢٣ـ الخطف (ص ٣٣٧ـ) عن الجوانبي ابن لباس -	١٢٨٠	٨١ ديناراً	٧٣,١٢٥	الأردن	الشدة
	ابن لباس - ج ١ ص ٦٠ـ	-	٨٠ ثم	٧٣,١٢٥	الأردن	الشدة
أولاً ثم اختفى	النجوم - ج ٥ ص ١٧ـ	١٦٠٠	١٠٠ دينار	٧٣,١٢٥	الأردن	الشدة
	راشد - ص ٩٤ عن التويري	٢٢٠٠	٢٠٠ دينار	٧٣,١٢٥	الأردن	الشدة
لمدة ٦ أشهر	ابن ميسريج ٢ ص ٣٤ـ	٣٢٠٠	٢٠٠ دينار	٧٣,١٢٥	الأردن	الشدة
تعتبر	ابن لباس ج ١ ص ٦٢ـ	٤٨٠	٣٠ ديناراً	٧٣,١٢٥	الأردن	١١٠٣ـ / ٤٩٧ـ
سعر تداول بعد الشراء بالتسعيرة	إغاثة الأمة ص ٢٦ـ	٢٠٨٠	١٣٠ ديناراً	٧٣١٢,٥	مائة أردن	٤٩٧ـ
	إغاثة الأمة ص ٢٦ـ	٤٨٠	٣٠ ديناراً	٧٣١٢,٥	مائة أردن	٤٩٧ـ
	اتماظ - ج ٣ ص ٦٦ـ	١٦	٦ دينار	٧٣,١٢٥	الأردن	٤٩٧ـ
	٦٧ هامش (٤)					
	اتماظ ج ٢ ص ١٣٣ـ	١٦	٦ دينار	٣,١٢٥	الأردن	١١٢٧ـ / ٥٢١
	اتماظ ج ٣ ص ١٦٨ـ	٤٨	٣ دنانير	١٢,١٢٥	الأردن	١١٢٨ـ / ٥٢٢
غلال فاسدة	اتماظ ج ٣ ص ١٦٨ـ	٦٤٠	٤٠ ديناراً	١٣١٢,٥	مائة أردن	٥٢٣ـ
	ابن ميسريج ٢ ص ٨٥ـ	٩٠	٠ دينار	٧٣,١٢٥	الأردن	١١٤١ـ / ٥٣٦
	اتماظ - ج ٣ ص ١٧٦ـ					
لم يذكر صراحة أنه القمح	إغاثة الأمة - ص ٢٧ـ	٨٠	٥ دنانير	٧٣,١٢٥	الأردن	١١٥٦ـ / ٥٥١

(ملحق رقم ٣) تطور سعر الدقيق أثناء المياجعات

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن / الوحدة		التاريخ
		بالدرهم	بالدينار	بالكيلو غرام	الوحدة	
سعر	حمل الطحين في مصر برازي ١٣٥ كلغ - راجع هتس الأوزان والمكابيل من ٧ وما بعدها	٥١	دينار ونصف	١٣٥ كلغ	الحملة	٢٣٩٧
	إغاثة الأمة من ١٦ انتاظ المخنث - ج ٢ من ٧٤	٢٤	٦ دنانير	١٣٥ كلغ	الحملة	٢٣٩٧
	انتاظ المخنث - ج ٢ من ١١٥	١٠٨	٦ دنانير	١٣٥ كلغ	الحملة	٢٣٩٨
	السبسي - ج ٤٠ من ١٢ - ١٣	٣٦	درهم	٤٣٧,٥ جرام	رطل	٤٤١٠
	انتاظ - ج ٢ من ١٣٥	٤	٢ دينار	١٣٥ كلغ	الحملة	جمادي الآخر
	السبسي - ج ٤٠ من ١٦١ - ١٦٢	٧٥	درهم	٩٣٧٥ كلغ	رطلين ونصف	١٠١٤
	السبسي - ج ٤٠ من ٧٤	٧٥	٤ دينار وغير اطن	١٣٥ كلغ	الحملة	١٣ ذي القعدة
	السبسي - ج ٤٠ من ٧٤	٧٥	درهم	٦٥٦,٢٥ جرام	رطل ونصف	١٥ ذي القعدة
	السبسي - ج ٤٠ من ٧٤	٦٤	٤ دنانير	١٣٥ كلغ	الحملة	١٦ ذي القعدة
	انتاظ - ج ٢ من ١٦٥	٩٦	٦ دنانير	١٣٥ كلغ	الحملة	ذو الحجة
ثمن دار اشتراها قبل الشدة سادمة عقد المرأة والقرصنة	السبسي - ج ٤٠ من ٨٦	١٤٤٠٠	٩٠٠ دينار	٨,٧٥ كلغ	٢٠ رطلاً	الشدة
	إغاثة الأمة من ٢٤ أبن الجوزي: المستظم ج ٨ من ٢٥٧	١٦٠٠٠	١٠٠٠ دينار	٩٧,٥ كلغ	٣٦ تلبيس	٤٤٦٢
	أبن ميسريج ٢ من ٨٥	٤٨٠٠	٣٠٠ دينار	١٣٥ كلغ	الحملة	
	انتاظ - ج ٣ من ١٧٦	٩٥٠		١٣٥ كلغ	الحملة	٥٥٣٦

(ملحق رقم ٤) تطور سعر الخبز أثناء المجامعتات

المواعظ	المصدر	السعر		الوزن/الوحدة		التاريخ
		بالدرهم	بالدينار	بالكيلوغرام	الوحدة	
السعر العادي	الكامل - ج ٧ ص ٣١	درهمين		٤٤٧٥ غ	رطل	٢٥٨
	إغاثة الأمة - ص ١٣	درهم		١٧٥٠	٤ أرطال	٢٣٨٧
	اتعاظ ج ٢ ص ٨					
	اتعاظ ج ٢ ص ٢٥	درهم		٧,٠٠٠	٦ رطل	٢٣٩٠
	اتعاظ ج ٢ ص ٦٢	درهم		٤,٣٧٥	١٠ أرطال	٢٣٩٦
	اتعاظ ج ٢ ص ٦٢	درهم		٢,٦٢٥	٦ أرطال	٢٣٩٦
تعزير	إغاثة الأمة ص ١٥	درهم جديد		٥,٢٥٠	١٢ رطل	٢٣٩٧
خبز أسود	إغاثة الأمة ص ١٦	درهم		٢,٦٢٥	٦ أرطال	٢٣٩٧
	اتعاظ ج ٢ ص ٦٩	درهم		١,٣١٢٥	٣ أرطال	٢٣٩٧
	اتعاظ ج ٢ ص ٧٤	درهم		١,٣١٢٥	٣ أرطال	٢٣٩٨
	المسيحي: ج ٤٠ ص ١٥ - ١٦	درهم		١١,٣١٢٥	٣ أرطال	٩ رجب ٤١٤
مبول	اتعاظ ج ٢ ص ١٣٥	درهم (وثمن)		١,٧٥٠	٤ أرطال	جمادي الآخر ٤١٤
	اتعاظ ج ٢ ص ١٣٥					
أخطاء المقرني في (ثمن)	المسيحي: ج ٤٠ ص ١٢ - ١٣					
	٣٢ درهم			١,٩٣٧٥	رطلين	ربيع الأول ٤١٥
	اتعاظ ج ٢ ص ٤٢				ونصف	
	المسيحي: ج ٤١ ص ٧ - ٨	درهم		٢,١٨٧٥	٥ أرطال	٤ رجب ٤١٥
	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٧ - ٤٨	درهم		١,٧٥	٤ أرطال	٤ رجب ٤١٥
	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٨	درهم		٢,١٨٧٥	٥ أرطال	٦ رجب ٤١٥
حشكار حواري	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٨	درهم		١,٣١٢٥	٣ أرطال	بعد ٦ رجب ٤١٥
	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٧ - ٤٨	درهم				
	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٧					
خبز الأفوان	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٨	درهم				
	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٨	درهم				
	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٨	درهم				
كل الأنواع عدا السميد	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٨	درهم				
السميد	المسيحي: ج ٤٠ ص ٤٨	درهم		١,٩٣٧٥	رطلين	بعد ٦ رجب ٤١٥
السميد	المسيحي: ج ٤٠ ص ٦٧ - ٦٩	درهم		٨٧٥ غ	رطلين	شوال ٤١٥
	اتعاظ ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢					
حشكار	المسيحي: ج ٤٠ ص ٧٢	درهم وربع		٨٧٥ غ	رطلين	١٣ ذي القعدة ٤١٥
خبز أسود	المسيحي: ج ٤٠ ص ٧٢	درهم		٨٧٥ غ	رطلين	١٢ ذي القعدة ٤١٥
بيع	المسيحي: ج ٤٠ ص ٧٤	درهم وربع		٨٧٥ غ	رطلين	١٥ ذي القعدة ٤١٥
	اتعاظ - ج ٢ ص ١٦٥	درهم		١,٩٣٧٥	رطلين ونصف	١٦ ذي القعدة ٤١٥

الملحوظات	المصدر	السعر		الوزن / الوحدة		التاريخ
		بالدرهم	باليدينار	بالكيلوغرام	الوحدة	
سميد حواري	المسبحي: ج ٤٠ ص ٧٥ اتماظج ٢ ص ١٦٩	درهم وربع		٨٧٥ غ	وطلين	١٧ ذي القعده ٤١٥ هـ
	المسبحي: ج ٤٠ ص ٧٥	درهم		٨٧٥ غ	وطلين	١٧ ذي القعده ٤١٥ هـ
بعد هجوم العيد.	المسبحي: ج ٤٠ ص ٨٦ اتماظج ٢ ص ١٦٩	درهم		٥٤٧ غ	وطلين وربع	ذو الحجه ٤١٥ هـ
في أزمة المساغب حادثة البازوري	المسبحي: ج ٤٠ ص ٨٨ اتماظج ٢ ص ١٧٠	درهم		٤٣٧,٥ غ	وطلي	ذو الحجه ٤١٥ هـ
وقت الحصار	إغاثة الأئمه ص ١٨ - ١٩ ابن ميسير: ج ٢ ص ٣٤	درهم وشمن		١,٧٥ كيلو	٤ أرطال	٤١٥ هـ
نقلًا عن التوييري	الترجم - ج ٥ ص ١٥ ابن ميسير: ج ٢ ص ٣٤	١٦ ديناراً	٤٣٧,٥ غ	٢,١٨٧ غ	١٠ - ٥	الشدة
بيع الطرف في زنقق التفاصيل عن الجوابي	راشد - ص ٩٤	٢٢٤ ديناراً	٤٣٧,٥ غ	٤,٣٧٥ غ	أرطال	المستنصرية
بيع الطرف في زنقق التفاصيل	المخططج ١ ص ٣٣٧	٢٢٤ ديناراً	٤٣٧,٥ غ	٥,٦٨٧ غ	١٣ رطلًا	الشدة
	إغاثة الأئمه ص ٢٣ ابن لياس: ج ١ ص ٦ ابن ميسير: ج ٢ ص ٨٥	٢٤٠ ديناراً	٤٣٧,٥ غ	٤٣٧,٥ غ	رغيف الخبز	المستنصرية
	اتماظج ٢ ص ١٧٦	درهم		١,٣١٢	٣ أرطال	الشدة

(ملحق رقم ٥) تطور أسعار الحيوانات واللحوم أثناء المجاعات

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن / الوحدة		التاريخ
		بالدرهم	بالدينار	بالكيلوغرام	الوحدة	
لحم بقرى لحم الضأن تسعير لحم بقرى الأوقية في مصر تزن ١٩٧,٥ غ هتس: من ١٩	إنفاذ الآمة ص ١٦ إنفاذ الآمة ص ١٦ اتماطاج ٢ ص ٦٩ اتماطاج ٢ ص ٧٤ اتماطاج ٢ ص ٧٤ اتماطاج ٢ ص ١١٥ المسيحي: ج ٤ ص ٦٧ - ٦٩ اتماطاج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ الخطاطج ١ ص ٣٥٤ المسيحي: ج ٤ ص ٧٢ اتماطاج ٢ ص ٢٩٦ اتماطاج ٢ ص ٣٠٧ اتماطاج ٢ ص ٣٠٧ النجوم ج ٥ ص ١٧ النجوم ج ٥ ص ١٦ النجوم ج ٥ ص ١٦	درهم درهم درهم درهم درهم درهم ٣ ٨٠٠ درهم ٧ درهم درهمين ١٦ ٨٠ ٤٨		٦٥٦,٢٥ ٤٣٧,٥ ٨٨٧٥ ٨٧٥ ١,٩٣٧٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ١٤٩,٧٦ ١٤٩,٧٦ ١٤٩,٧٦ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥	رطل ونصف رطل رطلين رطلين رطلين ونصف ٤ أواق رطل رطل رامس بقر ٤ أواق البيضة أوقية رطل البيضة الكلب السنور	٩٣٩٧ ٩٣٩٧ ٩٣٩٧ ٩٣٩٧ ٩٣٩٨ ٩٤١٠ ٩٤١٥ ٩٤١٥ ٩٤٦٤ ٩٤٦٤ ٩٤٦٤ الشدة الشدة الشدة
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					
	شوال ٤١٥					

(ملحق رقم ٦) تطور سعر الأرز أثناء المجاعات

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن/ الوحدة		التاريخ	
		بالدرهم	بالدينار	بالكيلوغرام	الوحدة		
قائد	إغاثة الأمة ص ١٦٨ العاطف ج ٢ ص ٧٤ العاطف ج ٣ ص ١٦٨	١٦ ١٦ ١٦٠	دينار دينار دينار ١٠	١٢,١٦٨ ١٢,١٦٨ ١٢,١٦٨	كيلو كيلو كيلو ١٢٥	وبية وبية مائة أرب	٢٣٩٧ ٢٣٩٨ ٥٣٣

(ملحق رقم ٧) تطور سعر الشعير أثناء المجاعات

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن/ الوحدة		التاريخ	
		بالدرهم	بالدينار	بالكيلوغرام	الوحدة		
سعر	الكامل ج ٧ ص ٣١ إغاثة الأمة ص ١٥ المسيحي: ج ٤ ص ٣٢ العاطف ج ٢ ص ١٤٢ المسيحي: ج ٤ ص ٦٧ العاطف ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٢ المسيحي: ج ٤ ص ٦٧ العاطف ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ ابن ميس: ج ٢ ص ٨٥ العاطف - ج ٣ ص ١٧٦	١٨ ١٦ ١٦ ١٦ ١٦ ١٦ ١٦ ٧	دينار وسدس دينار دينار دينار دينار دينار دينار	١٢,١٦٨ ١٢,١٦٨ ٤٤٨,٦٧٢ ٩٧٧,٥ ٧٣,٠٠٨ ١٢,١٦٨	كيلو كيلو كيلو كيلو كيلو كيلو	وبية ١٠ ويات ٤ ويات تليس ٦ ويات الوبية	٢٣٥٨ ٢٣٩٧ ٤١٥ شوال ٤١٥ بعد شوال ٤١٥ ٥٣٦

(ملحق رقم ٨) تطور أسعار الزيوت - الجبن - الخضروات - التبن - الماء - الحطب

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن/ الوحدة		
		بالدرهم	باليورو	بالمillogram	الوحدة	
زيت الأكل في اتعاظ ج ٢ ص ٧٤ زيت الوقود في اتعاظ ج ٣٩٨ صل في اتعاظ ج ٣٩٨ وأن الخزير الجبن. تسخير الحطب باعتبار القيمة التقريرية للحمل في غير الطحين هتن: ص ٢٧	إغاثة الأمة ص ١٦ إغاثة الأمة من ١٥	درهم درهم درهم درهم درهم درهم ١٦	.	٢٩٩,٥ ٤٣٧,٥ ٤٤٣٧,٥ ٢٩٩,٥ ٢٥٠٠ ٢٥٠	أوقان رطل حشة أرطال أوقان أوقان ١٠ حملات	٣٩٧ ٣٩٧ ٣٩٧ ٣٩٧ ٣٩٧ ٣٩٧
التبن	السبحي ج ٤٠ ص ١٢ - ١٣ السبحي: ج ٤٠ ص ٣٢ الاعاظ ج ٢ ص ١٤٢ السبحي: ج ٤٠ ص ٦٩ ، ٧٣ الماء الماء الماء عن مختصر التواريخ للسلامي وقت الحصار الماء زيت زيت طيب	٤٠ ١٦ ١٦ درهمان ٣ ١٦ ١٠ ٩ درهمان ٧ ١ - ٢ درهمان	.	٢٥٠ ٢٥٠ ٢٥٠ ١٣ ١٣ ٣٧,٤٤ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥	حمل حمل حمل رواية البطل رواية الحمار رواية البيضة الرواية أوقية رطل	٤١٤ ٤١٥ ٤١٥ ٤١٥ ٤١٥ ٤٦٤ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٢ ٤٦٤ ٥٣٦ ٥٣٦ ٥٣٦ ٥٣٦ ٥٣٦ ٥٣٦
زيت حار	ابن ميسريج ٢ ص ٨٥ الاعاظ ج ٣ ص ١٧٦ ابن ميسري: ج ٢ ص ٨٥ الاعاظ ج ٣ ص ١٧٦ ابن ميسري: ج ٢ ص ٨٥ ابن ميسريج ٢ ص ٨٥ لوز سكر	.	درهم درهم درهم درهم درهم درهم ٢٥٧ ٣٥٧	٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ ٤٣٧,٥ برون الدرهم برون الدرهم	رطل رطلين لوز سكر	٥٣٦ ٥٣٦ ٥٣٦ ٥٣٦

(ملحق رقم ٩) تطور أسعار الأدوية وأغذية المرض

ملاحظات	المصدر	السعر		الوزن/الوحدة		التاريخ
		بالدرهم	باليورو	بالكيلوغرام	الوحدة	
مائة حبة بدرهم الخطاطج ٢ ص ٢٤	المسبكي: ج ٤٠ ص ٦٩ انعاظ ج ٢ ص ١٦٢ انعاظ ج ٢ ص ١٦٢ انعاظ ج ٢ ص ١٦٢ انعاظ ج ٢ ص ١٦٢ انعاظ ج ٢ ص ١٦٢	٣ ٣٠ درهم			رمادة بطيخة برلس أوقية	شوال ١٤١٥ هـ شوال ١٤١٥ هـ شوال ١٤١٥ هـ
شراب				٣٧,٤٤ ج		

الرقم الاستدلل	نوع الدعوى	مقدمة الدعوى	رقم الملف	المؤشر بالملف	الوصف
١٢	ذنب المساومة بالظاهرة	١٣٣٤ ١٠١٥٠ ٣٣٧٦ ٣٣٨١	٣٣ ٣٣٧٦ ٣٣٨١	٣٣ ٣٣٧٦ ٣٣٨١	(١٢) رقم ملحق عمارجي: باسم الله الله أرسله بعلمه دون الغم بغير سيف وبكلمة. المسكركون. عاصي: الإمام المرحوم باشه إمير المؤمنين عبد الدوله.
١٣	-	-	-	-	(١٣) رقم ملحق عمارجي: باسم الله الله أرسله بعلمه دون الغم بغير سيف وبكلمة. المسكركون. عاصي: الإمام المرحوم باشه إمير المؤمنين عبد الدوله.
١٤	-	-	-	-	(١٤) رقم ملحق عمارجي: باسم الله الله أرسله بعلمه دون الغم بغير سيف وبكلمة. المسكركون. عاصي: الإمام المرحوم باشه إمير المؤمنين عبد الدوله.
١٥	-	-	-	-	(١٥) رقم ملحق عمارجي: باسم الله الله أرسله بعلمه دون الغم بغير سيف وبكلمة. المسكركون. عاصي: الإمام المرحوم باشه إمير المؤمنين عبد الدوله.
١٦	-	-	-	-	(١٦) رقم ملحق عمارجي: باسم الله الله أرسله بعلمه دون الغم بغير سيف وبكلمة. المسكركون. عاصي: الإمام المرحوم باشه إمير المؤمنين عبد الدوله.
١٧	-	-	-	-	(١٧) رقم ملحق عمارجي: باسم الله الله أرسله بعلمه دون الغم بغير سيف وبكلمة. المسكركون. عاصي: الإمام المرحوم باشه إمير المؤمنين عبد الدوله.
١٨	-	-	-	-	(١٨) رقم ملحق عمارجي: باسم الله الله أرسله بعلمه دون الغم بغير سيف وبكلمة. المسكركون. عاصي: الإمام المرحوم باشه إمير المؤمنين عبد الدوله.

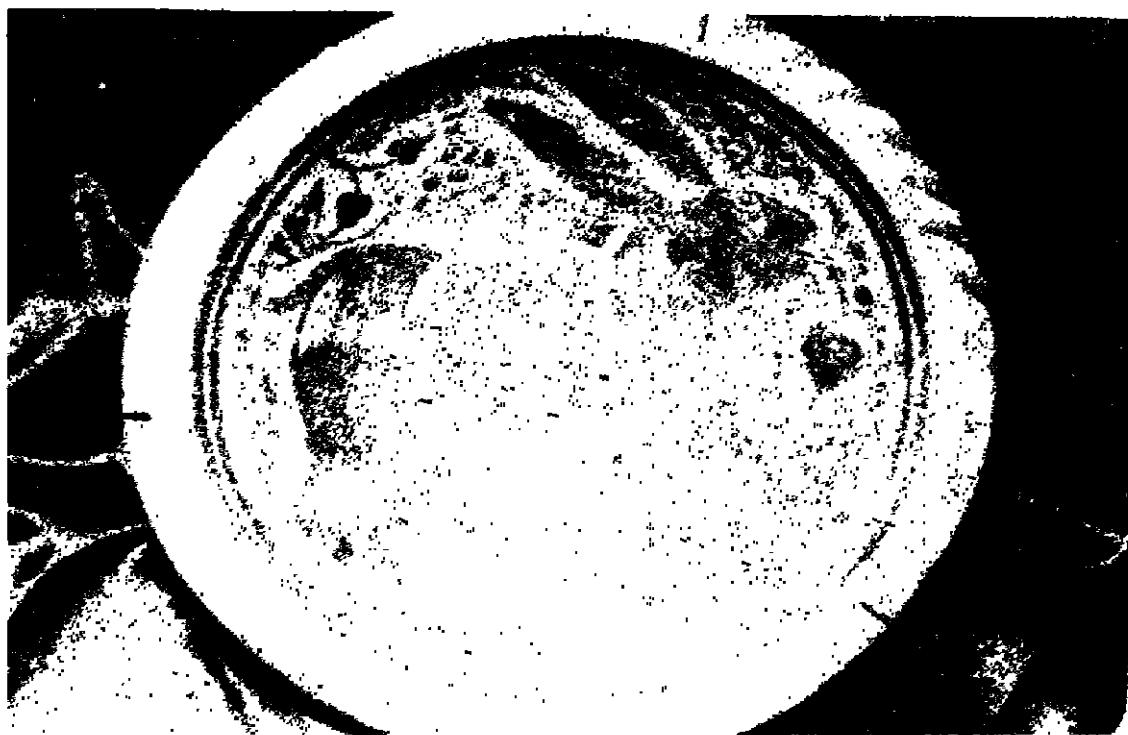
صفحات	مختصر المحتوى	الموضوع	الكتاب	العنوان
١٢٣	٦٧٠٣	٦٧٠٣	٦٧٠٣	٦٧٠٣
١٢٤	٦٧٣١	٦٧٣١	٦٧٣١	٦٧٣١
١٢٥	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٢٦	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٢٧	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٢٨	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٢٩	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٠	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣١	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٢	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٣	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٤	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٥	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٦	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٧	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٨	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٣٩	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٠	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤١	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٢	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٣	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٤	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٥	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٦	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٧	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٨	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٤٩	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٠	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥١	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٢	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٣	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٤	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٥	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٦	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٧	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٨	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٥٩	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٠	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦١	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٢	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٣	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٤	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٥	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٦	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٧	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٨	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٦٩	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٠	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧١	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٢	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٣	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٤	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٥	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٦	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٧	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٨	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٧٩	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٠	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٢	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٣	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٤	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٥	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٦	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٧	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٨	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٨٩	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٩٠	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٩١	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٩٢	٦٨١	٦٨١	٦٨١	٦٨١
١٩٣	٦٨١	٦٨١		

الرقم الممسلسل	رقم السجل	مجموعه	نوع	وزن بالغرام	قطر بالليمتر	الوصف
١٥١٥	٦٠٣٩	ذهب	ذهب	٤٠,٢٩	٣١	(لوحة رقم ٣٠) محل رقم ٣٩ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
١٥١٦	-	دار الكتب والنشرية بالمدارس	-	-	٣٠	(لوحة رقم ٣١) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٢	٤,٣٥	-	-	-	٣٠	(لوحة رقم ٣٢) محل رقم ٣٠ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٣	٤,٣٣	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٣٣) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٤	٤,٣٢	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٣٤) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٥	٣,٩٦	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٣٥) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٦	٣,٩٦	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٣٦) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٧	٣,٩٦	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٣٧) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٨	٣,٩٦	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٣٨) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٣٩	٣,٩٦	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٣٩) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣
٤٠	٣,٩٦	-	-	-	٣١	(لوحة رقم ٤٠) محل رقم ٣١ ولكن التاريخ موسى ٤٤٦٣

الرقم	المدخل	نوع	وزن بالغرام	نوع المجموع	رقم السجل	الرقم
٥١	فخارية رقم ٤٩ طل رقم ٤٩ تاريخ هو سنة ٤٨٢ م.	لجب	٤,٤٣	دار الكتب البصرية بالقاهرة	١٥٦٨	٥١
٥٢	مش رق ١٠ راكن فشرب سر	لجب	٤,٣١	=	١٥٧٠	٥٢
٥٣	مش رقم ٥٣ مش رقم .	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧١	٥٣
٥٤	مش رقم ٥٤ مش خارجي: محمد سعد الله ارسله بالمدى وعلق ابنقط لظهوره على الدين كيد لاروى المذكورين. مش داخلي: لا إله إلا الله محمد رسول الله عصي وعلق السميل يد الله امير المؤمنين.	لجب	٤,٣٠	دار الكتب البصرية بالقاهرة	١٥٧٢	٥٤
٥٥	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧٣	٥٥
٥٦	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧٤	٥٦
٥٧	مش رقم ٤٥ داكن التاريخ هو سنة ٤٩٣ م.	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧٥	٥٧
٥٨	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧٦	٥٨
٥٩	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧٧	٥٩
٦٠	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧٨	٦٠
٦١	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٧٩	٦١
٦٢	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٨٠	٦٢
٦٣	مش رقم ٤٦ داكن مش داخلي: أبو عبيدة الآخر يا حكيم الله امير المؤمنين.	لجب	٤,٣٠	دار الكتب البصرية بالقاهرة	١٥٨١	٦٣
٦٤	مش رقم ٤٧ داكن مش داخلي: ابرهيم شفيف علي الدبر يضره شفيف مش داخلي: أبو عبيدة الآخر يا حكيم الله امير المؤمنين.	لجب	٤,٣٠	دار الكتب البصرية بالقاهرة	١٥٨٢	٦٤
٦٥	مش رقم ٤٨ داكن مش داخلي: ابرهيم شفيف علي الدبر يضره شفيف مش داخلي: أبو عبيدة الآخر يا حكيم الله امير المؤمنين.	لجب	٤,٣٠	دار الكتب البصرية بالقاهرة	١٥٨٣	٦٥
٦٦	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٨٤	٦٦
٦٧	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٨٥	٦٧
٦٨	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٨٦	٦٨
٦٩	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٨٧	٦٩
٧٠	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٨٨	٧٠
٧١	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٨٩	٧١
٧٢	-	لجب	٤,٣٠	=	١٥٩٠	٧٢

الرقم المسجل	نوع	المجموع	الكتاب المصورة	دار الكتب المصورة	العنوان	الرقم	الجهة
٤١١٣	نحو	-	-	-	-	-	-
٤١١٤	-	-	-	-	-	-	-
٤١١٥	-	-	-	-	-	-	-
٤١١٦	-	-	-	-	-	-	-
٤١١٧	-	-	-	-	-	-	-
٤١١٨	-	-	-	-	-	-	-
٤١١٩	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٠	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢١	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٢	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٣	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٤	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٥	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٦	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٧	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٨	-	-	-	-	-	-	-
٤١٢٩	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٠	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣١	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٢	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٣	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٤	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٥	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٦	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٧	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٨	-	-	-	-	-	-	-
٤١٣٩	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٠	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤١	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٢	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٣	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٤	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٥	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٦	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٧	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٨	-	-	-	-	-	-	-
٤١٤٩	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٠	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥١	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٢	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٣	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٤	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٥	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٦	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٧	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٨	-	-	-	-	-	-	-
٤١٥٩	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦٠	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦١	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦٢	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦٣	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦٤	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦٥	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦٦	-	-	-	-	-	-	-
٤١٦٧	-	-	-	-	-	-	-

(ب) بيان لوحات الفنون



(لوحة رقم ٧٦) : صحن من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٤٠ / هـ) محفوظ
بمتحف كلية الآثار - جامعة القاهرة . رقم السجل (١٩٣١) .



(لوحة رقم ٧٧) : صحن من الخزف في البريق المعدني (بصري البريج) (١٢٥٠-١٣٥٠ ميلادي)
مخطوط بمتحف كلية الآثار - جامعة القاهرة . رقم السجل (١٧١٥)



(لوحة رقم ٧٨) : كسرة من الخزف في البريق المعدني : مصر القرن (٤-٩ ميلادي) عن:
Butler (A.), Islamic Pottery, Pl. IX. - B.



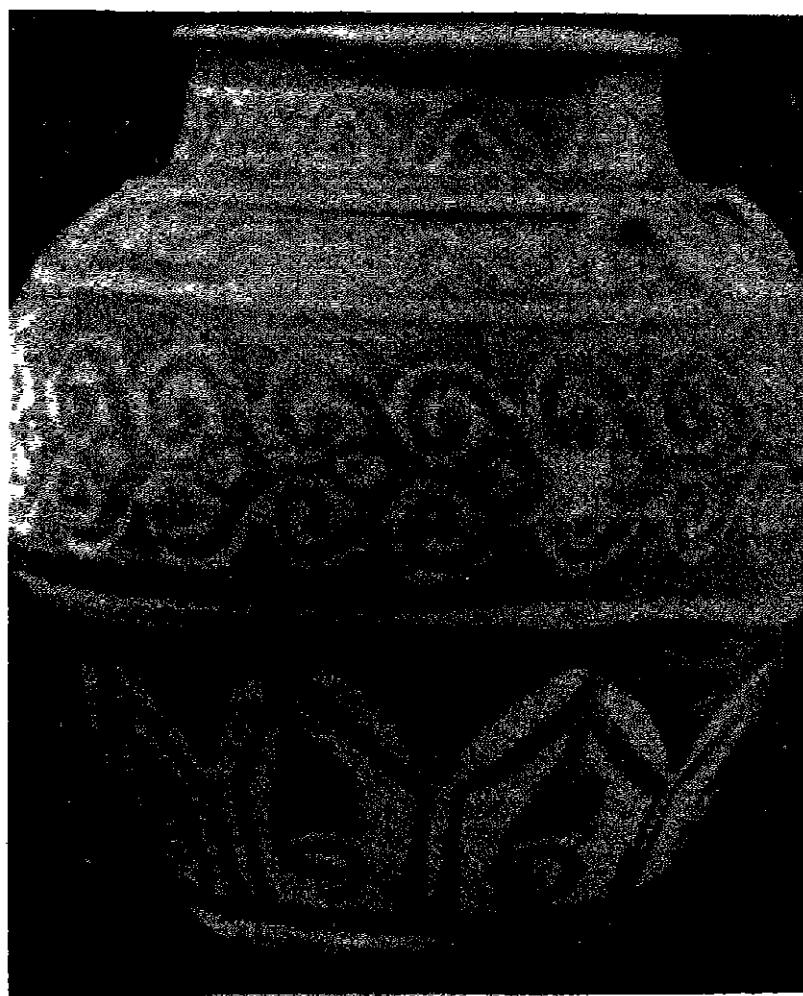
(لوحة رقم ٧٩) : كسرة من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القern (٤ - ٥ هـ / ١٠ - ١١ م) عن:
Butler (A) op. cit Pl. IX. - A.



(لوحة رقم ٨٠) : كسرة من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القern (٤ - ٥ هـ / ١٠ - ١١ م) عن:
Butler 5(A.), op. cit. Pl. XA.



(لوحة رقم ٨١) : صحن من الخزف في البرق العلوي - مصر القديمة
محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة عن
Kochha (R.) und G., Islamische Kunstwerke, Berlin 1928 T. XVI.

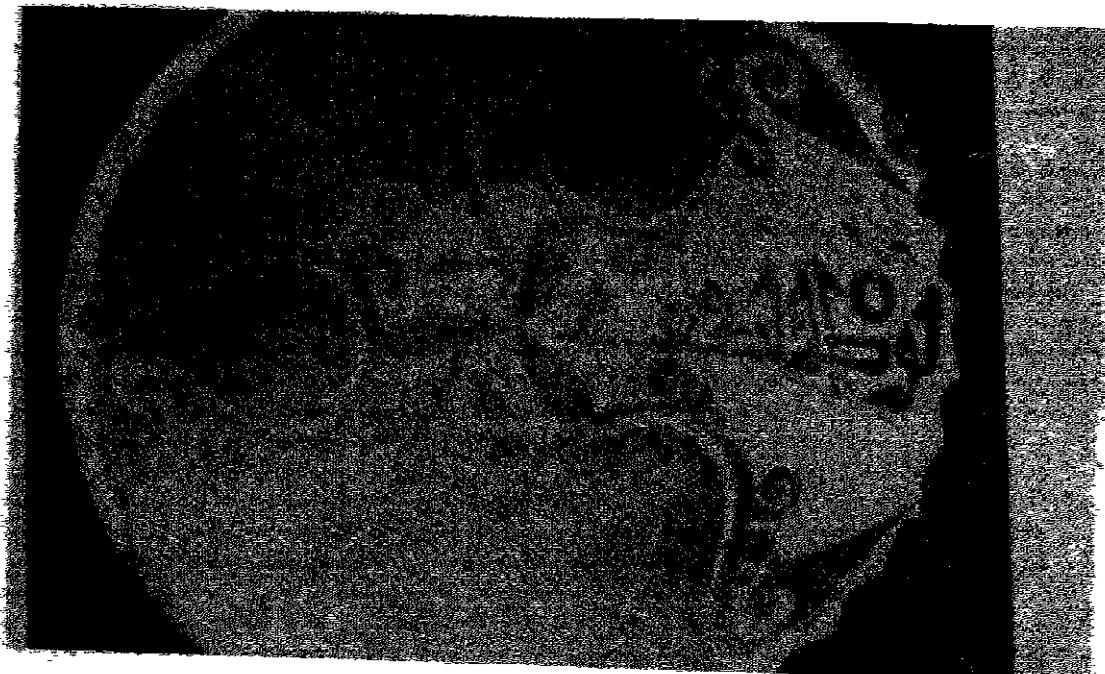


(لوحة رقم ٨٢) : قدر من التحف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٤ - ٥ هـ / ١٠ - ١١ م) محفوظ
بمتحف الكويت الوطني عن: جنكينز «مارلين»: الفن الإسلامي في متحف الكويت الوطني
ص ٢٧ .

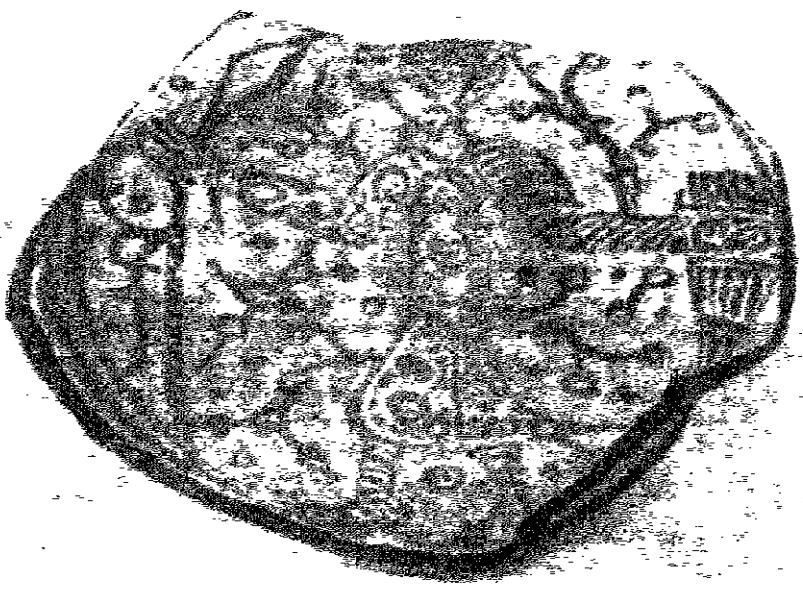


(لوحة رقم ٨٣) : كسرة من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٤ - ٥ هـ / ١٠٦٤-١٠٧٥ م)
محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة عن:

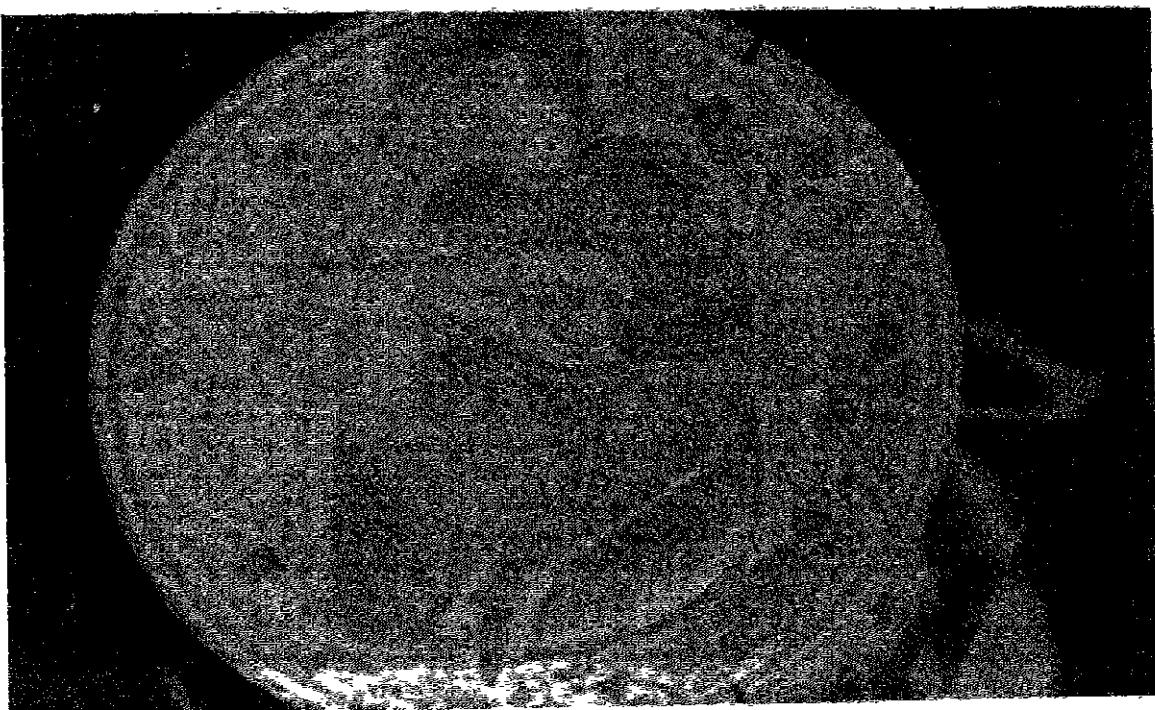
Butler (A.), Islamic Pottery Pl. X - B.



(لوحة رقم ٨٤) : صحن من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٤ - ٥ هـ / ١٠٦٤-١٠٧٥ م)
محفوظ بمتحف الكويت الوطني عن: جنكينز «مارلين». الفن الإسلامي في متحف الكويت
الوطني ص ٢٦ .



(لوحة رقم ٨٥) : كسرة من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٤ - ١٠ هـ / ١١ - ١٧ م) عن:
Butler, Islamic Pottery, Pl. IX. F.



(لوحة رقم ٨٦) : صحن من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٤ - ١٠ هـ / ١١ - ١٧ م) محفوظ
بمتحف كلية الآثار - جامعة القاهرة رقم السجل (١٩٣٠).



(لوحة رقم ٨٧) : صحن من المخزف ذي البريق المعدنى : مصر القديمة (١٢٥٠ - ١٠٦٠ق.م) محفوظ بمتحف كلية الآثار - جامعة القاهرة رقم السجل (١٩٣٩)



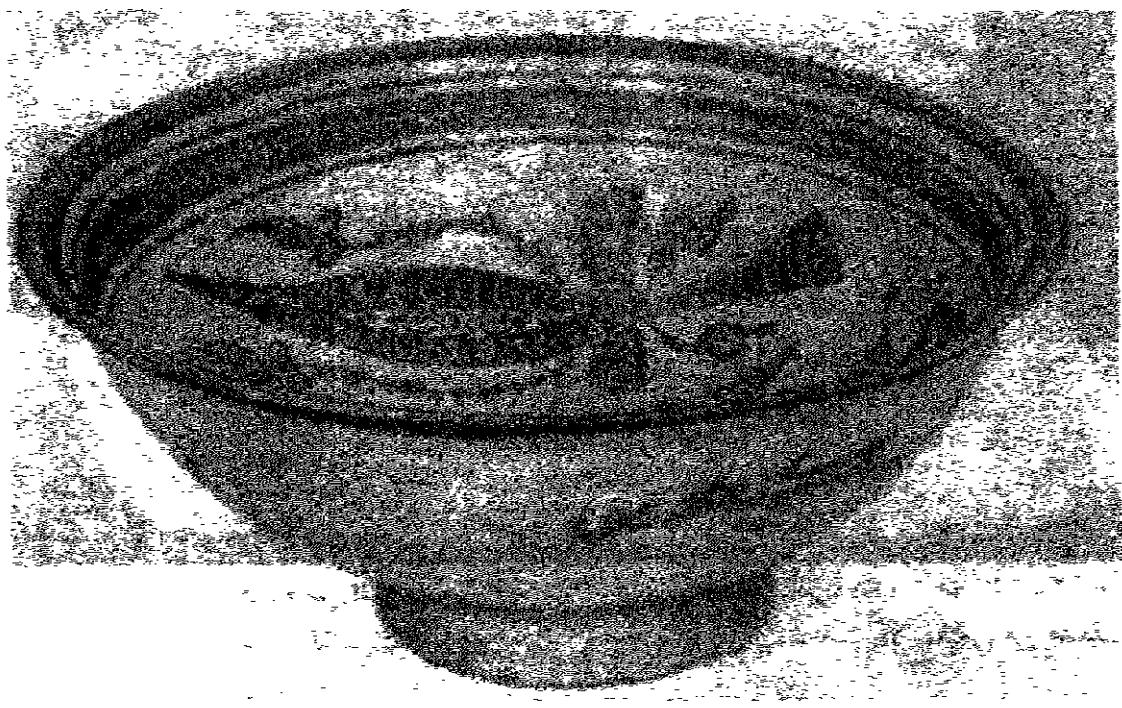
(لوحة رقم ٨٨) : صحن من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٦ - ١٢ م) كانت في
مجموعة Cote في ليون بفرنسا عن :
Koechlin (R.) Migeon (G.) op. cit T . XVIII .



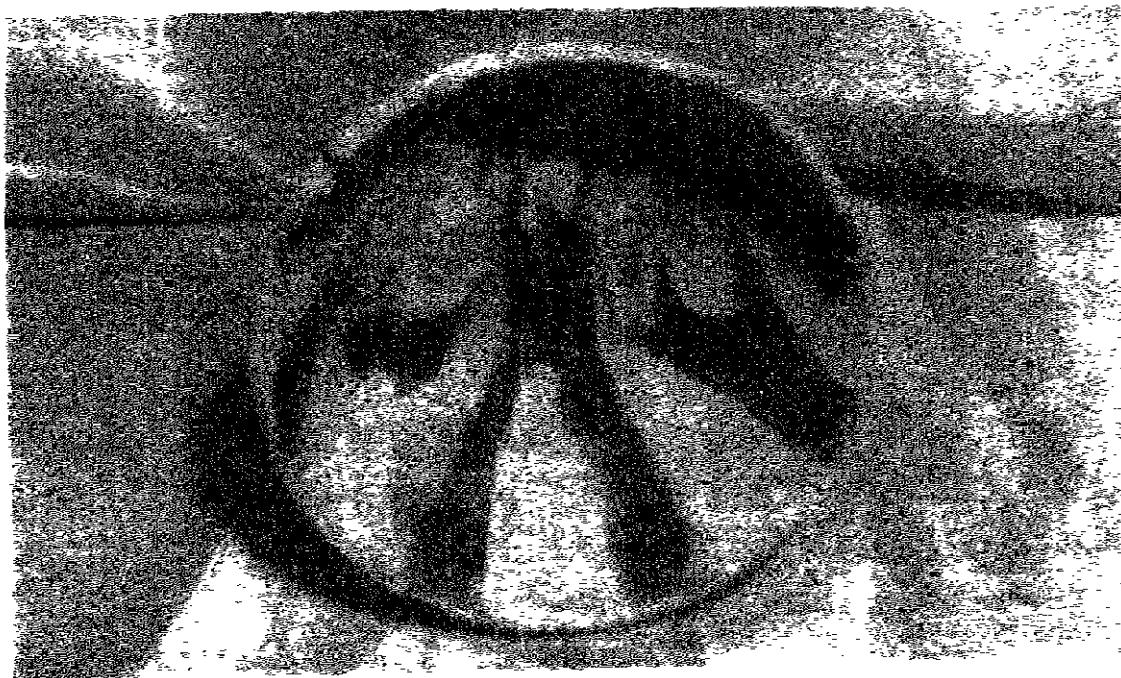
(لوحة رقم ٨٩) : كسرة من الخزف ذي البريق المعدني في مصر القرن (٥ - ٦ هـ / ١٢ - ١٣ م)
محفوظة بمتحف الكويت الوطني عن : جنكينز «مغارب» ، الفن الإسلامي في متحف
الكويت ، صفة ٥٠



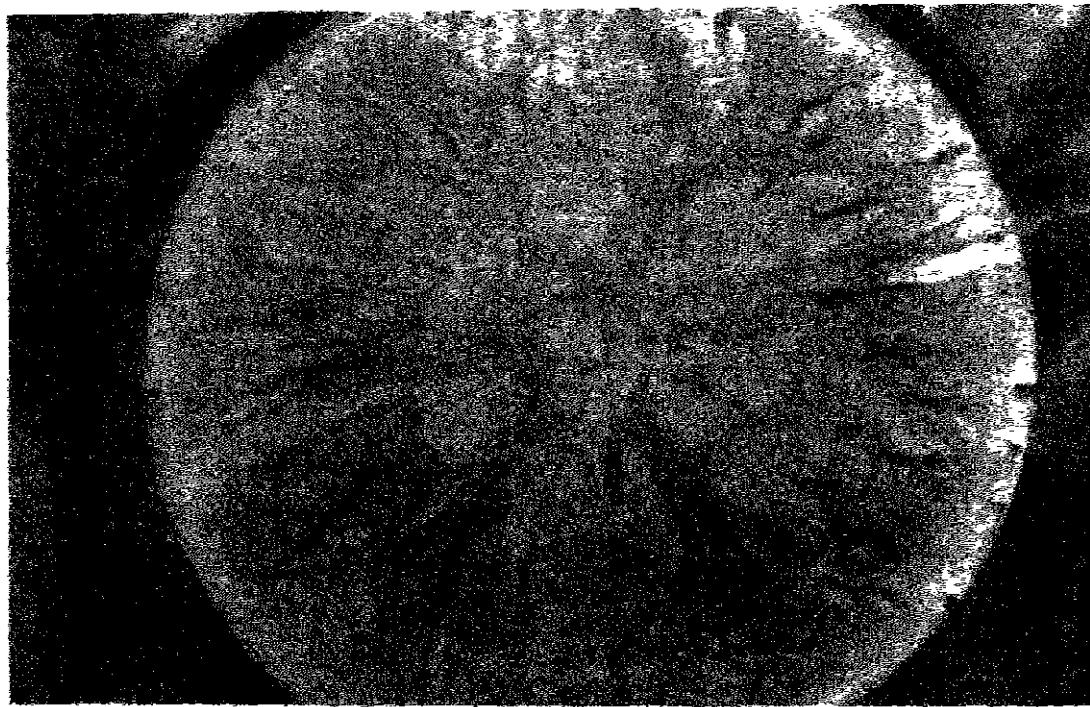
(لوحة رقم ٩٠) : صحن من الخزف ذي البريق المعدني : مصر القرن (٥ - ٦ هـ / ١٢ - ١٣ م)
عن : Bulter (A.), op. cit., Pl. XI.



(لوحة رقم ٩١) : صورة جانبية للصحن السابق .



(لوحة رقم ٩٢) : طبق صغير من فخار الفيوم المطلي . مصر (نهاية القرن ٤ هـ / ١٠١٠ م) محفوظ بمتحف كلية الآثار - جامعة القاهرة رقم السجل (١٤٤٥) .



(لوحة رقم ٩٣) : صحن من فخار القيوم المطلي . بداية العصر الفاطمي . مصر محفوظ بمتحف
كلية الآثار - جامعة القاهرة رقم السجل (١٩٨١) .



(لوحة رقم ٩٤) : قدر من فخار القيومن المطلي . مصر القرن (٦ هـ / ١٢١ م) . محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة عن : Mostafa (M.) , Moslem Ceramics , p.1.

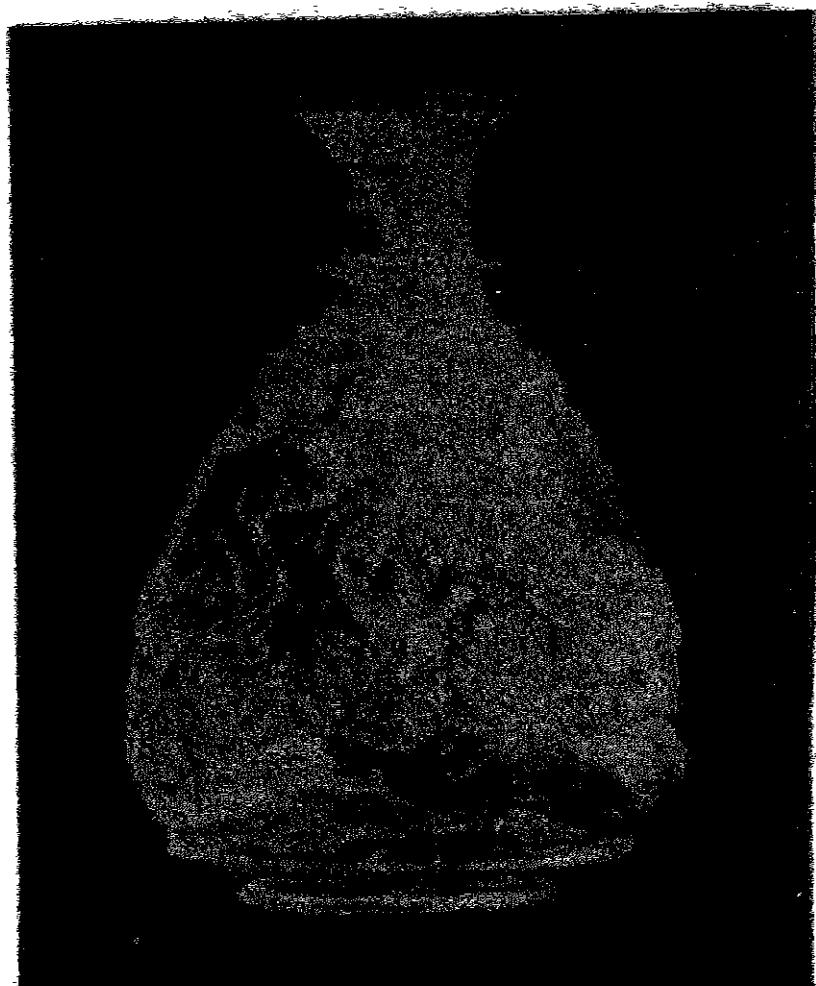


(لوحة رقم ٩٥) : أحد الكؤوس الزجاجية المعروفة باسم كؤوس القدس القديسة هيدوچ مصر القرن (٦
هـ / ١٢ م) عن : . 433 . 5 . *Gluck und Dirz , Die Kunst des Islam*

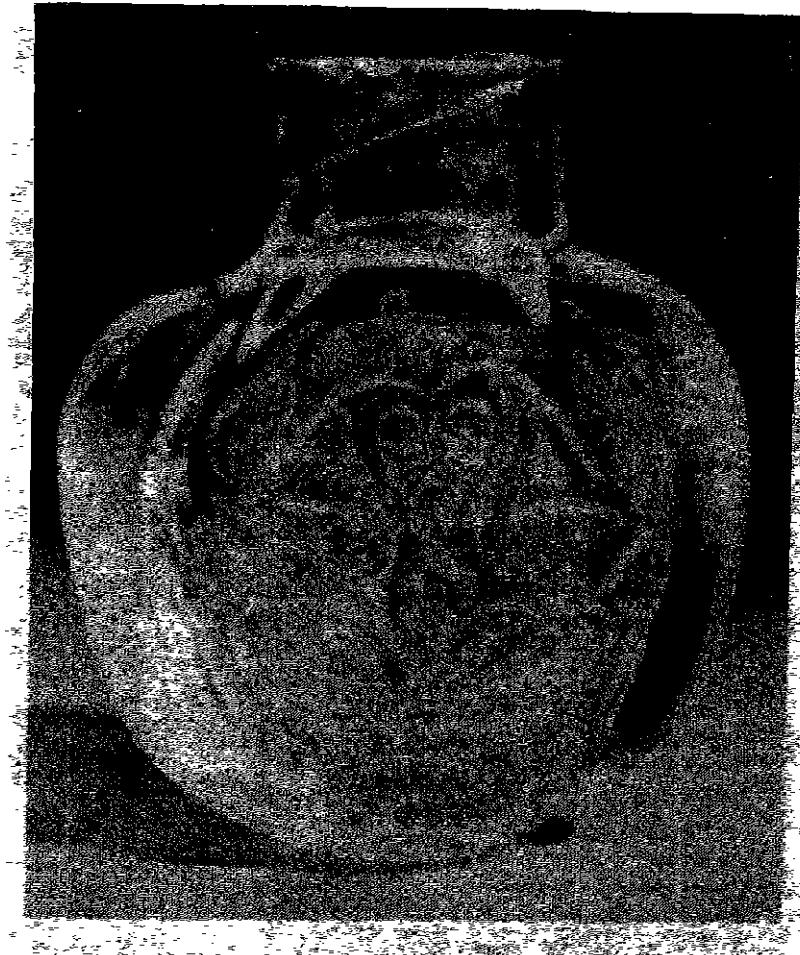


(لوحة رقم ٩٦) : إبريق من البلاور الصخري . مصر القرن (٥ - ١١ م) محفوظ بمتحف اللوفر

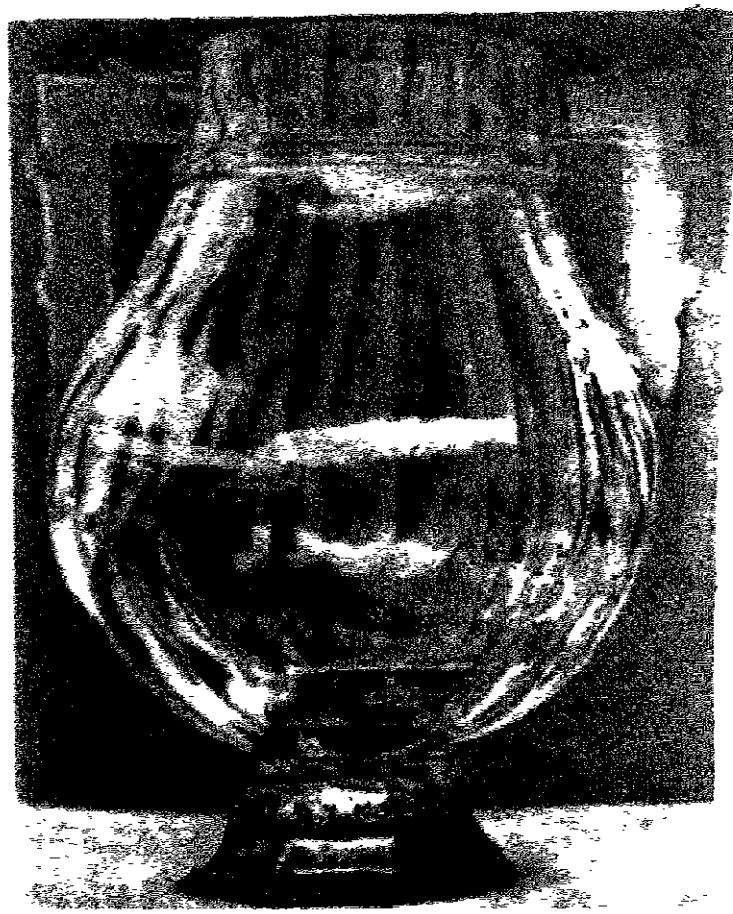
بيان عن : Lamm , Mitteal Terliche Glaser und steinschnittarbeiten aus dem Nahen Osten Band II , T . 65 .



(لوحة رقم ٩٧) : قنية من البلور الصخري . مصر القرن (١١/٥٠ م) عن :
Lamm, op cit. T. 66.



(لوحة رقم ٩٨) : قبضة من البلاط الصخري . مصر الفرعون (٥٠ هـ / ١٤١٠ م) . محفوظة بمتحف الكويت الوطني عن : جنكينز «مارلين» : الفن الإسلامي ص ٦١ .



(لوحة رقم ٩٩) : إبريق على هيئة كمشية من البلور الصخري . مصر القرن (٦ هـ / ١٢ م) كان
محفوظاً بمتحف تاريخ الفن في فيينا بالنمسا عن :
Gluck and Diez, op. cit. T. XXVIII .



(لوحة رقم ١٠٠) : مثبك صغير من الذهب . مصر القرن (٥ هـ / ١١١٧ م) محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة عن : د . أحمد حمدي : معرض الفن الإسلامي في مصر سنة ١٩٦٩ .
لوحة (١) .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

- إبراهيم أحمد العدوى (دكتور):

الدولة الإسلامية وأمبراطورية الروم.

الطبعة الثانية - مكتبة الإنجلو المصرية - القاهرة ١٩٥٨.

- إبراهيم علي طرخان (دكتور):

* نظام الإقطاع الإسلامي في العصور الوسطى إلى نهاية عصر الأيوبيين. رسالة لنيل درجة الماجستير - كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٤٩.

* إمبراطورية غانة الإسلامية.

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧٠.

- ابن الأثير:

. الكامل في التاريخ ج ٧ تعليق عبد الوهاب النجاشي - دار الطباعة المصرية مصر ١٣٥٣ هـ.

جذه المكتبة التجارية الكبرى - مصر ١٩٤٩ م.

- أحمد تيمور (باشا):

المهندسون في العصر الإسلامي القاهرة ١٩٧٩ م.

- أحمد حمدي وآخرون:

دليل معرض الفن الإسلامي في مصر، القاهرة ١٩٦٩.

- أحمد عبد الرزاق (دكتور):

* دراسات في المصادر المملوكية المبكرة - القاهرة ١٩٧٤.

* البذل والبرطلة في عصر سلاطين المماليك - الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٩ ..

- أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) :
الأرض والفلاح في مصر .
مقال بكتاب الأرض والفلاح في مصر على مر العصور - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية -
القاهرة ١٩٧٤ .
- أحمد فخرى (دكتور) :
مصر الفرعونية :
الطبعة الثالثة . الإنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧١ .
- أحمد فكري (دكتور) :
مساجد القاهرة ومدارسها . ج ١ القاهرة ١٩٦٥ . - ج ٢ القاهرة ١٩٦٩ .
- أحمد مختار العيادي (دكتور) :
في التاريخ العباسي والفارطمي - الإسكندرية ١٩٨٢ .
- ابن أبي أصييعه :
عيون الأنبياء في طبقات الأطباء .
شرح وتحقيق: د. رحنا نزار رخا - بيروت ١٩٦٥ .
- أمين سامي ياشا :
تقويم النيل - الجزء الأول - المطبعة الأميرية . القاهرة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .
- الأب إنسناس الكرملي :
العقود العربية وعلم النميات - مطبعة الياس الحديثة - القاهرة ١٩٣٩ م .
- انصاف رياض موسى عبد الهادي :
الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في مصر في العصر الفاطمي الثاني . رسالة ماجستير
مخطوط . كلية الآداب - جامعة المنيا - ١٩٨٠ .
- ابن إيساس :
بدائع الزهور في وقائع الدهور - الجزء الأول - القاهرة ١٣١١ هـ .
- أيمن فؤاد سيد :
نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحي .
مستخرج من حلقات إسلامية - المجلد ١٧ المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨١ .
- بليخانوف (ج) :
تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ . ترجمة: محمد مستجير مصطفى . القاهرة ١٩٧٩ .

- ابن تغري بردي :
النحوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة . الأجزاء : ١ - ٥ طبع دار الكتب.
- تويني (أرنولد) :
مختصر دراسة التاريخ .
- ترجمة : فؤاد محمد شبل ج ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٦ .
- ابن تيمية :
الخصبة في الإسلام . المطبعة السلفية . القاهرة ١٤٠٠ هـ .
- جاردنر (آلن) :
مصر الفراعنة .
- ترجمة : د. نجيب ميخائيل إبراهيم - مراجعة: د. عبد المنعم أبو بكر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .
- جرابار (أولييج) :
الفنون العالمية والمحلية في الإسلام (موضوع الفن في العصر الفاطمي) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس - أبريل ١٩٦٩) الجزء الأول - مطبعة دار الكتب ١٩٧٠ .
- جمال الدين الشيال (دكتور) :
* مجموعة الوثائق الفاطمية - المجلد الأول - وثائق الخلافة وولاية العهد الوزارة - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٥٨ .
* تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي . دار المعارف - القاهرة ١٩٦٧ م .
- جمال حمدان (دكتور) :
* دراسات في العالم العربي . دار النهضة المصرية ١٩٥٨ .
* شخصية مصر دراسة في عصرية المكان - الجزء الأول - عالم الكتب - القاهرة ١٩٨٠ م .
- جمال محمد محزز (دكتور) :
* الخزف الفاطمي ذو البريق المعدني ، في مجموعة الدكتور علي إبراهيم باشا مستخرج من مجلة كلية الآداب - المجلد السابع - يوليو سبتمبر ١٩٤٤ .
* منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط .
أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس - أبريل ١٩٦٩) مطبعة دار الكتب - القاهرة ١٩٧٠ .
- جنكينز (مارلين) :
الفن الإسلامي في متحف الكويت الوطني (مجموعة الصباح) لندن ١٩٨٣ .

- ابن الجوزي:
المتنظم في تاريخ الملوك والأمم.
الأجزاء: (٧، ١٠) مطبعة دارة المعارف العثمانية بعاصمة حيدرآباد. الدكن (١٣٥٨هـ).
الأجزاء: (٩، ٨) (١٣٥٩هـ).
- حسن إبراهيم حسن (دكتور):
القاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص. المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٢.
- حسن إبراهيم حسن (وآخرون):
المجمل في التاريخ المصري. القاهرة ١٩٤٢.
- حسن الباشا (دكتور):
* الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ج ١ القاهرة ١٩٦٥.
* فنون التصوير الإسلامي في مصر. ج ١ القاهرة ١٩٧٣.
* الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والأثار. ج ١ القاهرة ١٩٧٨.
* مدخل إلى الآثار الإسلامية. ج ١ القاهرة ١٩٧٩.
- حسن الباشا (وآخرون):
القاهرة تاريخها - فنونها - آثارها. القاهرة ١٩٧٠.
- حسن حشبي:
الحرب الصليبية الأولى. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٧.
- حسن حسني عبد الوهاب:
ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا التونسية. ج ١ مكتبة المنار - تونس ١٩٦٤.
- حسن سليمان محمود:
الصلحيون في اليمن وعلاقتهم بالقاطميين في مصر. رسالة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٥٢.
- حسن عبد الوهاب
تاريخ المساجد الأخرى: جزءان. القاهرة ١٩٤٦.
- ابن خلkan:
وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان. تحقيق: محمد محبي الدين عبد الحميد. الجزء الأول. مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨.
- ابن دعمق:
الانتصار لواسطة عقد الأمصار. الجزء الرابع، المطبعة الأميرية، ببولاق ١٣٠٩هـ.

- ديماند (م. س) :
الفنون الإسلامية . ترجمة : أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٤ .
- الذهبي :
تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام . دار الكتب المصرية . رقم ٤ تاريخ .
- راشد البراوي (دكتور) :
* حالة مصر الفاطمية في عهد الفاطميين - مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .
- رمزي ذكي (دكتور) :
مشكلة التضخم في مصر . الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ .
- ابن الزبير :
كتاب الذخائر والصحف . تحقيق د. محمد حميد الله . الكويت ١٩٥٩ .
- زكي محمد حسن (دكتور) :
* كنوز الفاطميين . القاهرة ١٩٣٧ .
* فنون الإسلام . القاهرة ١٩٤٨ .
* أطلس الفنون، الزخرفية وال تصاویر الإسلامية القاهرة ١٩٥٦ .
- ابن الزيات :
الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة . بغداد ١٩٧٥ .
- سعاد ماهر محمد (دكتورة) :
* محافظات الجمهورية العربية المتحدة وأثارها الباقية في العصر الإسلامي . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة ١٩٦٦ .
* مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . ج ١ القاهرة ١٩٧١ .
* آثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة في العصر الفاطمي . ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس - أبريل ١٩٦٩) .
الجزء الثاني دار الكتب ١٩٧١ .
- ابن سعيد الأندلسي :
المغرب في حل المغارب . تحقيق: د. زكي محمد محسن وآخرون . الجزء الأول: من القسم الخاص بمصر . مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية .
المجلة التاريخية المصرية - المجلد السادس عشر القاهرة ١٩٧٩ .

- السيد الباز العريني (دكتور):
 - الحسبة والمحاسبون في مصر.
 - المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثالث، العدد الثاني. أكتوبر ١٩٥٠.
- السيد عبد العزيز سالم (دكتور):
 - تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي. الإسكندرية ١٩٨٢.
 - السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي:
 - تاريخ البحرينة الإسلامية في مصر والشام. بيروت ١٩٧٢.
- سيدة إسماعيل الكاشف (دكتورة):
 - * مصر في عصر الإخشيديين. الطبعة الثانية. دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٧٠.
 - * الأرض والفلاح في مصر الإسلامية: ضمن كتاب الأرض والفلاح في مصر على مر العصور. الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٤.
 - * مصر في عصر الولاة. الألف كتاب ٢٤١ القاهرة بدون تاريخ.
- السيوطي:
 - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. ج ٢ - المطبعة الشرفية - القاهرة ١٣٢٧ هـ.
- أبو شامة:
 - الروضتين في أخبار الدولتين. جزءان. مطبعة وادي النيل. القاهرة ١٢٨٧، الثاني ١٢٨٨.
- أبي صالح الأرمني:
 - تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني. المطبعة المدرسية بأكسفورد ١٨٩٥ م.
- صلاح الدين البحيري (دكتور):
 - * نحو منهج تحليلي وانساني في دراسة الإركيولوجيا. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. العدد الرابع - المجلد الأول. الكويت ١٩٨١.
 - * عالمية الحضارة الإسلامية وظاهرها في الفنون.
 - حوليات كلية الأداب - جامعة الكويت - الحلقة الثالثة ١٩٨٢.
 - صلاح الدين خودابخش:
 - حضارة الإسلام.
 - ترجمة: علي حسن الخريوطلي. بيروت ١٩٧١.
- صبحي لبيب:
 - التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى.
 - المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع. العدد الثاني. مايو سنة ١٩٥٢.

- ابن الصيرفي:
الإشارة إلى من نال الوزارة. تحقيق: عبد الله مخلص.
مجلة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - المجلد ٢٥ القاهرة ١٩٢٤.
- ابن العبري:
مختصر تاريخ الدول. بيروت ١٨٩٠ م.
- عطية أحمد محمود القوصي (دكتور):
تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية. ٦٥٦ هـ.
رسالة دكتوراه - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٣ م.
- عطية مصطفى مشرفة (دكتور):
نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٤٨.
- عبد الرحمن زكي (دكتور):
* القاهرة تاريخها وأثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ. القاهرة ١٩٦٦.
* الأزهر وما حوله من الآثار. القاهرة ١٩٧٠.
* قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار. القاهرة ١٩٧٢.
- عبد الرحمن فهمي محمد (دكتور):
* مجموعة النقد العربية وعلم النمئيات (فجر السكة العربية) طبع دار الكتب ١٩٧٥.
* إضافات جديدة في مسكونات الفاطميين:
مستخرج من مجلة المجمع العلمي المصري - المجلد ٥٢ موسم ١٩٧١/١٩٧٠.
* النقد العربية ماضيها وحاضرها.
المكتبة الثقافية ١٠٣. القاهرة ١٩٦٤.
- عبد العزيز الدوري (دكتور):
مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي.
دار الطليعة. بيروت ١٩٦٩.
- عبد العزيز صالح (دكتور):
* الشرق الأدنى القديم. الجزء الأول. مصر والعراق. الطبعة الثانية. الأنجلو المصرية ١٩٧٣.
* الأرض والفلان في مصر الفرعونية: مقالة بكتاب الأرض والفلان على مر العصور. المجلة المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٤.
- عبد المنعم ماجد (دكتور):
* السجلات المستنصرية. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٥٤.

- * الحاكم بأمر الله - الخليفة المفترى عليه. الأنجلو المصرية . ١٩٥٩ .
- * ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر. دار المعارف بالإسكندرية . ١٩٦٨ .
- * نظم الفاطميين ورسومهم في مصر. الجزء الأول - الطبعة الثانية الأنجلو المصرية - ١٩٧٣ .
- * امرأة مصرية تتزعم مظاهره في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي : المجلة التاريخية المصرية . المجلد ٢٤ القاهرة . ١٩٧٧ .
- عبد الله الشرقاوي : تحفة الناظرين فيمن ولّ مصر من الولاة والسلطين . ١٩٢٢ .
- عبد المنعم رسلان (دكتور) : الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا . دار تهامة - السعودية . ١٩٨٠ .
- علي بن حسين السليماني : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك . القاهرة ١٩٧٣ م .
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ج-٣ ، ٤ مكتبة القدس . القاهرة ١٤٥٠ هـ .
- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة : ٣ أجزاء . دمشق ١٩٤٩ .
- عمر طوسون : كتاب مالية مصر في عهد الفراعنة إلى الآن . الإسكندرية ١٩٣١ .
- أبو الفدا : البداية والنهاية . الجزء الحادي عشر والثاني عشر . مطبعة السعادة . مصر ١٩٣٩ .
- فرانكفورت (هترى) : فجر الحضارة في الشرق الأدنى . ترجمة: ميخائيل خوري . بيروت ١٩٦٥ .
- فريد شافعى (دكتور) :
- * العمارة العربية في مصر الإسلامية - المجلد الأول: عصر الولاة . القاهرة . ١٩٧٠ .
- * مميزات الأخشاب المزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر - مجلة كلية الآداب -

جامعة القاهرة - المجلد السادس عشر. الجزء الأول . ١٩٥٤ .

- فهيمي هويدى :

الإسلام في الصين . عالم المعرفة . العدد ٤٣ . الكويت ١٩٨١ .

- فييت (جاستون) :

* المراسلات في مصر في العصور الوسطى ترجمة محمد وهبي .

* القاهرة مدينة للفن والتجارة . ترجمة : مصطفى العبادي . بيروت ١٩٧٨ .

- قاسم حبله قاسم (دكتور) :

اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني . بيروت ١٩٨٠ .

- ابن القلansi :

ذيل تاريخ دمشق .

مطبعة الآباء اليسوعيين . بيروت ١٩٠٨ .

- القلقشندي :

صحيح الأعشى في صناعة الإنسا .

الجزء الأول . طبع دار الكتب ١٩٢٢ الجزء الثالث والرابع .

المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤ الجزء الثامن دار الكتب ١٩١٥ .

- كمال الدين سامح (دكتور) :

العمارة الإسلامية في مصر . القاهرة ١٩٧٠ م .

- لومبار (موريس) :

الأسس التقنية للسيادة الاقتصادية - الذهب الإسلامي منذ القرن السابع إلى القرن الحادى عشر الميلادى .

ترجمة : توفيق إسكندر . ضمن بحوث في التاريخ الاقتصادي . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة ١٩٦١ .

- لويس (أرشيبالد) :

القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠ م)

ترجمة : أحمد محمد عيسى . مراجعة : محمد شفيق غربال . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .

- لينبول (ستانلي) :

سيرة القاهرة

ترجمة : حسن إبراهيم حسن وآخرون . النهضة المصرية ١٩٥٠ .

- متز (ادم) :
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .
ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريده . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م.
- محسن خليل :
في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي . بغداد ١٩٨٢ .
- محمد حمدي المناوي (دكتور) :
* نهر النيل في المكتبة العربية . القاهرة ١٩٦٦ .
* الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي . دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .
- محمد جمال الدين سرور (دكتور) :
* التفود الفاطمي في جزيرة العرب . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٥٠ .
* التفود الفاطمي في بلاد الشام وال العراق - الطبعة الثانية . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٥٩ .
* سياسة الفاطميين الخارجية . دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٧ .
* الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٧٠ .
- محمد عبد الله عنان :
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . الطبعة الثانية . مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٦٩ .
- محمد عبد العزيز مرزوق (دكتور) :
الزخرفة المنسوجة . دار الكتب ١٩٤٢ .
- محمد عبد الحجاجي :
قوص في التاريخ الإسلامي القاهرة ١٩٨٢ .
- محمد علي الفرا (دكتور) :
مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي .
سلسلة عالم المعرفة . العدد ٢١ الكويت ١٩٧٩ .
- محمد عوض محمد :
نهر النيل . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٥٦ .
- محمد الغزالى :
تحفة الخليل في أخبار مصر والنيل .
مخطوطة مصورة بمعهد المخطوطات العربية . رقم ٦١١ . ونسخة بمكتبة جامع الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية .

- محمد أبو الفرج العشي:
مصر، القاهرة على النقد العربية الإسلامية.
ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة. (مارس - أبريل ١٩٦٩)، القاهرة ١٩٧١.
- محمد مصطفى (دكتور):
متحف الفن الإسلامي. (دليل موجز). القاهرة ١٩٧٩.
- محمود إبراهيم حسين:
* التصوير الإسلامي في مصر في العصر الفاطمي على الورق والجدران والخزف والجاج. رسالة ماجستير. كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٧٥.
- * أعلام المصورين المسلمين وأشهر أعمالهم الفنية.. مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٢.
- محمود عكوش:
تاريخ ووصف الجامع الطولوني - القاهرة ١٩٩٧ ..
- المسبيحي:
أخبار مصر الجزء الرابع. تحقيق: أيمن فؤاد السيد، تياري بيانكي. المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. القاهرة ١٩٧٧.
- مصطفى العبادي (دكتور):
الأرض والفلاح في مصر الرومانية.
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. القاهرة ١٩٧٤.
- المقرizi:
* الأوزان والأكيال الشرعية نشره Rostochu 1800 - Tychsen
- * المواحظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. جزءان طبعة جديدة بالأوفست. مؤسسة الحلى.
- * اتعاظ الجنفا بأبحاث الأئمة الفاطميين الخلفاء.
الجزء الأول. تحقيق: د. جمال الدين الشيال. دار الفكر العربي ١٩٤٨.
- الجزء الثاني: تحقيق: د. محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٧١.
- الجزء الثالث تحقيق: د. محمد حلمي. القاهرة ١٩٧٣.
- * إغاثة الأمة بكشف الغمة. دار الوليد - حمص.
- * شذور العقود في ذكر النقود. الطبعة الخامسة. تحقيق: محمد السيد علي. بحر العلوم - العراق ١٩٦٧ .
- ابن منظد:
كتاب الاعتبار. تصحيح: هـ . توبيغ درenburg . مطبعة بريل - ليدن ١٨٨٤ .

- ابن ميسر :

أخبار مصر. ج ٢ تصحیح : هنری ماسیه .
مطبعة المعهد العلمي الفرنسي . القاهرة ١٩١٩ .

- سورلا بيه (فرانس) وكولینز (جوزيف) :

صناعة الجوجو و(خرافة الندرة). ترجمة : أحمد حسان .
سلسلة عالم المعرفة . العدد ٦٤ . الكويت ١٩٨٣ .

- مؤلف مجهول :

إنسان العيون في مشاهير سادس القرون .
مخطوط بدار الكتب رقم ٩١٩ تاريخ تمور .

- مؤلف مجهول :

شرح اللمعة من أخبار المعز لدین الله وتسیر عساکره إلى مصر .
مخطوط بكلية جامعة القاهرة . رقم ٢٤٠٢٢ .

- ناصر خسرو علوی :

سفر نامة . ترجمة وتعليق : د. يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٤٥ .

- نيلة محمد أحمد جبرة :

الخدمات الطبية في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني . رسالة لنيل درجة .
الماجستير - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٨٢ .

- هتنس (فالتر) :

المكابيل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى . ترجمة عن الألمانية : د. كامل
العلبي .

منشورات الجامعة الأردنية . عمان . ١٩٧٠ .

-- ويلسون (جون) :

الحضارة المصرية . ترجمة : أحمد فخرى ١٩٥٥ .

ثانياً: المراجع الأجنبية

- **Ashtor (E.):**

Les Metaux Précieux et la Balance des payement du proche - Orient à la Basse Epoque.
Paris 1971.

- **Balog (P.):**

History of the Dirhem in Egypt from the Fatimid conquest until the collapse of the Mam-luk Empire. R.N. VIe série 1976.

- **Bernt - jes (B.):**

Die Araber. West Germany 1971.

- **Brochelmann (C.):**

History of the Islamic Peoples. London 1980.

- **Butler (A.J.):**

Islamic Pottery. London 1926.

- **Casanova (p.):**

Inventaire Sommair de la collection des Monnaies Musulmanes. Paris 1896.

- **Combe, Sauvaget (J.), Wiet (G.):**

Répertoire Chorologique d'Epigraphie Arabe. Tomes 6 - 9 Le Caire (1935 - 1937).

- **Creswell (K.A.C.):**

Moslem Architecture of Egypt. Vol. I Oxford 1952.

- **Du Ry (C. J.):**

Die Welt des Islam. Germany 1970.

- **Ehrenkrentz (A.):**

- Arabic Dinars Struck by the crusaders
- Journal of economic and social History of orient. Vol VII, Part II, 1964.
— The standard of fineness of western and eastern Dinars before the crusades.

- Studies in the monetary history of the near east in the middle ages II.

- **Glück (H.) Und Diz (E.):**

Die Kunst des Islam. Berlin 1925.

- **Goitein (S.):**
Studies in Islamic History and Institutions. Leiden 1968.
- **Grohmann (A.):**
Arabic Papyri in the Egyptian Library. Vols. II, VI. Cairo 1930, 1962.
- **Hautecœur (L.) et Wiet (G.):**
Les Mosquées du Caire. 2 Tomes. Paris 1932.
- **Hennequin (G.):**
Points de vue sur L'Histoire Monétaire de L'Egypte Musulmane au Moyen Âge. (AI 13, 1977).
- **Islamic Coins:**
Auction 32, 20 th October 1962 in Zurich.
- **Islamic Coins:**
Auction 62, October 9th 1982.
Muzeum Und Medaillen A. G. Basel.
- **Koechlin (R.) Und Migeon (G.):**
Islamische Kunstwerke. Germany 1928.
- **Klein (A.):** Islamische Keramik.
W. Germany 1973.
- **Kühnell (E.):**
Islamische stoffe. Berlin 1927.
- Lamm (C.J.):**
Mittealterliche Gläser und Steinchnittarbeiten aus dem Noherr Osten. Band II, Berlin 1929.
- **Lane (A.):**
Early Islamic Pottery. London 1953.
- **Lane - Poole (S.):**
 - The coinage of Egypt (A.H. 358 - 922) London 1879.
 - Catalogue of the collection of Arabic coins. London 1897.
- **Lavoix (H.):**
Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale. Egypte et Syrie Vol. III, Paris 1896.
- **Lewis (B.):**
 - The Cambridge History of Islam. Vols, 1, 2. London 1970.
 - Islam from the prophet Muhammed to the capture of Constantinople, Vols, 1, 2, New York 1974.
- **Mann (J.):**
The Jews in Egypt and in Palestine under the fatimid Caliphs. 2 Vols. Oxford 1920.
- **Miles (G.):**
Fatimid Coins. New York 1951.

- **Mostafa (M.):**
Moslem Ceramics. Cairo 1956.
- **Musée de L'art Arabe du Caire:**
La Ceramique Egyptienne de l'époque Musulmane, Le Caire 1922.
- **Newbiggin (M.):**
The Mediterranean Lands. London 1933.
- **Nicol (N.):**
El Nabarawy (R.); Bachorach (J.): Catalogue of the Islamic coins, Glass Weights, Dies and Medals in the Egyptian National Library, Cairo. U.S.A.1982.
- **Porteous (J.):**
Coins in History. London 1969.
- **Riviria (G.):**
Moslem Architecture. Oxford 1918.
- **Wiet (G.):**
Stèles Funéraires
Catalogue Général du Musée Arabe du Caire, Tome 2, Le Caire 1930.
- **Wüstenfeld (F.):**
Geschichte der Fatimiden - Cholifen Nach Arabischen Quellen.
Aus dem 26 und 27 Bande der Abhandlungen der königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen. Göttingen 1981.
- **Ziya (Ahmed):**
Catalogue of Aslamic Coins. Condtantinople 1910.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم الأستاذ الدكتور حسن الباشا
٩	تمهيد
١٣	المقدمة
٢٣	الفصل الأول : المجموعات في العصر الفاطمي وأسبابها
٧٣	الفصل الثاني : النتائج السياسية والاجتماعية للمجموعات
١٣٣	الفصل الثالث : النتائج المالية والتقدمية للمجموعات
١٩٩	الفصل الرابع : تأثير المجموعات على العمارة والفن
٢٣٧	الخاتمة
٢٤١	الملاحق
٢٥٦	بيان لوحات المسكوكات
٢٧٦	بيان وصور لوحات الفنون
٢٩٥	قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية